المشروع الوطني للترجمة
99
العلوم الإنسانية

وزارة الثقافة
الهيئة العامّة السورية للكتاب

زمنُ النهاية

النُّخَب، والنُّخَب المُضادّة، والمسار المُفضي إلى التفكُّك

تـأليف: بيتر تيرشن
ترجمة: د. نايف الياسين

زمنُ النهاية

النُّخب، والنُّخب المُضادَّة، والمسار المُفضي إلى التفكُّك

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة ديالا بركات
وزيرة الثقافة

المشرف العام
د. نايف الياسين
المدير العام للهيئة العامّة السوريّة للكتاب

رئيس التحرير
د. باسل المسالمة

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

زمنُ النهايـة

النُّخَب، والنُّخَب المُضادّة، والمسار المُفضي إلى التفكُّك

تـأليف: بيتر تيرشن
ترجمة: د. نايف الياسين

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

End Times: Elites, Counter-Elites, and the Path to Political Disintegration

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

زمنُ النهاية: النُّخَب، والنُّخَب المُضادّة، والمسار المُفضي إلى التفكُّك ؛ تأليف: بيتر تيرشن؛ ترجمة: د. نايف الياسين.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م.- ٣٥٢ص؛ ٢٥سم. - (المشروع الوطني للترجمة؛ العلوم الإنسانية؛ ٩٩).

١ - ٣٢٠ هـ ت ي ر ز ٢ - العنوان ٣- تيرشن ٤ - الياسين
٥ - السلسلة

المكتبة الوطنية

تمهيد

التاريخ ليس "مجرد شيء لعين بعد شيء لعين آخر،"[1] كما قال المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) ذات مرة رداً على أحد منتقديه. ولوقت طويل، كان رأي توينبي رأي الأقلية. إذ أصر المؤرخون والفلاسفة، بمن فيهم شخصيات شهيرة مثل كارل بوبر (Karl Popper)، بقوة، على أن وجود علم للتاريخ أمر مستحيل، فمجتمعاتنا أكثر تعقيداً، والبشر أكثر زئبقيّةً مما يمكن أن يحيط به علم، كما لا يمكن التنبؤ بالتقدم العلمي، والثقافة أكثر تنوُّعاً في الزمان والمكان مما يمكن معالجته علمياً، فكوسوفو مختلفة عن فيتنام تماماً، ولا يمكن لأميركا قبل الحرب الأهلية أن تنبئنا بشيء عن أميركا في عشرينيات القرن الحادي والعشرين. لقد كان هذا، ولا يزال، الرأي الذي يحظى بقبول الغالبية.

آمل أن يقنعكم هذا الكتاب بأن هذا الرأي خطأ، فوجود علم للتاريخ ليس ممكناً فحسب، بل إنه مفيد أيضاً؛ إذ إنه يساعدنا في التنبؤ بالكيفية التي يمكن بها للخيارات الجماعية التي نتخذها في الحاضر أن توفر لنا مستقبلاً أفضل.

بدأت مسيرتي الأكاديمية في ثمانينيات القرن العشرين بصفتي عالم بيئة؛ وكنت أكسب عيشي من دراسة ديناميكيات حياة مجموعات الخنافس، والفراشات، والفئران، والغزلان. كان ذلك الزمن الذي حدثت فيه ثورة في مجال البيئة الحيوانية بوساطة النمو السريع في قوة معالجة أجهزة الحاسوب. لم يكن لديّ أي حساسية نحو الرياضيات، ولذلك رحبت بالتحول من هذا المجال الدراسي إلى علم التعقيد، الذي يمزج النمذجة الحاسوبية بوسائل تحليل البيانات الكبرى للإجابة عن أسئلة مثل: لماذا يمر كثير من المجموعات الحيوانية بدورات من

١- لمراجعة أصول هذا الاقتباس، انظر https://quoteinvestigator.com/2015/09/16/history/.

الازدهار والانحدار؟ لكن في أواخر تسعينيات القرن العشرين، شعرت بأننا كنا قد أجبنا عن غالبية الأسئلة المثيرة للاهتمام التي دخلتُ هذا الميدان للعمل عليها، وببعض التهيُّب، بدأت أفكر في كيفية تطبيق مقاربة علم التعقيد نفسها على دراسة المجتمعات البشرية، سواء في الماضي أو في الحاضر. بعد ربع قرن، بنينا، أنا وزملائي، في هذا المشروع مجالاً مزدهراً يُعرف بالكليوديناميكا (cliodynamics) (والاسم مشتق من كليو، وهو اسم عروس التاريخ في الأسطورة اليونانية، والديناميكا، علم التغيير).[1] واكتشفنا أن ثمة أنماطاً مهمة متكررة، نستطيع ملاحظتها طوال التاريخ البشري على مدى العشرة آلاف سنة الماضية. جدير بالملاحظة أنه على الرغم من جملة الاختلافات، فإن المجتمعات البشرية المعقدة، في أساسها وعلى مستوى مجرد إلى حد ما، منظمة طبقاً للمبادئ العامة نفسها. من أجل المتشككين وأولئك الفضوليين فحسب، ضمَّنت هذا الكتاب سرداً عاماً مفصلاً عن الكليوديناميكا في ملحق في نهاية هذا الكتاب.

منذ البداية، ركَّزنا، أنا وزملائي، في هذا المجال الجديد على دورات التكامل والتفكك السياسي، ولا سيما على تشكل الدول وانهيارها. ويمكننا القول إن هذا هو المجال المحدد الذي كانت نتائج ميداننا فيه أكثر قوة -ويمكننا القول أيضاً إنها كانت الأكثر إزعاجاً. بدا واضحاً لنا بالتحليل التاريخي الكمي أن المجتمعات المعقدة في كل مكان تتأثر بموجات متكررة، ويمكن التنبؤ بها إلى درجة معينة من عدم الاستقرار السياسي، تُحدثها مجموعة القوى الأساسية نفسها الموجودة على مدى آلاف السنوات من التاريخ البشري. تنبهت قبل بضع سنوات، على افتراض أن النموذج سليم، وأننا نتوجّهُ مباشرة إلى عين عاصفة

١- مجال بحثيّ متعدد الاختصاصات أطلقه تيرشن وزملاؤه، يدمج التطور الثقافي، والتاريخ الاقتصادي، وعلم الاجتماع الكلي، والنمذجة الرياضية للعمليات التاريخية على مدى مراحل زمنية طويلة، وبناء قواعد البيانات التاريخية وتحليلها، إضافة إلى الكليومتريكا، وهي تقنية لتفسير التاريخ الاقتصادي تعتمد على التحليل الإحصائي للبيانات الرقمية الكبيرة جداً، من تعداد السكان، والسجلات المدنية، وما إلى ذلك. (م)

أخرى. في عام ٢٠١٠، طلبت مجلة نيتشر (*Nature*) من مختصين في مجالات مختلفة دراسة السنوات العشر القادمة، فقدمت نظريتي بوضوح تام، قائلاً إني أجد من دراسة نمط التاريخ الأميركي أننا متوجهون إلى ارتفاع حاد في مستوى عدم الاستقرار في مطلع عشرينيات القرن الحادي والعشرين. للأسف، لم يُثبَتْ عكسُ ما جاء في نموذجي في السنوات الفاصلة. ويمثل الكتاب الذي تقرؤونه أفضل جهودي لشرح هذا النموذج بلغة يمكن فهمها، بمعنى أنها غير رياضية، وهو يبني على الكم الهائل من العمل المهم الذي نُفِّذَ في ميادين مختلفة؛ ومن ثَـمّ فإني لا أدعي أي أصالة جذرية. ما سأقوله هو أن علينا جميعاً أن نستمد الشجاعة من حقيقة أن المجتمعات وصلت إلى مفترق الطرق هذا من قبل، وعلى الرغم من أنه في بعض الأحيان (بل حتى في غالبية الأحيان) أفضى الطريق إلى موت أعداد كبيرة وانهيار مجتمعي، فإنه أدى في أحيان أخرى إلى تسوية أسعد لغالبيّة البشر الضالعين في العملية.

ماهذا النموذج إذاً؟ إذا شئنا التعبير عن ذلك بفجاجة، قلنا إنه حين تعاني دولة، مثل الولايات المتحدة، من ركود أو تراجع في الأجور الحقيقية (الأجور بالدولار بعد تعديلها لأخذ التضخم في الاعتبار)، وفجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء، وإفراط في إنتاج الخريجين الشباب الذين يحملون درجات علمية عليا، وتراجع في الثقة العامة، وانفجار في الدَّينِ العام، فإن هذه المؤشرات الاجتماعية، التي تبدو متفرقة، مرتبطة فعلياً بعضها ببعض ديناميكياً. لقد شكّلت مثل هذه التطورات تاريخياً مؤشرات رئيسة على حدوث عدم استقرار سياسي وشيك. في الولايات المتحدة، بدأت هذه العوامل جميعاً باتخاذ شكل ينذر بعواقب وخيمة في سبعينيات القرن العشرين. أشارت البيانات إلى أن سنوات عشرينيات القرن الحادي والعشرين ستكون الوقت الذي يُتوَقَّعُ فيه أن يُحدِثَ تضافرُ هذه النزعات ارتفاعاً حاداً في عدم الاستقرار السياسي. وها نحن أولاء في هذه السنوات.

ما من شك في أن أميركا في أزمة، على الرغم من أننا نختلف بمرارة بعضنا مع بعض حين يتعلق الأمر بتفسير تلك الأزمة، فبعض الناس يُحمّلون المسؤولية

للعنصريين، معتنقي فكرة تفوُّق العرق الأبيض، وللآخرين "الذين يرثى لحالهم" الذين صوتوا لترامب. آخرون يحمِّلون المسؤولية لأنتيفا (الحركة اليسارية المعادية للفاشية والعنصرية في الولايات المتحدة)، والدولة العميقة، و"المنحطّين الليبراليين". الأشخاص الهامشيون المصابون بجنون الارتياب يتخيلون أن وكلاء الصين الشيوعية اخترقوا الحكومة الأميركية على مستوياتها كافّة، أو، بدلاً من ذلك، يرون اليد الخفية لفلاديمير بوتين تحرك دميتها ترامب. وفي هذه الأثناء، ليس هناك فهم يُذكَر للأسباب العميقة لعصر الخلاف الذي نعيش فيه.

هناك حقاً "قُوىً خفيّةٌ" تدفع أميركا إلى حافة الحرب الأهلية – وربما إلى أبعد من ذلك. إلّا أن الحقيقة لا تكمن في المؤامرات التي تحوكها مجموعات محلية أو عملاء أجانب يعملون في الخفاء، بل إن التفسير أبسط وأكثر تعقيداً في الوقت نفسه. إنه أبسط لأننا لسنا في حاجةٍ إلى بناء هياكل نظرية مفصّلة "للربط بين النقاط" وإسناد دوافع شريرة إلى الجهات الفاعلة. في الواقع، إنَّ المعلومات التي نحتاجُ إليها لفهم مأزقنا متاحة للجميع، وليست موضعَ شكّ.

إنّ الجزء الأكبر مما نحتاج إلى معرفته لا يتعلق بألاعيب أفراد أشرار أو فاسدين، بدلاً من ذلك، علينا أن ننظر إلى البيانات الكبرى المتَّفق عليها على نطاق واسع بشأن الأجور، والضرائب، والناتج المحلي الإجمالي، والمسوح الاجتماعية التي تجريها وكالات ومنظمات حكومية مثل غالوب (Gallup). تُدخَل هذه البيانات في التحليلات الإحصائية التي ينشرها علماء الاجتماع في الدوريات الأكاديمية، وهنا يكمنُ سببُ أنَّ التفسيرَ الذي يُقدِّمُهُ هذا الكتابُ أكثر تعقيداً. إننا في حاجة، دون مواربة، إلى علم التعقيد لفهم جميع البيانات والتحليلات. يستحضر المنظّرون والسياسيون في كثير من الأحيان "دروس التاريخ". المشكلة أن السجل التاريخي غني، ويمكن لكل منظّر أن يجد بسهولة حالات فيه تدعم الجانب الذي يفضله في أي مناظرة بشأن السياسات. من الواضح أن الاستدلال من هذه الأمثلة "المنتقاة" ليس بمنهج سليم.

الكليوديناميكا مختلف؛ فهو يستعمل طرائق علم البيانات، ويعالج السجل التاريخي، الذي جمعته أجيال من المؤرخين، على أنها بيانات كبرى. وهو يستعمل النماذج الرياضية لتتبع الشبكة المعقدة للتفاعلات بين مختلف "الأجزاء المتحركة" للأنظمة الاجتماعية المعقدة التي تتكون منها مجتمعاتنا. الأمر الأكثر أهمية، أن الكليوديناميكا يستعمل المنهج العلمي، الذي تخضع فيه النظريات البديلة لاختبارات عملية مع البيانات.

إذاً، ما الذي يُنبِّئُنا به الكليوديناميكا بشأن زمن المشكلات الراهن الذي نعيشه؟ يتبين أنه منذ ظهرت أولى المجتمعات المعقدة المنظمة في شكل دول – قبل نحو خمسة آلاف عام - وبصرف النظر عن مدى نجاحها المؤقت، فإنها جميعاً تواجه مشكلات في النهاية. وتمر جميع المجتمعات المعقدة في دورات لمدد متناوبة من السلام والانسجام الداخليين تقطعهما على نحو دوري اندلاعات للحروب الأهلية والخلاف.

ويُعدُّ السرد الذي أقدمه محاولة لتفسير كيف أن القوى الاجتماعية غير الشخصية تدفع المجتمعات إلى حافة الانهيار وما بعد الانهيار. وسأبحث عبر التاريخ البشري عن أمثلة، لكن هدفي الرئيس يتمثل في الحديث عن الكيفية التي انزلقنا فيها إلى عصر الخلاف الذي نعيشه راهناً باستعمال الولايات المتحدة التي أركز عليها في عملي التجريبي. وبالنظر إلى أنّ للأزمة جذوراً تاريخية عميقة، سيتعين علينا العودة بالزمن إلى حقبة 'الصفقة الجديدة' (The New Deal)، لمّا أصبحَ عقدٌ اجتماعي غيرُ مكتوب جُزءاً من الثقافة السياسية الأميركية. وازنَ هذا العقد الضمني وغير الرسمي بين مصالح العمال، والشركات، والدولة بطريقة مشابهة للاتفاقات الثلاثية الصريحة في البلدان الشمالية (Nordic countries).[1] فعلى مدى جيلين من البشر، حقق هذا الميثاق الضمني نمواً غير مسبوق لرفاه

١ - الدول الواقعة في شمال أوروبا وشمال الأطلسي، وتشمل الدنمارك، والنرويج، وفنلندا، وآيسلندا، والسويد. (م)

قائم على قاعدة واسعة في أميركا، وفي الوقت نفسه، قلص "الانكماش العظيم" (Great Compression) انعدام المساواة الاقتصادية على نحو جذري. أُبقي كثير من الناس خارج هذا الاتفاق الضمني – الأميركيون السود، على نحو خاص، وهي حقيقة سأعالجها ببعض التفصيل. لكن لنحو خمسين عاماً ظلت مصالح العمال ومصالح أرباب العمل متوازنة في هذه البلاد، ومن ثم فإن انعدام المساواة في الدخل ظل منخفضاً على نحو لافت.

بدأ هذا العقد الاجتماعي بالتداعي في أواخر سبعينيات القرن العشرين. ونتيجة لذلك، بدأت أجور العمال المعتادة، التي كانت في السابق ترتفع بالتوازي مع النمو الاقتصادي العام، بالتراجع. الأسوأ من ذلك هو أن الأجور الحقيقية أصابها الركود وفي بعض الأحيان انخفضت. وكانت النتيجة تراجعاً في كثير من أوجه جودة الحياة لدى غالبيّة السكان الأميركيين. وكانت النزعة اللافتة أكثر من غيرها هي الركود، بل حتى تراجع متوسط العمر المتوقع (وهو التراجع الذي بدأ قبل جائحة كوفيد–١٩). وفي حين أصيبت أجور العمال ودخولهم بالركود، فإن ثمار النمو الاقتصادي حصدتها النخب، ونشأت "مضخّة ثروة" منحرفة، تأخذ من الفقراء، وتعطي الأغنياء، وعكسَ الانكماشُ العظيمُ نفسَه. في كثير من الأشكال، تشبه السنوات الأربعين الماضية ما حدث في الولايات المتحدة بين عامي ١٨٧٠ و١٩٠٠. إذا كانت حقبة ما بعد الحرب تشكِّل العصر الذهبي الحقيقي الذي ساده رخاء ذا قاعدة واسعة، بعد عام ١٩٨٠ فإننا دخلنا حقاً "العصر المذهَّب الثاني" (Second Gilded Age).

كما يتنبأ نموذجنا، فإن الثروة الزائدة التي تدفقت إلى النخب (إلى الـ ١ بالمئة الذي يُضرَب به المثل، بل أكثر من ذلك إلى أغنى ٠,٠١ بالمئة) خلقت في النهاية مشكلة لأصحاب الثروة (وأصحاب السلطة) أنفسهم. أصبح الهرم الاجتماعيّ ثقيلاً عند قمته. لقد بات لدينا اليوم كثير من "الطامحين إلى الانضمام إلى النخبة" يتنافسون على عدد محدود من المناصب في الطبقة السياسية والتجارية العليا. في نموذجنا، لمثل هذه الظروف اسم، وهو 'الإفراط في إنتاج النخب'

(elite overproduction). وإضافة إلى البؤس الشعبي (popular immiseration)، فإن الإفراط في إنتاج النخب، والصراعات داخل النخب التي ولَّدها، قوَّضَ تدريجياً تماسُكَنا المدنيّ والشعور بالتعاون الوطني الذي تبدأ الدول دونه بالتعفن بسرعة من الداخل. لقد أظهرت الهشاشة الاجتماعية المتنامية نفسها في المستويات المتراجعة من الثقة بمؤسسات الدولة وتفكك الأعراف الاجتماعية الناظمة للخطاب العام – وعمل المؤسسات الديمقراطية.

يُعَدُّ هذا المُلخَّصُ الهيكلَ العظميَّ للكتاب. أما لحم الكتاب فسيفكك الأفكار، ويربطها بالاتجاهات الإحصائية للمؤشرات الاقتصادية والاجتماعية الرئيسة، وسيتتبع بعض القصص البشرية النموذجية للأشخاص الذينَ تُحاصِرُهم هذه القُوى الاجتماعيّة. على الرغم من أن تركيزي هنا ينصبُّ على نحو رئيس على أميركا والأميركيين، فإن الكتاب ستكون له جولات في أجزاء أخرى من العالم والحقب التاريخية السابقة. مرة أُخرى، فإن أزمتنا في أميركا ليست دون سوابق؛ بل إننا في وضع يُمكِّنُنا من التعلُّم من ماضينا.

في المحصلة، فإن السؤال المركزي الذي يطرحه الكتاب يتعلق بالقوة الاجتماعية. من يحكم؟ كيف تحافظ النخب الحاكمة على مكانتها المهيمنة داخل المجتمع؟ من أولئك الذين يتحدّون الوضع الراهن؟ وما دور الإفراط في إنتاج النخب في توليد مثل هؤلاء المتحدِّين؟ ولماذا تفقد الطبقات الحاكمة، سواء تاريخياً أم اليوم، أحياناً، وفجأة، قبضتَها على السلطة، ويُطاح بها؟ دعونا نبدأ بالإجابة عن هذه الأسئلة المحورية.

الجزء الأول

كليوديناميكا السلطة

الفصل الأول

النخب، الإفراط في إنتاج النخب، والطريق إلى الأزمة

مَن النُخَب؟

مصادر السلطة الاجتماعية

مَن النخب؟ أنت، أيها القارئ، هل أنت من "النخبة"؟ لو كنت رجل رهان، سأتنبأ أنّ ٩٩ بالمئة من قرائي سيجيبون بـ "لا!" إذاً، دعونا نُعرِّف ما أعنيه بـ"النخب". في علم الاجتماع، أفراد النخب ليسوا أولئك الذين يُعَدُّونَ على نحو ما أفضلَ من بقية الناس. ليسوا بالضرورة أكثر جداً في العمل، أو أكثر ذكاءً، أو أكثر موهبة. إنهم ببساطة أولئك الذين يتمتعون بقدر أكبر من السلطة الاجتماعية، أي القدرة على التأثير في الآخرين. مصطلح وصفيّ أكثر للنُّخب هو "أصحاب السلطة".

ولأن السلطة جزء مهم من قصتنا التي سنرويها، سنعود إليها في الفصول القادمة، حيث أناقش تعريف علماء الاجتماع للسلطة وأصحابها في مجتمعات مختلفة، في الماضي والحاضر. لكن في هذه المرحلة، دعونا نأخذ طريقاً مختصراً. في أميركا، ترتبط السلطة على نحو وثيق بالثروة. ونتيجة لذلك، نستطيع أن نعرف بوضوح من ينتمي إلى المراتب المختلفة لأصحاب السلطة. (جواب أكثر تعقيداً عن السؤال المتعلق بمن يحكم سيتعين أن ينتظر حتى الفصل الخامس.).

إذا كنت أميركياً، وتملك ثروة تُراوِحُ بين مليون ومليونَي دولار، على سبيل المثال، فستكون بين أغنى ١٠ بالمئة من السكان، وهو الترتيب الذي يضعك في

المراتب الدنيا للنُّخَب الأميركية.[1] معظم الناس في هذه الفئة ليسوا أقوياء على نحو خاص، بمعنى أنهم لا يتحكمون بعددٍ كبير من الأشخاص الآخرين، لكنَّثروةً تُقدَّرُ ببضعة ملايين (والدخول الأعلى المرتبطة بها عادة) تمنح أفراد فئة الـ ١٠ بالمئة قدراً كبيراً من السيطرة – السلطة – على حياتهم هم. إنهم يستطيعون رفض الأعمال غير المريحة، أو التي لا تحقق دخلاً كافياً، أو الموجودة في مناطق لا يرغبون في الانتقال إليها، أو إنهم يستطيعون اختيار التقاعد من سباق الجرذان هذا برمته. إنهم يملكون عادة منازل، ويرسلون أطفالهم إلى كليات جيّدة، ولا تؤدي الحالات الطبية الطارئة إلى القضاء عليهم. من المُؤكّد أنهم نجوا من حالة "الهشاشة" (precarity).

يبدأ التناسب بين الثروة والسلطة الحقيقية يصبح أكثر إحكاماً لأولئك الذين يملكون عشرات، أو الأفضل، مئات الملايين. يشمل الأشخاص في هذه الطبقة أصحاب الشركات والمديرين التنفيذيين للشركات الكبرى، الذين يمارسون سلطتهم على مئات آلاف الموظفين. كثير من السياسيين الأقوياء يشغلُ مواقعَ في هذا النطاق أيضاً. (هناك نحو ٥٠ من أعضاء الكونغرس تتجاوز ثرواتهم ١٠ مليون دولار.) التناسب بين الثروة والسلطة السياسية ليس مثالياً، فتسعة من الرؤساء الأميركيين لم يصلوا إلى مرتبة المليون دولار أو أكثر بقليل (بالقيمة الحالية للدولار)، بمن فيهم هاري ترومان (Harry Truman)، وودرو ويلسون (Woodrow Wilson)، وأبراهام لنكولن (Abraham Lincoln). لكن أكثر من نصفهم كان يمتلك ما يكفي من الثروة لوضعه في فئة الـ ١ بالمئة اليوم.[2] وقبل عام ١٨٥٠، كان جميع الرؤساء الأميركيين في فئة الـ ١ بالمئة (على الأقل).

١- أجريت الحسابات على بيانات مجلس الاحتياط الفدرالي لعام ٢٠١٩، تشكل قيمة الثروة الصافية البالغة ١,٢١٩,١٢٦ دولاراً عتبةَ دُخولِ فئةَ العشرة بالمئة الأكثر ثراء في الولايات المتحدة. انظر: "Average, Median, Top 1بالمئة , and all United States Net Worth Percentiles" DQYDJ, accessed August 10, 2022, https://dqydj.com/average-median-top-net-worth-percentiles/.

٢- أجريت الحسابات باستعمال تقديرات .*Wall St* 24/7 لأكبر الثروات وعتبة ١٠ مليون دولار من الثروة الصافية لعام ٢٠٢٠. انظر: =

نقطة أخرى ينبغي أن تبقى في الذهن هي أن الفقراء الذين يصبحون من أصحاب السلطة في أميركا لا يظلون فقراء وقتاً طويلاً.

نشأ بِل كلينتون في أسرة فقيرة في أركنسا مع زوجِ أُمٍّ مُدْمِنِ كُحول، ويسيء معاملة أسرته، أمّا الآن فتُقدَّرُ ثروته بما لا يقل عن ١٢٠ مليون دولار.[1] ينشأ التناسب الوثيق بين الثروة والسلطة السياسية في أميركا جزئياً لأن كثيراً من السياسيينالذين يكونون فقراء في بداية مسيرتهم المهنية، ينضمون إلى صفوف الأثرياء بعد مغادرة الوظيفة العامة، لكنَّ هناك سبباً لا يقلُّ أهميّةً، وهو أنّ ثمة احتمالاً أكبر في أن يسعى الأشخاص الأغنياء جداً أصلاً إلى شغل المناصب العامة مما يفعل بقية السكان. فكروا في عائلتَيْ روزفلت وكينيدي، وبـ روس بارو، ومايكل بلومبيرغ، ونعم -ترامب.

على الرغم من ذلك، فإن التناسب بين الثروة والسلطة، حتى في أميركا، ليس مثالياً. ومن ثم دعونا نتحدث عن مصادر أخرى للسلطة. يتمثل أصعب أشكال السلطة الاجتماعية، وأكثرها فجاجة، في الإكراه، أي القوة أو التهديد باستعمالها. الأميركيون المختصون في الإكراه، مثل جنرالات الجيش وضباط الشرطة، يخضعون لأشكال أخرى من السلطة عامّة. الاستثناءات، مثل ج. إدغار هوفر، الذي كان أول وأقوى مديري مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، نادرة.

يتمثل النوع الثاني من السلطة في الثروة (أو على نحوٍ أعمّ، الموارد المادية المتراكمة). يمكن للأشخاص الأثرياء أن يستأجروا أشخاصاً آخرين لفعل ما يريدون (ضمن حدود).

Michael Sauter, Grant Suneson, and Samuel Stebbins, "The Net Worth of the American Presidents: Washington to Trump," 24/7 *Wall St.*, March 2, 2020, https://247wallst.com/special-report/2020/03/02/the-net-worth-of-the-americanpresidents-washington-to-trump-3/. =

1- Jennifer Taylor, "Here's How Much Every Living US President Is Worth: Where Does Biden Rank?" GOBankingRates, May 30, 2022, https://www.gobankingrates.com/networth/politicians/heres-how-much-every-living-us-president-is-worth/.

النوع الثالث والأقل مباشرة للسلطة هو البيروقراطي أو الإداري. ينتمي البشر الحديثون إلى جملة متنوعة من المنظمات. ولدينا جملة متنوعة من "رؤساء العمل" الذين نتبع أوامرهم عامّةً. ثمة عنصر إكراه في هذه العلاقات، بالتأكيد، لأن عدم اتباع الأوامر قد يؤدي إلى طردك من العمل، أو فرض غرامة عليك، أو اعتقالك. لكننا في غالبية الأحيان نتبع الأوامر ببساطة بسبب سلطة الأعراف الاجتماعية، فالرؤساء في العمل على مختلف مستويات المنظمات يمارسون جميعاً درجات مختلفة من السلطة التي تنزع إلى الارتفاع كلما كانت منظماتهم أكبر، وكلما علت مناصبهم داخل هذه المنظمات.

النوع الرابع، والأكثر "نعومة" من السلطة هو النوع الأيديولوجي، أي سلطة الإقناع. تُعَدُّ السلطة الناعمة، أو الإقناع، قوة شديدة الفعالية يمكن أن تشكل مواقف حشود من الناس. وتشمل مجال المؤثرين الفكريين، مثل "المثقفين العامين" الشهيرين، وكُتّاب الأعمدة في الصحف الرئيسة، وحديثاً، شخصيات وسائل التواصل الاجتماعي الذين لديهم ملايين المتابعين.

كما نستطيع أن نرى، فإن هذا السؤال البسيط، من النخب؟، ليس له جواب بسيط. المجتمعات البشرية أنظمة معقدة، ومحاولة تشخيص تدفقات السلطة الاجتماعية داخلها بوساطة خطة مفرطة في التبسيط ستحدث أثراً عكسياً. وظيفتي هي أن أصوغ نظريتي بأبسط طريقة ممكنة، لكن ليس أبسط من ذلك.[1]

لعبة كراسي الطامحين

حالما نبدأ بالتفكير فيما يسمى سلوك النخبة، نواجه طبقات عدة من التعقيد. أولاً، من حيث الثروة، ليس هناك حد فاصل واضح بين النخب وغير النخب. يتمتع أفراد فئة الـ ١٠ بالمئة (أصحاب ملايين الدولارات بقيمتها اليوم) بكثير من السلطة على حياتهم، أما أفراد فئة الـ ١ بالمئة (أصحاب عشرات الملايين)

١ - هذا ملخص للاقتباس الفعلي. انظر Andrew Robinson, "Did Einstein really say that?" *Nature* 557 (2018): 30, https://doi.org/10.1038/d41586-018-05004-4.

فيتمتعون بكثير من السلطة على حياة الناس الآخرين، وأما أصحاب مئات الملايين والمليارات فيفرضون سلطة أكبر، لكنْ ليس ثمّةَ حدودٌ واضحةٌ تماماً بين فئة الـ ١ بالمئة والـ ١٠ بالمئة -فتوزيع الدخول يشكل منحنىً ناعماً، وليس هناك اختلافٌ كبير في المواقف الاجتماعية بين أفراد فئة الـ ١ بالمئة وأفراد فئة الـ ١٠ بالمئة، أو بين أفراد العشرية الأعلى والعشرية التي تليها. في الفصل الثالث، سنرى أنّ ثمّةَ طريقةً أُخرى للتمييز بين الطبقات الاجتماعية، من حيث الأفضل تعليماً (أولئك الذين يحملون شهادات جامعية مدة دراستها أربع سنوات) والأقل تعليماً (أولئك الذين لا يحملون مثل هذه الشهادة)، طريقة أكثر قوة إذا أردنا أن نفهم تنوُّع مسارات الحياة والمواقف الاجتماعية.[١]

ثانياً، تنزع نُخب مختلفة إلى التخصص في أنواع مختلفة من السلطة الاجتماعية؛ فجنرالات الجيش، وأدميرالات البحرية، وقادة الشرطة، يمارسون الإكراه؛ والمديرون التنفيذيون وأصحاب الثروة يمارسون سلطة اقتصادية؛ وأعضاء مجلس الشيوخ والوزراء الاتحاديون يديرون سلطة إدارية؛ ومذيعو التلفاز والمؤثرون النافذون على وسائل التواصل الاجتماعي يتعاملون بالإقناع، ولكل نوع من النفوذ تراتبيته السلطوية. ويتضح هذا بجلاء في سلاسل القيادة العسكرية، لكنَّ الأنواع الأكثر نعومة من السلطة تحتوي نظاماً تراتبياً خاصاً بها.

تنشأ الطبقة الثالثة من التعقيد حين نسأل، كيف تتشكل النخب؟ ومن أجل فهم الإفراط في إنتاج النخب، علينا أن نفهم عملية الإنجاب الاجتماعي للنخب، وماذا يحدث لها بمرور الوقت.

دعونا نميز بين الأشخاص الموجودين أصلاً في مواقع النخبة – النخب الراسخة – وأولئك الذين يرغبون في الوصول إلى مثل تلك المواقع – الطموحين

١- يُرجى ملاحظة أني أستعمل مصطلح 'الطبقة' ليس بالمعنى الماركسي (حيث تُعرَّفُ بدور الأفراد في عملية الإنتاج) بل بمعنى مجموعة أفراد لهم المكانة الاجتماعية -الاقتصادية نفسها؛ والأكثر أهمية من ذلك، أن لديهم مستويات متشابهة من الثروة والتحصيل التعليمي.

الراغبين في الانضمام إلى النخبة. يأتي هؤلاء الطموحون بأشكال وصيغ مختلفة، طبقاً لنوع السلطة التي يريدون، والمستوى الذي يطمحون إلى الوصول إليه. على سبيل المثال، بعض الضباط برتبة ملازم يريدون أن يصبحوا برتبة رائد، ومعظم أولئك الذين يشغلون رتبة رائد يريدون أن يصبحوا جنرالات بنجمة واحدة، والجنرالات بنجمة واحدة يطمحون إلى نجمات إضافية على رتبهم. وعلى نحو مماثل، فإن أصحاب عشرات الملايين يريدون أن يصبحوا من أصحاب مئات الملايين، وأولئك الذين وصلوا إلى عتبة المئة مليون يريدون أن يصلوا إلى طبقة أصحاب المليارات.

على الرغم من أن طموح الحصول على مزيد من السلطة ليس موجوداً لدى كل الناس، فإن عدد الطامحين إلى السلطة هو دائماً أكبر من عدد المناصب المتاحة، ومن المحتم وجود أولئك الذين يحاولون الحصول على منصب في السلطة، لكنهم يُخْفِقُون، وهؤلاء هم طامحو النخبة المحبطون. يتطوّرُ الإنتاجُ المفرطُ للنُّخب حين يكونُالطلبُ على مواقع السلطة منأفراد النخبة الطامحين يتجاوزُ بكثير المعروضَ منها. دعونا نُركّز في المرحلة الراهنة على العلاقة بين الثروة والسياسة لنرى كيف يمكن للإفراط في إنتاج النخب أن يتطوّرَ في هذا المجال.

بداية في ثمانينيات القرن العشرين، بدأ عدد الأغنياء جداً في أميركا – أولئك الذين يملكون ١٠ مليون دولار على الأقل، أو الذين يملكون عشرات الملايين– بالنمو بسرعة.[1] في عام ١٩٨٣، كان هناك فقط ٦٦ ألف من هذه الأسر، وبحلول عام ٢٠١٩ (آخر سنة تتوافر بياناتها)، ارتفع عددهم أكثر من عشرة أضعاف، فبلغ ٦٩٣ ألفاً، ولم يكن هذا نتيجة التضخم؛ فقد عدَّلنا العتبة لتحديد من ينتمي إلى هذه الطبقة (باستعمال القيمة الثابتة للدولار لعام ١٩٩٥). وفي هذه المرحلة، ازداد العدد الإجمالي للأسر بـ ٥٣ بالمئة، ومن ثم، بحساب النسبة، نجد

1- Edward N. Wolff, "Household Wealth Trends in the United States, 1962 to 2019: Median Wealth Rebounds ... but Not Enough." NBER Working Paper No. 28383, National Bureau of Economic Research, Cambridge, MA, January 2021, https://www.nber.org/system/files/working_papers/w28383/w28383.pdf.

أنّ عددَ من يملكون عشرات الملايين ارتفعَ من ٠,٠٨ إلى ٠,٥٤ بالمئة من العدد الإجمالي للسُّكّان.

وحدث صعود كبير مماثل في حظوظ الأغنياء الأقلّ ثراءً. إذا كان عدد أصحاب عشرات الملايين قد ارتفع عشرة أضعاف، فإن عدد الأسر التي تملك خمسة ملايين أو أكثر ارتفع سبعة أضعاف، وعدد الأسر التي تملك مليون دولار أو أكثر بقليل ارتفع أربعة أضعاف. على وجه الإجمال، كلما كبر مستوى الثروات التي ننظر إليها كان النمو الذي شهدته أكبر على مدى الأربعين عاماً الماضية.

ظاهرياً، لا تبدو الزيادة في عدد الأثرياء أمراً سيئاً جداً. أليس جزءاً من الحلم الأميركي أن يصبح المرء غنياً؟ لكن ثمة جانبين سلبيين لهذه الأخبار الجيدة. أولاً، إنَّ تضخم الطبقة الثرية جداً لم يحدث في معزل عن حظوظ بقية السكان، ففي حين تضاعف عدد الأغنياء جداً، فإنَّ دَخْلَ الأسرة الأميركية النموذجية وثروتها تراجعا فعلياً. (المصطلح الأكثر دقة للثروة "النموذجية" هو "المتوسطة،" التي تقسم توزيع الثروة إلى نصفين متساويين؛ وسيكون التردي الاقتصادي للعمال الأميركيين موضوعاً رئيساً في الفصل الثالث.) كان هذا التباين بين الرفاه المالي للأميركيين العاديين والنخبة الثرية هو ما دفع الزيادة السريعة في عدم المساواة الاقتصادية، وهو الأمر الذي نوقش كثيراً في السنوات الأخيرة.

المشكلة الثانية أكثر تعقيداً وظهوراً وغير مفهومة على نطاق واسع.[١] حين يصبح الهرم الاجتماعي ثقيلاً في جزئه الأعلى، فإنَّ في هذا تداعياتٍ خَطِرَةً على استقرار مجتمعاتنا.

لفهم أسباب ذلك، دعونا ندرس لعبة. في المسرحية الموسيقية **إيفيتا** (*Evita*)، تلعب مجموعة من الضباط الأرجنتينيين لعبة الكراسي الموسيقية،

١ - لكن ليس يفهمها الجميع. انظر Kevin Phillips, *Wealth and Democracy*: *A Political History of the American Rich* (New York: Broadway Books, 2002); Paul Krugman, *The Conscience of a Liberal* (New York: W. W. Norton, 2007); and Joseph E. Stiglitz, *The Price of Inequality*: *How Today's Divided Society Endangers Our Future* (New York: W. W. Norton, 2012).

وتسير اللعبة على النحو الآتي: تبدأ الموسيقا بالعزف، ويسير الضباط حول مجموعة من الكراسي. حين تتوقف الموسيقا، يجب على كل ضابط أن يجد كرسياً يجلس عليه. لكن عدد اللاعبين أكبر من عدد الكراسي، ومن ثم فإن ضابطاً غير محظوظ يُخْفِقُ في الجلوس على كرسي، ويخرج من اللعبة. ثم يُزال كرسيٌّ، ويجري لعبُ جولة أُخرى. في النهاية، هناك فائزٌ واحد. في **إيفيتا**، الفائز هو العقيد خوان بيرون (Juan Perón)، الذي يصبح في المسرحية الموسيقية (كما في الحياة الحقيقية) رئيساً للأرجنتين ومؤسساً للحزب البيروني.

في لعبة النخب الطامحة، أو لعبة الطامحين، اختصاراً، بدلاً من تخفيض عدد الكراسي في كل جولة، نرفع عدد اللاعبين. وتبدأ اللعبة تماماً كما تبدأ لعبة الكراسي الموسيقية، بوجود عشرة كراسٍ تمثل مواقع السلطة (مثل المناصب السياسية). في الجولة الأولى، يلعب أحد عشر لاعباً (من النخب الطامحة) للحصول على كرسي. يصبح عشرة منهم أعضاء رئيسيين في النخبة، ويصبح الخاسر طامحاً محبطاً. في الجولات التالية، نرفع عدد اللاعبين، ونوصله في النهاية إلى الضعف، ثم إلى ضعفين (في حين أننا نحافظ على الكراسي العشرة نفسها). يبقى عدد الفائزين نفسه، لكنّ عدد الطامحين المحبطين يزداد من واحد في البداية إلى عشرة، ثم إلى عشرين. ومع تقدُّم اللعبة، تخيَّلْ فحسب الدَّرجةَ المُتزايدةَ من الفوضى والصراع. (لا أقترح أن تُلعب هذه اللعبة في حفل عيد ميلاد طفل.)، وهناك أيضاً عنصر تضخيم غريب؛ فمع زيادتنا لعدد الطامحين بعامل اثنين، ومن ثم ثلاثة، فإن عدد الطامحين المحبطين يرتفع إلى عشرة أضعاف، ثم إلى عشرين ضعفاً. (وهذه سمة عامة ونموذجية في ألعاب الإفراط في إنتاج النخب.).

في نظرية اللعب، وهي فرع من الرياضيات يدرس التفاعلات الإستراتيجية، يجب على اللاعبين تصميم إستراتيجيات رابحة في إطار قواعد محددة، لكن في الحياة الحقيقية، فإن البشر يطوعون القواعد دائماً، ومن المحتم أنه مع ارتفاع عدد الطامحين لكل موقع في السلطة، فإن بعضهم سيُقرِّرُ التلاعُبَ بالقواعد. على سبيل المثال، يمكن أن تبطئ المسير قرب أحد الكراسي، أو حتى

أن تتوقف وتنتظر بجانب أحدها، إلى أن تتوقف الموسيقا، في حين تدفع جانباً المتنافسين الآخرين. تهانينا، فقد أصبحت بهذه الحالة فرداً من أفراد النخب المضادة؛ أي شخصاً مستعداً لانتهاك القواعد لتحقيق تقدم في اللعبة. يا للأسف! إنَّ الآخرين يلحقون بك بسرعة أيضاً، ويصبح قرب كل كرسي مجموعة حاشدة متصارعة، وقبل مرور وقت طويل تصبح الوصفة جاهزة لعراك بالقبضات يشارك فيه الجميع، ويتبين أن هذا نموذج جيد لفهم تبعات الإفراط في إنتاج النخب في الحياة الحقيقية.

في الحياة الواقعية، كما رأينا، ارتفع عدد أصحاب الثروة على مختلف مستوياتها على مدى الأربعين عاماً الماضية أربعة أضعاف، أو سبعة أضعاف، أو حتى عشرة أضعاف. نسبة صغيرة من هؤلاء فقط تقرر إنفاق جزء من ثروتها للترشح إلى منصب سياسي. على سبيل المثال، يمكن أن يطمح هؤلاء إلى شغل مقعد في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ. ويمكن أن يدخلوا السباق لشغل منصب حاكم ولاية. الجائزة الكبرى هي بالتأكيد الرئاسة. وقد ظل عدد مناصب السلطة هذه نفسه على مدى العقود الماضية، لكنَّ عددَ الطامحين إلى شغلها ارتفعَ مع العدد الكليّ لأصحاب الثروة. وبسبب أثر التضخيم، فإنَّ عددَ الطامحين المحبطين انفجرَ بسُرعةٍ أكبر من الارتفاع اللافت في عدد أصحاب الثروة.

لا تُشكِّلُ هذه الخلاصةُ نموذجاً مجرداً فحسب. نستطيع الآن أن نفهم نزعات عدة في الانتخابات للمناصب العامة في الولايات المتحدة، التي وثّقها مركز الممارسات السياسية المستجيبة.[1] تتمثل إحدى هذه النزعات في أن عدد المرشحين الذين يمولون أنفسهم بدأ بالارتفاع في تسعينيات القرن العشرين. في انتخابات الكونغرس عام ٢٠٠٠ (بإضافة مقاعد مجلسي النواب والشيوخ)، كان هناك تسعة عشر مرشحاً أنفق كلٌّ منهم مليون دولار أو أكثر من مالهم الخاص على حملاتهم الانتخابية، وفي الجولة التالية من الانتخابات، كان هناك ٢٢ من

1- "Election Trends," OpenSecrets, accessed August 10, 2022, https://www.opensecrets.org/elections-overview/election-trends.

هؤلاء الطامحين الأثرياء للوصول إلى مقعد في الكونغرس. بعد عشرين عاماً، كان عدد هؤلاء قد تضاعف، مع وجود واحد وأربعين وستة وثلاثين مرشحاً أنفق كلٌّ منهم مليون دولار أو أكثر في عامي ٢٠١٨ و٢٠٢٠.

مقياس أفضل لتتبع أثر الإفراط في إنتاج أصحاب الثروات على الانتخابات يتمثل في كلفة إقامة حملة انتخابية ناجحة. في المحصلة، لا يترشح جميع الأغنياء الطموحين سياسياً إلى المناصب بأنفسهم. فكثيرون يختارون تمويلَ سياسيّين محترفين يستطيعون الدفع بأجنداتهم السياساتية في واشنطن. وطبقاً للبيانات التي جمعها مركز الممارسات السياسية المستجيبة، فإن متوسط إنفاق الفائز بمقعد في مجلس النواب ارتفعَ من ٤٠٠ ألف دولار في عام ١٩٩٠ إلى ٢,٣٥ مليون دولار في عام ٢٠٢٠، في حين بدأت الإحصائية نفسها فيما يتعلّق بمجلس الشيوخ بـ ٣,٩ مليون دولار في عام (١٩٩٠)، وارتفعت إلى ٢٧ مليون دولار في جولة الانتخابات الأخيرة.

لقد مارسنا لعبة الإفراط في إنتاج النخب على مدى الأربعين عاماً الماضية بمعدل مرة كل سنتين. ومع ارتفاع عدد اللاعبين، فإن فرص انهيار القواعد ترتفع باستمرار. ومن ثم، هل من المستغرب أن تتداعى قواعد اللعبة – الأعراف الاجتماعية والمؤسسات الناظمة للانتخابات الديمقراطية – في الحياة الواقعية؟

لكنَّ الإفراطَ في إنتاج النُّخَب يُمثِّلُ نصفَ القصة فحسب، إذ إنَّ تمدُّدَ طبقة أصحاب الثروة لم يحدُثْ في معزل عن بقية المجتمع، وقد حان الوقت لإدخال العامل الثاني إلى نموذجنا المتعلق باستقرار مجتمعاتنا، وهو البؤس الشعبي.

البؤس الشعبي

ينتج مجتمعنا جماعياً كثيراً من المنتجات والخدمات، وقد تعلَّم الاقتصاديون كثيراً عن كيفية تقدير هذا الإجمالي، أي الناتج المحلي الإجمالي. نعم، لا يزال هناك بعض القضايا المزعجة. (كيف ندخل العمل المنزلي في حسابنا؟ وماذا عن الأنشطة الإجرامية؟) لكن نستطيع استخدام إحصاءات الناتج المحلي الإجمالي،

وإلى درجة جيدة جداً من التقريب، كما تنشرها الوكالات الحكومية، لأخذ فكرة عن القدر الإجمالي للثروة التي تولَّد في أي بلدٍ من البلدان كل عام.

يرتفع هذا الإجمالي عادة بمرور الوقت، وذلك بفضل النمو الاقتصادي، لكنه يبقى محدوداً على الرغم من ذلك. ومن ثم، كيف يُقسَم بين أنواع مختلفة من المستهلكين؟ يصبح سؤالاً مثيراً جداً للاهتمام. في نظريتنا، نمثل بنية المجتمع على أنها تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسة: الدولة، والنخب، وجميع الآخرين. وهذا نموذج يبسط كثيراً التعقيد العظيم لمجتمعاتنا الحديثة (ورأينا أن تعريف "من النخب؟" ليس تعريفاً مباشراً وبسيطاً تماماً)، لكن كما سنرى، فإنه يتقاطع مع الواقع إلى درجة ذات معنى وحافلة بالمعلومات تجريبياً.

على حسابِ مَنْ تضخّمَتْ ثرواتُ النُّخَب في السنوات الأخيرة؟ الثروة هي الدخل المتراكم؛ ولكي تنمو، لا بد من أن تتغذى عن طريق توجيه نسبة من الناتج المحلي الإجمالي إلى النخب. لم تتغير نسبة ما تستهلكه الحكومة من الناتج المحلي الإجمالي كثيراً على مدى العقود الأربعة الماضية.[1] وقد كان الخاسر الأكبر هو الأميركي العادي.

على مدى جيلين بعد ثلاثينيات القرن العشرين، ارتفعت الأجور الحقيقية للعمال الأميركيين ارتفاعاً ثابتاً، وحققت رخاءً ذا قاعدة واسعة لأميركا غير مسبوق في التاريخ البشري، لكنْ في سبعينيات القرن العشرين، توقّفت الأجور الحقيقية عن الارتفاع، وفي حين أن الاقتصاد الكلي استمر في النمو، فإن الحصة من النمو الاقتصادي التي حصل عليها العمال العاديون بدأت بالتقلص، ويمكن أن نتتبع عمل مضخة الثروة هذه بتتبُّع ديناميكيات الأجور النسبية، أي الأجور النموذجية (على سبيل المثال، للعمال غير المهرة أو لعمال

١- من سبعينيات القرن العشرين حتى العشرية الثانية من القرن الحادي والعشرين، راوَحَ الإنفاقُ الحكومي، كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي، بين ١٩ و٢١ بالمئة. انظر:
"Federal Net Outlays as Percent of Gross Domestic Product," Economic Research, Federal Reserve Bank of St. Louis, last modified April 1, 2022. https://fred.stlouisfed.org/series/FYONGDA188S.

التصنيع – لا يهم ما دُمْنا نستعمل المجموعة نفسها) مقسومة على حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي.

قبل ستينيات القرن العشرين، ارتفعت الأجور النسبية بقوة، لكن بعد ذلك العقد بدأت بالانحدار، وبحلول عام ٢٠١٠ كانت قد تراجعت إلى النصف تقريباً.[١] كما نجم عن هذا الانخفاض في حصة العمال من النمو الاقتصادي تغيُّرٌ في حظوظ الأثرياء. إنه "أثر متى" (Matthew Effect)؛[٢] أي أن تأخذ من الفقراء، وتعطي الأغنياء، ثم يصبح الأغنياء أكثر غنىً، والفقراء أكثر فقراً.

لّما دخلتْ أميركا حقبةَ رُكودِ الأجورِ وتَراجُعِها، لم يُؤثِّرْ ذلك في القياسات الاقتصادية للرفاه، بل في القياسات الاجتماعية والبيولوجية أيضاً. وسأتحدث أكثر عن هذا في الفصل الثالث، لكن يكفي الآن ملاحظة أن متوسط العمر المتوقع في شرائح كبيرة من السكان الأميركيين بدأ بالانخفاض قبل جائحة كوفيد – ١٩ بسنوات، إذ ارتفعت "وفيات اليأس" الناجمة عن الانتحار، وإدمان الكحول، وتناول الجرعات الزائدة من المخدرات بين غير المتعلمين في الجامعة بين عامي ٢٠٠٠ إلى ٢٠١٦، في حين ظلت هي نفسها، وعلى مستوى أدنى بكثير في أوساط أولئك الذين يحملون شهادة جامعية على الأقل.[٣] هذا ما يبدو عليه البؤس الشعبي.

ويُثيرُ البؤسُ الشعبي حالةً من الاستياء، تتحول في النهاية إلى غضب. إنَّ جَمْعَ الاستياء الشعبي مع وجود ساحة كبيرة من الطامحين النخبويين يُحقِّقُ مزيجاً انفجارياً جداً، كما لاحظناه في أميركا منذ عام ٢٠١٦.

١- انظر figure 3.4 in Ages of Discord. Peter Turchin, Ages of Discord: A Structural-Demographic Analysis of American History (Chaplin, CT: Beresta Books, 2016).

٢- استناداً إلى إنجيل متى، ٢٥:٢٩: "لأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطى فيَزْدَادُ، ومَنْ ليسَ لَهُ فالَّذِي عِنْدَهُ يُؤخَذُ مِنْه". (م)

3- Anne Case and Angus Deaton, *Deaths of Despair and the Future of Capitalism* (Princeton: Princeton University Press, 2020). More on this in chapter 3.

ترامب: رئيس غير مُتوقَّع

كان دونالد ترامب رئيساً غير محتمل، وكان الرئيس الأميركيَّ الوحيد الذي يصل إلى البيت الأبيض دون أيّ تاريخ لخدمة عامة سابقة من أي نوع كان.[1] في عام ٢٠١٤، لم يكن أحد، بمن في ذلك ترامب نفسه ربما، يتخيل أنه يستطيع أن يصبح حاكماً لأقوى دولة على وجه الأرض. كان صعوده المذهل إلى ذروة السلطة العالمية مفاجئاً إلى درجة أن نصف الأميركيين وأغلبية النخب الأميركية الحاكمة كانوا مقتنعين بأنه لم يفز بالرئاسة على نحو مشروع. واختار كثيرون تصديق نظرية المؤامرة التي مفادها أن انتخاب دونالد ترامب جاء نتيجة ألاعيب روسية. وحتى اليوم، لا يزال المنظِّرون وكُتّاب أعمدة الصحف يتجادلون حول كيف ولماذا انتُخِبَ ترامب.

أدمغتنا البشرية مركبة بطريقة تجعلنا نرى يداً خفية وراء أي تطور، ولا سيما إذا كان يؤثر فينا تأثيراً قوياً.[2] يصعب علينا أن نفهم أن كثيراً من الأحداث المهمة تحدث، ليس لأنها صممت على أيدي متآمرين في الخفاء، بل لأنها كانت مدفوعة بقوىً اجتماعية غير شخصية. لكنْ كي نفهم صعود ترامب – وعلى نحو أوسع، سبب أزمة أميركا – فإننا في حاجة إلى نظرية علمية، وليس إلى نظرية مؤامرة فحسب.

كي نفهم لماذا أصبح دونالد ترامب الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة، علينا أن نولي اهتماماً أقل لخصائصه ومناوراته الشخصية وقدراً أكبر للقوى الاجتماعية العميقة التي دفعته إلى القمة. كان ترامب أشبه بقارب صغير عالق على قمة موجة مد عاتية. وتتمثل القوتان الاجتماعيتان الأكثر أهمية اللتان

1- Zachary Crockett, "Donald Trump is the only US president ever with no political or military experience," *Vox*, January 23, 2017, https://www.vox.com/policy-andpolitics/2016/11/11/13587532/donald-trump-no-experience.

٢- المصطلح التقني هو 'العثور على نحو مفرط النشاط على أفعال قصدية'، أو 'العثور على نحو مفرط الحساسية على أفعال قصدية'. انظر: Karen M. Douglas et al., "Someone Is Pulling the Strings: Hypersensitive Agency Detection and Belief in Conspiracy Theories," *Thinking & Reasoning* 22, no. 1 (2016): 57–77, https://doi.org/10.1080/13546783.2015.1051586.

قدّمتا إلينا رئاسة ترامب – ودفعت أميركا إلى حافة انهيار الدولة – في الإفراط في إنتاج النخب وفي البؤس الشعبي.

يبدو غريباً أن نتحدث عن دونالد ترامب بصفته أحد أفراد النخبة الطامحة. في المحصلة، وُلدَ الرَّجُلُ غنياً وورث (أو أعطاه والده) مئات ملايين الدولارات.[1] لكن التعريف الذي قدمته أعلاه ينطبق عليه انطباقاً كاملاً، فترامب فرد في مجموعة يزداد عددُها بسرعة من كبار الأثرياء الذين يطمحون إلى شغل منصب سياسي. وعلى الرغم من أنه كان غنياً أصلاً (من المؤكد أنه كان يملك مئات الملايين، وربما كان ملياردير اً، كما يدعي) وشهيراً، فإنه كان يرغب في المزيد.

لم يكن ترامب الشخص البالغ الثراء الوحيد الذي ليس لديه أي تجربة سياسية سابقة، ويترشح لرئاسة الولايات المتحدة، فستيف فوربس (Steve Forbes)، (الذي تُقدَّرُ ثروتُهُ بأربعمئة مليون دولار) ترشح في الانتخابات الجمهورية الأولية في عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٠، لكنه لم يمضِ بعيداً، والملياردير روس بارو (Ross Perot) ترشح مستقلاً في عامي ١٩٩٢ و١٩٩٦، وحصل على نحو ٢٠ بالمئة من الأصوات الشعبية في جولته الأولى، فلماذا نجح ترامب في حين أخفق فوربس وبارو؟

للجواب شقّان. الأول، بحلول عام ٢٠١٦ كان البؤس الشعبي قد أصبح أسوأ مما كان في عام ١٩٩٢، واستغلّ ترامب بذكاءٍ وقسوة هذه القُوى الاجتماعية في ترشُّحه للرئاسة. في النهاية، فإن نسبة كبيرة من الأميركيين الذين شعروا بأنهم مُهمَّشُون صوّتوا لمُرشّح غير محتمل – مُرشّح ملياردير. فيما يتعلّقُ بكثير منهم، لم تكن هذه موافقةً على ترامب بقدر ما كانت تعبيراً عن استيائهم الذي شارف على التحوّل إلى غضب عارم ضد الطبقة الحاكمة، وسنذكر المزيد عن مصادر الاستياء الشعبي وتبعاته في الفصل الثالث.

1- David Barstow, Susanne Craig, and Russ Buettner, "Trump Engaged in Suspect Tax Schemes as He Reaped Riches from His Father," *New York Times*, October 2, 2018, https://www.nytimes.com/interactive/2018/10/02/us/politics/donald-trump-tax-schemesfred-trump.html.

ثانياً، بحلول عام ٢٠١٦، كانت لعبة الإفراط في إنتاج النخب قد وصلت إلى نقطة التشعّب، حيث رُمِيَتْ قواعدُ السلوك في الحملات السياسية في مهبّ الريح. شارك في الانتخابات الرئاسية الأولية في الحزب الجمهوري عام ٢٠١٦ أكبرُ عدد من المرشحين الرئاسيين في التاريخ حتى ذلك العام، إذ دخلَ السِّباقَ ما مجمله ١٧ مرشحاً.[١] وأُجبر أفراد الجمهور الأميركي المذهول على مُتابعةِ مشهديةٍ غريبة للعبة النخب الطامحة، وهي تصل إلى ذروتها المنطقية، إذ تنافس المرشحون في إطلاق التصريحات الأكثر غرابة وقول الاقتباسات الفجة للفت انتباه الصحافة والبقاء في السباق، في حين تراجع المرشحون "الجادون" في استطلاعات الرأي، ومن ثم أُخرجوا من السباق.[٢]

في النهاية، ما من شك في أنّ ترامب قاد مركبه على نحو أفضل مما فعل مُنافسُوه (وكان لديه أفرادُ طاقم آخرين مُـهِـمُّون، مثل الإستراتيجي الذي يدّعي أنه ثوريّ ستيف بانون (Steve Bannon). على الرغم من ذلك، سيكون من الخطأ منحه (أو منح بانون) قدراً كبيراً من المصداقية لنجاحه، إذْأخفقَ أصحابُ مليارات طامحون آخرون من قبله. ما منحه الرئاسة كان مزيجاً من الصراع بين النخب وقدرة ترامب على توجيه تيار من الاستياء الشعبي كان أوسع انتشاراً وأكثر سُمِّيةً مما فهمَ كثيرون، أو أرادوا أن يفهموا.

مأزقنا الراهن ليس فريداً – وهذا موضوع محوري في هذا الكتاب. دَعُونا نَعُدْ إلى الماضي لننظر إلى طامح نخبويّ آخر يوضح مسار حياته عمل القوتين التوءَمينِ اللّتين تنتجان عدم الاستقرار، وهما الإفراط في إنتاج النخب، والبؤس الشعبي.

١- جرى تجاوُز هذا الرقم لـمّـا تنافسَ ما مجموعُه تسعة وعشرون مُرشّحاً رئاسياً في انتخابات تسمية مرشح رئاسي للحزب الديمقراطي.

٢- لمراجعة رواية ملوّنة، وإن تكن لا تحمل كثيراً من الإطراء، لحملة عام ٢٠١٦، انظر على نحو خاص الفصل الثاني من Matt Taibbi, *Insane Clown President*: *Dispatches from the 2016 Circus* (New York: Random House, 2017).

لنكولن: رئيسٌ غيرُ مُتوقَّع آخر

يُعدُّ أبراهام لنكولن، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، أحد الأشخاص الذين يحظون بأكبر درجة من التقدير والتبجيل في التاريخ الأميركي، ويجلس تمثال لنكولن، بحجم أكبر مما هو في الحياة الواقعية، بهدوء وسكينة في نصبه القائم في نهاية شارع مول في واشنطن، دي. سي. لكنّ الحياة الفعلية للنكولن كانت أبعد ما تكون عن الهدوء والسكينة، فقد خسر من الانتخابات أكثر ممّا ربح، وتعرّض لانهيار عصبي، وفي مرحلة مُعيّنة من حياته قرّر التخلّي عن مسيرته السياسية. فاز بالتأكيد بالانتخابات الأكثر أهمية في حياته، وهي انتخابات عام ١٨٦٠، لكنّهُ في أثناء رئاسته، تعرّض للإساءات من جميع الأطراف. يُلاحِظُ المُؤرِّخُ ستيفن أوتس (Stephen Oates):

> انتقده الديمقراطيون الشماليون، ووصفُوه بأنه ديكتاتور نصيرٌ لإلغاء العبودية، ووصفه أنصار إلغاء العبودية بأنه نتاجٌ غبي لدولة العبيد، ووصفه الجمهوريُّونَ جميعاً بأنّهُ ساحرٌ غيرُ كُفُؤ. في الحقيقة، إنّ لنكولن كان واحداً من رئيسَينِ أو ثلاثةِ رُؤساء هـمُ الأقلُّ شعبيّةً في التاريخ الأميركيّ.[1]

كان لنكولن رئيساً غير مُتوقَّع آخر، كانتْ وراءَ صعوده إلى السلطة القُوّتان الاجتماعيّتان التوءمان المتمثلتان في الإنتاج المفرط للنخب والبؤس الشعبي. فقبل الحرب الأهلية، كانت تحكم الولايات المتحدة نخبةٌ من أصحاب العبيد الأرستقراطيين الجنوبيين المتحالفين مع الأثرياء التقليديين في الشمال الشرقي، من تجار، ومصرفيين ومحامين.[2] وكانت القاعدة الاقتصادية لهذا التحالف تتكون من المحاصيل الزراعية التي تُزرَع في المزارع الجنوبية التي يعمل فيها العبيد، ولا سيما القطن. كانت تجارة القطن أهم التجارات التي تمتهنها النخب التجارية في نيويورك، وقد كانت تُصدِّرُ المحاصيلَ المزروعة في الجنوب، وتستورد السلع

1- Stephen B. Oates, *Abraham Lincoln*: *The Man Behind the Myths* (New York: Harper & Row, 1984).

٢- لمراجعة نقاش أكثر تفصيلاً لأسباب الحرب الأهلية الأميركية، انظر الفصل ٩ من **عصور الخلاف**.

المُصنَّعة في أوروبا. شريحة أخرى من النخب (ولا سيما في ماساتشوستس) كانت تستعمل القطن الجنوبي لإنتاج المنسوجات. هيمن هذا التحالف، ولا سيما المكون الجنوبي المالك للعبيد، على الحياة السياسية في أميركا قبل الحرب، وكان لأصوات الرجال الجنوبيين البيض وزنٌ أكبر بسببِ تسويةِ ثلاثةِ الأخماسِ سيّئةِ السُّمعة التي تُوُصِّلَ إليها عام ١٧٨٧، إذ حُسِبَتْ ثلاثة أخماس العبيد في تحديد نسبة النواب والهيئات الانتخابية الرئاسية (دون السماح للعبيد بالتصويت بالتأكيد)، كما كانت النخب الجنوبية تسيطر على نصف مجلس الشيوخ، على الرغم من أنَّ عددَ السكان الأحرار في الشمال كان يبلغ ضعف عددهم في الجنوب تقريباً، وكان ثلثا الأشخاص الأكثر ثراءً في الولايات المتحدة يعيشان في الجنوب – ٤,٥٠٠ من أصل ٧,٠٠٠ أميركي يملكون أكثر من مئة ألف دولار (أكثر من مليوني دولار بعملة اليوم).[1] كان الأرستقراطيون الأثرياء يتمتعون بالموارد ووقت الفراغ الذي يمكّنهم من السعي لشغل المناصب المنتخبة واتباع مسيرة مهنية في الحكومة، والتأثير في الانتخابات؛ وببساطة كان عددهم في الجنوب أكبر مما هو في الشمال، كما كانت النخب الجنوبية تسيطر على المناصب الحكومية العليا؛ فمعظم الرؤساء ونوّاب الرؤساء، والوزراء في الحكومة، وكبار المسؤولين الحكوميين، وأعضاء مجلس الشيوخ، وكبار القضاة، كانوا من الجنوب.

أما لنكولن فقد كان من خلفية متواضعة جداً. كان محامياً علَّم نفسه بنفسه، وبدأ مسيرته المهنية سياسياً في إلينوي (التي كانت حينذاك ولاية على الحدود الشمالية الغربية للبلاد)، بعيداً عن مراكز القوة في فيرجينيا والساحل الشرقي، وكان مختلفاً جداً عن الأرستقراطيين الأثرياء الذين كانوا يهيمنون على الجمهورية الشابة. لم تؤخذ طموحات لنكولن الرئاسية على محمل الجد، حتى وقت متأخر جداً من اللعبة. في الواقع، كان معروفاً أكثر بسبب حالات إخفاقه السابقة أكثر

1- David Brion Davis, "Slavery, Emancipation, and Progress," in *British Abolitionism and the Question of Moral Progress in History*, edited by Donald A. Yerxa (Columbia, SC: University of South Carolina Press, 2012), 18–19.

ممّا كان معروفاً بنجاحاته، فكيف صعد هذا المحامي الذي علَّم نفسه بنفسه والقادم من أقصى البلاد إلى الرئاسة؟

على الرغم من أنّ أميركا خمسينيات القرن التاسع عشر وأميركا عشرينيات القرن الحادي والعشرين بلدان مختلفان جداً، فإنهما يتشاطران عدداً من أوجه الشبه اللافتة، فبين عشرينيات القرن التاسع عشر وستينياته، تراجعت الأجور النسبية، وهي نسبة المخرجات الاقتصادية التي تُدفَعُ أجوراً للعاملين، بنحو ٥٠ بالمئة - تماماً كما حدث في أثناء العقود الخمسة الماضية.[١] وكان أثر ذلك في رفاه الأميركيين العاديين مدمراً، وقد سُجّلت هذه النزعة على أفضل نحوٍ استناداً إلى المعايير البيولوجية لجودة الحياة، فقد انخفض مُتوسّط العمر المتوقع في سن العاشرة ثماني سنوات، وبدأ طول الأشخاص المولودين في أميركا، الذين كانوا في القرن الثامن عشر أطول بشر على سطح الأرض، بالتقلص. والبؤس يولِّد الاستياء، وكانت علاماته طاغية في كل مكان، وتمثّلت إحدى العلامات الواضحة لتنامي الضغوط الاجتماعية في عدد حالات الشغب الحضرية، فبين عامَيْ ١٨٢٠ و١٨٢٥، لمّا كانت الأحوال جيدة، حدثت أعمال شغب قاتلة مرة واحدة فقط (أي، شغب عنيف قُتِلَ فيه شخصٌ واحد على الأقل). أما في السنوات الخمس التي سبقت الحرب الأهلية، ١٨٥٥-١٨٦٠، فقد ضربَ المُدنَ الأميركية ما لا يقلُّ عن ٣٨ حالة شغب قاتل. تمثلت علامة إضافية على تنامي الاستياء الشعبي في صعود الأحزاب الشعبوية، مثل 'حزب لا أعرف شيئاً' (Know-Nothing Party) المعادي للهجرة.

١- كان المزيج المحدد للقوى التي دفعت هذه الانحدارات مختلفاً، لأن المجتمع الأميركي تغير تغيراً كبيراً على مدى السنوات المئة والخمسين في حقيبة ما قبل الحرب. أؤجل مناقشة أسباب التراجع النسبي للأجور في العقود الأخيرة إلى الفصل الثالث. وتُناقَش أسباب انخفاض الأجور بين عشرينيات القرن التاسع عشر وستينياته في الفصلين الثامن والتاسع من عصور الخلاف. باختصار، كان سبب الانخفاض فائض العرض من العمالة الناجم عن الأعداد الكبيرة من المهاجرين من الخارج، إضافة إلى الهجرة من المناطق الريفية المكتظة على الساحل الشرقي.

عامل آخر ذو صلة بصعود لنكولن، والحرب الأهلية التي أشعلَ انتخابُهُ فتيلَها، كان الإنتاج المفرط للنخب، فبعد عام ١٨٢٠، لم تذهب معظم المكاسب من الاقتصاد المتنامي إلى العمال، بل إلى النخب؛ ومن ثم ارتفع عدد النخب، وازدادت ثرواتهم على نحو كبير. بين عامَيْ ١٨٠٠ و١٨٥٠، ارتفع عددُ أصحاب الملايين (أصحاب المليارات بنقود اليوم) من نحو خمسة إلى نحو مئة، وبالتأكيد فإنّ عددَ سُكّان البلاد ارتفعَ أيضاً (من خمسة ملايين إلى ثلاثة وعشرين مليون نسمة)، لكنَّ عددَ أصحاب الملايين لكل مليون من السكان تضاعف في هذه المدة أربع مرات.[١] كان الحد الأقصى للثروة في عام ١٧٩٠ مليون دولار (كان يملكها إلياس ديربي Elias Derby)، وارتفع إلى ثلاثة ملايين دولار (كان يملكها وليام بينام William Bingham بحلول عام ١٨٠٣)، ثم ارتفع المبلغ كما لو أنه لم تَعُدْ هناك حدود: ستة ملايين دولار (يملكها ستيفن جيرارد Stephen Girard) في عام ١٨٣٠، ثم إلى عشرين مليون دولار (يملكها جون ج. أستور John J. Astor) في عام ١٨٨٤، وارتفع إلى أربعين مليون دولار (يملكها كورنيليوس فاندربيلت Cornelius Vanderbilt) في عام ١٨٦٨.[٢] وتظهر مجموعة من الإحصاءات الأخرى التي تتناول طبقات مختلفة من الأثرياء، تظهر جميعها النزعة نفسها. الفقراء يزدادون فقراً، والأثرياء يزدادون ثراءً.

وكانت الثروة الجديدة تتحقق مادياً بفضل المناجم، والسكك الحديدية، وإنتاج الحديد، وليس القطن والتجارة الخارجية، وكان أصحاب الملايين الجدد يشعرون بالغضب في ظل حكم الأرستقراطية الجنوبية، بالنظر إلى أن مصالحهم الاقتصادية كانت مختلفة عن مصالح النخب التقليدية، إذ كانت النخب الجديدة، التي جمعت ثرواتها من التصنيع، تفضل فرض رسوم مرتفعة على الواردات لحماية الصناعات الأميركية الناشئة، ولدعم الدولة لـ "التحسينات الداخلية (شق الطرقات السريعة، وحفر الأقنية، وبناء السكك الحديدية). أما النخب التقليدية،

---

١ - جميع هذه النزعات موصوفة في كتابي *Ages of Discord*.

2- Phillips, *Wealth and Democracy*.

التي كانت تزرعُ القُطنَ وتُصدِّرُهُ، وتستورد السلع المصنَّعة من الخارج، فكان من الطبيعي أن تفضل الرسوم الجمركية المنخفضة، كما كانت تعارض استخدام أموال الدولة لإجراء تحسينات داخلية، لأنها كانت تنقل منتجاتها عبر الأنهار والبحار إلى الأسواق العالمية. أما النخب الاقتصادية الجديدة فقد كانت تفضل التصنيع الداخلي، واستبدال الواردات، وتصدير المنتجات الزراعية، مثل القمح، الذي يُنتَج بوساطة العمالة المجانية. بدأ رجال الأعمال هؤلاء بالمجادلة في أنَّ إحكامَ مالكي العبيد الجنوبيين قبضتَهم على الحكومة الاتحادية يمنعُ إجراءَ الإصلاحات الضرورية في النظام المصرفي ونظام النقل، ومن ثم يُهدّد رفاهيتهم الاقتصاديّة.

إضافةً إلى ذلك، فإن الازدياد الكبير في أعداد النخب دمَّرَ التوازُنَ بين العرض والطلب على المناصب الحكومية، فبعض أصحاب الثروة كانوا يترشحون للمناصب بأنفسهم، في حين كان آخرون ينفقون مواردهم على السياسيين المتنافسين. إضافةً إلى ذلك، فإنّ أبناءَ العائلات التجارية كانوا غالباً يختارون المهن – ومهنة القانون على نحو خاصّ، إذ إنّ الحصولَ على تدريب قانوني كان، ولا يزال، المسارَ الرئيسَ إلى المنصب السياسي في الولايات المتحدة، وكانَ من السهل نسبيّاً أن يصبح المرء محامياً في تلك المرحلة، لأنه لم تكن هناك حاجة إلى درجة جامعية من كلية للحقوق. وولَّدت الأعداد المتزايدة من المحامين، بمن فيهم لنكولن، عدداً متزايداً من الطامحين إلى المناصب السياسية، وفي الوقت نفسه، ظلَّ المعروضُ من المناصب السياسية راكداً. على سبيل المثال، إنَّ عدد النواب في الولايات المتحدة بين عامَيْ ١٧٨٩ و١٨٣٥ ارتفع من ٦٥ إلى ٢٤٢، لكنه توقّفَ عن الارتفاع بعد ذلك.[١] مع انفجار عدد أفراد النخب الطامحين، اشتدّت المنافسةُ على السلطة السياسية.

وكان ذاك زماناً أكثر فظاظة؛ واتخذ الصراع بين النخب أشكالاً عنيفة جداً. في الكونغرس، ارتفعت حوادث العنف والتهديد بالعنف، ووصلت إلى ذروتها

١- حدثت الزيادة التالية الكبيرة في عام ١٨٧٣، من ٢٤٣ إلى ٢٩٣. انظر George B. Galloway, *History of the House of Representatives* (New York: Crowell, 1976).

في خمسينيات القرن التاسع عشر. ويُعدُّ حادث قيام النائب بريستون بروكس (Preston Brooks)، من ساوث كارولينا بضرب عضو مجلس الشيوخ تشارلز سومنر (Charles Sumner) من ماساشوستس بالعصا في قاعة مجلس الشيوخ عام ١٨٥٦ المثال الأشهر على مثل هذا العنف، لكنه لم يكن المثال الوحيد. في عام ١٨٤٢، بعدَ أنْ وبّخَ النائبُ توماس أرنولد (Thomas Arnold)، من بينسين عضواً نصيراً للعبودية من حزبه، هاجمه ديمقراطيان جنوبيان، وكان أحدهما على الأقل مسلحاً بسكين 'بووي'، وهي سكين ذات شفرة من ٦ إلى ١٢ إنشاً، وتُثبّت بحزام على الظهر. وصف زملاء أرنولد الغاضبين زميلهم بـ 'الجبان اللعين، وهدّدوه بقطع رقبته "من الأُذُن إلى الأُذُن."[1] وفي مناظرة في عام ١٨٥٠، أشهرَ عضوُ مجلس الشيوخ هنري فوت (Henry Foote) مُسدَّساً، ووجّهَهُ إلى عضو مجلس الشيوخ توماس هارت بينتون (Thomas Hart Benton) من ميزوري. وفي مناظرة مريرة أخرى، أسقط أحد أعضاء الكونغرس مسدسه عرضاً على الأرض – سقط من جيبه – وكاد يُسبِّبُ تبادلاً واسعاً لإطلاق النار في قاعة الكونغرس.[2] كان لنكولن جُزءاً من هذه الممارسات السياسية الخشنة، ولا سيما في مطلع مسيرته المهنية، وكثيراً ما كان يتهجم لفظياً على خصومه، وفي مرّاتٍ عدّة كاد يتعارك معهم بالقبضات، وفي إحدى المرات كاد يُقاتِلُ في مبارزة.

وكانت الخلافات بشأن السياسة الاقتصادية والمنافسة على المناصب السياسية تولِّد حوافز قوية لكسر الهيمنة الجنوبية على الحكومة الاتحادية، وتخبرنا كتب التاريخ المدرسية بأن الحرب الأهلية الأميركية خيضت حول قضية العبودية، لكنّ هذه ليست القصّةَ كاملةً، فالطريقةُ الأفضل لتشخيص هذا الصراع تتمثل في القول إنها خيضت حول قضية "العبيدقراطية" (slavocracy). بالفعلِ، على الرغم من أنه بحلول عام ١٨٦٠ كانت أغلبية الشماليين تشعرُ بأن

1- Joanne B. Freeman, "When Congress Was Armed and Dangerous," *New York Times*, January 11, 2011, https://www.nytimes.com/2011/01/12/opinion/12freeman.html.

2- David M. Potter, *The Impending Crisis*, 1848–1861 (New York: Harper & Row, 1976).

العبوديةَ خطأٌ أخلاقيّ، فإنّ الأقليّةَ الضئيلة، دُعاةَ إلغاء العبودية الشماليين، كانت تشعر بما يكفي من القوة لجعل هذه القضية محوريةً في برنامجها السياسي. في الجنوب، كانت "تلك المؤسسة ذات الخصوصية" مربحة جداً للأغلبية الساحقة من البيض (بالنظر إلى أن معظمهم إمّا كانوا يملكون العبيد، وإمّا يطمحون إلى امتلاكهم)، بحيث إنهم شعروا بأنهم مجبرون على الدفاع عنها. ومن الواضح أنّ معظم البيض الشماليين لم تُشكِّلْ لهم محنةُ البشر السود المستعبدين حافزاً كافياً للقتال والموت من أجل تلك القضية. لكن بالنظر إلى أنّ العبوديةَ وفَّرت قاعدةً اقتصادية للهيمنة الجنوبية، فإنّ هجوماً سياسياً على مالكي العبيد يمكن أن يُعزِّزَهُ هجومٌ أيديولوجي على العبودية. احتشدت أغلبية الشماليين ضدَّ "قوة العبيد" – أي الجنوبيين الأرستقراطيين الأثرياء – وهيمنتهم على الحياة السياسية الوطنية، وعكس برنامج لنكولن السياسي هذه المشاعر. في البداية، لم يكن يعتزم إلغاء العبودية في الجنوب، لكنه كان يعارض بقوة تمدد العبودية (وقوة العبيدقراطية) إلى ولايات جديدة.

الباقي محضُ تاريخ. نجم عن انهيار 'نظام الحزب الثاني' مشهد سياسي متشرذم في خمسينيات القرن التاسع عشر، فقد تنافس أربعة مرشحين رئيسيين في الانتخابات الرئاسية لعام ١٨٦٠، وحصل لنكولن على أقلّ من ٤٠ بالمئة من الأصوات، لكنه فاز في الهيئة الانتخابية (Electoral College). انفصل الجنوب، وهذا ما أشعلَ فتيلَ الحرب الأهلية. ونجم عن انتصار الشمال في الحرب الإطاحة بالطبقة الحاكمة التي حكمت قبل الحرب، واستُبدلت بنخبة اقتصادية جديدة هيمنت على الدولة الأميركية منذ ذلك الحين. (وسنناقش هذا بالتفصيل في الفصل الخامس.)

ثمة أوجه شبه كثيرة بين عصر الخلاف الذي نعيش فيه الآن والعصر الذي انتهى بالحرب الأهلية قبل ١٦٠ عاماً. يقول المعلقون اليوم إنهم يشعرون كأننا نعيش خمسينيات القرن التاسع عشر من جديد، وبالفعل، على الرغم من أن أميركا ما قبل الحرب وأميركا اليوم بلدان مختلفان تماماً، لكنهما يتشاطران كثيراً

من أوجه الشبه. دعونا ننظر الآن إلى فرد آخر من طامحي النخبة عاش أيضاً في أوقات مضطربة، وصَعِدَ إلى ذروة السلطة. هذه المرة، ننتقل من نصف الكرة الغربيّ إلى الصين.

هونغ: إمبراطور لم يكن مُتوقَّعاً

قبل ٢٠٠ عام، كان اقتصاد الصين أقوى اقتصاد في العالم؛ إذ كان يبلغ نحو ثلث الناتج المحلي الإجمالي العالمي.[١] اليوم، الناتج المحلي الإجمالي للصين، محسوباً بمعادل القوة الشرائية، هو الأكبر مرة أخرى، إذ يتجاوز ثاني أكبر ناتج محلي إجمالي وطني (الولايات المتحدة الأميركية) بنحو ٢٠ بالمئة، لكنْ بين هاتين المرحلتين من الرخاء، عانت الصين قرناً من الجحيم، أو 'قرن الإذلال'، كما تشير الصين إليه الآن. بعد عام ١٨٢٠، بدأ الناتج المحلي الإجمالي الصيني بالانكماش، وبحلول عام ١٨٧٠ تراجع إلى أقلّ من نصف مثيله في أوروبا الغربية. عانت البلاد مما بدا سلسلة لا نهاية لها من المجاعات، وحالات التمرد، والهزائم المذلة على أيدي أعداء خارجيين، وكانت أسوأ كوارثها تمرد تايبينغ (١٨٥٠-١٨٦٤)، الذي طغت عليه السمة الحزينة الـمُتمثِّلة في أنها كانت الحرب الأهلية الأكثر دموية في التاريخ. كيف أصبحت الصين "الرجل المريض في شرق آسيا"؟ ما الذي يُفسِّرُ تعافيها الإعجازي على مدى الخمسين عاماً الماضية؟

بين عامي ١٩٤٤ و١٩١٢، حكمت الصين سلالة تشينغ. على الرغم من أنّ هذه السلالة كانت قد أُسِّسَتْ بفضل احتلال منشوريا (التي لم تكن جزءاً من الصين قبل تشينغ)، فقد تبنى المنشوريون بسرعة أشكال الحوكمة الصينية التقليدية. ما ميز إمبراطورية تشينغ أنها كانت تحت حكم طبقة من الإداريين الدارسين، الذين كان بوسعهم تحقيق الارتقاء الوظيفي فقط بعد أن يجتازوا بنجاح سلسلة من الامتحانات المتزايدة صعوبة. وكانت أغلبية السكان، أكثر من

١- في عام ١٨٢٠، كان الاقتصاد الصيني الأكبر على وجه الأرض، وبهامش كبير، حيث بلغ ٣٢,٩ بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي. انظر: Angus Maddison, *The World Economy: Historical Statistics* (Paris: OECD Publishing, 2003).

٩٠ بالمئة، من الفلاحين، أمّا البقية فكانت خليطاً من الحرفيين والتجاوالجنود. لكنّ الماندرين (mandarin) – طبقة حاملي الشهادات – كانت تحكم الجميع. حتى المستويات العليا في قيادة جيوش تشينغ، كان يشغلها عادةً بيروقراطيّون دارسُون، وليسوا محاربين.

كان النصف الأول من حكم السلالة مرحلة نمو اقتصادي قوي وتميّز ثقافي. زادت التقنياتُ الزراعية المحسَّنة وتبنِّي محاصيل جديدة على نطاق واسع، مثل الذرة والبطاطا الحلوة، إنتاجَ الغذاء. كما ساعد التصنيع المبكر في تغذية نمو سكاني قوي. لكنَّ النمو السكاني لم يتوقف، حتى بعد أن استُنفدت الآثار الحميدة لهذه الابتكارات. بحلول عام ١٨٥٠، كان عدد سكان الصين قد بلغ أربعة أضعاف ما كان عليه في بداية حكم سلالة تشينغ، وتقلصت حصة الفلاح الواحد من الأراضي المزروعة ثلاثة أضعاف، وتراجعت الأجور الحقيقية، وانخفض طول السكان (وهو مقياس يمكن الركون إليه للرفاه الحيوي). لم تشهد المرحلة الأولى من حكم سلالة تشينغ مجاعات كبيرة؛ إذ وقعت المجاعة الأخيرة، في عامي ١٦٣٠ و١٦٣١ في شمال غرب الصين، مع نهاية حكم السلالة السابقة، سلالة مينغ، وأسهمت في انهيارها. حلت المجاعة التالية في عام ١٨١٠، وتبعتها سلسلة من المجاعات الأخرى: ١٨٤٦-١٨٤٩، ١٨٥٠-١٨٧٣، ١٨٧٦-١٨٧٩ (وقتلت هذه الأخيرة بين تسعة ملايين وثلاثة عشر مليون نسمة)، ١٨٩٦-١٨٩٧، و١٩١١ (التي أشعلت فتيل الثورة التي قضت على حكم سلالة تشينغ). من الواضح أنه بعد عام ١٨٠٠ ارتفع مستوى البؤس الشعبي ارتفاعاً كبيراً.[1] وماذا عن الإفراط في إنتاج النخب؟

في أثناء حقبة سلالة تشينغ، كانت النخب تُستَقدَم بوساطة نظام الامتحانات المدنية، التي كانت تتكون من مستويات عدّة من الشهادات، التي تُمنح للمرشحين الناجحين في الامتحانات على المستوى المحليوالإقليمي وعلى

1- Georg Orlandi et al., "Structural-Demographic Analysis of the Qing Dynasty (1644–1912) Collapse in China," preprint, submitted November 2, 2022.

مستوى البلاط. وعمل هذا النظام بنجاح في النصف الأول من حكم سلالة تشينغ، وضمن مستوى رفيع من القرائية والكفاءة في أوساط البيروقراطيين. وساعدت دراسة أعمال كونفوشيوس الكلاسيكية في خلق روح مشتركة – شعور مشترك بالثقافة، والأخلاق، والمجتمع – داخل الطبقة الحاكمة. وعزّزَ تأكيدُها الترقيةَ طبقاً للجدارة من شرعيّةِ الدولة.

يا للأسف! تبيَّن أن نظام الخدمة المدنية هش جداً أمام ضغوط النمو السكاني. كان عدد المناصب الرسمية يُحدَّد أساساً بعدد الوحدات الإدارية، التي تُراوِحُ بين الأقاليم (على أعلى مستوى) إلى المقاطعات (على المستوى المحلي)، ومن ثم فإن عدد مناصب السلطة كان ثابتاً نسبياً، في حين أن عدد الطامحين إليها كان يكبر طوال حقبة سلالة تشينغ، تغذيه الزيادة بأربعة أضعاف في عدد سكان الصين. ارتفع عدد أفراد النخبة الطامحة، ليس بسبب ازدياد عدد السكان الذين يشكلون مصدر النخب فحسب، بل أيضاً بسبب وجود نمو كبير في الطبقة التجارية الثرية، التي كانت تُقدِّمُ طامحينَ جُدداً يهدفون إلى الانضمام إلى صفوف المتعلمين. ودون أن تقصد فعل ذلك، حضّرت إمبراطورية تشينغ للعبة الكراسي الطموحة. تشكلت كتلة هائلة من الطموحين المحبطين، الذين لم يكن لديهم أمل في الحصول على منصب رسمي، في الصين نحو عام ١٨٥٠.

كان هونغ شوكوان (١٨١٤-١٨٦٤)، قائد تمرُّد تايبينغ، واحداً من هؤلاء الطامحين المحبطين. كان الابن الثالث لأسرة ثرية تستطيع تحمّل تكاليف استقدام مدرسين ليوفروا له تعليماً رسمياً. اجتاز بنجاح المستوى الأول من امتحان الخدمة المدنية ليصبح مُجازاً (يعادل مستوى درجة الماجستير تقريباً)، لكنه اصطدم بحائط صلب بعد ذلك. حاول هونغ اجتياز أحد الامتحانات الإمبراطورية أربع مرات، وأخفق في كل مرة.

بعد أن أخفق هونغ في اجتياز الامتحان للمرة الثالثة، بدت الفجوة بين طموحه والواقع أكبر من أن يستطيع تحمله. أصيب بانهيار عصبي، ومرض،

وشارف على الموت. وبينما كان مريضاً، تعرض لسلسلة من الرؤى الدينية. لاحقاً، بعد أن قرأ كتيبات باللغة الصينية نشرها المبشرون المسيحيون، جمع ما تعلمه منها عن المسيحية مع رؤاه لصياغة دين توفيقي، كان أحد أهدافه تطهير الصين من الكونفوشيوسية، التي كانت دين الدولة في الصين في أثناء حكم سلالة تشينغ. وفي حين فكر هونغ بدينه الجديد على أنه نسخة عن المسيحية، فإن المسيحيين التقليديين، والمبشرين الغربيين، اختلفوا معه بشدة.

بعد إخفاقه في الامتحان الإمبراطوري على مستوى الإقليم للمرة الرابعة في عام ١٨٤٣، بدأ هونغ يبشر بعقيدته الجديدة، أولاً لأقاربه وأصدقائه، ومن ثم على نطاق أوسع. أصبح اثنان من أوائل معتنقي ديانته، فينغ يونشان وهونغ رينغام، مساعديه. وكان كلاهما ممن أخفقوا في اجتياز الامتحانات الإمبراطورية، ومن ثم فإن الطامحين النخبويين المحبطين الثلاثة تحولوا إلى نخب مضادة. لاحظت السلطات تحركاتهم، وأرسلت قوات لقمع حركة تايبينغ الناشئة، التي سماها هونغ "جمعية عَبَدة الله". المفارقة أن تايبينغ تعني "السلام العظيم،" لكنَّ ما جلبته تايبينغ للصين لم يكن السلام، بل أكثر حالات التمرد دمويّةً في تاريخ العالم.

في السنوات القليلة الأولى من عمر الحركة، اتسعت ببطء. في عام ١٨٤٧ كان هناك ألفا تابع فقط لجمعية هونغ، نُظِّموا في عدد كبير من التجمعات المستقلة، وكانوا يصابون بنوبات من التحدث بلغات غريبة. ما يُنذِرُ بالخطر من منظور السلطات هو أنهم بدؤوا بمهاجمة المعابد البوذية وتحطيم التماثيل أو "الأصنام". ارتفع عدد أفراد الجمعية فجأة ارتفاعاً كبيراً في أثناء جائحة عام ١٨٥٠، لمّا انتشرت شائعةٌ مفادُها أنَّ المرضى كانوا يشفون بالصلاة لإله تايبينغ.[1]

شعر مسؤولو تشينغ بالقلق حيال هذا التهديد الجديد، فأرسلوا الجنود لاعتقال هونغ شوكوان وفينغ يونشان، هاجم تجمُّعٌ من عبدة الله، مُسلَّحٌ بالسيوف

1- Stephen R. Platt, *Autumn in the Heavenly Kingdom*: *China, the West, and the Epic Story of the Taiping Civil War* (New York: Vintage Books, 2012).

والرماح الجنودَ الإمبراطوريين، وهزمَهم بسهُولة. بعد هذا النصر، دعا هونغ أتباعه إلى الاجتماع معاً للمرة الأولى. وفي السنة التالية، ١٨٥١، أعلن هونغ شوكوان تأسيس المملكة السماوية لتايبينغ، وأعلن نفسه إمبراطوراً سماوياً عليها. باعت أعداد كبيرة من أتباعه ممتلكاتها، واحتشدت تحت رايته. وعلى مدى العامين التاليين، سار جيش تايبينغ شمالاً خلال إقليم غوانغ شي، وهو يحارب قوات تشينغ التي كانت تحاول القضاء على التمرد. بدأ هونغ بعشرة آلاف جندي، لكنَّ الظرفَ العامَّ السائدَ في الصين في تلك المرحلة،الـمُتّسم بالبؤس الشعبي، وبانعدام ملكية الأرض، وبانهيار النظام في الريف، ضمنَ له قدوم أعداد كبيرة من المجندين الجدد. بحلول عام ١٨٥٣، بلغ عددُ أفرادِ جيشِ تايبينغ نصفَ مليون.[1] يشكل اجتماع البؤس الشعبي مع الإفراط في إنتاج النخب مزيجاً انفجارياً، إذ إن الجماهير الفقيرة جداً تولِّد طاقة طبيعية قوية، في حين توفر الكوادر المكونة من النخب المضادة تنظيماً لتوجيه تلك الطاقة ضد الطبقة الحاكمة.

في آذار ١٨٥٣، احتل جيش تايبينغ نانجنغ، العاصمة الجنوبية للصين، ولأكثر من عقد بعد ذلك، حكم هونغ شوكوان مملكة مع عاصمتها نانجنغ، واحتل جزءاً كبيراً من جنوب شرق الصين، الذي بلغ عدد سكانه في أوجه ٣٠ مليون نسمة، وكاد ينجح في إسقاط سلالة تشينغ، بالنظر إلى أن أجزاء أخرى من الصين كانت تمر أيضاً بحالات تمرد كبرى في الوقت نفسه، لكنّهُ في النهاية خسر. بعد سنوات من القتال، حاصر جيش لسلالة تشينغ بقيادة الجنرال زينغ غوفان نانجنغ. مرض هونغ، ومات في ١ حزيران/ يونيو ١٨٦٤، وبعد ذلك بشهر، سقطت نانجنغ، وانتهت تجربة السلام العظيم.

لـمّـا كان هونغ شاباً، كان مثابراً؛ وكما أثبتت مسيرته اللاحقة فإنه كان شخصية لامعة على طريقته، لكنْ كان هناك عددٌ أكبر ممّا ينبغي من الطامحين مقابل عدد محدود من المناصب، وانتهى الأمر به في حشد كبير من الطامحين

1- Platt, *Autumn in the Heavenly Kingdom*, 18.

المحبطين، ولم يكن وحده؛ فقد كان مساعدوه وأكثر من نصف المستوى التالي من قادة تمرُّد تايبينغ من المرشحين الذين أخفقوا في اجتياز الامتحانات الإمبراطورية.[1]

عدو هونغ الأبرز، الجنرال زينغ غوفان، تحدّر أيضاً من خلفية متواضعة.[2] فقد كان زينغ الأكبر بين خمسة أشقاء ولدوا لأسرة زراعية. كان والده غنياً نسبياً، ويستطيع تحمل تكاليف تعليمه، لكنَّ زينغ أخفقَ في الامتحانات على مستوى المنطقة، وهو الامتحان الأدنى مستوى، ستَّ عَشْرَةَ مرّةً! – قبل أن يجتازه أخيراً. أخفق زينغ غوفان في الامتحان نفسه ست مرات (فقط)، واجتازه لـمّـا كان في الثانية والعشرين. في السنة التالية، اجتاز زينغ امتحان الإقليم (المستوى الذي أخفقَ فيه هونغ شوكوان أربع مرات). وأخيراً، بعد أن أخفق مرتين في الامتحان الأعلى مستوى، وهو الامتحان الإمبراطوريّ في العاصمة، اجتازه في المحاولة الثالثة بمرتبة الشرف. أخيراً، انتهى الأمر به في هونان، وهو إقليم على الحدود الغربية لإمبراطورية تايبينغ المتنامية. ومن هنا، فإنه كان على زينغ أن يُنظِّمَ ويقودَ القوةَ الرئيسةَ لسُلالة تشينغ التي هزمت تمرُّد تايبينغ بعد صراع طويل. في تمرُّد تايبينغ، الذي كاد يُسقِطُ إمبراطورية تشينغ، كان الجانبان بقيادة أحد أفراد النخب التقليدية وطامح نخبوي مُخفِق تحوّلَ إلى أحد أفراد النخبة المضادة.

الطريق إلى الأزمة

كان دونالد ترامب، وأبراهام لنكولن، وهونغ شوكوان طامحين نخبويين مختلفين جداً عاشوا في عوالم مختلفة تماماً. على الرغم من ذلك، وعلى مستوى عميق، كان في مساراتهم الشخصية كثير من المشتركات، فجميعهم عاشوا (أو يعيشون) في عصر من الخلاف، تصاعدت فيه الضغوط الاجتماعية لزعزعة

1- Orlandi et al., "Structural-Demographic Analysis of the Qing Dynasty (1644–1912) Collapse in China."

2- Platt, *Autumn in the Heavenly Kingdom*, 114–16.

الاستقرار – البؤس والإفراط في إنتاج النخب، وكان ثلاثتهم من الطامحين النخبويين الذين وصلوا إلى قمة السلطة، ولو لوقت قصير، وجميعهم حكموا في حين كانت بلادهم في حالة تفكك.

تفاوت حجم الكوارث التي تلت صعود هؤلاء الطامحين الثلاثة إلى السلطة تفاوتاً كبيراً جداً. ولا شك في أن تمرد تايبينغ كان الأسوأ، إذ يمكن القول إنها كانت الحرب الأهلية الأكثر دموية في التاريخ البشري. استمرت ١٤ عاماً، وقُتِلَ فيها ما بين ثلاثين مليون شخص وسبعين مليوناً.

وتبقى الحرب الأهلية الأميركية، التي سقط في أثنائها ٦٠٠,٠٠٠ ضحية، الصراع الأميركي الأكثر دموية، كما قضى في هذا الصراع أبراهام لنكولن، الذي اغتاله جون ويلكس بوث، الذي كان ممثلاً ومتعاطفاً مع الكونفدراليين.

كان لرئاسة دونالد ترامب أخف التبعات (على الأقل حتى الآن)، لكنّهُ كانَ رئيساً في أثناء جائحة كان عدد الذين ماتوا بسببها أكبر من عدد أولئك الذي ماتوا جراء الإنفلونزا الإسبانية؛ وكانت سنة ٢٠٢٠ سنة من الجحيم، لـمّـا أدّتْ الاضطرابات السياسية إلى مقتل خمسة وعشرين شخصاً،[١] وأصيب فيها أكثر من عشرة آلاف شخص،[٢] وبلغت الأضرار أكثر من ملياري دولار.[٣] وتوجت رئاسته بالهجوم على مبنى الكابيتول، الذي شكل صدمة هائلة للنظام السياسي الأميركي. إننا لا نعرف حتى الآن، بالتأكيد، كيف ينتهي عصر الخلاف الذي

١- ذكر مشروع بيانات مواقع الصراعات المسلحة وأحداثها (https://acleddata.com/) أن خمسة وعشرين أميركياً ماتوا في الاضطرابات السياسية عام ٢٠٢٠.

2- *MCCA Report on the* 2020 *Protests and Civil Unrest* (Salt Lake City: Major Cities Chiefs Association, October 2020), https://majorcitieschiefs.com/wpcontent/uploads/2021/01/MCCA-Report-on-the-2020-Protest-and-Civil-Unrest.pdf.

3- Thomas Johansmeyer, "How 2020 protests changed insurance forever," World Economic Forum, February 22, 2021, https://www.weforum.org/agenda/2021/02/2020-protests-changed-insurance forever/.

نعيشه؛ فتاريخ المستقبل لم يُكتَب بعد، لكنَّ ما نعرفه هو أن القوتين التوءمين اللتين تدفعان أميركا نحو الحرب الأهلية – البؤس والإفراط في إنتاج النخب – مستمرتان دون هوادة في عام ٢٠٢٢. ما الذي يمكن أن ينبئنا به التاريخ بشأن مثل تلك المراحل التي تسودها الأزمات؟

الفصل الثاني

لنأخذ خطوة إلى الوراء: دروس التاريخ

خارطة الطريق

تُواجِهُ المجتمعاتُ البشرية المعقدة والمنظمة في شكل دول موجاتٍ مُتكرِّرة من عدم الاستقرار السياسي، ويتمثل النمط الأكثر شيوعاً في تناوب المراحل التكاملية (integrative) والتفككية (disintegrative) التي تدوم نحو قرن من الزمن تقريباً. تتميز المراحل التكاملية بالسلام الداخلي، والاستقرار الاجتماعي، ووجود نخب متعاونة نسبياً. أما المراحل التفككية فإنها تتميّز بعكس ذلك، من عدم استقرار اجتماعي، وانهيار التعاون بين النخب، واندلاعات دائمة للعنف السياسي، في شكل حالات تمرد، وثورات، وحروب أهلية. ثمة تنويعات على هذا الشكل الشائع؛ وسأتحدث لاحقاً عن الأسباب التي تجعل بعض الدورات أقصر، وبعضها أطول. كما أن حدَّة الأزمة تتفاوت. على الرغم من هذا التنوع، فإن زمن المشكلات يَحُلُّ دائماً. حتى الآن، لم نرَ استثناءً لهذه القاعدة؛ فما من مجتمع درسه فريقنا شهد مرحلة تكاملية استمرت أكثر من نحو مئتي عام.[1]

لمراجعة عرض مفصل لتاريخ الكليوديناميكا (cliodynamics) ومنهجيته، ولا سيما علاقتها بالنموذج الذي يتمحور حوله هذا الكتاب، يرجى مراجعة الفصول (آ ١) و(آ ٢) في الملحق. وجوهر تلك الحكاية أن شبكة بحثية كبيرة، دأبتُ على تنسيقها على مدى العقد الماضي، بنت قاعدة بيانات كبيرة تشمل مئات

1- Daniel Hoyer et al., "How long were periods of internal peace and stability in historical polities? An analysis with CrisisDB." مخطوطة قيد الإعداد..

الدول التاريخية والمعاصرة، مع تركيز خاص على كيفية انزلاق المجتمعات إلى الأزمات السياسية، ومن ثم خروجها منها، وبدرجات متفاوتة من النجاح. يُظهر تحليل قاعدة بيانات الأزمات هذا (CrisisDB) أدلة واضحة على أنه على الرغم من الاختلافات الكثيرة بين الحالات، الواضحة منها وغير الواضحة جداً، فإننا نرى خطوطاً مشتركة متينة فيما بينها.

يشير تحليلنا إلى أربع قوى هيكلية دافعة إلى عدم الاستقرار تتمثل في البؤس الشعبي، الذي يُفضي إلى احتمال قيام تعبئة جماهيرية؛ وإفراط في إنتاج النخب، وهذا ما ينجم عنه صراع داخل صفوف النخبة؛ واعتلال مالي وضعف شرعية الدولة؛ وعوامل جيوسياسية. وتتمثل القوة الدافعة الأكثر أهمية في هذه العملية في التنافس والصراع الحاصلين داخل صفوف النخب، اللذين يُعدَّان متنبئين يمكن الركون إليهما بأزمة تلوح في الأفق، وثمّة عواملُ أُخرى تكون موجودة عادة، لكنها ليست عامة وشاملة. على سبيل المثال، فيما يتعلّق بالإمبراطوريات الكبيرة والقوية، تنزع العوامل الجيوسياسية إلى أن تكون ذات أهمية أقل، إذ إن مثل تلك الدول تكون أكبر من أن تتأثر بما يفعله جيرانها، في حين يتولد الانهيار الاجتماعي فيها بسبب قوى داخلية، وبالاستعارة من أرنولد توينبي، فإن الإمبراطوريات العظمى لا تموت قتلاً، بل انتحاراً.[1]

لا بد لي من ذكر عامل إضافي يزيد في تعقيد المسألة، فحين ننظر على نحو وثيق إلى المراحل التفككية، نكتشف أنها ليست جميعها قاتمة بالدرجة نفسها. بدلاً من ذلك، ينزع مستوى العنف الجماعي إلى اتباع إيقاع معين، ففي حين يقاتل جيل في حرب أهلية شاملة، يحافظ جيلٌ تالٍ ("جيل الأبناء")، الذي حمل ندوب هذا العنف، على سِلم قلق. أما الجيل التالي ("جيل الأحفاد")، الذي نشأ من دون أن يتعرض مباشرة للعنف، فإنه يكرر أخطاء أجداده. تطلق هذه

١ - يمثل هذا القول المأثور الذي اقترحته في كتابي **الحرب والسلام والحرب** (*War and Peace and War*: *The Rise and Fall of Empires*, New York: Plume, 2007)، إعادة صياغة لعبارة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي عن الحضارات.

الديناميكية دورة متكررة من العنف تدوم خمسين عاماً تقريباً (أي جيلين من البشر)، وتستمر إلى أن تُسوَّى الظروف البنيوية على نحو ما، وعلى نحو يفضي إلى المرحلة التكاملية التالية.

دعونا الآن نجعل هذه الأفكار النظرية ملموسة بتتبع ديناميكيات عدم الاستقرار الاجتماعي وانهيار الدولة في منطقة محددة على مدى مدة طويلة من الزمن. سأبدأ مسحي لدورات عدم الاستقرار في فرنسا القروسطية، المملكة الأكثر ثراءً وقوة في أوروبا الغربية في العصور الوسطى العليا.[1] ثم سنتحرك إلى الأمام زمنياً، ونتتبع الموجات المتتالية لعدم الاستقرار في فرنسا، وفي أوروبا الغربية عامةً. اخترت أوروبا هنا لأن لدينا كمية كبيرة من البيانات الكمية التي يمكن أن نعتمد عليها، والتي تُنبِئُنا باتجاهات البؤس الشعبي، والصراع داخل النخب، والقوى الدافعة الرئيسة لعدم الاستقرار، لكن أرجو ألّا تخطئوا في الاعتقاد بأن القوى التاريخية التي تُفضي إلى الأزمات ذات طبيعة أوروبية مركزية، إذ إنّ المجتمعات المعقَّدة جميعاً عرضة لها.

أزمة العصور الوسطى المتأخرة في فرنسا

كان القرن الثالث عشر العصر الذهبي لفرنسا في العصور الوسطى، إذ تضاعفت المنطقة التي يحكمها التاج الفرنسي مباشرة ثلاث مرات في هذا القرن، وبحلول عام ١٣٠٠، أصبحت فرنسا تهيمن على أوروبا الغربية عسكرياً، وسياسياً، وثقافياً، وبلغَ عددُ سُكّانها أكثر من ٢٠ مليون نسمة – وكان واحد من كل ثلاثة من سكان أوروبا الغربية يدين بالولاء للملك الفرنسي، وكانت مدينة باريس التي يقطنها ٢٣٠,٠٠٠ نسمة أكبر وأفخم مدينة في العالم المسيحي اللاتيني. لم تكن فرنسا في العصور الوسطى العليا أقوى مملكة في أوروبا الغربية فحسب، بل كانت قوة ثقافية كبرى أيضاً، إذ تطور الأسلوب القوطي (gothic) في العمارة، الذي عُرف للمعاصرين بالأسلوب الفرنسي، في إيل-دو-فرانس

١- مرحلة في التاريخ الأوروبي استمرت بين عامي ١٠٠٠ و١٣٥٠. (م)

(Île-de-France)،[1] وانتشر من هناك إلى إنكلترة، وألمانيا، وإسبانيا، وشمال إيطاليا. وفي القرن الثالث عشر، أصبحت جامعة باريس المركز الرئيس للتعلُّم والفلسفة في أوروبا، فاجتذبت أفضل مفكري العصر، وأصبحت اللغة الفرنسية أهم لغة دولية في أوروبا، تتحدثها طبقة النبلاء في إنكلترة، وفلاندرز، وهنغاريا، ومملكتي نابولي وصقلية.[2]

لكن بحلول عام ١٣٠٠ تقريباً، بدأ بريق المملكة الفرنسية يخبو، وتحوَّل العصر الذهبي إلى عصر مُذَهَّب، أي طلاؤه من الذهب فحسب، وفي حين استمر بذخ النخب دون هوادة، تدهورت الأحوال المعيشية للناس العاديين، وكان السبب الكامن في جذر هذه الحالة من البؤس الشعبي الانفجار السكاني في أوروبا الغربية في القرنين اللذين سبقا عام ١٣٠٠، ففي عام ١١٠٠، كان هناك نحو ستة ملايين نسمة يقطنون المنطقة الواقعة داخل الحدود الحديثة لفرنسا، وبعد قرنين تضاعف عدد السكان أكثر من ثلاث مرات، فتجاوز ٢٠ مليون نسمة. أنهك الانفجار السكاني قدرة الاقتصاد القروسطي على توفير الأرض للفلاحين، والعمل للعمال، والطعام للجميع. كانت غالبية السكان تعيش على حافة الجوع، وأدت سلسلة من المواسم الزراعية السيئة والأوبئة التي أصابت المواشي بين عامي ١٣١٥ و١٣٢٢ إلى قلب موازين المنظومة. بحلول عام ١٣٢٥، كان عدد سكان فرنسا أقل بـ ١٠-١٥ بالمئة من الذروة التي وصل إليها في عام ١٣٠٠، ثم أتى الطاعون الأسود الذي أودى بحياة ما بين ربع ونصف السكان. بحلول نهاية القرن الرابع عشر، تقلَّص عدد سكان فرنسا إلى عشرة ملايين – أي نصف ما كان عليه عام ١٣٠٠.

وكما لو أن ملايين الوفيات لم تكن كافية، كان للكارثة الديموغرافية أثر غير مباشر في الاستقرار الاجتماعي، لكنَّهُ مُدمِّرٌ، وذلك بقلب الهرم الاجتماعي على

١- منطقة في شمال وسط فرنسا. (م)

٢- أغطي هذا الموضوع بقدر أكبر من التفاصيل في الفصلين ٩ و١٠ من **الحرب والسلام والحرب**.

نحوٍ غير مستدام. بعد عام ١٢٥٠، ارتفع عدد النبلاء بسرعة أكبر من سرعة ارتفاع عدد السكان، لأن وضعهم الاقتصادي كان أفضل من وضع العامة. في الواقع، عاد البؤسُ الشعبي بالفائدة على النخب التي حققت أرباحاً من ارتفاع أجور الأراضي، وتدنِّي أجور العمالة، وارتفاع أسعار الغذاء. بعبارة أخرى، إنَّ ارتفاعَ عددِ السكّان الهائلَ في القرن الثالث عشر أوجد مضخة ثروة أثرت مالكي الأراضي على حساب الفلاحين.

مع زيادة دخولهم، وجد كثير من النبلاء ذوي المراتب المتدنية أن تقسيم أراضيهم بين ابنين أو أكثر من شأنه أن يسمح لجميع الورثة بأن يحصلوا على ما يكفي من الدخل للاحتفاظ بمكانتهم في أوساط النبلاء، واستعمل أقطاب طبقة النبلاء الأثرياء من أصحاب الأملاك البعيدة بعض الممتلكات الموجودة في مواقع غير مواتية لتأسيس مكانة لأبنائهم كنبلاء متوسطي المرتبة، كما حدثت زيادة أيضاً في معدل الارتقاء الاجتماعي، إذ ارتقى الفلاحون الأثرياء والتجار الناجحون إلى طبقة النبلاء. ولما ضربت المجاعات والأوبئة، كانت النخب في موقع أفضل لتجاوزها، فعانت من معدلات وفيات أقل مما حدث للعامة، واجتمعت كل هذه النزعات لزيادة عدد النبلاء قياساً بعدد أفراد الطبقة المنتجة، وهذا ما جعل الهرم الاجتماعي ثقيلاً في أعلاه، وأدى، بعد مرور بعض الوقت، إلى انعكاس الحظوظ الاقتصادية لطبقة النبلاء، في حين تمتع النبلاء قبل عام ١٣٠٠ بظروف اقتصادية مواتية وُجد فيها عدد محدود نسبياً من أفراد النخبة وعدد كبير من العمال مُتدنِّي الأجور.

في منتصف القرن الرابع عشر انقلب الوضع انقلاباً كاملاً نظراً إلى افتقار النبلاء إلى الموارد اللازمة للمحافظة على مكانتهم النخبوية، فردّوا بالسعي إلى الحصول على وظائف في الدولة وانتزاع نسبة أكبر من الموارد من الفلاحين، لكن الدولة لم يكن بوسعها توظيف جميع النبلاء الـمُفْقَرِين، إذ كان هناك عدد أكبر مما ينبغي منهم، وكان التاج نفسه ينزلق إلى حالة من الإفلاس المالي، وبدأ تضخم الأسعار، المدفوع بنمو سكاني هائل، يلتهم عائدات الدولة، وأدَّت محاولات

الاستجابة إلى مطالب النخب بالضغط على الأموال الملَكية إلى درجة تجاوزت قدرتها على التحمل.

كان انتزاع عائدات أكبر من الفلاحين يعني أن الإقطاعيين تجاوزوا مرحلة الحصول على الفائض، وبدؤوا باقتطاع الموارد التي كان الفلاحون في حاجتها للبقاء على قيد الحياة. قوَّض قمع الإقطاعيين بنية القاعدة الاقتصادية التي يعتمدون هم أنفسهم عليها، إذ ردَّ الفلاحون بالهرب، والجوع أو الموت في حالات تمرُّد عبثية. ومع إخفاق هاتين الإستراتيجيتين، تحول النبلاء إلى افتراس بعضهم بعضاً، ودخلت لعبةُ فائض إنتاج النخب مرحلتَها الأخيرة والعنيفة، واندلعت الصراعات داخل النخب في أنحاء فرنسا جميعها.[1] في خمسينيات القرن الرابع عشر، وصل انهيار النظام الداخلي إلى قلب المملكة.

ولمّا توفي الملك الكبيشي (Capetian)[2] في عام ١٣٢٨ دون أن يترك وريثاً ذكراً، انتقل التاج إلى فيليب السادس، أول ملوك سلالة فالوا (Valois)، لكنْ كان هناك شخصان آخران لا تقلُّ ادعاءاتهما بالحق بالتاج قوةً عن ادعاءات سليل سلالة فالوا، وهما تشارلز الثاني من نافار وإدوارد الثالث من إنكلترة، ونجم عن هذا الصراع الثلاثي بين هؤلاء الأسياد الأقوياء، إضافة إلى الانتفاضة الحضرية في باريس بقيادة إيتيان مارسيل (Étienne Marcel) والتمرد الريفي، الجاكري (Jacquerie)، انهيار كامل للدولة بحلول عام ١٣٦٠.

١- في الجنوب، تصارعت عائلتا آرمانياك (Armagnac) وفوا (Foix) على مقاطعة بيرن (Béarn). وفي الشمال والشرق، تمرد بارونات مقاطعتي بيكاردي (Picardy) وبورغوندي (Burgundy) احتجاجاً على الضرائب الملكية. وفي الشمال أيضاً، تصارع روبير دارتوا (Robert d'Artois) وعمَّته ماهو (Mahaut) على مقاطعة آرتوا (Artois)، أمّا فلاندرز، فقد تمرّدتْ فيها البرجوازية الجديدة على الطبقة الأبوية الحضرية، مستعملة البروليتارية الحضرية رأس حربة لها في هذا الصراع. وفي الغرب، انزلقت بريتاني (Brittany) إلى حرب أهلية بين فصيلي بلوا (Blois) ومونفور (Montfort) لمّا توفي دوق المقاطعة جون الثالث من دون أن يترك ورثة مباشرين.

٢- الكبيشي هو أحد أفراد السلالة التي أسسها هيو كابيت (Hugh Capet)، وحكمت فرنسا بين عامي ٩٨٧ و١٣٢٨. (م)

ليس هذا هو المكان الملائم لرواية ما حدث بالتفصيل. بدلاً من ذلك، دعونا نتابع مسحنا العام لنرى ما حدث بعد ذلك.

أحدث انهيار الدولة الفرنسية في خمسينيات القرن الرابع عشر صدمة لدى النخب الحاكمة. في اجتماع للإيستات جنرال (Estates-General)،[1] في عام ١٣٥٩، تمكنت الفصائل المختلفة من دفن خلافاتها والاتفاق على نهج مشترك لإنقاذ الدولة. وفي العقدين التاليين، نفَّذ الفرنسيون عمليات عسكرية منتظمة، وإن كانت غير مشهدية، (متجنبين المعارك الكبرى التي كانت كارثية في نظرهم). وبحلول عام ١٣٨٠، كان الجيش الملكي قد سحق المتمردين الداخليين وطرد الإنكليز من جميع الأراضي الفرنسية تقريباً، لكنْ تبيّنَ أنّ هذا النجاحَ مُؤقَّتٌ، لأن القوى البنيوية التي دفعت فرنسا إلى الأزمة، والمتمثلة في البؤس الشعبي، والإفراط في إنتاج النخب، وضعف الدولة، لم تعالَج بالشكل المناسب، ومرة أخرى، نجد دورات العنف الجماعي تنزع إلى التكرار في أثناء المراحل التفككية، مع تواتر مُعدّلُهُ مرة كل خمسين سنة تقريباً، ولم تكن أزمة العصور الوسطى المتأخرة في فرنسا استثناءً.

ولمّا حل الجيل الجديد من القادة محل الجيل الذي كان قد عرف مباشرة انهيار الدولة في خمسينيات القرن الرابع عشر، كرر أخطاء الجيل الأكبر منه سناً، فتصارع الفصيلان الأرستقراطيان، البورغنديون (Burgundians)، والأورليانيون (Orleanists)، للسيطرة على العاصمة، وذبح بعضُ أفرادِهما بعضاً، مع تبدُّل الحظوظ في الحرب الأهلية. اندلعت انتفاضة حضرية دموية أخرى في باريس عام ١٤١٣؛ وفي عام ١٤١٥ دخل ملك إنكليزي آخر هو هنري الخامس الصراع. كرر التاريخ نفسه بهزيمة كارثية للجيش الفرنسي في آجينكورت (Agincourt)،

١- كان هذا في منزلة مجلس نيابي في العهد الملكي، ما قبل الثورة، في فرنسا، ويضم "الطبقات" الثلاث في المملكة: رجال الدين (الطبقة الأولى) والنبلاء (الطبقة الثانية) والعامة (الطبقة الثالثة). انتهى هذا المجلس عام ١٧٨٩، لمّا شكلت الطبقة الثالثة "الجمعية الوطنية" مع اندلاع الثورة الفرنسية. (م)

التي كانت تكراراً قريباً لمعركة كريسي (Crécy). إنه لأمر غريب كيف تبع الانهيار الثاني للدولة الفرنسية مسار الانهيار الأول. ربما لا يكرر التاريخ نفسه، لكنْ من المؤكد أن قوافي أبياته تتكرر.[1]

كان انهيار الدولة الثاني أعمق من الأول، واستغرقت النخب الفرنسية التي نجت منه وقتاً أطول لترتيب أمورها، لكنها فعلت ذلك، وطردت الإنكليز مرة أخرى، واستعاد الفرنسيون آخر المدن الرئيسة، بوردو، في عام ١٤٥٣.[2]

بعد نهاية حرب المئة عام، تمتعت فرنسا بمرحلة تكاملية دامت قرناً كاملاً، فلماذا كان القرن الذي سبق عام ١٤٥٠ قاتماً إلى تلك الدرجة، والقرن الذي بعده مشرقاً على هذا النحو؟ الجواب هو أن القوى التي دفعت فرنسا إلى الحرب الداخلية توقفت عن العمل نحو عام ١٤٥٠، و"عُولج" البؤس العام على يد المجاعات، والأوبئة، والحروب الداخلية، التي كان أثرها الكلي تخفيض عدد سكان فرنسا إلى النصف. لم يكن يتوافر كثير من الأرض للفلاحين، وأدت ندرة العمالة إلى ارتفاع الأجور الحقيقية للعمال إلى أكثر من الضعف، وأدى انخفاض أجور الأراضي وزيادة أجور العمال فعلياً إلى إيقاف مضخة الثروة.

الأمر الأكثر أهمية هو أن التضحيات الجماعية (hecatombs)، في كريسي، وبواتييه، وآجينكور، ومجموعة من المعارك الأقل شهرة أدت إلى القضاء على عشرات الآلاف من "فائض" النبلاء. أضف إلى ذلك المذابح التي حدثت في الاقتتال الفصائلي. (على حد وصف شاهد عيان في مذكراته في أيار/مايو ١٤١٨، فإن شوارع العاصمة كانت تتناثر فيها جثث الفصيل المهزوم، التي كانت "مكوَّمة كجثث الخنازير في الوحل"). في حين أن العدد الإجمالي للسكان

١- يعزى هذا القول المأثور عادة إلى مارك توين (Mark Twain)، لكن ما من دليل مثبت على أنه استعمل هذه العبارة. انظر بحث موقع التحقق من الاقتباسات بشأن هذا الاقتباس بالذات: https://quoteinvestigator.com/2014/01/12/history-rhymes/.

٢- كان الاستثناء الوحيد كاليه (Calais)، التي احتفظ بها الإنكليز مدة قرن آخر من الزمن.

انخفض بمقدار النصف بين عامي ١٣٠٠ و١٤٥٠، فإن عدد النبلاء انخفض في المرحلة نفسها بعامل أربعة.[١] لم يعد الهرم الاجتماعي ثقيلاً في القمة، واستعاد شكلاً أكثر استقراراً، مع قاعدة عريضة وقمة ضيقة، ومع غياب الإفراط في إنتاج النخب، هدأت المنافسة والصراع داخل النخب، وفي الوقت نفسه، فإن ذكرى المرحلة المظلمة من الانهيار الاجتماعي والضغوط الخارجية من الإنكليز شكلت شعوراً جديداً بالوحدة الوطنية بين النخب، وفي هذا المناخ الجديد من التعاون بين أفراد النخب، تبين أن من الممكن إصلاح مالية الدولة وتوفير أساس مالي صُلب لأجيال قادمة في فرنسا.

تراجعت الضغوط الداخلية الرئيسة المسببة لعدم الاستقرار -أي البؤس والإفراط في إنتاج النخب، لكن ماذا عن العوامل الخارجية؟ تُصَوِّرُ كتبُ تاريخ كثيرةٌ حربَ المئة عام على أنها صراع بين السلالات، أي بين الملوك الفرنسيين والإنكليز، لكنَّ هذا منظورٌ ضحلٌ جداً لسلسلة فائقة التعقيد لصراعات متعددة الأوجه، فكما كتب المؤرخ الفرنسي الشهير فيرناند بروديل (Fernand Braudel)، فإن ثمة اسماً أفضل لهذه المرحلة، وهو "مئة عام من العداء".[٢] لقد كانت الأسباب الجذرية لكلا انهياري الدولة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر داخلية، ولم يكن دور الإنكليز يتجاوز دور ثعلب يتغذى على جسد أسد ميت (مع الاعتذار إلى قرائي الإنكليز). وبالنظر إلى أن إنكلترة القروسطية كانت تمتلك أقل من ثلث سكان فرنسا ومواردها، فإن تينك المملكتين كانتا ببساطة في فئتين مختلفتين من حيث الوزن (وهو وضع سيتغير بعد بضعة قرون). لم تحقق

١- يعود سبب هذا الانخفاض إلى ارتفاع معدل الوفيات بين النبلاء، إضافة إلى الانحدار الاجتماعي (social mobility downward)، بمعنى تردّي وضع بعض أفراد طبقة النبلاء وانضمامهم إلى الطبقات الاجتماعية الأدنى، مع خسارة النبلاء المُفقَرين مكانتهم النخبوية، الأمر الذي أجبرهم على الانضمام إلى طبقة العامة. انظر Peter Turchin and Sergey A. Nefedov, Secular Cycles (Princeton: Princeton University Press, 2009).

2- Fernand Braudel, *The Identity of France*, vol. 2, bk. 2, *People and Production* (New York: HarperCollins, 1991), 159.

الانتصارات المذهلة في كريسي، وبواتييه، وآجينكور، التي من المسوَّغ للأطفال الإنكليز أن يفخروا بها، مكاسب دائمة للتاج الإنكليزي في النهاية. في الواقع، إنها ساعدت الفرنسيين بالإسهام في حل مشكلة الإفراط في إنتاج النخب لديهم، وبخلق شعور بالوحدة الوطنية أيضاً كان مهماً جداً لتحقيق توافق النخب على كيفية وضع الدولة على أساس مالي صُلب.

لا يعني هذا أن دور الإنكليز في المئة عام من العداوة لم يكن مؤثراً، لكنَّ الصراعَ الإنكليزي– الفرنسيّ لم يكن السبب الجذري لانهيار الدولة مرتين. في الـمُحصِّلَة، فإنَّ إنكلترة وفرنسا كانتا في حالة حرب دائمة منذ القرن الحادي عشر حتى القرن التاسع عشر.[1] ولم يكن هناك شيء خاص يميز المرحلة بين عامي ١٣٣٨-١٤٥٣ من هذا المنظور.

عصور الخلاف

لقد لاحظ المؤرخون منذ وقت طويل أن ثمة إيقاعاً في التاريخ. "عصور ذهبية" تمتاز بالنظام الداخلي، والإشراق الثقافي، والتفاؤل الاجتماعي تتبعها "أوقات المشكلات": قتال مميت متكرر، وتردِّي الثقافة العليا، واكتئاب اجتماعي. أعطى مؤرخو أوروبا اسماً لكل من هذه المراحل، ومن ثم، فإن العصور الوسطى العليا تبعتها الأزمة القروسطية المتأخرة، وعصر النهضة تبعته الأزمة العامة في القرن السابع عشر، وجاءت آخر دورة كاملة قبل الدورة التي نعيش فيها – التنوير، أو عصر العقل – متبوعة بعصر الثورات.

يرى المؤرخون الذين كتبوا عن الصين نمطاً مشابهاً، يسمّونه دورات السلالات. بين عامَيْ ٢٢١ قبل الميلاد و١٩١٢، من سلالة كين إلى سلالة تشينغ، وُحِّدت الصين على نحو متكرر، (وأُعِيدَ توحيدُها)، وحُكمت بفعالية مدة من الزمن، ثم استوطن الفساد، فأحدث انحداراً وتقسيماً، وكما تقول الرواية التاريخية الصينية **رومانس الممالك**

١- للمزيد، انظر "Anglo-French Wars," Wikimedia Foundation, last modified September 11, 2022, 19:07, https://en.wikipedia.org/wiki/Anglo-French-Wars.

الثلاث (*Romance of the Three Kingdoms*): "الإمبراطورية، التي مضى على انقسامها وقت طويل، يجب أن تتوحد؛ والإمبراطورية الموحَّدة منذ وقت طويل، يجب أن تنقسم. وكانت الحال دائماً على هذا المنوال. "مؤرخو مصر القديمة أيضاً يقسمون تاريخها إلى المملكة القديمة، والمملكة الوسطى، والمملكة الجديدة، تفصلها مراحل وسيطة أولى وثانية وثالثة.

يؤكد تحليلُ قاعدة بيانات الأزمات هذه البداهةَ التاريخية، لكنَّ هذا النمط التاريخي الكلي لا يتكون من دورات بسيطة ودقيقة رياضياً. أولاً، إنَّ طول التتابع التكاملي– التفككي يتفاوت طبقاً لخصائص المجتمع. ثانياً، في أثناء الفترات التفككية، يتكرر حدوث العنف الجماعي على نحو دوري منتظم كل خمسين سنة تقريباً.

في فرنسا، بدأت المرحلة التكاملية للعصور الوسطى العليا في أثناء حكم الموحِّد العظيم، فيليب الثاني، المعروف أيضاً بفيليب أوغسطس (١١٨٠-١٢٢٣)، وانتهت في عام ١٣٥٠. بعد المرحلة القروسطية التفككية العليا المتأخرة (١٣٥٠-١٤٥٠)، دامت المرحلة التكاملية التالية، عصر النهضة، أكثر من قرن بقليل (١٤٥٠-١٥٦٠)، وبدأت المرحلة التفككية التالية (١٥٦٠-١٦٦٠) مع اندلاع الحروب الدينية الفرنسية (١٥٦٢-١٥٩٨)، تلتها الموجة الثانية من عدم الاستقرار التي بدأت في عشرينيات القرن السابع عشر بتمرُّدات كبار النبلاء (magnate rebellions)، وتمرُّدات الهيوغونوت (Huguenot insurrections)، وانتفاضات الفلاحين، وبلغت أوجها في الفروند (Fronde)،[1] بين عامَيْ ١٦٤٨ و١٦٥٣. في آخر دورة كاملة في فرنسا، استمرت المرحلة التكاملية، عصر التنوير، من عام ١٦٦٠ إلى اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. وتشمل المرحلة التفككية، عصر الثورات،

١- سلسلة من الحروب الأهلية في فرنسا حدثت في أثناء الحرب الفرنسية الإسبانية. واجه الملك لويس الرابع عشر المعارضة المكونة من الأمراء والنبلاء والمحاكم، إضافة إلى أغلبية الشعب الفرنسي، وتمكن من قمعهم جميعاً. (م)

المرحلة النابوليونية، وثورتي عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، والهزة الارتدادية لكومونة باريس عام ١٨٧١ **(**على الرغم من أن الأخيرة سبَّبَتْها الهزيمةُ الكارثية في الحرب الفرنسية البروسية**)**، ومن ثم، فإن كل مرحلة دامت نحو قرن من الزمن، بزيادة بضعة عقود أو نقصها، وكان الطول الكلي للدورات بين ٢١٠ و٢٥٠ عاماً.[١]

لعبة العروش الحقيقية

من أجل إجراء مقارنة مفيدة مع فرنسا، دعونا نتتبع الدورات في إنكلترة. هنا، حُصرت الدورة القروسطية بمرحلتين من الحروب الأهلية الطويلة، 'الفوضى' في أثناء حكم الملك ستيفن **(**١١٣٨-١١٥٣**)** وحروب الوردتين **(**١٤٥٥-١٤٨٥**)**. على الرغم من أن المرحلة التكاملية كانت سلمية نسبياً **(**مقارنة بما أتى بعدها**)**، فإنها قوطعت بتمردات البارونات، التي كانت تحدث على نحو متكرر بفواصل نحو خمسين عاماً.[٢] كحال فرنسا، أصيبت إنكلترة بضربتين متزامنتين هما المجاعة الكبرى بين عامي ١٣١٥ و١٣١٧ والطاعون الأسود؛ لكن على عكس فرنسا، فإنها لم تتدهور مباشرة بعد ذلك. لماذا؟ النظرية الكليوديناميكية للدورات التكاملية– التفككية لا تتخيل تواتراً صارماً للمراحل يدفع دورات بطول محدد. إنه نموذج ديناميكي، يتماشى مع كيفية تطور القوى الداخلية في كل مجتمع. مرة أخرى، فإن أهم قوة دافعة إلى عدم الاستقرار الذي كان يلوح في الأفق تتمثل في الإفراط في إنتاج النخب. ما الذي يمكن أن يحدث إذا انحسرت هذه الموجة فجأة؟ ستُؤَجَّلُ الأزمة إلى المستقبل، وذلك ما حدث في إنكلترة العصور الوسطى المتأخرة.

١- تمتد الدورة الأولى من نحو ١٢٠٠ إلى ١٤٥٠، والثانية من ١٤٥٠ إلى ١٦٦٠، والثالثة من ١٦٦٠ إلى ١٧٧٠. يمكن لمن يرغب في القراءة عن هذه الدورات مراجعة الفصلين الرابع والخامس من كتابي **الدورات المئوية**.

٢- تحديداً، في ١٢١٥-١٢١٧، و١٣٢١-١٣٢٧. انظر الجدول ٢,٥ في **الدورات المئوية**.

لمّا انهارت فرنسا في خمسينيات القرن الرابع عشر، لحق فائض النخب الإنكليزية مَلِكَه عبر القنال؛ وكان هناك أعداد كبيرة جداً منهم في إنكلترة، تماماً كما في فرنسا. قُتل بعضهم في المعارك، لكن أغلبيتهم وجدت أن الحروب الفرنسية كانت عملاً يدرُّ ربحاً وفيراً. وفّرت لهم الانتصارات في بواتييه وكريسي (ومعارك أصغر تلتهما) بضع فديات ضخمة وعدداً كبيراً من الفديات الأصغر من آلاف النبلاء الفرنسيين الذين اعتقلوا. كان الريف الفرنسي لا يزال غنياً، ويدرُّ كمياتٍ هائلةً من الغنائم، التي كانت تُجمع في أثناء ما ما يُسمّى الغارات (chevauchées)، (وهي أساساً حملات نهب تحت غطاء شفاف من الأعمال العسكرية). وكان هناك قلاع وأراضٍ في المناطق التي تُمنح للأفراد الموثوق بهم في حاشية الملك ولكبار النبلاء. وبعبارة أخرى، صدَّرت إنكلترة فائض نخبها – وعدم استقرارها – إلى فرنسا.

لكنْ ما من أوقات جيدة تدوم إلى الأبد، فبدايةً بعام ١٣٦٠، جمعَ الفرنسيون كلمتَهم، وبحلول عام ١٣٨٠ كانوا قد أخرَجُوا الإنكليزَ من بلادهم. حينئذ دخلت إنكلترة مرحلة التدهور الخاصة بها. فجأة، عاد كل فائض النخب إلى إنكلترة، وقد اشتد بأسهم بعد مشاركتهم في حروب متواصلة في فرنسا؛ واعتيادهم القتل، والتعذيب، والابتزاز؛ بعد أن أُفقِرُوا، وأصيبوا بالمرارة جراء هزيمتهم. وكما هو معتاد في مثل تلك الأوقات، تجلّى الانهيار بطرائق عدّة في الوقت نفسه، فالفلاحون الذين كانوا يتعرضون لمزيد من الاضطهاد كلما ازدادت الصعوبات التي تواجهها النخب نفسها، طفح كيلهم. قُمعت ثورة الفلاحين التي قادها وات تايلر (Wat Tyler)، عام ١٣٨١ بدموية، لكنها أخافت النخب، وأجبرتها على تخفيف العبء الذي رمته على كاهل الطبقات المنتجة. في الغرب، حدث تمرد انفصالي في ويلز بقيادة أووين غلين دور (Owain Glyn Dŵr)؛ وفي وسط إنكلترة، مضى الصراع الذي خاضه الملك ريتشارد الثاني وفصيله ضد مجموعة النبلاء الذين عُرفوا بـ "اللوردات المستأنفين" (Lords Appellant)، بين مد وجزر، لكنه

بلغ ذروته أخيراً في خلع ريتشارد الثاني في عام ١٣٩٩، وهذا ما نجم عنه تغيير في السلالة الحاكمة من آل بلانتجنيت (Plantagenets) إلى آل لانكاستر (Lancasters). إذا كان كل هذا يبدو شبيهاً **بلعبة العروش** فذلك لأن مؤلف القصة، جورج ر. ر. مارتن (George R. R. Martin)، صوَّر عائلة لانيستر الخيالية على نمط عائلة لانكاستر التاريخية.

لمّا انهارت فرنسا مرة أخرى في مطلع القرن الخامس عشر، ودخل ملك إنكليزي آخر الصراع في عام ١٤١٥، لحقت به جحافل النخب التي أُفقرت أيضاً عبر القنال. في وقت سابق، علَّقتُ على الطريقة المخيفة التي تشبه بها الأزمات اللاحقة الأزمات السابقة. يبدو الأمر كأن للمجتمعات صفيحة تكرير ثقافية يتكرر خلالها انهيار الدولة – على الطريقة الفرنسية أو على الطريقة الإنكليزية، حسب الحالة. شكَّل مسار إنكلترة بعد عام ١٤١٥ مثالاً آخر على هذا النمط الغريب. وكما حدث من قبل، سارت الأمور على ما يرام بشأن الإنكليز – على الأقل مُدّةً قصيرة، إذ صُدِّر عدم الاستقرار بنجاح إلى فرنسا، ولم تحدث اضطرابات كبيرة في إنكلترة بين عامي ١٤١٥ و١٤٤٨. لكن مع نجاح الفرنسيين في استعادة بلادهم نحو عام ١٤٥٠، تعيَّن على الأعداد المتزايدة من فائض النخب الإنكليزية العودة إلى بلادهم. لم يكن الملك حينذاك، هنري السادس، أهلاً للحكم، وحكَمَ المجلس الملكي باسمه، وسُلِّمت قيادة فصيل آل لانكاستر إلى مارغريت الأنجوية (Margaret of Anjou). كتب أحد معاصريها عنها: "تميّزت هذه المرأة من سواها بالجمال واللباقة، كما تميّزت بالذكاء وحسن السياسة، وكانت في شجاعتها أشبه برجل منها بامرأة".[١] (من الواضح أن مارتن صوَّر سيرسي لانيستر على نمط شخصيتها).

١- في المرجع التالي عرض وتحليل: Charlotte Ahlin, "Learn the History That Inspired the Lannisters & Impress All Your Friends," *Bustle*, December 4, 2018, https://www.bustle.com/p/theinspiration-for-the-lannisters-from-game-of-thrones-came-from-a-number-offascinating-historical-figures-13222107.

شجعت فصائل النخبة وأفراد الحاشية الملكية نشوء الفوضى. كان لدى كبار النبلاء جيوش خاصة من الأتباع المسلحين، قاتلَ بها بعضُهم بعضاً، وأرعبوا الجوار، وشلّوا المحاكم، وحاولوا الهيمنة على الحكومة. حدث تمرد فلاحي كبير آخر في عام ١٤٥٠ قاده جاك كيد (Jack Cade)، وفي عام ١٤٥٥، اندلعت حروب الوردتين، واستمرت حتى عام ١٤٨٥.

يُقال إن مارتن صُدم لمّا شاهد الموسم الأول من **لعبة العروش**، بالوحشية، والخيانة والقتل التي مارستها الشخصيات التي خلقها بعضها على بعض والمصوَّرة بطريقة مثيرة، لكنّ حروب الوردتين التاريخية كانت وحشية بالمقدار نفسه، إذ خُلع ثلاثة ملوك وقُتلوا، وأُعدِمَ عددٌ كبير من كبار النبلاء، في كثير من الأحيان من دون محاكمة، وفُرِض على اللوردات الذين كانوا يُهزمون في المعارك أن يركعوا في الوحل، وتُقطع رؤوسهم في الميدان. إضافةً إلى ذلك، فإن المعارك بين آل لانكاستر وآل يورك كانت محضَ رأسِ جبل الجليد، فبموازاة هذا الصراع بين العائلتين على العرش، كان هناك عدد كبير من الحروب الخاصة بين النخب المتنافسة على المستويين الإقليمي والمحلي. في كتاب **نهاية آل لانكاستر** (*The End of the House of Lancaster*)، يصف المؤرخ البريطاني ر. ل. ستوري (R. L. Storey) على الأقل ثمانية من هذه الصراعات التي ابتُلي بها غرب إنكلترة وشمالها وشرقها. وعانى الناس العاديون بشدة من هذا الاقتتال بين النخب لأن كل فصيل كان يستهدفُ مُزارعي الفصيل الخصم وأتباعَهُ بالابتزاز والسرقة والقتل.

من المهم أن نتذكر أنه على الرغم من أن إنكلترة القروسطية عامّةً كانت بلداً أكثر عنفاً بكثير مما هي المملكة المتحدة اليوم، فإن مستويات العنف التي ميَّزت حروب الوردتين كانت أكثر بكثير مما هو معتاد. في المرحلة التكاملية، شهد جيل من كل جيلين تمرداً قام به البارونات ضد التاج، لكنْ مقارنةً بحروب الوردتين، فإن حالات التمرد تلك كانت أشبه بمظاهرات مسلحة تهدف إلى فرض مطالب البارونات على الملك. على سبيل المثال، سُوِّي

التمرد الذي وقع بين عامي ١٢١٥ و١٢١٧ لمّا وقَّع الملك وثيقة ماغنا كارتا (Magna Carta)، لإرضاء النخب المتمردة. أما في حروب الوردتين، فإن هدف كل طرف كان إبادة العدو.

يشتكي مشاهدو **لعبة العروش** أحياناً من أن الشخصيات التي يحبّونها تُلغى من القصة بانتظام يبعث على الكآبة، لكنْ هكذا سارت الأمور في الحياة الواقعية. في المحصلة، فإن المحرك الرئيس لحروب الوردتين كانت الدرجة المرعبة من الإفراط في إنتاج النخب في إنكلترة نحو عام ١٤٥٠، وإلى أن سوِّي الصراع بطريقة ما، فإنه لم يتوقف إلّا بسبب استنزاف القوى، لكنّهُ كان يتكرر ببساطة مرة أخرى حين يتولى الحكم جيلٌ جديد لم يتلقَّ تحصيناً ضد العنف، وكي تتوقّف مرحلة تفكيكية، لا بد أن تُعكَس الظروف البنيوية التي أحدثتها.

من المُؤكَّد أنَّ الموتَ في المعركة أو بالإعدام، لم يكن الآلية الوحيدة للحد من الإفراط في إنتاج النخب. يبدو أنه كان الآلية الرئيسة على مستوى كبار النبلاء، لكنْ على الدرجات الأدنى للسلَّم الاجتماعي، فإن الدور الرئيس لعبه تدهور المكانة الاجتماعية، فمعظم أفراد الشريحة الدنيا من الأرستقراطية (gentry)، لم يُقتلوا في الحروب الأهلية أو الخاصة؛ بل إنهم قبلوا ببساطة، بعد مدة من الزمن، بألّا تسمح لهم دخولهم بالاحتفاظ بمكانتهم النخبوية، وانحدروا بهدوء إلى طبقة صغار المالكين (yeomanry). كانت الحروب الأهلية، والمستوى المرتفع إجمالاً للعنف، لا تزال تشكل حافزاً مهماً، وإن لم يكن مباشراً، للقبول بخسارة المكانة كعضو في الشريحة الدنيا من الطبقة الأرستقراطية. بعد سنوات وعقود من العنف وانعدام الأمن، قُتِل الأفراد الأكثر عنفاً، في حين أدركت البقية عبثية إطالة أمد الصراعات وقبلت بحياة مسالمة، وإن لم تكن مثيرة كثيراً. تراجعت أعداد النخب الإنكليزية على المستويات جميعها، من كبار النبلاء إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الأرستقراطية، أضعافاً عدّة في أثناء الأزمة القروسطية المتأخرة.

لدينا في إنكلترة أداة كمية مفيدة لتتبُّع هذه النزعة، لأن شرب النبيذ (وليس البيرة) كان إحدى علامات الانتماء إلى مكانة النخبة، فقد كانت النخب الإنكليزية في أوج قوتها تستورد وتستهلك عشرين ألف طن من النبيذ من غاسكوني (Gascony)، لكن بحلول نهاية حروب الوردتين، كان يُستورد أقل من خمسة آلاف طن، ولم تبدأ واردات النبيذ بالانتعاش إلّا بعد عام ١٤٩٠. يوازي الانحدار بمعدل أربعة أضعاف في أعداد النخب الإنكليزية الانخفاض أربعة أضعاف أيضاً في عدد النبلاء الفرنسيين بحلول نهاية عصر الخلاف الذي كانوا يشهدونه.

على الرغم من أن المرحلة الأكثر كثافة بالحروب الداخلية انتهت عام ١٤٨٥، حدثت بضع هزات ارتدادية؛ نعرف عن ثلاثة تمردات ثانوية قُمعت بسرعة بين عامي ١٤٨٩ و١٤٩٧. بعد ذلك، لم يحدث في إنكلترة تمرد آخر على مدى جيلين، وكان هذا إنجازاً، بالنظر إلى العنف الذي كان شائعاً في بدايات إنكلترة الحديثة عامّة. لقد حَلَّت في النهاية المرحلة التكاملية التالية.

كان للدورتين التاليتين في إنكلترة طولٌ شبيهٌ بطول الدورات الفرنسية، لكنْ لأنّ إنكلترة خرجت من الأزمة القروسطية المتأخرة بعد فرنسا بوقت طويل، فإن البلدين ظلّا غير منسجمين. بدأت الأزمة العامّة في القرن السابع عشر في إنكلترة بالتمرد الأسكتلندي، الذي عُرف بحروب الأساقفة (Bishops' Wars)، في عام ١٦٣٩ التي تبعتها مباشرة الحرب الأهلية الإنكليزية التي انتهت في عام ١٦٥١. بعد مرحلة الهدوء القصيرة المعتادة التي سادها سلام قلق، ترتَّب على إنكلترة أن تتحمل اندلاعاً آخر للحرب الداخلية، في شكل الثورة العظيمة (١٦٨٨-١٦٨٩)، التي أنهت مرحلتها التفككية في القرن السابع عشر (ومرة أخرى تأخرت بضعة عقود بعد فرنسا)، ووصل عصر الثورات في إنكلترة في عام ١٨٣٠، في حين أنه في فرنسا، بالتأكيد، انطلق بالهجوم على الباستيل في عام ١٧٨٩. باختصار، إنّ فرنسا وإنكلترة تصرَّفتا بوصفهما ثِقَلَينِ مُتدَلِّيَينِ، يهتزان إلى الأمام والخلف في المرحلة الزمنية نفسها، مع تأخر أحدهما عن الآخر.

اختلافٌ آخر بين المملكتين في أثناء عصر الثورات، وهو أنّ فرنسا ضُربت على نحو متكرر بثورة بعد أخرى **(**١٧٨٩، ١٨٣٠، ١٨٤٨**...)**، في حين أنَّ إنكلترة دخلت "وضعاً ثورياً" عام ١٨٣٠، لكنها تمكنت بطريقة ما من تجنب انهيار الدولة**.** أما لماذا حدث هذا، فإنه موضوع مثير جداً للاهتمام، لأنه قد يوفر لنا بعض الإشارات إلى الطريقة التي تمكّننا من تكرار هذا الإنجاز بأنفسنا، وسأعود إلى هذه القضية في الفصل التاسع**.**

أثرُ تعدُّد زوجات النُّخَب

على الرغم من أن إنكلترة وفرنسا كانتا في حالة حرب شبه دائمة تقريباً بين عامي ١١٠٠ و١٨١٥،[١] أو ربما بسبب هذه الحروب، فإنهما كانتا تمتلكان تركيبة اجتماعية متشابهة، ومن ثم، ليس من المفاجئ أن يكون طول دوراتهما متشابهاً أيضاً **(**وإن لم يكن متطابقاً**)**، لكنَّ مثل هذا التشابه الديناميكي ليس هو الحال بالضرورة لأي مجتمع بشري معقد**.** طبقاً لبنية بعض المجتمعات، فإنها تمضي في الدورات التكاملية– التفككية بسرعة أكبر، ومجتمعات أخرى على نحو أبطأ**.**

وبالنظر إلى أن القوى الدافعة الأكثر أهمية إلى عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي تتمثل في الإفراط في إنتاج النخب، دعونا نُعمل الفكر قليلاً في الكيفية التي يمكن بها لتفاصيل إعادة إنتاج النخب **(**والإفراط في إنتاجها**)** أن تُؤثّرَ في الإيقاع الاجتماعي – مدى السرعة التي يدخل فيها مجتمعٌ من المجتمعات الأزماتِ، ومتى يخرج منها**.** في المجتمعات ما قبل الصناعية، التي كان الحصول على مكانة النخبة فيها صعباً، على الرغم من أنه ليس مستحيلاً في أي حال من الأحوال**.** فيما يخصُّ أحدَ أفراد العامة، فإن السرعة التي يمكن لصفوف النخبة أن تنمو فيها تأثرت بقوة بإعادة الإنتاج البيولوجي للنخب –

١- للمزيد، انظر "Anglo-French Wars," Wikimedia Foundation, last modified September 11, 2022, 19:07, https://en.wikipedia.org/wiki/Anglo-French-Wars.

وعلى نحو محدد، بمعدل إعادة إنتاج رجال النخبة. (سواء أحببنا ذلك أم لا، هيمنَ الرجالُ على المراتب العليا في السلطة في تلك المجتمعات.). لدى البشر، يتمثل أكبر نجاح إنجابي ذكوري ببساطة في عدد الشريكات اللاتي يستطيع الرجال الوصول إليهن.

في ممالك أوروبا الغربية، مثل فرنسا وإنكلترة، قيَّدت المسيحية عدد الشريكات القانونيات اللاتي يمكن للرجال الارتباط بهن. بالتأكيد، فإنه يمكن للرجال الأقوياء أن يدخلوا علاقاتٍ مع خليلات خارج إطار زواجهم بزوجات قانونيات، وقد فعلوا ذلك في كثير من الأحيان. وتُتاحُ لمواليد مثل هذه الزيجات فُرصةُ دُخولِ صُفوفِ النبلاء، لكنَّ "أثرَ الأبناء غير الشرعيين" هذا لم يرفع على نحو كبير مُعدَّل إنتاج الطامحين إلى صفوف النخبة في المجتمعات الأوروبية القروسطية والحديثة الأولى.

على العكس من ذلك، ففي المجتمعات الإسلامية، كان يمكن للرجل أن يتزوج أربع زوجات قانونياً، وأن يحظى بأيِّ عدد يرغب فيه من الجواري يستطيع الإنفاق عليه. لم يكن هناك وصمة عار ترتبط بكون المرء ابن جارية. لقد كان تَعدُّدُ الزوجات الواسع قاعدةً للمجتمعات الرعوية في السهوب أيضاً، مثل المغول، ونتيجة لذلك، قمعت هذه المجتمعات المتطلعين إلى الانضمام إلى النخبة بمعدل مرعب، وكلما تطور إيقاع إعادة إنتاج النخب، قصرت المراحل التكاملية، ومن ثم، فإن النظرية تنبئنا بأنه ينبغي أن يكون هناك اختلاف كبير في طول الدورات بين المجتمعات التي تسودها طبقات حاكمة أحادية الزوجات، وتلك التي تسودها طبقات حاكمة متعددة الزوجات. وطبقاً لحساباتي، فإن الطول المعتاد لدورات المجتمعات أحادية الزوجات ينبغي أن يكون نحو مئتين إلى ثلاثمئة سنة، لكن في المجتمعات ذوات النخب متعددة الزوجات، ينبغي أن تكون نحو قرن من الزمن، أو حتى أقل.[١] رأينا أن الدورات في فرنسا وإنكلترة

١- انظر الفصل ٧ في Peter Turchin, Historical Dynamics: Why States Rise and Fall (Princeton: Princeton University Press, 2003).

(وطبقاً لقاعدة بيانات الأزمات، مجتمعات أوروبية أخرى أيضاً) تؤكد هذا التنبؤ النظري، لكن ماذا عن المجتمعات متعددة الزوجات؟

يتبين أن هذا السؤال أجاب عنه قبل قرون عدّة مؤرخ وفيلسوف إسلامي بارز هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، المولود في تونس عام ١٣٣٢. لاحظ ابن خلدون أن الديناميكيات السياسية في بلده الأصلي، المغرب (شمال أفريقيا، غرب مصر)، وكذلك في بقية أنحاء العالم الإسلامي، تنزع إلى التحرك في دورات، فبعد أن تُرسِّخ سلالة جديدة حكمها، تدوم نحو أربعة أجيال قبل أن تسقط، وتُستبدَل بسلالة جديدة، ثم تتكرر الدورة.[١] يدومُ بعض السلالات ثلاثة أجيال فحسب، وبعضها الآخر خمسة أجيال، لكنْ وسطياً، فإن طول دورات ابن خلدون هو أربعة أجيال، أي ما يُمثّل نحو مئة سنة. وهذا أقصر بكثير من الدورات الأوروبية، كما تتنبأ النظرية. لكنْ دعونا نرَ ما إذا كان يمكن ملاحظة دورات ابن خلدون في مجتمعات متعددة الزوجات أيضاً، مثل مجتمعات الرعاة المتجولين في آسيا الوسطى.

يتمثل أحد الأمثلة الجيدة للمقارنة في الانتصارات المغولية التي قادها الملك جنكيز خان وخلفاؤه المباشرون. فالأرض الواسعة التي احتلها المغول في النصف الأول من القرن الثالث عشر كانت تحتوي أربع "مناطق ثقافية" كبيرة يقطنها مزارعون. وهذه المناطق، من الشرق إلى الغرب، هي: الصين، وترانسوكسانيا، وفارس (بما في ذلك بلاد ما بين النهرين)، وأوروبا الشرقية. منذ منتصف القرن الثالث عشر، حَكَمَتْ كُلًّا من هذه المناطق الأربع عائلةٌ جنكيزية.[٢] وطبقاً لنظريتنا، ينبغي لهذه السلالات الأربع أن تخضع لدورات ابن

١- لقراءة المزيد عن الحياة المتميزة لابن خلدون وإسهاماته الباهرة في علم الاجتماع التاريخي، يرجى مراجعة الفصل الرابع من كتاب **الحرب والسلام والحرب**.

٢- حكم كوبلاي ومن خَلَفَهُ (سلالة يوان) الصين ومنغوليا، وأسس الجاغاطاي إمبراطورية في تركستان وترانسوكسانيا، وحكم هولاكو ومن خلفه (الذين عُرفوا بالخانات) فارس وبلاد ما بين النهرين، وأخيراً، وسّعت القبيلة الذهبية تحت حكم جوجي خان سيطرتها على الأجزاء الغربية من السهوب العظمى، وروسيا أيضاً.

خلدون التي تدوم نحو قرن، وهذا ما حدث حقاً، ففي المناطق الأربع جميعها، انهارت السلالات الجنكيزية في منتصف القرن الرابع عشر.[1] يُؤكِّدُ تحليلٌ إحصائيّ أكثر رسمية لقاعدة بيانات الأزمة أن دورات الصعود والسقوط في المجتمعات ذوات النخب متعددة الزوجات أقصر بكثير من مثل تلك الدورات في المجتمعات أحادية الزوجات.

العدوى والتزامن الديناميكي على إيقاع خارجي

لا بد للعلماء الذين يدرسون الأنظمة المعقدة أن يحاولوا أن يختطوا مساراً وسطاً بين خيار التعقيد المفرط وخيار التبسيط المفرط. من جهة، فإن التاريخ

---

١ - للقارئ المهتم بالتاريخ، التفاصيل فيما يأتي: في الصين، اندلعت الحرب الأهلية بين خلفاء كوبلاي في عام ١٣٢٨، وشهدت خمسينيات القرن الرابع عشر عدداً كبيراً من الثورات قادها قادة محليون، وفي عام ١٣٦٨، طرد أحد هؤلاء القادة المغول، وأسس سلالة مينغ.

ظلت تركستان غير موحدة، حتى ١٣٣٣-١٣٣٤، لمّا خرج تمرد قاده الرُّحَّل ضد نظام جاغاطاي في شرق تركستان. بحلول عام ١٣٥٠، كانت السلطة في ترانسوكسانيا قد انتقلت إلى أيدي النبلاء الترك. بعد مدة من الاضطرابات، تأسّست سلالة جديدة على يد تيمور (المعروف أيضاً بتيمورلنك). وحَّد تيمور ترانسوكسانيا في عام ١٣٧٩، واحتل إيران بين عامي ١٣٨٣ و١٣٨٥. دامت السلالة التيمورية أيضاً نحو قرن من الزمن. في عام ١٤٦٩، خُسرت فارس لمصلحة قبيلة النعجة البيضاء، في حين تشظت ترانسوكسانيا بين الفروع المتحاربة لسلالة تيمور.

تعرضت بلاد فارس الواقعة تحت حكم الخانات إلى التفكك عام ١٣٣٥. وبعد فترة من الحرب الأهلية، احتلها تيمورلنك. ولمّا خسر التيموريون فارس في عام ١٤٦٩، تبعت ذلك مرحلة أخرى من الاضطرابات، وفي النهاية، في عام ١٥٠١، وُحِّدت فارس تحت قيادة سلالة محلية هي العائلة الصفوية.

حدث مسار مماثل للأحداث في السهوب الغربية، إذ انتهى حكم الجوجيين في عام ١٣٥٩، لمّا وقعت الفوضى في صفوف القبيلة الذهبية. بعد مدة من الحرب الأهلية، استعادت القبيلة الذهبية قوتها تحت حكم تيمور قوتلغ خان. في عام ١٣٩٩، انتصر تيمور قوتلغ على الليثوانيين، إذ دفعهم غرباً، وأعاد توطيد سيطرته على روسيا. لكنْ في منتصف القرن الخامس عشر، بدأت القبيلة الذهبية، التي كانت قد انتعشت، بالتفكك مرة أخرى. وكان الجزء الأول الذي انسحب منها خانة القرم في عام ١٤٤٣، وتلتها خانتا قازان وأستراخان (في عامَيْ ١٤٤٣ و١٤٦٦ على التوالي).

ليس محضَ 'حدث لعين بعد حدث لعين آخر'. لكن من جهة أخرى، فإنه ليس محضَ تكرارٍ بسيط لدورات رياضية دقيقة.

أظهرت مناقشتُنا دوراتِ ابنِ خلدون أنّ المقاييسَ الزمنية التي تمرُّ المجتمعاتُ في أثنائها بالازدهار والاندثار تعتمدُ على خصائصها الثقافية، مثل درجة تعدد الزوجات في أوساط النخب. أشارت مقارنة بين "العدوتين العزيزتين،" إنكلترة وفرنسا، إلى عامل آخر يسهم في التعقيد، وهو أن البيئة الجيوسياسية يمكن أن تُطِيلَ الدَّوراتِ أو تُقَصِّرَها، فبتصديرها عدم الاستقرار إلى فرنسا في أثناء أزمة العصور الوسطى المتأخرة، تمكنت إنكلترة من تأخيرِ دُخولِها مرحلةَ الاضطرابات الخاصة بها، ولذلك، فإن إطار الديناميكيات غير الخيطية، وعلم التعقيد (complexity science)[1] على نحو أكثر عمومية، مثمران جداً في فهم التاريخ؛ فهما يمنحاننا أدوات لدراسة الكيفية التي تتفاعل فيها عوامل مختلفة بعضها مع بعض لتوليد ديناميكيات منتظمة، إذ يمكن لمجموعة صغيرة نسبياً من الآليات أن تولد ديناميكيات معقدة جداً، وهذا هو جوهر علم التعقيد، أي إن الديناميكيات المعقدة لا ينبغي أن تكون لها أسباب معقدة بالضرورة.

ما التبصُّرات الأخرى التي يُسفِرُ عنها علمُ التعقيد؟ تتمثل إحدى الأفكار المثمرة في التزامن الديناميكي (dynamic entrainment)، فإذا وضعتَ بندولات عدّة على اللوح نفسه، وحرّكْتَها لتبدأ بالنوسان على نحوٍ عشوائيّ (دون تزامن)، فستبدأ بعد مدة بالنوسان معاً بتزامن كامل.[2] الفيزيائي الهولندي كريستيان هويغنز (Christiaan Huygens)، الذي لاحظ

١- علم التعقيد هو مجموعة من المفاهيم والأدوات التي تمكننا من فهم الأنظمة المعقدة. ويُعَدُّ المناخ، والعضويات، والدماغ البشري، والبنية التحتية، وشبكات الكهرباء، أو النقل أو الاتصالات، والأنظمة الإلكترونية المعقدة، والمنظمات الاقتصادية والاجتماعية أمثلة على الأنظمة المعقدة. (م)

٢- انظر Veritasium, "The Surprising Secret of Synchronization," March 31, 2021, YouTube video, 20:57, https://www.youtube.com/watch?v=t-VPRCtiUg.

هذه الظاهرة أول مرة في عام ١٦٦٥، سمّاها "التعاطف الغريب". يمكن للتزامن الديناميكي على إيقاع خارجي أن يساعدنا في فهم السبب الذي يجعل موجات من عدم الاستقرار تضرب مجتمعات عدة في كثير من الأحيان في الوقت نفسه. لنأخذ الأزمة العامة (General Crisis) التي حدثت في القرن السابع عشر، التي شملت أوراسيا بمجملها. لماذا حدثت الحرب الأهلية الإنكليزية، وزمن المشكلات في روسيا، وانهيار سلالة مينغ في الصين، في الوقت نفسه تقريباً؟ ولماذا كان القرن الثامن عشر زمن سلام داخلي وتوسع إمبريالي في البلدان الثلاثة جميعها؟

قد يتمثل أحد الأسباب المحتملة لمثل هذا التزامن في تأثير القوى الخارجية. في بداية هذا الفصل، رأينا كيف أن سلسلة من السنوات التي سادها طقسٌ سيّئٌ وحصادٌ سيّئٌ فرضت المجاعة الكبرى على أوروبا الغربية بين عامي ١٣١٥ و١٣١٧. تزامنت المجاعة الكبرى مع انخفاض في النشاط الشمسي عُرف بالحد الذئبي الأدنى (Wolf Minimum) (١٢٨٠-١٣٥٠). يتفق معظم علماء المناخ على أن النشاط الشمسي المنخفض يُنتج درجات حرارة عالمية أبرد. ويُعَدُّ الطقسُ الباردُ والرطبُ، الذي يُؤخِّرُ نُضوجَ المحاصيل، ويزيدُ فُرصةَ تعفُّنها قبلَ أن تُحصَد السَّببَ الرئيسَ لإخفاقِ المحاصيل في أوروبّا شمالَ جبال الألب. مراحل زمنية أخرى من النشاط الشمسي المتدني، بما في ذلك حد سبورَر الأدنى (Spörer Minimum) (١٤٦٠-١٥٥٠) وحد موندر الأدنى (Maunder Minimum) (١٦٥٤-١٧١٥)، مترابطة أيضاً مع درجات حرارة أدنى من المتوسط ومع عدد مرات حدوث القحط.

يُعدُّ إيجاد الروابط بين الانهيار المجتمعي من جهة والاضطرابات المناخية من جهة أخرى إحدى الهوايات المفضلة للمتخصصين في انهيار الحضارات، لكنَّ رَسْمَ سهمٍ سببيّ مباشر ينطلق من تردي الأحوال المناخية إلى الانهيار الاجتماعي لا ينجح. تزامن انخفاض النشاط الشمسي في الألفية الماضية أحياناً مع المراحل التفككية فحسب. ويُحتمل أن يكون المناخ السيّئ في أثناء الحد

الذئبي الأدنى سبباً للمجاعة الكبرى، التي قوضت بدورها استقرار المجتمعات الأوروبية في أواخر العصور الوسطى. وارتبط حد موندر المتأخر الأدنى بمجاعة كبرى خاصة به أثرت في شمال أوروبا، من فرنسا إلى إسكندنافيا إلى روسيا. في فرنسا، تُوفِّيَ مليونا شخص جوعاً بين عامي ١٦٩٤ و١٧٠٣، وفي المدة نفسها، ربما فقدت روسيا نحو عشرة بالمئة من سكانها في المجاعة. لكنَّ الإمبراطوريتين – إحداهما كان يحكمها لويس الأكبر، والأخرى بطرس الأكبر – أظهرتا صموداً كبيراً (كما توحي الألقاب الملكية). سبّبَتْ هذه المجاعاتُ مُعاناةً بشريّة هائلة، وفرضت ضغوطاً كبيرة جداً على العائلات المالكة، لكنها لم تدفعها إلى نقطة الانهيار.

في رأيي، لا تُعَدُّ التقلُّبات المناخية سبباً مباشراً للانهيار الاجتماعي، بل إنَّ أثرها غير مباشر. وهنا يمكن للبندولات التي تنوس من دون تزامن أن تكون مفيدة. لنفكِّر في الإمبراطوريات بصفتها بندولات تنوس بين مراحل تكاملية وتفككية. والآن لنفترض أن إمبراطوريتين في منطقتين مختلفتين من أوراسيا تبدأان بالنوسان على نحو غير متزامن. لكنَّ كلتيهما مُتأثّرتان بتقلُّبات المناخ العالمي نفسها. إذا كانت إحدى الإمبراطوريتين "متقدمة" في دورتها، فإن مدّة من المناخ الجيد ستسمح لها بأن تطيل عمرها مدة أطول قبل أن تَدخُلَ أزمةً، وعلى العكس، فإنَّ مدة من وجود مناخ سيّئ سيدفع إمبراطورية متأخرة إلى أزمة مبكرة، ومع تراكم آثار مثل تلك "الوكزات"، فإن الإمبراطوريتين ستتزامنان على نحو متزايد، تماماً كما تتزامن البندولات الموضوعة على لوح واحد. بالتأكيد، إنَّ دورات الازدهار والاندثار الإمبراطورية أكثر تعقيداً من ذراعي بندول نوّاس، لكنَّ المبدأ العام ينطبق في كلا نوعي "النواسات" بطريقة متشابهة، ولا يتعين أن تكون القوة الخارجية دورية بالضرورة، إذ يمكن للنكزات أن تحدث في أوقات عشوائية؛ فدورها يتمثل في تحقيق التزامن في النزعات الدائرية، وليس التسبب بالدورات نفسها، التي تكون مدفوعة بآليات داخلية خاصة بكل إمبراطورية.

القوة الأخرى المُسبّبة للتزامن، والمتمثلة في العدوى، أكثر قوة من فرض القوة الخارجية، إذ يشير التحليل الكليوديناميكي إلى أنّ الأوبئة والجائحات الكبرى ترتبط عادة بمراحل من عدم الاستقرار السياسي الاجتماعي الكبير. ونلاحظ هذا النمط على الأقل في الألفي عام الأخيرين بالعودة إلى الوباء الأنطوني (Antonine Plague) (القرن الثاني الميلادي) ووباء جستنيان (Plague of Justinian) (القرن السادس). كما أن انتشار الطاعون الأسود على اتّساع أفرو-أوراسيا (القرن الرابع عشر) كان جزءاً لا يتجزأ من أزمة العصور الوسطى المتأخرة؛ وقد تزامنت عودة قوية للوباء إلى الظهور مع الأزمة العامة في القرن السابع عشر، وحدث أكثر جائحات الكوليرا تدميراً (القرن التاسع عشر) في أثناء عصر الثورات، والسببية الكامنة وراء هذا الترابط معقدة، مع امتداد دورات التغذية الراجعة في كلا الاتجاهين.[1] دعونا نُفكّك هذه العلاقات السببية قليلاً بتتبُّع الكيفية التي تؤثر فيها الدورة المئوية على احتمال حدوث وباء كبير.

كما رأينا في جزء سابق من هذا الكتاب، فإنَّ كلَّ دورة مئوية تتكون من نزعة تكاملية تتبعها نزعة تفكُّكية. في بداية الدورة، ينمو عددُ السكان من الحد الأدنى، ويبقى بعيداً عن سقف طاقة البلاد (العدد الإجمالي للبشر الذين تستطيع المنطقة إنتاج ما يكفي من الغذاء لإطعامهم، حسب مساحة الأراضي القابلة للزراعة والتكنولوجيا الزراعية الراهنة). ونتيجة لذلك، تكون الأجور الحقيقية مرتفعة، وترتفع إنتاجية العمل أيضاً لأن الأرض لا تزال متوافرة بكثرة، إضافةً إلى ذلك، فإن معظم الفائض الزراعي يستهلكه المنتجون أنفسهم، وهذا ما يجعل هذه المرحلة عصراً ذهبياً للفلاحين.

---

١ - انظر Peter Turchin, "Modeling Periodic Waves of Integration in the Afro-Eurasian World System," in *Globalization as Evolutionary Process*, edited by George Modelski, Tessaleno Devezas, and William R. Thompson (London: Routledge, 2007), 163–91.

لكنَّ النموَّ السكاني يصل في النهاية إلى الحد المالثوسي.[1] مع تنامي البؤس الشعبي، ينتهي العصر الذهبي للفلاحين، ويدخل المجتمع عصراً ذهبياً للنخب، التي تكسبُ من انخفاض الأجور وارتفاع أسعار المنتجات التي تُوفّرها الأرض التي تملكها، ويؤدي ارتفاع القدرة الشرائية للنخب إلى توفير فرص عمل للحرفيين والتجار، وتولِّد البطالة الريفية المصحوبة بالطلب الحضريّ على العمالة (في الحرف والمهن، لكنْ أيضاً خدماً للأثرياء) تدفُّقاً للسكان نحو المدن، التي تنمو بسرعة أكبر من النمو العام للسكان في هذه المرحلة الزمنية، ويدفع طلبُ النخب على سِلَعِ الرفاهيةِ التِّجارةَ معَ الأماكن البعيدة.

تجعلُ هذه النزعاتُ ظهورَ أمراض جديدة وانتشار الأمراض الموجودة أكثر ترجيحاً. أولاً، ينجم عن النمو السكاني عبور "العتبة الوبائية" – وهي الكثافة السكانية التي يصبح مرض جديد قادر على الانتشار فوقها. ثانياً، يؤدي تردي المستويات المعيشية بسبب البؤس الشعبي إلى سوء التغذية وضعف دفاعات الجسم ضد العدوى. ثالثاً، يعني التحضر أن نسبة متزايدة من السكان تزدحم وتكتظ في المدن، التي كانت أماكن غير صحية على نحو شنيع في العصور ما قبل الصناعية. رابعاً، ينجم عن زيادة الهجرة والتشرد شبكات تفاعل أكثف، يمكن للمرض أن ينتشر بسهولة أكبر خلالها. خامساً، تربط التجارة مع الأماكن البعيدة مناطق متباعدة، وتسهِّل انتشار المرض على مستوىً قارّي.

ونتيجة لذلك، يصبح هناك احتمال كبير في أن تتعرض المجتمعات التي تقترب من وقوع أزمة إلى ضربة وبائية أيضاً. لكنَّ السببية تتدفق في الاتجاه المعاكس أيضاً، إذ إنّ وباءً كبيراً يقوّض الاستقرار المجتمعي، ولأن الفقراء يعانون من معدلات وفيات أكبر مما تعانيه النخب، فإن الأهرام الاجتماعية تصبح ثقيلة في قمتها. كما أنّ الأوبئة المميتة تقوِّض التعاون الاجتماعي بنزع الشرعية عن الحكومات. في العصور القديمة، كان يُنظَر إلى مثل تلك الكوارث على أنها علامة

---

١ - الحد المالثوسي هو الحد الذي يصبح عنده الإنتاج الزراعي لا يكاد يكفي إطعام السكان. (م)

على أنّ الله قد أبدى عدم رضاه عن أحد الحكام، أو أن السماء كانت قد سحبت تفويضها. اليوم، ننزع إلى التفكير على نحو أكثر مادية، فنُلقي باللائمة على الحكومة بسبب عطالتها وإخفاقها في اتخاذ الخطوات الفعّالة لوقف الوباء. أما النتيجة النهائية فلها التبعات السلبية نفسها المتمثلة في أنّ انهيار الثقة بمؤسسات الدولة يُقوّض قدرتها على الحفاظ على السلام والنظام الداخليين. وتصبح الكوارث الديموغرافية الكبرى، مثل الأوبئة والمجاعات في كثير من الأحيان السبب المباشر الذي يدفع المجتمعات إلى الأزمة، لأنها تؤدي إلى ارتفاع شديد في البؤس العام (واحتمال التعبئة الجماهيرية)، وتُقوّض شرعية الدولة (وقدرتها على قمع العنف الداخلي).

ومن ثم، فإنّ العدوى تصبح آليّةً مهمة في دفع موجات عدم الاستقرار التي تُغرِقُ كثيراً من المجتمعات على مساحة قارّة، أو حتى على مستوى العالم، لكنَّ عاملَ العدوى لا يتعيّن أن يكون بالضرورة فيروساً أو جرثومة، فالأفكاريمكن أن تكون مُعديةً أيضاً.

تتذكّرون الربيعَ العربي؟[1] بدأ في تونس في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠، في اليوم التالي لقيام بائع الفواكه محمد البوعزيزي بحرق نفسه احتجاجاً على فساد الشرطة وسوء المعاملة. ومن هناك انتشر إلى الجزائر (٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠)، والأردن (١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، وعُمان (١٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، والسعودية (٢١ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، ومصر (٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، وسورية (٢٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، واليمن (٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، والسودان (٣٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١). بحلول نهاية شباط/ فبراير، كان قد انتشر إلى بقية البلدان العربية (بما في ذلك العراق،

١- الترتيب الزمني التالي مأخوذ من Peter Turchin, "Modeling Periodic Waves of Integration in the Afro-Eurasian WorldSystem," in *Globalization as Evolutionary Process*, edited by George Modelski, Tessaleno Devezas, and William R. Thompson (London: Routledge, 2007), 163–91.

وليبيا، والكويت، والمغرب، ولبنان). لم يَكُنْ إحراقُ البوعزيزي نَفْسَهُ السَّببَ الجذريَّ للربيع العربي، بل كانَ السبب المباشر – 'شرارة واحدة أشعلت حريقاً في برّيّة'.[1] كانت الظروف البنيوية اللازمة للاشتعال قد تطوّرت ببطء على مدى سنوات وعقود سبقت الربيع العربي.[2] لكنَّ الاندلاع المتزامن تقريباً لحالات التمرُّد والثورة في العالم العربي حدثَ بسبب عدوى الأفكار.

كثيرٌ من المعلقين السياسيين يُحمِّلُ وسائلَ التواصل الاجتماعي الحديثة المسؤوليّةَ، على أنّها سببُ الربيع العربي، لكنَّ أولئك الذين يعتقدون أنه كان حدثاً غير مسبوق في التاريخ البشريّ لا يعرفون التاريخ ببساطة، فقبلَ الربيع العربيّ عام ٢٠١٠، كان هناك ربيع أمم في عام ١٨٤٨. بدأت أحداثه في إيطاليا في كانون الثاني/ يناير، لكنْ لم يُلحَظ جيّداً حينذاك. أمّا أكثر الأحداث تأثيراً فكان ثورة شباط/ فبراير في فرنسا، التي ألهمت انتفاضات في ألمانيا، والدنمارك، والسويد في آذار/ مارس. في إمبراطورية هابسبورغ (Hapsburg Empire)، كانت هناك أيضاً حالات تمرُّد عدّة في آذار/ مارس، وحدثَ أبرزُها في هنغاريا وغاليسيا. في حزيران/ يونيو، انتشرت ثوراتُ عام ١٨٤٨ إلى رومانيا؛ وفي تموز/ يوليو، إلى إيرلندا.[3]

لم يكن هناك إنترنت في أوروبا في عام ١٨٤٨، لكنَّ الأخبارَ انتشرت بسُرعة بوساطة الجرائد. كانت الشرارة في فرنسا، حيث بدأت الثورة في ٢٢ شباط/ فبراير ١٨٤٨، وبحلول نهاية آذار/ مارس، كان معظم القارة الأوروبية في حالة اضطراب.

١- تعزى المقولة إلى ماو.

٢- انظر Leonid Grinin and Andrey Korotayev, "The Arab Spring: Causes, Conditions, and Driving Forces," in *Handbook of Revolutions in the* 21*st Century*: *The New Waves of Revolutions, and the Causes and Effects of Disruptive Political Change*, edited by Jack A. Goldstone, Leonid Grinin, and Andrey Korotayev (Switzerland: Springer, 2022), 595– 624, https://doi.org/10.1007/978-3-030-86468-2.

٣- للمزيد، انظر

"Revolutions of 1848," Wikimedia Foundation, last modified September 23, 2022, 10:12, https://en.wikipedia.org/wiki/Revolutions_of_1848#Events_by_country_or_region.

الخلاصة: الحكاية حتّى الآن

في الجزء الأول، بدأ بحثنا في أسباب الموجات المتكررة لعدم الاستقرار التي تصيب المجتمعات البشرية في أميركا المعاصرة، ومن ثم اتسع بالعودة في الزمن إلى أجزاء أخرى من العالم. في الجزء الثاني، أعود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، وأدخل على نحوٍ أكثرَ عمقاً العملياتِ "العميقةَ التي صاغت وتصوغ عصرَ الخلاف الذي نعيشه. من الناحية المنهجية، فإنّ مقاربتي حتى الآن تمثلت في إيضاح الدروس التي تعلّمناها من التحليل الكليوديناميكي وعرض أمثلة محددة من مجتمعات الماضي التي انزلقت إلى أزمات، ومن ثم تعاملت معها على نحو ما، لكنَّ الكليوديناميكية أكثر من مجرد جمع للأمثلة التاريخية، فمن أجل استخلاص دروس مفيدة حقاً من التاريخ يمكن أن تمدنا بالمعرفة اللازمة للإبحار في المياه المضطربة أمامنا، يتعيّنُ علينا ترجمة أفكارنا اللفظية حول الطريقة التي تعمل بها المجتمعات إلى نماذج رياضية، ثم علينا أن ندمج نظريتنا بالبيانات، وفي الوقت نفسه تفادي مزالق التعامل مع أمثلة مختارة، وهذا يعني أنّ علينا أن نبني، وأن نحلل إحصائياً قواعدَ بيانات تاريخية. بخصوص أولئك القُرّاء الذين يرغبون في معرفة المزيد حول كيفية عمل الكليوديناميكية عملياً، أقترح أن يقرؤوا الآن الفصول الواردة في الملحق قبل قراءة الفصل الثالث، أمّا أولئك الذين يُفضِّلُونَ أن يندفعوا مباشرةً إلى جوهر الموضوع، فإنني أقترحُ أن يستمروا بحسب تتابُع فصول الكتاب.

الجزء الثاني

القُوى الدافعة إلى عدم الاستقرار

الفصل الثالث

"الفلاحون يثورون"

الآن، وقد تسلّحنا بسياق مقارن فيما يتصل ببنية أنظمتنا الاجتماعية وديناميكياتها، دعونا نَعُدْ إلى تقصّينا للولايات المتحدة الأميركية. سنبدأ بأكبر مجموعة مصالح، وهي الطبقة العاملة. قد يكون هذا مفاجئاً في عمل بُني من تحليل لمجموعات البيانات الكبرى حول السلوك البشري بمجمله، لكنني سأفتتح هذا الفصل، وبضعة فصول تليه، بقصة قصيرة تُعدُّ مثالاً أنموذجياً، إذا شئتم. لولا خوفي من أنه من السهل أن يغفل المرء عن البشر الحقيقيين حين يُنَمْذِجُ قُوىً اجتماعية لا شخصية، فإنَّ دفاعي الوحيد يتمثل في أنَّ كلَّ حقيقة مادية واردة في هذه القصص لها سوابقُ كثيرة في العالم الحقيقي.

ستيف

سألت ستيف في صيف عام ٢٠١٦: "إذاً، ستُصوّت لمصلحة ترامب في تشرين الثاني/ نوفمبر؟ لكنّهُ ملياردير. ما الذي يعرفه أو يهمه بشأن الناس العاديين؟ كما أنه مُهرّج".

هزّ ستيف علبة سجائر المارلبورو التي يحملها، وأخرج سيجارة، وأشعلها.

"أنا لا أصوّت لترامب. المشكلة هي النخب الليبرالية التي أسقطت هذا البلد العظيم أرضاً. تلك المرأة لا تكترث إلّا لاحتفاظ المصرفيين بثرواتهم، وتقول إنّ 'البائسين' من أمثالي هم المشكلة. أنا و'امتيازات البيض'؟ يا لها من نكتة سمجة! الممثلون الحقيقيون لنزعة تفوُّق العرق الأبيض هم المديرون التنفيذيون للشركات الخمسمئة الكبرى الواردة في فورتشن (Fortune)، و٩٥

بالمئة منهم رجالٌ بيض، لكنْ لسبب ما فإنّ وسائل الإعلام الكبرى لا ترى هذه الحقيقة على الرغم من وضوحها. لا، أنا لا أصدق ما يقوله لنا الديمقراطيون، وما تخبرنا به وسائل الإعلام الليبرالية. على الأقل، يُعبِّرُ ترامب بصوت عالٍ عمّا نُفكِّرُ فيه جميعاً".

نشأ ستيف في شمال ولاية نيويورك في أسرة تنتمي إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى. كان والده يعمل ميكانيكياً في معمل يصنع منتجات البنية التحتية للطرقات العامة. كان هذا العمل يحقق لهم دخلاً متواضعاً، لكنه ثابتٌ سمحَ لأسرة ستيف بالمحافظة على مكانتها في الطبقة الوسطى. لم تكن والدة ستيف تعمل، وكانت الأسرة تملك بيتها، وتمكّنت من إرسال شقيقة ستيف الكبرى إلى كُلّية محلية.

ستيف نفسه قرّرَ أنّهُ ليس مهتماً بالتعليم الجامعي؛ فعلاماته في المدرسة الثانوية لم تكن ممتازة، إضافةً إلى ذلك، لمّا تخرّجت شقيقته، وهي تحمل إجازة في الفنون والعلوم، لم يكن في شهادتها أثرٌ مرئيّ على نوع العمل الذي عُرض عليها أو الأجر الذي تلقّته. بعد سنتين من إكمالها دراستها الجامعية، انتقلت هي وزوجها إلى نورث كارولاينا، حيث كانت الضرائب والتكاليف المعيشية أقلّ، وحيث كانت آفاق وظيفة زوجها أفضل.

بدلاً من الكلية، تطوّع ستيف في الجيش، الذي أرسله إلى ألمانيا، لكنه أكمل جولة واحدة في الخدمة الفعلية. حينذاك، كانت الولايات المتحدة على وشك الشروع في سلسلة من الحروب الخارجية في أماكن مثل أفغانستان والعراق. لم يرَ ستيف مُبرّراً للمخاطرة بحياته في حروب لم تكن تعني له كثيراً، وفي تَطوُّر مُؤسِف، تُوفِّيَ والدُه فجأةً بجلطة قلبية، وهو في عمر صغير نسبياً، وأراد ستيف أن يعتنيَ بأمه في هذا الوقت العصيب. لمّا عاد إلى الوطن وجد ستيف أنه، على عكس جيل والده، لم يكن بوسعه تأمين عمل ثابت. عملَ في البناء مُدّةً، لكنه درّب نفسه في النهاية ليُصبحَ ميكانيكيَّ سيّاراتٍ.

على الرغم من أنه لم يكن يصلح لأيّ دور إداري، فإنه كان يتقن العمل بيديه، وكانت مهارته في إصلاح السيارات تحظى بتقدير رؤسائه. على الرغم من ذلك، فإنّ مستوى مرتّبه بقيمته الحقيقية أقل كثيراً مما كان يتلقّاه والده. إضافةً إلى ذلك، فإنه لم يكن يتمتع بأيّ أمان وظيفي. ثمة شيء ما يحدث دائماً: تخسر ورشة التصليح زبائنها، أو تُقلّص عدد العاملين فيها بسبب ضعف الطلب، أو يطلب المالك عملاً إضافياً، في حين يرفض أن يدفعَ مقابلَ هذا العمل الإضافيّ.

وكانت النتيجة أنّ ستيف لم يستطع أن يبقى في عمل واحد لأكثر من سنة أو سنتين، وكان عليه أن يعتمد على تعويضات البطالة على نحو منتظم. إنّ التقدم بطلب للحصول على هذه التعويضات عملية مُذِلّة، وتستغرقُ وقتاً، وفي كثير من الأحيان يبقى ستيف دون أيّ دخل مُدّةَ أسابيع. الجانب السلبي في تلقّي تعويضات البطالة هو أنّ ثمة كثيراً من الضغط للقبول بوظائف متدنّية الأجر، حتى لو لم تكن تتلاءم مع مهاراته. يعلم أنه عامل جيد، وفي الوظائف السابقة كان يحصل على ٢٥ دولاراً في الساعة، فلماذا يقبل بعمل لا يحصل منه إلّا على الحد الأدنى للأجور؟ وبعد حسم اقتطاع الضرائب، سيحصل على أقل من تعويضات البطالة التي يتلقاها حالياً. ستيف يريد أن يعمل، فهو يستمتع بإصلاح السيارات، ويتقنه، لكنه يشعر بالاستياء حين يُوصَفُ بالكسل لأنه يُحجِمُ عن القيام بأعمال مؤقتة ذوات دخل مُتدَنّ. على الرغم من أنه لا يعرف المصطلح، لكنّهُ جزءٌ من "البريكاريا".[1]

من المفيد أن أمه حصلت على وظيفة في متجر وولمارت (Walmart) المحلي. التعامل مع زبائن وقحين أمر مزعج، وأجر الوظيفة مُتدنّ. أمّا الجانب الإيجابي فهو أن المسافة إلى العمل قصيرة بالسيارة، كما أن ستيف وأمه يَعُدّان نفسيهما محظوظَين لأنهما يملكان منزلهما. الضرائب العقارية في بلدتهما مرتفعة، أكثر من خمسة آلاف دولار سنوياً. على الرغم من ذلك فإنّ امتلاك منزلك أفضل من

1- Guy Standing, *The Precariat*: *The New Dangerous Class* (London: Bloomsbury, 2011).

استئجار شقّة. ضربة حظ أخرى هي أنّ ستيف يحصل على تأمين صحّيّ مجانيّ مِنْ إدارةِ صحّة المحاربين القدماء بوصفه عسكريّاً سابقاً.

ولا بد من الاعتراف بأن ستيف أثبت عدم قدرته على ادّخار أي شيء من دخله ليوم أسود. حتى حين يكون عمله جيداً، فإنّ المال يختفي دائماً بطريقة ما، قبل أن يتلقى الدفعة التالية من أجره.

يرغب ستيف في أن تكون له أسرة وأطفال، لكنْ على الرغم من أنه كان له صديقات عدة، فإنّ أيّاً من علاقاته لم تنضج لتصل إلى علاقة طويلة الأمد. لا يعرف ما المشكلة، لكن الآن، وقد بدأ عقده الخامس، بات يشعر بأن عليه أن يقبل بحياة دون أطفال.

لدى ستيف شغفان: السيّارات والمُسدّسات. الأول يساعد في الحصول على النقود، والثاني أحد أسباب عدم امتلاكه أيّ مدخرات. لديه مجموعة متميزة من الأسلحة النارية، ويستعملها استعمالاً منتظماً في حقل الرماية. معظم أصدقائه من المحاربين القدماء، وهم مثله، مهووسون بالبنادق. الجزء الأكثر قُدسيّةً من الدستور الأميركي في نظرهم هو التعديل الثاني: "حقّ الأفراد بامتلاك الأسلحة وحملها". علمَ ستيف مِنْ أصدقائهبشأن 'حافظو القسم'. بوصفه محارباً قديماً، رحّبوا به للانضمام إلى المجموعة، وشارك في مظاهرات عدّة تأييداً للتعديل الثاني، لكنه حديثاً ابتعدَ عن المنظمة.

لقد تشكّلت آراء ستيف السياسية من تجربته الشخصية وبيئته الاجتماعية. على نحوٍ عامّ، من الواضح له أنّ بلده يسير في الاتجاه الخطأ. نشأ أجداده في أثناء الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية، وكانت الحياة صعبة لبعض الوقت، لكنّها تحسّنت تحسُّناً واضحاً مع دخول البلاد حقبة ما بعد الحرب. أمّا الجيل التالي، جيل أبويه اللذين وُلدا بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كانت الحياة أفضل في نظره. كانت أميركا بلداً عظيماً تتحسّن فيه جودة الحياة على نحوٍ يلحظُهُ كُلُّ جيلٍ يأتي، لكنَّ هذا لا ينطبق على ستيف وأصدقائه. على نحو ما، انتهى عصر الرخاء، واستُبدلَ به عصر الهشاشة. لا يجوز أن يكون الأطفال أسوأ حالاً من آبائهم.

الأسوأ من ذلك طبقاً لستيف، هو أن "النخب الكوزموبوليتانية،" التي تسيطر على الدولة الأميركية، أعلنت فعلياً الحرب على الناس من أمثاله – الذكور غيريي الجنس غير الحاصلين على تعليم جامعي. إنهم "بائسون" كما اشتهرت هيلاري كلينتون بوصفهم في عام ٢٠١٦ – "عنصريون، يميزون ضد النساء، والمثليين، والأجانب، والمسلمين". حين يكون ستيف في مرحلة انتقالية بين عملين، فإنه يشعر بأنه أقلّ الناس قوةً في أميركا. يعتقد هو وأصدقاؤه أن النخب لا تستطيع انتظار التخلص منهم. المعلقون والسياسيون الليبراليون يَعُدُّون السنوات إلى أن يصبح أشخاصٌ مثل ستيف أقلَّ عدداً من الناخبين "الأسوياء"، وكما يسمع من المعلقين اليمينيين، فإن النخب تعمل بنشاط وفعالية لتقريب ذلك اليوم بتشجيع الهجرة.

في حين كان والده ديمقراطياً صلباً، فإنّ ستيف لم يكترث للاقتراع قبل عام ٢٠١٦. لم يكن أيٌّ من السياسيين التقليديين يعجبه. تغيّرَ كلُّ ذلك في عام ٢٠١٦ مع الصعود الستراتوسفيري لدونالد ترامب، الذي فاز على نحوٍ غير مُتوقّع بترشيح الحزب الجمهوريّ. لم يقتنع ستيف اقتناعاً كاملاً بترامب، لكنْ على الأقل كان يُعبّر بالكلمات عمّا كان يشعره ستيف وأصدقاؤه. كان يَعِدُ بتجفيف المستنقع وبناء الجدار، وكانت هذه الرسالة تلقى صدىً، على الرغم من أن ستيف كان متشككاً في أن يُسمَح لترامب بفعل أيٍّ من ذلك، لكنْ لم يكن ذلك مهماً. رحّب ستيف بترشُّح ترامب بصفته كبش صدام ضدّ نُخب واشنطن. كان من المبهج مراقبة النخب، وهي ترتجفُ أمام هجوم ترامب.

ستيف ليس ثورياً؛ فهو لا يرغبُ في هدم الدولة وإعادة تشكيل المجتمع. بدلاً من ذلك، يريد أن تعود الأشياء إلى ما كانت عليه أيّامَ آبائه وأجدادِه. هكذا يُفهَم شعار ترامب: "جَعْل أميركا عظيمة مرّة أخرى".

بقدر ما يكره ستيف السياسيين التقليديين فإنه يمقت وسائل الإعلام التقليدية أكثر. البرنامج الوحيد الذي يشاهده على وسائل الإعلام التقليدية هو **تاكر كارلسون تونايت** (*Tucker Carlson Tonight*)، على فوكس نيوز (Fox News)،

لكنَّ مصادرَ معلوماته وأفكاره الرئيسة تتمثل في أصحاب المدونات والناشرين على يوتيوب، وهم محاربون قدماء مثله. يضحك حين تُسمّي وسائل الإعلام الكبرى مصادرَ أخباره "أخباراً زائفة" (fake news)؛ فمن وجهة نظره، قنوات مثل سي. إن. إن. هي التي تتعامل بالأخبار المزيفة، وفي رأيه، يتمثل أحد المواضيع الرئيسة للأخبار المزيفة في الجائحة الراهنة المتمثلة في هياج إطلاق النار، فمعظمها نَظَّمَهُ أنصارُ ضبط الأسلحة بهدف حشد الرأي العام ضد التعديل الثاني، وهذا أحدُ الأمور الذي تتنابُهُ مشاعرُ قويةٌ حيالها؛ فالخط الأحمر في نظره سيكون حين تأتي الدولة لتأخذ مسدساته وبنادقه. إنه مُستعدّ لاستعمال السلاح للدفاع عن حقه في امتلاك السلاح، وكما يحلو لصديقه براد أن يُكرّر: "إذا كانوا يعاملوننا على هذا النحو، ونحن مسلحون، فما الذي سيفعلونه بنا بعد أن يأخذوا سلاحنا؟"

كاثرين

بعد نحو عام أو عامين من إذهال دونالد ترامب العالمَ بانتخابه، لمّا كانت نخبنا السياسية لا تزال تحاول معالجة هذا التطوّر الصادم للأحداث، خضتُ حديثاً مثيراً للاهتمام مع واحدة من أفراد هذه النخب. كاثرين، التي تنتمي إلى فئة الـ ١ بالمئة، تعيشُ في واشنطن، دي. سي.، ولديها اتصالات واسعة بالمحسنين الأثرياء والسياسيين التقليديين والطامحين على حد سواء، وتعمل في كثير من الأحيان وسيطاً بين المجموعتين. كانت قد سمعت في مكان ما أنه قبل سنوات كنتُ قد نشرتُ توقُّعات تتنبأ بحالة عدم الاستقرار القادمة في الولايات المتحدة، وأرادت أن تعرف على ماذا كان يستند ذلك التنبؤ، وعلى نحوٍ أكثر تحديداً، كانت تبحث عن تبصُّرات في أسباب انتخاب هذا العدد الكبير من الناس لدونالد ترامب في عام ٢٠١٦.

بدأت بإلقاء خطابي المعتاد عن القوى الدافعة إلى عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي، لكنني لم أتجاوز القوة الدافعة الأولى المتمثلة في البؤس الشعبي، لمّا ردّت كاثرين: "أي بؤس؟ لم تكن الحياة في يوم من الأيام أفضل مما هي اليوم!"

ثم نصحتني بقراءة **التنوير الآن** (*Enlightenment Now*)، وهو كتاب كان قد نُشر قبل مدة وجيزة لستيفن بنكر (StevenPinker)، كما اقترحت أن ألقي نظرة على الأشكال البيانية على موقع ماكس روزر (Max Roser) على الإنترنت، بعنوان عالمنا بالبيانات، وبعد ذكر المصدرين، حثّتني على إعادة التفكير في وجهة نظري: "انظر فقط في البيانات. الحياة، الصحة، الرخاء، الأمان، السلام، المعرفة، والسعادة، كلها في ارتفاع".[1] الفقر العالميّ في حالة تراجع؛ وَفَيَات الأطفال في حالة تراجع؛ والعنف في حالة تراجع. الجميع، حتى في أفقر الدول الإفريقية، لديهم هواتف ذكية، وهي تحتوي مُستوىً من التكنولوجيا يُعدُّ إعجازياً مقارنةً بما كان لدى الأجيال السابقة.

كاثرين محقة طبقاً لمصادرها، فطبقاً لماكس روزر،[2] إذا كان ثلاثة أرباع سكان العالم في عام ١٨٢٠ قد عاشوا في فقر مدفع، فإن عُشر هؤلاء يعيشون في هذه الحال اليوم. وعقداً بعد عقد، على مدى القرنين الماضيين، تراجعت حدّة الفقر، وبمعدل تراجع مثير للإعجاب على نحو خاص بعد عام ١٩٧٠.

لكنّ ستيف لا يكترث لما حدث للفقر العالميّ منذ عام ١٨٢٠، أو حتى منذ عام ١٩٧٠، فمعظم التراجع في معدلات الفقر منذ عام ١٩٧٠ كان، في الأحوال

١- كما يذكر منشور على صفحة ستيفن بنكر على الإنترنت: "هل يتداعى العالم فعلاً؟ هل مَثَل التقدم مطلق؟ في هذا التقييم الأنيق للظرف البشري في الألفية الثالثة، يحثنا المثقف العام والمتخصص في العلوم المعرفية، ستيفن بنكر، على أن نبتعد عن العناوين الدموية والتنبؤات المنذرة بالويل والثبور، التي تخاطب تحيزاتنا النفسية، وأن ننظر إلى البيانات: ففي ٧٥ شكلاً بيانياً مذهلاً يظهر بنكر أن الحياة، والصحة، والرخاء، والأمان، والسلام، والمعرفة، والسعادة في ازدياد، ليس في الغرب فحسب، بل في جميع أنحاء العالم، وهذا التقدم ليس نتيجة قوة تجميلية ما. إنه هبة التنوير: القناعة بأنّ العقل والعلم يمكن أن يُعزِّزا الازدهارَ البشري. انظر "Enlightenment Now: The Case for Reason, Science, Humanism, and Progress," Steven Pinker, last updated on April 22, 2022, https://stevenpinker.com/publications/enlightenment-now-sciencehumanism-and-progress.case-reason

2- Max Roser, "Extreme poverty: how far have we come, how far do we still have to go?" Our World in Data, November 22, 2021, https://ourworldindata.org/extreme-poverty-inbrief.

كلها، بسبب النمو الاقتصادي الهائل في الصين، ومن ثم، ما أهمية ذلك له؟ ما المُهمُّ في أنه أغنى من معظم الناس في إفريقية جنوب الصحراء؟ إنه يقارن نفسه، ليس بمزارع الذرة في تشاد، بل بأبيه. إنه يعرف تماماً أنّ جيله في حال أسوأ اقتصادياً من حال جيل أبيه.

حين تقول كاثرين إن الحياة لم تكن في أي وقت من الأوقات أفضل مما هي الآن، فإن هذا يستند إلى ما يحدث عالمياً. كما أن ثمة زاوية شخصية في الأمر؛ فهي والأشخاص الذين تتحدث إليهم (وجُلّهم من أفراد فئة الواحد بالمئة، مع بضعة أفراد من فئة العشرة بالمئة مختلطة بهم) حققوا رخاءً مذهلاً في العقود القليلة الماضية. وتنسجم تجربتها مع الإحصاءات المتفائلة التي يشير إليها بنكر وروزر. لكنّ هذه ليست التجربة الشخصية لستيف وأولئك الموجودين في طبقته الاجتماعية. ولا عجب في أن هاتين المجموعتين تختلفان بشأن المآل الذي تتجه إليه البلاد.

من وجهة نظر كاثرين، فإنّ مشكلات ستيف يتحمل هو مسؤوليتها، ففي اقتصاد اليوم القائم على المعرفة، شهادة الثانوية العامة ليست كافية؛ فلكي يزدهر يحتاج إلى الحصول على تعليم جامعي، كما أنه في حاجة إلى ممارسة الانضباط المالي. فبدلاً من إنفاق أمواله الإضافية على البنادق والذخائر، ينبغي أن يضعها في حساب تقاعد فرديّ.

إذاً، من الـمُحقّ؟ إلى أيّ درجة تُعَدُّ تجربة ستيف نموذجية، وهل يُبرِّرُ له تفكيره في أن أميركا تسير في الاتجاه الخطأ؟ مثل هذه الأسئلة يمكن الإجابة عنها بالإحصاءات.

البحث في الأرقام

تُقرّ كاثرين بأن ازدياد انعدام المساواة مشكلة، لكنْ في رأيها، وعلى الرغم من أنّ ارتفاع معدلات انعدام المساواة حقيقيّ، لكنّهُ مُبالَغٌ فيه كمشكلة في حاجة إلى معالجة عاجلة، وعلى الرغم من أن الأحوال المعيشية للفقراء لا تتحسّن بسرعة كافية، لكنها تتحسّن على كل حال، والنظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية

والأسواق الحرة يُحقّق نتائج إيجابية. والحل الأمثل لانعدام المساواة يتمثل ببساطة في المزيد من النمو الاقتصادي.[1]

هل تتحسّن الأحوال المعيشية للأميركيين؟ الطريقة المعتادة للإجابة عن هذا السؤال تتمثل بالنظر إلى ما يحدث لدخول الأسر. بالنظر إلى أنّ هدفنا هو فهم سبب فوز ترامب في عام ٢٠١٦، دعونا ننظر إلى كيفية تغيُّر الدخول في مرحلة الأربعين عاماً التي سبقت هذا التاريخ. تُعدُّ سنة ١٩٧٦ نقطة بداية جيّدة لهذه المقارنة، لأنّها كانت السنة التي كانَ والد ستيف قد حصل فيها على عمل ثابت. كان هو وزوجته قد انتقلا إلى منزلهما الجديد، وكانا يتوقّعان طفلهما الأول، شقيقة ستيف. كانت الحياة جيّدة، وتتحسن.

طبقاً لمكتب تعداد السكان الأميركيّ،[2] فإن متوسّط الدخل الأسري **(**مُعبَّراً عنه بالدولارات لعام ٢٠٢٠ المُعدَّلة وفقاً للتضخم**)** ارتفع من ٦١,٨٩٦ دولاراً في عام ١٩٧٦ إلى ٨٩,٦٨٣ دولاراً في عام ٢٠١٦، وهذه زيادة بمعدل ٤٥ بالمئة، وتبدو جيدة حقاً، لكنّ متوسّط الدخل ليس أفضل رقم يمكن أن ننظر إليه، لأنّ المتوسط يُحسَب على أسرة فقيرة، يكسب فيها شخص واحد عامل ما يقارب الحد الأدنى للأجور، فيكسب ٢٠ ألف دولار سنوياً، وأسرة غنية، يمتلك فيها مدير تنفيذيّ لشركة كبرى ما وسطيُّه ١٦,٦ مليون دولار.[3] ما نريد أن نعرفه هو ما حدث للأسر النموذجية، وليس للطرفين القصويين للتوزيع. ولهذا نحن في حاجة إلى النظر إلى متوسط الدخل؛ وهو المستوى الذي يقسم توزيع الدخول بالنصف

1- Michael J. Boskin, "The best solution for inequality? Economic growth," World Economic Forum, December 13, 2019, https://www.weforum.org/agenda/2019/12/economic-growth-is-the-answer.

2- "Historical Income Tables: Households," United States Census Bureau, last updated August 18, 2022, https://www.census.gov/data/tables/time-series/demo/incomepoverty/historical-income-households.html.

3- Tonya Garcia, "CEO average pay climbed more than $1 million in 2016," *MarketWatch*, April 13, 2017, https://www.marketwatch.com/story/ceo-average-pay-climbed-morethan-1-million-in-2016-2017-04-12.

تماماً. ما يساعد في الأمر أن مكتب تعداد السكان الأميركي يُوفّر بيانات بشأن متوسّط الدخل. فبين عامي ١٩٧٦ و٢٠١٦، نما هذا الدخل من ٥٢,٦٢١ دولاراً (بدولارات عام ٢٠٢٠) إلى ٦٣,٦٨٣ دولاراً، أي بنسبة ٢١ بالمئة. وهي ليست زيادة جيدة كما الـ ٤٥ بالمئة، لكنها على الرغم من ذلك زيادة لائقة، صحيح؟

على أيّ حال، دعونا نقارن إحصاءات دخل هذه الأسر بما حدث لأجورها. في المحصلة، وعلى الرغم من أنّ الدخل الإجماليّ لستيف وأمه كان في عام ٢٠١٦ أكبر من الدخل الذي كان أبوه يكسبه في عام ١٩٧٦، فإن هذا يعود إلى أن كلا الفردين في الأسرة يعملان، فأم ستيف تعمل في وولمارت، ليس لأنها تستمتع بالتجربة، بل ببساطة لأنهم لن يتمكّنوا من دفع الفواتير دون ما تكسبه، إذ لم يكن دخل الأسرة مصحوباً بأيّ زيادة في جودة حياتها، بل إنه مكَّنَها فقط من عدم الخروج من التصنيف.

حين ننظر إلى الأجور، فإنّ التحسُّن المفترض في الظروف الاقتصادية يصبح أكثر ضآلة، فمتوسط الأجر الحقيقي بين عامي ١٩٧٦ و٢٠١٦ ارتفع من ١٧,١١ دولاراً إلى ١٨,٩٠ دولاراً في الساعة – أي بحدود ١٠ بالمئة.[1] وحين نُصنّف هذه الأرقام حسب العرق، نرى أن تحسُّن أحوال العمال السود كان أفضل قليلاً – ١٢ بالمئة، لكنْ لأنهم بدؤوا من مستوى أدنى في عام ١٩٧٦، فإنّ متوسط أجورهم في عام ٢٠١٦ كان ١٦,٠٦ دولاراً فقط، أما التحسُّن فيما يتعلّقُ بالعمال من أصول إسبانية، فكان على العكس ٦ بالمئة فقط. في النهاية السفلى لتوزيع الدخل، نرى أيضاً أنه عند النهاية الدنيا لتوزيع الأجور، نرى أيضاً أن العشرية الأولى (الـ ١٠ بالمئة من العمال الذين يتلقون أدنى الأجور) تحسّنت أيضاً بـ ٦ بالمئة فقط.

مع غوصنا في الأرقام، فإنّ الصورة الوردية التي رُسمت عمّا يُفترَض من أن النمو الاقتصادي قد حسَّن أحوال أغلبية الأميركيين تصبح أقل وردية، فـ ١٠

1- "State of Working America Data Library," Economic Policy Institute, accessed August 10, 2022, https://www.epi.org/data/.

بالمئة على مدى ٤٠ عاماً ليست مثيرة للإعجاب. وعلينا أن نتذكر أنّ هذا التغيُّر الإجمالي لم يكن مستمراً بحال من الأحوال. ففي تسعينيات القرن العشرين، على سبيل المثال، كان العمال النموذجيون يخسرون؛ إذ كانوا فعلياً يكسبون أقلَّ ممّا كانوا يكسبونه في سبعينيات القرن العشرين.

يُعدُّ تتبُّع كيفية تغيُّر الأجور الحقيقية في أجزاء مختلفة من توزُّع الأجور مُقاربةً مفيدة، لكنها ليست المقاربة الوحيدة، وقد لا تكون الطريقة الأفضل، إذ ليس هناك تقسيمات حادة بين العشريات المختلفة، فالتوزّع أقل حدة. ثمة مقاربة بديلة تتمثل في دراسة كيفية تغيُّر الأجور بالنسبة إلى طبقات مختلفة من العمال. وحديثاً، بدأ علماء الاجتماع بالاهتمام بكيفية تأثير التحصيل التعليمي في الرفاه الاقتصادي.[1]

تقسم الإحصاءات الأميركيين إلى خمس طبقات تعكس إنجازاتهم التعليمية: أقل من مدرسة ثانوية (٩ بالمئة من السكان في عام ٢٠١٦)، مدرسة ثانوية (٢٦ بالمئة في عام ٢٠١٦)، معهد متوسط (٢٩ بالمئة في عام ٢٠١٦)، إجازة جامعية (٢٣ بالمئة في عام ٢٠١٦)، وشهادة جامعية متقدمة (١٣ بالمئة في عام ٢٠١٦).[2] الاختلاف الكبير، من حيث الحظوظ الاقتصادية، يقع بين الطبقات الثلاث الأولى (الأقل تعليماً)، التي خسرت، والطبقتين الأخيرتين (الأعلى تعليماً)، اللتين تقدّمتا على ما عداهما. ارتفع متوسط الأجور الحقيقية للعاملين الذين يحملون درجات جامعية من ٢٧,٨٣ دولاراً إلى ٣٤,٢٧ دولاراً في الساعة. (وكما في السابق، فإني أقارن عام ١٩٧٦ بعام ٢٠١٦ باستعمال الدولارات المعدلة طبقاً للتضخم.) الأميركيون الذين يحملون درجات عليا حققوا نجاحات أكبر، إذ ارتفعت أجورهم من ٣٣,١٨ دولاراً إلى ٤٣,٩٢ دولاراً في الساعة، أما العمال الحاصلون على شهادات التعليم الثانويّ فحسب، فقد انخفضت أجورهم من ١٩.٢٥ دولاراً إلى ١٨.٥٧ دولاراً.

1- Anne Case and Angus Deaton, *Deaths of Despair and the Future of Capitalism* (Princeton: Princeton University Press, 2020).

٢- جميع الإحصاءات الواردة في هذه الفقرة مأخوذة من "State of Working America Data Library," Economic Policy Institute.

فيما يتعلّقُ بالعاملين الذين لم يُكمِلُوا الدراسة الثانوية، فقد تقلّصتْ أجورُهم من ١٥.٥٠ دولاراً إلى ١٣.٦٦ دولاراً. وبالنظر إلى مختلف التصنيفات الديموغرافية، نرى بعض التفاوت حول هذا النمط الكلّي؛ فالرجال كانوا أسوأ حالاً من النساء، والسود أسوأ حالاً من البيض، أو أولئك الذين من أصول إسبانية.[١] أمّا بشأن الفئات جميعها، فالفجوة بين الأقلّ تعليماً والأكثر تعليماً قد تعمّقت بمرور الوقت.

الاستنتاج المروّع من هذه البيانات هو أن الأميركيين الذين لا يحملون درجات جامعية –أي ٦٤ بالمئة من السكان– تتراجع أحوالهم بالأرقام المطلقة؛ فقد تقلصت أجورهم الحقيقية على مدى الأربعين عاماً التي سبقت عام ٢٠١٦، لكننا لم ننتهِ بعد. حتى الآن، ركزنا تركيزاً كاملاً على الأجور المعدَّلة طبقاً للتضخم، أو "الأجور الحقيقية"، لكن ما الذي يجعلها حقيقية؟ إن تعديل الأجور لأخذ التضخم بالحسبان ليس أمراً بسيطاً ومباشراً كما يبدو، فعلى مدى العقود الماضية، أصبحت بعض السلع أرخص: أجهزة التلفاز، على سبيل المثال، وكثير من الألعاب. وكلفة أشياء أخرى، مثل السيارات الجديدة، لم تتغير كثيراً بالقيمة الحالية للدولار، الأمر الذي يعني أن السيارات الجديدة أصبحت أرخص بالدولارات المعدلة طبقاً للتضخم. لكنَّ كلفة موادّ ومنتجات أخرى ارتفعت بسرعة أكبر بكثير من مُعدّل التضخُّم الرسمي، ولتقدير هذا المعدل، يجب على اقتصاديّي الحكومة تعريف سلّة من المواد الاستهلاكية، ثم حساب كيفية تغيُّر كلفتها من سنة إلى أخرى. ثمة مشكلات كثيرة تعتري هذه المقاربة. بعبارة أخرى، فإنّ كلّ شخص يُعاني مُعدّلاً مختلفاً من التضخم. ثانياً، سلّة المواد الاستهلاكية تتغير جذرياً بمرور الوقت. على سبيل المثال، لم يكن لدى الناس أجهزة هاتف ذكية في عام ١٩٧٦، أما اليوم فالجميع يستعملها. كيف نُدخل هذا العامل في حساباتنا؟

العمليةُ التي يبني الاقتصاديون الحكوميون بها سلّةَ المستهلكات، ويعدلونها، غامضةٌ إلى حد ما، ويدّعي بعض النقاد أنها عرضة للتلاعب. في المحصلة، حين

١- بالنسبة إلى إحدى الفئات – النساء البيض – لم تنخفض أجور غير الخريجات الجامعيات بالأرقام المطلقة.

تذكر الهيئات الحكومية النمو الاقتصادي، ثمة حافز قوي للتقليل من قيمة معدل التضخم، لأن ذلك يجعل الحكومة تبدو بمظهر أفضل. يُحسَب الناتج المحلي الإجمالي على أنه مجموع كلّ السلع والخدمات المُنتجة في الولايات المتحدة، ومن ثم يقسم على عدد سكانها، وبذلك نحصل على حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي. أخيراً، يُعَدَّلُ طبقاً لكلفة السلّة، فنحصل على حصة الفرد الحقيقية من الناتج المحليّ الإجمالي. إنّ التقليل من قيمة التضخم يُضخِّم حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، وهذا ما يجعل الحكومة تبدو أفضل. لقد خرج نُقّادٌ عدّة بمقارباتهم الخاصة لتقدير التضخم، على الرغم من أنّ الاقتصاديين التقليديين يرفضونها على أنها زائفة. بصرف النظر عن الجهة المُحِقّة، فإنّ النقطة الرئيسةَ هنا هي أن تعديل الأجور مع أخذ التضخم في الاعتبار ليس عملية بسيطة ومباشرة، ويمكن أن تحدث أخطاء كبيرة في الإحصاءات التي نستخدمها. تستعمل الهيئات الحكومية المختلفة مؤشرات أسعار مختلفة: مؤشر أسعار المستهلكين، ومؤشر أسعار نفقات الاستهلاك الشخصي. الاختلاف الوسطيّ بينهما هو ٠,٥ بالمئة.[1] قد لا يبدو هذا كبيراً، لكنْ لنتذكر أن تغييراً بمعدل عشرة بالمئة على مدى أربعين عاماً (وهي قيمة ارتفاع متوسط الأجور الحقيقية) يُترجَم إلى تغيير بقيمة ٠,٢٥ بالمئة سنوياً، أو نصف الفرق بين مؤشر أسعار المستهلك ومؤشر أسعار نفقات الاستهلاك الشخصي.

على الرغم من ذلك، من الواضح أنّ الدولار الذي كسبه المرء في عام ٢٠١٦ مختلف عن الدولار الذي كسبه في عام ١٩٧٦، ونحن في حاجة إلى إجراء التعديلات لأخذ هذا التغيير في الاعتبار على نحوٍ ما. وتتمثل الطريقة المعتادة في فعل ذلك باستخدام الإحصاءات الحكومية. كما رأينا، وطبقاً لهذا الحساب، فإنّ متوسّط الأجر الحقيقي ارتفع بمعدل ١٠ بالمئة على مدى أربعين عاماً، أو بمعدل

1- John Komlos, "Growth of Welfare and Its Distribution in the U.S., 1979–2013," *Journal of Income Distribution* 28, no. 1 (2019): 1–19, https://doi.org/10.25071/1874-6322.40399.

٠,٢٥ سنوياً. حتى هذا يبدو ضعيفاً. مقاربة أخرى تتمثل في تصنيف السلّة والنظر إلى مختلف أنماط السلع والخدمات على نحو منفصل. على سبيل المثال، ما البنود الكبيرة الأكثر أهمية التي تحدد جودة حياة الطبقة الوسطى الأميركية؟ من الواضح أن أحد هذه العناصر يتمثل في التعليم العالي. عنصر آخر يتمثل في امتلاك منزل. وعنصر ثالث يتمثل بمحافظة المرء على نفسه صحيحاً مُعافى. الغريب أن كلفة هذه النفقات الثلاث جميعاً ارتفعت بسرعة أكبر من المعدل الرسمي للتضخم.

من أجل تأكيد هذه الرسالة، دعونا ننسَ أمر الدولارات الحقيقية (التي يتبيّن أنها ليست حقيقية جداً)، ونُـجْرِ حساباً نستعمل فيه الدولارات الاسمية (الحالية)، متجاوزين بذلك خطوة تعديل الأسعار حسب التضخم. في عام ١٩٧٦، كان متوسط كلفة الدراسة في جامعة حكومية ٦١٧ دولاراً سنوياً. يبدو هذا غير حقيقي تقريباً. كان عامل يكسب متوسط الأجر في عام ١٩٧٦ في حاجةٍ إلى أنْ يعمل ١٥٠ ساعة ليتعلّم سنة واحدة في الجامعة. في عام ٢٠١٦، أصبح متوسط الكلفة السنوية للتعليم في جامعة حكومية ورسومها ٨,٨٠٤ دولارات. وكان على عامل يحصل على متوسّط الأجر أن يعمل ٥٠٠ ساعة ليدفع هذه التكاليف – أي أكثر من ثلاثة أضعاف المدة. كما أن تحدّي تحمّل كلفة منزل متوسط يروي حكاية مشابهة؛ إذ يجب على العامل المتوسط أن يعمل مُدّةً أطول بـ ٤٠ بالمئة ليحصل عليه في عام ٢٠١٦ مقارنة بعام ١٩٧٦. تلك الزيادة بمعدل ١٠ بالمئة في متوسط الأجور الحقيقية باتت تبدو أسوأ من ذي قبل.

الأسوأ من ذلك، إذا أجرينا الحسابات نفسها، لكنْ بدلاً من استعمال متوسط الأجر نستعمل الأجر المتوسط لخرّيج مدرسة ثانوية – لنتذكر أنه انخفض بالأرقام المطلقة بين عامي ١٩٧٦ و٢٠١٦ – وأن الزيادة في ساعات العمل اللازمة لدفع تكاليف الجامعة بلغت أربعة أضعاف تقريباً (٣,٨٥، إذا توخينا الدقة). في عام ٢٠١٦، كان على الآباء من "الطبقة العاملة" (الأقل تعليماً) أن يعملوا مدة أطول بأربع مرات لدفع تكاليف تعليم أبنائهم في الجامعة

مقارنة بعام ١٩٧٦، وهذا يعني أن القدرة على الانتقال من الطبقة الأقل تعلّماً إلى الطبقة الأفضل تعلّماً تآكلت تآكلاً جذرياً على مدى بضعة عقود فقط.

الرفاه البيولوجي

حتى الآن، اقتصرنا في هذا التقصي للحظوظ المتغيرة للطبقة العاملة الأميركية، على النظر إلى الأبعاد الاقتصادية للرفاه. لكن الرفاه وعكسه، الذي هو البؤس، لهما أبعاد أخرى، بيولوجية واجتماعية. يتعلق أول هذه الأبعاد بالصحة، وهو مؤشر أفضل وأكثر نزاهة على جودة الحياة في كثير من الأوجه. ما الذي نستطيع قوله عن الصحة؟

يتمثل أحد مؤشرات الرفاه البيولوجي الأكثر حساسية في متوسط الطول عند السكان.[١] يتكون شكل القامة بفضل التوازن بين التغذية التي يحصل عليها الكائن الحي ومتطلبات البيئة التي تُفرض عليه في السنوات العشرين الأولى من حياته، والشكل الأكثر أهمية في التغذية هو استهلاك الطاقة، لكن جودة الأغذية (توفُّر الخضراوات الطازجة، على سبيل المثال) تُؤثّر في الطول. وتشمل الضغوط البيئية التي يمكن أن توقف النمو، والانتشار الواسع للأمراض، بالنظر إلى أن محاربة الالتهابات يكلف طاقةً وعملاً شاقاً، إذا كان ذلك مطلوباً من الأطفال والمراهقين. ومن ثم فإن كثيراً من العوامل التي تحدد طول القامة تتأثر بالمكانة الاقتصادية للأسرة. ويُترجَم الدخل الأكبر إلى كمية أكبر وجودة أفضل للغذاء. كما أن الثروة تشتري خدمات طبية أفضل، وتُحرّر الأطفال من الحاجة إلى العمل في المصانع. وتسمح العطلات للكائنات الحية بتجديد مخزوناتها من الفيتامين د. ومن ثم، فإن متوسط الطول لدى السكان يوفر تصحيحاً مفيداً جداً للإجراءات الاقتصادية البحتة، مثل الأجور الحقيقية. من الممكن الحصول على تقديرات موثوق بها عن الطول من العظام البشرية، وهذا ما يُمكّننا من تتبع رفاه السكان في عصور ما قبل التاريخ.

---

١ - انظر الفصل الثالث من **عصور الخلاف**.

في القرن الثامن عشر، كان سكان أميركا همُ الأطول في العالم.[1] واستمرَّ متوسط الطول لدى الأميركيين المولودين في أميركا في الارتفاع، حتى المجموعة التي وُلدت عام ١٨٣٠. وفي أثناء الأعوام السبعين التالية، تراجع أكثر من أربع سنتمترات. بعد منعطف مُـهمّ، في عام ١٩٠٠، وعلى مدى ٧٠ عاماً أُخرى، كانت النزعة مرة أخرى إيجابية جداً. في هذه المرحلة، ارتفع الطول المتوسط تسعةَ سنتمترات كاملة، ثم حدث شيء ما. فبدايةً بالأطفال الذين وُلدوا في ستينيات القرن العشرين، توقفت الزيادات في الطول. أثّر هذا التغير في النزعة في الولايات المتحدة فحسب. في الديمقراطيات الأخرى ذوات الدخل المرتفع، استمر طول القامة في الارتفاع، واليوم يعيش أطول البشر في العالم في دُوَل مثل هولندا، والسويد، وألمانيا، لكنْ ليس في الولايات المتحدة. ما الذي يحدث؟

تحدث الارتفاعات في الطول عند البالغين حين يمرّ المراهقون بين الخامسة عشرة والعشرين من أعمارهم بطفرات نموهم. حالما نصل إلى مطلع العشرينيات، نتوقف عن النمو (وفي النهاية نبدأ بالتقلُّص، وإن يكن ببطء شديد)، ومن ثم تأثر طول الأطفال الذين وُلدوا في ستينيات القرن العشرين جزئياً بالظروف البيئية التي مروا بها بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٠، وتحدّدت هذه الظروف على نحو رئيس بأجور جيل آبائهم، ونتيجةً لذلك، لّما توقّفت الأجور الحقيقية للأميركيين العاديين عن النمو في أواخر سبعينيات القرن العشرين، توقف نمو متوسط طول أطفالهم أيضاً.[2]

يتمثل مؤشر آخر مفيد جداً على الرفاه البيولوجي في متوسط العمر المتوقع، وثمة صعوبة أكبر في تقدير هذا المؤشر لبشر عاشوا في الماضي البعيد. على الرغم من ذلك، وبفضل الأبحاث التي أجراها الحاصل على جائزة نوبل روبرت فوغل

1- John Komlos and Marieluise Baur, “From the Tallest to (One of) the Fattest: The Enigmatic Fate of the American Population in the 20th Century,” preprint, submitted September 14, 2003, https://doi.org/10.2139/ssrn.444501.

٢- انظر الشكل ١١,١ والنص الشارح في الفصل ١١ من **عصور الخلاف**.

(Robert Fogel)، ومؤرخون اقتصاديون آخرون، فإننا محظوظون بامتلاك بيانات عن تاريخ الولايات المتحدة برُمّته.[1] في أثناء هذين القرنين، عكست التغيُّرات في متوسط العمر المتوقع ديناميكيات بيانات طول القامة.[2] وهذا ليس مفاجئاً، لأنه على المستوى الفردي هناك ترابط إيجابي قوي بين متوسط العمر المتوقع وطول القامة، إلّا في حالات الطول المفرط. بعبارة أخرى، إن هذين القياسين يُوفّران وجهات نظر متممة للرفاه البيولوجي وحين ينخفضان كلاهما، تتعزز فكرة أن ثمة مشكلة يعانيها السكان.

لدينا اليوم بيانات مفصلة جداً تسمح لعلماء الاجتماع بإعادة بناء الاتجاهات المتعلقة بالعمر المتوقع، أو بدلاً من ذلك، معدلات الوفاة لمختلف شرائح السكان في المجتمع، فحين يُتوفّى شخصٌ في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، تصدر شهادة وفاة توفر جميع أنواع البيانات المتعلقة بالمتوفى، بما في ذلك تحصيله التعليمي. الاقتصاديان المتميّزان آن كيس (Anne Case)، وآنغوس ديتون (Angus Deaton)، استعملا حديثاً هذه الإحصاءات لاكتشاف نزعة مزعجة جداً فيما يتعلق بهذا المقياس للرفاه، فقد وجدا أن العمر المتوقع حين الولادة للأميركيين البيض انخفض بمعدل العُشر كلَّ سنة في عامي ٢٠١٣ و٢٠١٤. في السنوات الثلاث التالية، انخفض العمر المتوقع للسكان الأميركيين بمجملهم، وارتفعت معدلات الوفيات لكل الأعمار، لكنّ الارتفاع الأكثر سرعة حدث للأميركيين البيض في منتصف حياتهم. كتبَ كيس وديتون: "إنّ أيَّ انخفاض في العمر المتوقع غير شائع على الإطلاق. وبحدوث انخفاض على مدى ثلاث سنوات، فإننا نواجه وضعاً غير مسبوق؛ إذ لم ينخفض العمر المتوقع للأميركيين لثلاث سنوات متتالية منذ اكتملت تغطية

1- Robert William Fogel, *The Escape from Hunger and Premature Death*, 1700–2100: *Europe, America, and the Third World* (New York: Cambridge University Press, 2004).

٢- انظر الشكل ٣,٥ في **عصور الخلاف**، ٧٥٢-٧٦٠.

التسجيل الحيوي في عام ١٩٣٣".[1] بدأ الانخفاض في العمر المتوقع للأميركيين قبل جائحة كوفيد– ١٩ بسنوات عدّة، لكنَّ الجائحة وجّهت ضربة قوية. بحلول عام ٢٠٢٠، فقد العمر المتوقع عند الولادة ١,٦ سنة، مقارنة بعام ٢٠١٤.[2]

تتحدث القصة التي يرويها كتاب كيس وديتون غالباً عن الأميركيين الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة. يشكل الأميركيون البيض من غير ذوي الأصول الإسبانية نحو ٦٢ بالمئة من السكان في سن العمل، ومن المهم جداً تتبع رفاههم لفهم الاتجاه الذي تمضي فيه أميركا بوصفها بلداً. لكنْ سيكون من الخطأ قصر مضامين بحث كيس وديتون فقط على "الرجال البيض الغاضبين،" كما تفعل الصحافة أحياناً. إن القوى الاقتصادية والاجتماعية التي ألحقت الضرر بالعمالة أثّرت في شرائح الطبقة العاملة الأميركية جميعها، بصرف النظر عن النوع الاجتماعي، أو العرق، أو الإثنية، لكنَّ الوقت الذي تأثرت فيه حياتهم بهذه القوى يمكن أن يكون مختلفاً تماماً.

ضربتْ موجةُ العولمة الراهنة، التي بدأت عام ١٩٨٠، الأميركيين السود، ولا سيما أولئك الذين يعيشون في مراكز المدن على نحو خاص. غادرَ الأميركيون السود الأفضل تعليماً إلى أحياء وضواحي أكثر أماناً، وفي المركز الحضري، تراجعت معدلات الزواج؛ وارتفعت معدلات الجريمة والوفاة جرّاء العنف؛ وكان للجائحتين التوءمين الكوكائين والإيدز أثر غير متناسب في الأميركيين السود. إنَّ الذي حدث للأميركيين السود من الطبقة العاملة في الثمانينيات يمكن أن يشكل لمحة عن تطورات مماثلة أثَّرت في الأميركيين البيض بعد ثلاثين عاماً. لقد كانت معدلات الوفاة بين السود دائماً أعلى من مثيلاتها بين الأميركيين البيض، وفي مطلع تسعينيات القرن العشرين، كانت أكبر بمرتين من وفيات الأميركيين البيض. لكن بعد عام ٢٠٠٠، ومع ارتفاع معدلات وفيات البيض، تراجعت معدلات وفيات السود بسرعة، وأغلقت الفجوة بينهما إلى نسبة ٢٠

1- Case and Deaton, *Deaths of Despair*, 752–60.

2- John Komlos, *Foundations of Real-World Economics*, 3rd ed. (New York: Routledge, 2023).

بالمئة. يا للأسف! إن التحسينات في العمر المتوقع عند السود توقّفت في عام ٢٠١٣، وكان العامل الرئيس في عكس هذه النزعة ارتفاع معدلات "وفيات اليأس" في أوساط الأميركيين السود الأقل تعليماً بعد عام ٢٠١٣.[1]

في مكان سابق من هذا الفصل، رأينا أن الحظوظ الاقتصادية لـ "الطبقة حاملة الشهادات" (الأميركيين الذين يحملون درجةً جامعية أو أعلى) و"الطبقة العاملة" (ناقص المتعلمين) ابتعدَتْ كُلٌّ منهما عن الأُخرى بالأرقام المطلقة على مدى العقود الأربعة الماضية. ارتفعت أجور الأفراد الأكثر تعليماً؛ وتراجعت أجور الأقل تعليماً. ماذا حدث للأبعاد الأخرى للرفاه؟ بفضل الأبحاث الهائلة التي أجراها كيس وديتون، فإننا نعرف الجواب، وهو ليس جيداً. استمرت معدلات الوفاة في أوساط الفئات المتعلمة في انحدارها المئوي. لكنْ فيما يخصُّ الطبقةَ العاملة، فإنّ معدلات الوفاة ارتفعت، وتراجع العمر المتوقع حين الولادة.

شملت المجموعةُ السُّكّانية الأولى التي وثّق فيها كيس وديتون معدلات الوفاة المرتفعة الرجالَ البيض الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة وبين الخامسة والأربعين والخمسين من العمر. وانعكست النزعة فيما يخصُّ هذه المجموعة في أواخر تسعينيات القرن العشرين.[2] وكان ارتفاع معدلات الوفاة مدفوعاً بمزيج من الأسباب، التي يشير إليها كيس وديتون إجمالاً بـ "وفيات اليأس". وتحدث وفيات اليأس بسبب الانتحار، وإدمان الكحول، واستعمال المخدرات – وجميعها وسائل للهرب من الألم المادّي والنفسيّ. يُشكِّلُ الانتحار الطريقة الأسرع، لكنَّ جرعات المخدرات المرتفعة وتليُّف الكبد الكحولي هما شكلان آخران من قتل النفس؛ لكنهما ببساطة يستغرقان وقتاً أطول. الأمر اللافت على نحو خاص أنه في حين ارتفعت وفيات اليأس أربعة أضعاف بالنسبة إلى الرجال الأقلّ تعليماً، فإنها لم تتغير بالنسبة إلى الرجال الأفضل تعليماً.[3]

1- Case and Deaton, *Deaths of Despair*, figures 5.1 and 5.2.

2- Case and Deaton, *Deaths of Despair*, figure 5.1.

3- Case and Deaton, *Deaths of Despair*, figure 4.1.

لكنّ وفيات اليأس لا تؤثر في الرجال وحدهم، إذ يكتب كيس وديتون:

حملت التغطية الإعلامية المبكرة لعملنا في كثير من الأحيان عناوين حول رجال بيض "غاضبين" يموتون، وهو ما نعتقد أنه ينبع من عدم القدرة على تخيل أن النساء يمكن أن يقتلن أنفسهن بهذه الوسائل. تاريخياً، لم يكنَّ يفعلن ذلك. لكنَّ ذلك تغير. احتمال أن تقتل النساء أنفسهن أقل؛ ويبدو هذا صحيحاً في جميع أنحاء العالم التي تتوافر بيانات بشأنها، حتى في الصين، التي كانت تُعدُّ استثناءً – وثمة احتمال أقل في أن يَمُتْنَ جرّاء مرض الكبد الكحولي أو من الإفراط في تناوُل المخدرات. لكنَّ الشكل البياني يظهر أن الوباء يؤثر في الرجال والنساء بأعداد متساوية تقريباً، وهذا صالحٌ لكُلِّ مُكوّن – الانتحار، الاستعمال المفرط للمخدرات، مرض الكبد الكحولي – عند دراستها على نحو منفصل... لم يميّز هذا الوباء بين الجنسين.

في مطلع تسعينيات القرن العشرين، لم تكن هناك مخاطرة كبيرة في أن تموت النساء البيض الأقل أو الأكثر تعليماً بسبب إدمان الكحول، أو الانتحار، أو الإفراط في استعمال المخدرات، لكنْ منذ ذلك الحين، تباعدت المساراتُ فيما يخصُّ النساءَ طبقاً لمستواهن التعليميّ، تماماً كما حدث بشأن الرجال.

ثم، في عام ٢٠٠٥، بدأت وفيات اليأس تزداد قبل منتصف العمر، فقد ارتفعت معدلات وفيات الأميركيين في الثلاثينيات والأربعينيات من أعمارهم بسرعة أكبر من معدلات وفيات آبائهم، على الرغم من أننا نلاحظ العكسَ عادةً، بسبب آثار التقدُّم في السن. ظهر وضعٌ متناقض بحيث أن جيلاً أكبر سناً شهد معدل وفيات أقل من جيل أكثر شباباً، كما يكتب كيس وديتون: "لا ينبغي أن يتعيّن على الآباء مراقبة أبنائهم البالغين يموتون. إنه عكس النظام الطبيعي للأشياء؛ إذ يفترض بالأبناء أن يدفنوا آباءهم، لا العكس".

في عام ٢٠١٠، لمّا كنت ألقي محاضرات عن تنبؤاتي 'للعشرينيات المضطربة'، أشرت إلى الأجور النسبية المتراجعة، وقصر القامة (ولا سيما الشرائح المهمشة من

السكان)، والأبعاد الاجتماعية التي تزداد سوءاً فيما يتعلق بالرفاهي (وسنعرض المزيد أدناه)، لكنَّ مُتوسِّطَ العمر المتوقع للأميركيين استمرَّ في الارتفاع، على الرغم من أنه كان متخلفاً عن التحسينات الملاحظة في ديمقراطيات غنية أخرى. حينذاك، شرحتُ قائلاً: "نعيش في عالم ما بعد مالثوسي لا ينبغي أن نتوقع فيه أن ينجم عن البؤس تراجع مطلق في توقعات الحياة". كنت مخطئاً. لمّا تعرّفتُ أولاً عملَ كيس وديتون في عام ٢٠١٥، صُدِمْت.

عكس الاتجاه في حقبة ريغان

كيف يمكننا أن نفهم هذا؟ تلعب النزعات الاقتصادية، مثل تنامي انعدام المساواة، دوراً مهماً؛ لكن سيكون من السطحي جداً رسم سهم سببي مباشر من انعدام المساواة إلى البؤس. سأبيِّن هنا كيف أعيد بناء مجموعة الأسباب التي نجم عنها تراجع متوسط العمر عند الأميركيين – وتراجع الرفاه على نحو عام. ينسجم تفسيري مع تفسير كيس وديتون، وتفسيرات اقتصاديين مثل جون كوملوس (John Komlos)[١] لكنني أعود إلى الماضي، وأضعه في الإطار العام للكليوديناميكا.[٢]

لقد مرّت الولايات المتحدة، مثلها مثل أي مجتمع معقد آخر، عبر أطوار تكاملية وتفككية متناوبة. بدأ الطور التفككي الأول عام ١٨٣٠ تقريباً، وانتهى نحو عام ١٩٣٠.[٣] وفي هذه المرحلة، اندلع حدثان كبيران للعنف الجماعي، فصلهما نحو خمسين عاماً: الحرب الأهلية (وما تلاها من عنف)، وبلغ عدم الاستقرار ذروته نحو عام ١٩٢٠. في نهاية عصر الخلاف الأول في الولايات المتحدة، تمكّنت النخب الحاكمة، التي أخافتها مستويات العنف السياسي التي سَبَّبَتْها، من التوحد والاتفاق على جملة من الإصلاحات التي أنهت عصر الخلاف الأول. أُطلقت هذه الإصلاحات في الحقبة التقدمية، التي بدأت نحو عام

١- انظر Komlos, *Foundations of Real-World Economics*.

٢- العرض التالي ملخص للفصل ١٢ من **عصور الخلاف**.

٣- انظر الجدول ٧,١ والشكل ٧,١ والنقاش المرتبط بهما في **عصور الخلاف** الذي يشرح الأساس التجريبي لهذا التقسيم إلى مراحل.

١٩٠٠، وانتهت بالصفقة الجديدة في ثلاثينيات القرن العشرين. وتمثلت إحدى أهم النتائج في عقد اجتماعي غير مكتوب بين الشركاتوالعمال والدولة، منحَ العُمّالَ حقَّ تنظيم أنفسهم والتفاوض الجماعي، وضَمِن مشاركتهم الكاملة تقريباً في تقاسُم مكاسب النمو الاقتصادي. كان هذا الاتفاق أوسع من الاقتصاد في حد ذاته؛ إذ إنه رسّخ فكرة التعاون الاجتماعي بين شرائح المجتمع المختلفة (طبقاً لمصطلحات الكليوديناميكا، العامة، والنخب، والدولة). على الرغم من نشوء مقاومة شرسة في البداية ضدَّ العقد من شرائح معينة من النخب،[١] فإن نجاح البلاد في التعامل مع تداعيات الكساد العظيم، ومن ثم الحرب العالمية الثانية، أقنع الجميع، إلّا مجموعة هامشية صغيرة نسبياً، بأن هذا العقد كان أمراً جيداً.

ينبغي ألّا ننسى أن الطبقة العاملة التي دخلت هذا الميثاق كانت الطبقة العاملة البيضاء. أما الأميركيين السود فقد ظلوا خارجه. (سأعود إلى هذه النقطة المهمة في الفصل السادس.)، وتكمن المفارقة في أن النهاية المعاكسة لطيف الثروة – الأغنياء جداً – كانوا من بين الخاسرين أيضاً، لأن الاتفاق الثلاثي وضع حداً بالفعل لمضخة الثروة وعكس اتجاهها. نحو نصف أصحاب الملايين الذين ازدهرت أحوالهم في العشرينيات الصاخبة قضى عليهم الكساد العظيم والعقود التي تلته، لّما نمتْ أجورُ العمال بسرعة أكبر من حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي. خسر كبار الأثرياء في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٨٢، سواء من حيث الثروات الحقيقية أو حين قياسهم كمجموع لمتوسط رواتب العاملين.[٢] وكان الرابح الأكبر الطبقة الوسطى.

١- مثل المحافظين في الجمعية الوطنية للمصنّعين، كما تعيّن على روزفلت التعامل مع محكمة عليا معادية له. لمراجعة تحليل لفصائل النخبة المختلفة في أثناء 'الصفقة الجديدة'، انظر G. William Domhoff and Michael J. Webber, *Class and Power in the New Deal*: *Corporate Moderates, Southern Democrats, and the Liberal-Labor Coalition* (Stanford: Stanford University Press, 2011).

٢- أعود إلى هذه النقطة في الفصل ٦، حيث أناقش "الانكماش العظيم"؛ للمزيد من التفاصيل، انظر الفصل ٤ في **عصور الخلاف**.

لكنّ ذلك لم يَدُمْ، ففي سبعينيات القرن العشرين، بدأ جيلٌ جديد من النخب يحلّ محل "الجيل المدني العظيم".[1] النخب الجديدة، التي لم تُعانِ اضطرابات عصر الخلاف السابق، نسيت دروسه، وبدأت تدريجياً بتفكيك الدعامات التي قامت عليها حقبة رخاء ما بعد الحرب. أفكار الاقتصاد النيو كلاسيكي، التي كان يعتنقها فيما مضى اقتصاديون هامشيون، أصبحت هي الأفكار الرئيسة.[2] ومثّلت رئاسة ريغان في ثمانينيات القرن العشرين نقطة تحوّل لمّا تُـخُلِّـيَ عن فكرة التعاون بين العمال والشركات. بدلاً من ذلك، دخلنا عصر "الجشع الجيد".

في الوقت نفسه، تعرّضت أجور العمال للضغط من قوى متنوعة غيّرت التوازن بين العرض والطلب على العمالة. كان العرض من العمالة قد تضخم بسبب الأعداد الكبيرة لجيل ما بعد الحرب الباحثة عن العمل، وزيادة مشاركة النساء في قوى العمل، وبحدوث زيادة كبيرة في الهجرة، وتقلُّص الطلب على العمالة مع انتقال الشركات إلى الإنتاج في خارج أميركا استجابةً إلى العولمة، وفي وقتٍ أحدَث، زيادة أتمتة الإنتاج وروبتته. ونتيجة لذلك، زاد الإفراط في عرض العمالة مقارنةً بالطلب عليها الضغوطَ على أجور العمال، ومع ازدياد ضعف المؤسسات التي تحمي العمال، لم تتمكن الأجور من مقاومة هذا الضغط عليها في اتجاه تخفيضها. تراجعت الأجور الحقيقية، ولا سيما ما يخصُّ العاملين الأقلّ تعليماً، الذين كان الطلب على مهاراتهم أقلّ في الاقتصاد الجديد، والذين عانوا من درجة أكبر من المنافسة من المهاجرين، والأتمتة، وعمل الشركات في الخارج ممّا عاناه العاملون المتعلمون في الجامعات.[3]

1- Robert D. Putnam, *Bowling Alone*: *The Collapse and Revival of American Community* (New York: Simon & Schuster, 2000).

٢- انظر Kim Phillips-Fein, *Invisible Hands*: *The Businessmen's Crusade Against the New Deal* (New York: W. W. Norton, 2009).

٣- انظر George J. Borjas, *We Wanted Workers*: *Unraveling the Immigration Narrative* (New York: W. W. Norton, 2016).

في حين كان من الواضح أن التوازن بين العرض والطلب على العمالة كان له أثر قوي، فإن العوامل الاقتصادية البحتة ليست كافية لتفسير تراجع الأجور النسبية للعمال العاديين منذ سبعينيات القرن العشرين. يظهر تحليل إحصائي لبيانات الأجور أن عاملاً إضافياً ومحورياً كان يغيّر المواقف الثقافية والسياسية بشأن المستوى المناسب لأجور العاملين من غير النخبة. تعبير جيد عن هذا العامل "فوق الاقتصادي" يتمثل في الحد الأدنى الحقيقي للأجور.[1] من الصفقة الجديدة إلى المجتمع العظيم، دفعت هذه القوى من خارج السوق الحد الأدنى للأجور إلى الارتفاع بسرعة أكبر من سرعة التضخم، لكنْ في سبعينيات القرن العشرين، انتصرت نزعة معاكسة، وهذا ما سمح للحد الأدنى للأجور بالتراجع نتيجةَ التضخم. لكنّ المهم هنا ليس الأثر المباشر للحد الأدنى للأجور في إجمالي الأجور، الذي من المرجح أن يكون طفيفاً لأنه يؤثر في نسبة صغيرة من قوى العمل الأميركية. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ ولايات كثيرة حددت الحد الأدنى للأجور فيها على مستوى أعلى من المستوى الاتحادي. تتمثل القيمة الرئيسة لهذا المتغيّر في أنه يُمثّل القوى المعقدة الفاعلة خارج السوق، التي تشمل أيضاً مواقف النخب حيال التفاوض الجماعي.[2]

توفّر أوراق بحثية جديدة وضعها اقتصاديون أدلّة قوية على أهمية القوى الفاعلة خارج السوق في تفسير تراجع أجور العمال الأميركيين. تحليل أجرته عام ٢٠٢٠ آنا ستانسبري (Anna Stansbury)، ولورانس هـ. سَمَرز (Lawrence H. Summers)، قدَّم مجموعة متنوعة من الأدلّة على أن تراجع قوة العمال عامل أكثر أهمية من زيادة قوة الشركات في سوق المنتجات ("الاحتكار")، وقوة الشركات في أسواق العمل ("احتكار الشراء")، أو التطورات التكنولوجية.[3] يوفّر مقال كتبه لورانس ميشيل

---

١ - **عصور الخلاف**، الفصل ١٢.

٢ - انظر النقاش في الجزء المتعلق بنمذجة فائض العرض والرفاه العام في الفصل ١٢ من **عصور الخلاف**.

3- Anna Stansbury and Lawrence Summers, "Declining Worker Power and American Economic Performance," paper presented at the BPEA Conference, March 19, 2020, https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2020/03/stansbury-summersconference-draft.pdf.

وجوش بيفانز دليلاً آخر على أن انخفاض الأجور بين عامي ١٩٧٩ و٢٠١٧ كان بسبب تغيّر ميزان القوى، وليس بسبب الأتمتة أو التغييرات التكنولوجية. يحدد ميشيل وبيفانز العوامل الآتية التي سبّبتْ معاً ثلاثة أرباع الاختلاف بين الإنتاجية ونموّ مُتوسّط التعويضات الساعية:

١ - الاقتصاد الكلي للتقشف، بما في ذلك تيسير وجود مستويات أعلى من البطالة لضبط التضخم، والاستجابة إلى حالات الركود بقوة غير كافية؛

٢ - العولمة المدفوعة من الشركات، والناجمة عن خيارات سياساتية، غالباً نيابة عن الشركات متعددة الجنسيات، التي تقوّض الأجور والأمان الوظيفي للعمال غير الحاصلين على التعليم الجامعي في الوقت الذي تحمي فيه أرباح ومرتبات مدراء الشركات وأصحاب المهن المهمة؛

٣ - إضعاف التفاوض الجماعي عمداً بقرارات قضائية وخيارات سياساتية أدت إلى ممارسات أكثر عدوانية، مارستها الشركاتُ ضدَّ النقابات.

٤ - معايير عمالة أضعف، بما في ذلك انخفاض الحد الأدنى للأجور، وتآكل حمايات العمل الإضافي، وعدم إنفاذ القوانين المعنية ضد حالات "سرقة الأجور،" أو التمييز القائم على النوع الاجتماعي، أو العرق، و/أو الإثنية.

٥ - بنود تعاقدية جديدة فَرَضَها أصحابُ العمل، مثل اتفاقيات عدم التقاضي بعد ترك الوظيفة والقبول بالتحكيم الخاص والعام بشأن المظالم.

٦ - التحولات الجارية في هيكليات الشركات، والناجمة عن الانقسام (أو التعاقد مع جهات خارج الشركات)، وإلغاء الأنظمة الضابطة للصناعات، والخصخصة، وهيمنة المشتري التي تؤثر في سلاسل الإمدادات جميعها، والزيادات في تركيز أرباب العمل.[1]

1- Lawrence Mishel and Josh Bivens, "Identifying the policy levers generating wage suppression and wage inequality," Economic Policy Institute, May 13, 2021, https://www.epi.org/unequalpower/publications/wage-suppression-inequality/.

ثمة إجماع متزايد بين الاقتصاديين على يسار الوسط بأن عدم تساوي القوى لعب دوراً أكثر أهمية من التغيّرات التكنولوجية في عدم إحداث زيادات على أجور العاملين غير النخبويين اعتباراً من عام ١٩٧٠ فصاعداً.[١]

الرفاه الاجتماعي والنفسي

تظافرت الظروف الاقتصادية المتردية للعاملين الأقل تعلّماً بسبب تراجع المؤسسات الاجتماعية التي ترعى حياتهم وتعاونهم الاجتماعيين، وتشمل هذه المؤسسات الأسرة، والكنيسة، ونقابات العمال، والمدارس العامة، وجمعيات الأهل والمدرسين، وجمعيات الأحياء التطوعية المختلفة. تراجعت هذه المؤسسات جميعها، وكذلك الدرجة الإجمالية للتعاون والانخراط الاجتماعي.[٢] كما يُظْهِرُ كيس وديتون، فإن وباء وفيات اليأس يُفسَّر جزئياً فقط بتراجع الظروف الاقتصادية. الأمر المهم حيوياً أيضاً هو الانهيار التدريجي للعلاقات الاجتماعية.

لتراجع الظروف الاقتصادية والاجتماعية أثر مباشر في السعادة الشخصية وعكسها – البؤس. لقد اكتشف علماء النفس الاجتماعيون أن من الممكن قياس مستوى السعادة بين السكان ببساطة بسؤال الناس على نحو منهجي عن مشاعرهم. على الرغم من بساطة هذه المقاربة، فإنها تنتج قياسات يمكن الركون إليها لـ "الرفاه الذاتي،" مع قدرة مقاربات أخرى على تقديم أجوبة مشابهة (مترابطة بقوة). لقد أظهرتدراساتٌ عدّة أجريت حديثاً بوحي من عمل كيس وديتون، أنّ مستوى الرفاه الذاتي للأميركيين انخفض على مدى العقدين الماضيين. على سبيل المثال، استعمل ديفيد بلانشفلاور (David Blanchflower)، وآندرو أوزوالد (Andrew Oswald)، المسوحات التي تجريها شهرياً مراكزُ ضبط

1- Noam Scheiber, "Middle-Class Pay Lost Pace. Is Washington to Blame?" *New York Times*, May 13, 2021, https://www.nytimes.com/2021/05/13/business/economy/middleclass-pay.html.

٢- انظر Putnam, *Bowling Alone*.

الأمراض والوقاية منها لقياس مستوى "الإجهاد النفسي المفرط".[1] وجد المؤلفان أن نسبة الأميركيين الواقعين في حالة "كرب شديد تضاعفت تقريباً – من ٣.٦ بالمئة في عام ١٩٩٣ إلى ٦.٤ بالمئة في عام ٢٠١٩". وكان الأثر الأقوى المنسجم مع النتائج السابقة لكيس وديتون، قد لوحظ في أوساط العاملين الأميركيين البيض. في هذه المجموعة، ارتفع الكرب الشديد – اليأس – من أقل من ٥ بالمئة إلى أكثر من ١١ بالمئة على مدى المرحلة نفسها. دراسة أخرى أظهرت أن درجة متزايدة من عدم السعادة لها أثر تنبُّؤيّ قويّ في السلوك السياسي باستعمال مجموعة مختلفة من البيانات (من استطلاع غالوب اليومي، والمجمّع حسب البلد)، أظهر جورج وورد وزملاؤه أن الرفاه الذاتي المتدني يُعدُّ علامةً قوية على الاستياء، ويرتبط بقوة بالتصويت ضدّ شاغلي المناصب. في عام ٢٠١٦، على نحو خاص، كان أقوى مُتنبِّئ بالتصويت لترامب على مستوى البلاد بأسرها.[2]

في هذه الرواية، كما نرى، تلعب العوامل الاجتماعية، والثقافية، والنفسية دوراً مهماً جداً. وتشمل هذه التأثيرات غير الاقتصادية الأيديولوجيات الهدامة، مثل موضوعية آيان راند (Ayn Rand) وعلم الاقتصاد الجديد السائد، اللَّذَينِ أشادا بالكفاءة الاقتصادية وأصولية السوق على حساب تحسين الرفاه على نطاق واسع. تطوُّر آخر، له تبعات غير متوقعة إلى حد ما،

1- David G. Blanchflower and Andrew J. Oswald, "Trends in Extreme Distress in the United States, 1993–2019," *American Journal of Public Health* 110, no. 10 (2020): 1538–44, https://doi.org/10.2105/ajph.2020.305811. .

ركّزَ هؤلاءِ المُؤلِّفُون على مسألة "فكّر الآن في صحتك العقلية، التي تشمل الشدّة النفسية، والاكتئاب، والمشكلات والعواطف. كم يوماً من الثلاثين يوماً الماضية لم تكن صحتُك العقلية جيدةً فيها؟"، وعرَّفوا 'الشدّة النفسية المفرطة' بأنها نسبة المجيبين الذين أعطَوا أقصى جواب ممكن -أي ثلاثين يوماً.

2- George Ward et al., "(Un)Happiness and Voting in U.S. Presidential Elections," *Journal of Personality and Social Psychology* 120, no. 2 (2021): 370–83, https://doi.org/10.1037/pspi0000249.

كان صعود نظام الجدارة. الفيلسوف ميشيل ساندل (Michael Sandel) عبَّر عن ذلك على النحو الأفضل:

يُشجَّع الفائزون على النظر إلى نجاحهم على أنه من إنجازهم هم، والتعبير عن فضيلتهم – وأن يشعروا بالازدراء حيال أولئك الأقل حظاً منهم، وقد يتذمر أولئك الذين يخسرون من أن النظام منحاز ضدهم، وأن الفائزين مارسوا الخداع، وتلاعبوا، وغشُّوا إلى أن وصلوا إلى القمة، أو قد يحتفظون بأفكار تُضعِفُ معنوياتهم مفادُها أن إخفاقهم من صنعهم هم، وأنهم يفتقرون ببساطة إلى الموهبة والدافع إلى تحقيق النجاح.[1]

إذاً، بحلول عام ٢٠١٦ كان الشعب الأميركي قد صنَّف نفسه في طبقتين هما: المتعلمون و"البؤساء" – كحال **بؤساء** فيكتور هوغو. هاتان ليستا طبقتين، طبقاً لماركس، لأنهما لا تُعرَّفان بعلاقتهما بوسائل الإنتاج. كما أنّ أياً منهما ليست قوة فاعلة متماسكة في الساحة السياسية. "البؤساء" الأقل تعليماً، على وجه الخصوص، منقسمون عرقياً. (سنتحدث عن الانقسامات داخل الطبقة المتعلمة في الفصل التالي.). بدلاً من ذلك، فإن المجموعتين متمايزتان بحدة بمجموعة كاملة من الخصائص: النفسية (مستويات أعلى مقابل مستويات أدنى من "الكرب الشديد")، واجتماعياً (معدلات زواج أعلى مقابل أدنى)، وسياسياً (الميل إلى التصويت للجمهوريين مقابل الميل إلى التصويت للديمقراطيين)، واقتصادياً (آفاق متردّية مقابل آفاق متصاعدة)، وربما التصنيف الأكثر مأساوية، بيولوجياً (عمر متوقع يزداد ارتفاعاً مقابل عمر متوقع يزداد انخفاضاً). لقد أصبح الخط الفاصل بين الطبقتين عصياً أكثر على العبور بسبب ارتفاع تكاليف التعليم الجامعي ارتفاعاً كبيراً.

على الرغم من أنّ أيّاً من الطبقتين ليست متماسكة داخلياً، فإنّ كلاً منهما تنزع إلى تصوُّر الأخرى على أنها أكثر وحدةً وانسجاماً ممّا هي حقاً، كما تنزع كلٌّ منهما إلى تحميل المسؤولية للطبقة الأخرى عن سير أميركا على المسار الخطأ.

١- كما هو مقتبس في Case and Deaton, *Deaths of Despair*, 54–55.

مضخّةُ الثروة، مرّة أُخرى

في الفصل الأول، طرحت الأجور النسبية (الأجور مقسومة على حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي). ينجم عن حذف خطوة التعديل للتلاؤم مع التضخم طريقة أقل خطأً في تتبُّع الرفاه الاقتصادي للأميركيين العاديين.

حين ننظر في ديناميكيات الأجور النسبية في الولايات المتحدة من بداية الجمهورية إلى الوقت الحاضر، تظهر البيانات نمطاً بارزاً لموجتين. بين عامي ١٧٨٠ و١٨٣٠، تضاعف الأجر النسبي تقريباً. لكن بعد القمة التي وصلَ إليها عام ١٨٣٠، فقد معظم مكاسبه بحلول عام ١٨٦٠. وراوَحَ على هذا المستوى المتدني حتى عام ١٩١٠، لمّا حلّتْ مرحلة مستدامة أخرى من النمو دامت حتى عام ١٩٦٠، وضاعفت الأجر النسبي تقريباً مرة أخرى. بدايةً من عام ١٩٧٠، تراجع الأجر النسبي، واستمرّ في التراجع إلى زمن كتابة هذا الفصل. بين عامي ١٩٧٦ و٢٠١٦، فقد الأجر النسبي نحو ٣٠ بالمئة من قيمته.

ما الذي تنبئنا به ديناميكيات الأجر النسبي حول مجتمعنا، ولا سيما حول صموده أمام الصدمات الخارجية والداخلية؟ إنّها تُنبِئُنا بأشياء كثيرة. لنفترض أن الأجور النسبية لعشريات العمال الأميركيين جميعها، من الـ ١٠ بالمئة الأدنى إلى الوسطى إلى الـ ١٠ بالمئة الأعلى؛ ظلت ثابتة مُدّةً طويلة، فإنّ هذا يعني أن أجور العمال جميعاً ترتفع معاً مع الاقتصاد برمّته. كما قال جون ف. كيندي في عام ١٩٦٣ (لمّا كان الأجر النسبي في أوجه)، فإنّ المدّ الصاعد يقلب جميع المراكب، لكنْ على مدى الأربعين عاماً الماضية، تراجعت الأجور النسبية. ترتفع دخولُ أصحابِ أكبر الدخول ارتفاعاً كبيراً، في حين أنَّ قوارب الآخرين جميعاً تغرق، مع سقوط الموجودين في الـ ١٠ بالمئة الأدنى إلى الهاوية. لم تتراجع الأجور النسبية بهذه الطريقة المستدامة منذ العقود الثلاثة بين عامي ١٨٣٠ و١٨٦٠. وكحال الأجور النسبية، فإن المؤشرات البيولوجية للرفاه، مثل طول القامة ومتوسط العمر المتوقع، مرّتْ بالدورتين العظيمتين نفسيهما.

تشير الاعتبارات الأساسية للعدالة والإنصاف إلى أن الأجور النسبية المتراجعة لا تفضي إلى حالة من السعادة. لماذا يُقْصَى معظمُ العمال من المشاركة بإنصاف في ثمار النمو الاقتصادي؟ يؤدي الأفراد العاملون في الوظائف ذوات الدخول المنخفضة مهمات حيوية للمجتمع. ولا يبدو من الإنصاف ألّا ترتفع أجورهم مع ازدياد ثراء المجتمع. لم يكن المجتمع الأميركي مجتمع مساواة جذرية في أي حال، ناهيك عن كونه اشتراكياً في حقبة كيندي. كانت الولايات المتحدة بلداً رأسمالياً، وفيه فجوات كبيرة في الثروة بين الأغنياء والفقراء، لكنَّ مستويات الثقة بالمؤسسات وشرعية الدولة كانت مرتفعة جزئياً، لأنّ حتى الفقراء، رأوا كيف كانت حياتهم تتحسّن تحسُّناً واضحاً من جيل إلى آخر. بين عامي ١٩١٠ و١٩٦٠، تضاعف الأجر النسبي تقريباً، وهذا يعني أن قوارب الناس العاديين كانت ترتفع بسرعة أكبر من تحسن الاقتصاد على نحوٍ عام. كان الأثرياء هم الذين يتراجعون، لكن الغريب في الأمر أن الأثرياء والأقوياء لم يكونوا سعداء بذلك. أصبحوا غير سعداء في سبعينيات القرن العشرين. وسنتحدث عن ثورة النخب لاحقاً.

لكنْ، أيها القارئ، قد لا ينزف قلبك لمحنة الفقراء. هناك بشر جيدون كثيرون يعتقدون أن نظام الجدارة ينبغي أن يكون المبدأ الناظم الرئيس لمجتمعنا، وأولئك الذين يسهمون كثيراً ينبغي مكافأتهم حسب إسهاماتهم؛ فالمديرون التنفيذيّون الذين يُولّدون المليارات في شكل عائدات لشركاتهم ينبغي أن يصبحوا من أصحاب المليارات، وأولئك الذين يتخلّفون عن الركب ينبغي أن يُرتّبوا أمورهم على نحوٍ أفضل – أن يكتسبوا المهارات اللازمة، أو يعملوا بجد أكبر وعلى نحو أذكى. وكما يقول المثل الروسي الساخر: "إنقاذ الغرقى مهمة الغرقى أنفسهم".[١]

إضافةً إلى ذلك، قد لا تشعر بالتعاطف مع كثيرين من الطبقة الأقل تعليماً – عنصريون يحملون الأسلحة، مؤمنون بتفوُّق العرق الأبيض، أشخاص يميزون بين الجنسين، كارهو المثليين، وكارهو المتحوّلين جنسياً، وكارهو الأجانب. طبقاً

١ - من The Twelve Chairs، وهي رواية سوفييتية شعبية جداً. هذه العبارة محاكاة ساخرة لعبارة كارل ماركس: "ينبغي أن تنجز الطبقة العاملة تحرير نفسها بنفسها".

لتقدير هيلاري كلينتون الشهير، فإن نحو نصف أولئك الذين صوّتوا لترامب بائسون. في معظم المجتمعات البشرية المعقدة، تشعر الطبقات العليا بشيء من الازدراء للطبقات الدنيا. "الفلاحون يثورون".

لكنْ ينبغي أن تنظروا في سبب آخر جدِّيّ جداً لكونِ تراجُعِ رفاه الطبقة العاملة أمر سيئ – لأنهُ يُقوّض على نحوٍ جوهريّ استقرارَ مجتمعنا. الأمر الأكثر وضوحاً أنه حين تعاني شرائح كبيرة من السكان تراجعاً في أحوالها المعيشية، فإنّ هذا يقوّض شرعيّة مؤسساتنا، ومن ثم يُضعِفُ الدولة. إن البؤس الشعبي يزيدُ من احتمال حشد الجماهير. في الماضي، ثار الفلاحون لمّا أصبح بؤسهم غيرَ قابل للاحتمال. كانت ثورة الفلاحين في إنكلترة وثورة الجاكري في فرنسا مثالين على هذه الثورات في أثناء الأزمة القروسطية المتأخرة. الأفراد التقدميون في مجموعة ٠,٠١ بالمئة، مثل نِك هانوير (Nick Hanauer)، يحذروننا منذ زمن مِنْ أن المذاري قادمة إذا لم نفعلْ شيئاً لإصلاح حالات عدم المساواة الصارخة.[1] هذا واضح تماماً؛ لكنَّ الأقل وضوحاً حقيقة أن الأجور النسبية المتراجعة تشغِّل ما يسمى مضخة الثروة، إذ لا بد أن تذهب ثمار النمو الاقتصادي إلى مكان ما. إذا كانت عائدات الدولة نسبة ثابتة نسبياً من الناتج المحلي الإجمالي، في حين تصل إلى أجور العمال العاديين نسبة متناقصة منها، فإنّ ثمار النمو الاقتصادي ستحصدها النخب الاقتصادية التي تشمل أصحاب أعلى الدخول (أي المديرين التنفيذيين، ومحامي الشركات) وأصحاب رأس المال. يستغرق الأمر وقتاً، لكنْ في النهاية ينجم عن الثروة التي تضخ من الناس العاديين إلى النخب إفراط في إنتاج النخب، وصراع داخل النخب، وإذا لم يُضْبَطْ ذلك في الوقت المناسب، انهارت الدولة والمجتمع. قد يكون الأثرياء أكثر هشاشة من الناس العاديين في مثل تلك المراحل من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، كما تشير نتائج الثورات الاجتماعية.

1- Nick Hanauer, "The Pitchforks Are Coming . . . for Us Plutocrats," *Politico Magazine*, July/August 2014, https://www.politico.com/magazine/story/2014/06/the-pitchforks-arecoming-for-us-plutocrats-108014/.

فكرة معمقة أخرى مُستمدّة من الكليوديناميكا غير واضحة تلقائياً أيضاً هي أن التراجع العام لرفاه الطبقة العاملة يخلق حوافز قوية لدى أفرادها للهرب إلى الطبقة المتعلمة، ومن المؤكد أنّالحصول على التعليم يُشكِّلُ علاجاً معيارياً للمشكلات التي ناقشناها في هذا الفصل. في أميركا القرن التاسع عشر، كانت النصيحة التي تُعطى للطبقات البائسة على الساحل الشرقي: "اذهب غرباً، أيها الشاب!" اليوم النصيحة هي: "اذهب إلى الجامعة، أو الأفضل من ذلك، احصل على درجة مهنية". وعلى المستوى الفردي، فيما يخصُّ أولئك الذين يريدون النجاة من الهشاشة، فإنّ هذه النصيحة جيدة. لكنْ ماذا يحدث على المستوى الجماعي، حين تسعى أعداد هائلة من الطامحين إلى دُخولِ صُفوفِ النخبة؟

تُظهِرُ قاعدةُ بيانات الأزمة التي نستخدمها أنه في حين أن البؤس الشعبي مسهم كبير في الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، فإن الإفراط في إنتاج النخب أكثر خطورة. وسيكون الولوج إلى الديناميكيات الصغرى للإفراط في إنتاج النخب مجالَ تركيز الفصل التالي.

الفصل الرابع

القوات الثورية

جين

دفع رجال الشرطة مجموعة من محتجين 'احتلوا وول ستريت' قُربَ جين، وضربوهم بالعصيّ، ورشّوا وجوههم برذاذ الفلفل من مسافة قريبة. وكانت الأجساد الصارخة تهتز من التشنُّجات على الأرض، والشرطة تضع القيود في أيديهم، وتنقلهم بعيداً. لم تكن قد واجهت مثل هذا العنف من قبل في حياتها. كانت رؤية ذلك أمراً مرعباً.

نشأت جين في أسرة ثرية في مانهاتن. كان والدها شريكاً أوّل في شركةِ قانون تجاري في نيويورك، وكانت أمها، وهي مصورة وراعية للفنون، عضواً في مجلس أمناء متحف الفن الحديث، وكانوا يعيشون في شقة كبيرة من طابقين في الجانب الشمالي الشرقي، وفي الصيف ينتقلون إلى منزل صيفي في هامبتونز.

أرسل والدا جين ابنتهما إلى أغلى المدارس الخاصة النخبوية في المدينة، وكان ذلك وقتاً مرعباً في نظرها. في الواقع، فإنها تَعُدُّ السنةَ الأخيرة قبل تخرجها أسوأ أيام حياتها. كان الطلاب، بِحَثٍّ من آبائهم وأمهاتهم "النمور"، يسعون إلى الحصول على أعلى الدرجات وتطوير ذخيرة من النشاطات غير الصفية بحيث يحسِّنون فرصهم للحصول على قبول في الجامعات النخبوية. لمّا كان أحد الطلاب يحصل على درجة (A) في اللغة الفرنسية، تَعيَّنَ على المدرِّس أن يتحمَّل هجوماً لفظياً مُدّةَ ٤٠ دقيقة من أمه الغاضبة. لم يكن من المفاجئ أن يتخرّج الطالب بمتوسط درجات كامل، وكان الضغط للتمثُّل بمثل هذا الأداء هائلاً. شعرت

جين بالقلق الشديد مُدّةَ أشهُر، وأصيبت بالكرب والإعياء بحيث إنها وجدت نفسها غير قادرة على النوم. وصف لها طبيبها حبوباً منوّمة.

على الرغم من ذلك، كان أداء جين جيداً، وقُبلت في جامعة كولومبيا. لكن بعد أن تجاوزت بنجاح عقبة القبول في جامعة نخبوية، شعرت الآن بأنها على المسار الخطأ. ما الذي ينبغي أن تتطلع إليه؟ أربع سنوات قادمة من التعلّم في الجامعة، ومن ثم ثلاث سنوات في كلية الحقوق – إذا أراد منها والدها أن تسير على خطاه – وستكون السنوات الثلاث كسابقاتها الأربع: تنافُساً شرساً. ثم سيتعين عليها أن تتحمل سنواتٍ من العمل مُدّةَ سبعين ساعةً أسبوعياً مُشارِكةً مُبتدِئةً في شركة قانونية، دون آفاق مستقبلية واضحة في أن تصبح ذات يوم شريكة فيها. ما نفعُ كل ذلك؟ لماذا تفعل كل ذلك؟ لم يكن العمل الذي يقوم به والدها لمصلحة الشركات الدولية الكبرى يستحقُّ كُلَّ هذا الجهد الهائل، ففي معظم الوقت كان عملاً مملاً ومضجراً، وأحياناً شرّيراً، كما حدث لمّا ساعد شركة تعدين مُدافعاً عنها في قضية ضد قرويين إندونيسيين سُمِّم مصدر مياههم بعملياتها. كما أنّ حياة زوجة محامٍ ثريّ أو مدير تنفيذي لم تجتذبها. لم تكن حتى واثقة بأنها تحبُّ الفنَّ التجريديّ.

قرّرت أن يكون اختصاصها الرئيس التاريخ، وفُتنت بتاريخ أميركا اللاتينية والحياة السياسية فيها. كان جزء كبير منها قصة محزنة لكيفية تلاعب الولايات المتحدة باقتصادات أميركا اللاتينية، وفرض أعباء ديون ساحقة على سكانها، ودعم، بل حتى تنصيب أنظمة فاشية فيها، لكنْ كانت هناك نقاط مضيئة لمقاومة ناجحة ضدّ الإمبريالية. قرأت عن مقاومي الساندينستا في نيكاراغوا؛ واشتراكيي شافيز في فنزويلا؛ والزاباتيستا، والقائد المعاون في تشياباس، المكسيك؛ وفوق كل ذلك، كوبا. بلد صغير تمكَّن، على الرغم من عقود من الحصار الأميركي الساحق، من تحقيق متوسط عمر متوقع لسكانه أفضل ممّا كان موجوداً في الولايات المتحدة، الأغنى والأكثر قوة.

من أجل تحسين قدرتها على المحادثة باللغة الإسبانية، انتسبت إلى مدرسة لغات في ريف غواتيمالا، حيث عاشت لثلاثة أشهر مع أسرة محليّة، وكانت تلك تجربة فتحت عينها على أشياء كثيرة. كان مستضيفوها فقراء جداً، وكان طعامهم يتكوّن تقريباً من الذرة والبازلاء، مع قليل من الدجاج أو لحم الخنزير، يُؤكَل مرّة أو مرتين أسبوعياً، لكنهم كانوا إجمالاً سعداء، ودافئين ومُرحِّبين، وكانوا يتقاسمون القليل الذي يمتلكونه معها عن طيب خاطر. كان ذلك يتناقض على نحو لافت مع عالمها الآخر، المدارس الخاصة النخبوية الممتلئة بالطلاب المتميزين أكاديمياً المفرطين في الانشغال بأنفسهم والمصابين بكرب دائم. هنا عالم من التضامن والتعاون، حيث لدى الجميع الوقت للتوقف وتبادل الأحاديث، مقابل عالم من التنافس المحموم والغرور اللذَين لا حُدودَ لهما.

بعد عودتها من غواتيمالا، انضمت إلى مجموعة من الطلاب الراديكاليين في كولومبيا. كان الطلاب الآخرون من خلفيات أيديولوجية متنوعة: فوضويون وتروتسكيون وناشطون مؤيدون للفلسطينيين ومحتجون على حرب العراق. تحدّثوا عن أسطورة الديمقراطية وواقع العيش في بلد منقسم، حيث يتعرض السود للاضطهاد، ويرزح ملايين الفقراء تحت عبودية الدَّين لتمويل رأس المال. على الرغم من أنها كانت محاطة بامتيازات الطبقة الوسطى، لكنها أصبحت تعي حالات الظلم وعدم المساواة المحيطة بها، وأرادت أن تُحدث تغييراً؛ أن تُوقِفَ وحشيّةَ الدولة واضطهادها؛ وأن تبنيَ عالماً عادلاً مُسالماً.

أصبحت نشطةً في حركة 'احتلّوا وول ستريت'، وأقامت في خيمة في حديقة زوكوتي في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١. وحدث الهجوم الذي تعرّضت له بعد أيام من المظاهرات في نيويورك وفي مدن أميركية أخرى من أتلانتا إلى بورتلاند، استعملت الشرطة في قمعها الغازَ المسيل للدموع، والقنابل الصوتية، والرصاص المطاطي ضد المتظاهرين السلميين. في أوكلاند، أطلق شرطيٌّ طلقةً مطاطية على وجه المقاتل السابق في حرب العراق سكوت أولسن فكسرَ جُمجمته. كان أولسن محظوظاً، إذ ظلَّ على قيد الحياة، لكنَّ وجهه شُوِّه

لِـمَا تبقى من حياته. وتبعَ ذلك المزيد من وحشية الشرطة، وفي النهاية قمعَ الجهازُ القسري للدولة حركةَ 'احتلوا!' وطردُوا جين والآخرين من حديقة زوكوتي. لقد كانت تلك تجربة غيَّرت حياتها. من قبل، كانت مُثلُها الثورية نظرية ومجردة. الآن باتت شخصية.

أصبحت قلقةً بعمق حيال النمو الانفجاريّ للعنف العنصري والمجموعات التي تؤمن بتفوق العرق الأبيض. وأكّدت حركةُ اليمين المتطرف المتصاعدة واختيار ترامب الحاجةَ إلى محاربة المدّ الاستبداديّ. أصبحت جين نشطةً في الحركة المعادية للفاشية ضدَّ عودة اليمين المتطرف إلى الصعود.

وباتت تقبل بأنه ينبغي أن يُوقَف الاستبداديون بأيّ وسيلة كانت، حتى وإنْ كانتْ عنيفةً إنْ لزمَ الأمر. لكنها لم تكن مقاتلةً على خط الجبهة تضرب الفاشيين، وتحرق السيارات، أو تكسر نوافذ المحلات التجارية. كانت مهمتها، بدلاً من ذلك، التنظيم والاهتمام بالأمور اللوجستية.

على الرغم من أنها لم تكن تحب التصنيفات الأيديولوجية، لكنْ يُمكِنُ وصفُ آرائها الراهنة بأنها فوضويّة. إنها تعمل مع رفاقها التروتسكيين، لكنها تعتقد أن الماركسية الكلاسيكية باتت قديمة إلى حد ما الآن. لا تشعر بكثير من التضامن مع الطبقات العاملة، فعدد كبير منهم عنصريون ومتحاملون على المثليين، وهم مستعدون أكثر ممّا ينبغي لدعم فاشيّ، بعد أن صوتوا لترامب. كما أن تفسير الماركسيين لدعم الطبقة العاملة للاستبداد باستحضار "وعيهم الزائف" (false consciousness)، يبدو غير مقنع لها، وأولئك الذين ينتمون إلى اليمين المتطرف العنيف يعملون في كثير من الأحيان مع الشرطة لقمع التقدُّميين.

ثم طرأ على مسارها تحوّلٌ حادّ. قابلتُ جين في خريف عام ٢٠٢٠، وفوجئت لمّا علمتُ بأنها باتت في سنتها الثانية في كلية الحقوق في جامعة ييل.

"لا بد أن يكون والدك سعيداً!". قلتُ مستفزاً إياها.

ضحكتْ. "لن أصبح محامية تجارية على أيّ حال".

أخبرتني جين بأنها كانت قد فقدت أوهامها حيال نشاط أنتيفا. الدولة هي العدو، لكنَّ الشجار مع العنصريين، ورمي الحجارة على الشرطة، وكسر نوافذ المحلات التجارية لم يبدُ أنه يفضي إلى شيء. كما أنَّ ترامب باتَ الآن خارجَ واشنطن، لكنَّ النخب التقليدية نفسها عادت واستلمت زمامَ الأمور، وأصبح "لا نريد بايدن، نريد الثورة" الشعار الجديد لليسار المتطرف.

ستُشكِّلُ شهادةُ الحقوقمنطلقاً لدخولها السياسة. حالما تتخرج، تخطط جين للترشح إلى منصب في منطقة ليبرالية ذات ميول يسارية – ربما كنائبة عامة، وربما كعضو في مجلس المدينة. كمسؤول منتخب، سيكون لديها سلطة حقيقية لتحقيق طموحات حياتها. ولا يزال الهدف النهائي بناء عالم دون شرطة وسجون ودول. لكنْ كي تصل إلى هناك، فهي في حاجة أولاً إلى العمل داخل هيكليات السلطة القائمة.

اشتهر عن ماو قوله إنّ السلطة السياسية تنمو من فوهة بندقية. لكن جين تعتقد أنه في القرن الحادي والعشرين، قد تنمو الثورة من صندوق الاقتراع، وتعتزم أن تستكشف ذلك على الأقلّ.

الإفراط في إنتاج الشهادات

قارنّا في الفصل الثالث الحظوظ المتباعدة للفئات الأقل تعليماً مع تلك الأكثر تعليماً. لقد تراجع رفاه المجموعة الأولى على مدى العقود القليلة الماضية، في حين أنّ حظوظ المجموعة الثانية تقدمت. لكنْ ثمة مشكلة رئيسة في هذه الرواية تتمثل في أنها تتعامل مع المجموعة الثانية كما لو أنها مُوحَّدة ومنسجمة. نعم، صحيحٌ أن طبقة حملة الشهادات حققت نجاحاً إذا نظرنا إليها وسطياً، لكنَّ هذا لا يعني أن حاملي الشهادات جميعاً رابحون. كان ذلك صحيحاً في خمسينيات القرن العشرين وستينياته، لكنه لم يعد صحيحاً اليوم، بل على العكس. لرؤية ما حدث، دعونا نلعب لعبة الطامحين مرة أخرى.

لِنَقُلْ إنّ هدف اللعبة أن يصبح المرء عضواً في مجموعة العشرة بالمئة. (لكنْ تذكَّر أن اللعبة نفسها يمكن أن تُلعَب على رهانات أخرى: لدخول مجموعة الـ ١ بالمئة أو الـ ٠,١ بالمئة؛ أو أن تصبح من أصحاب المليارات، أو أن تصبح عضواً في مجلس الشيوخ الأميركي). تُمثِّل الكراسي العشرة هذه الجائزة. كي تلعب اللعبة، عليك أن تشتري بطاقة. تدفع رسوم التعليم، وتستثمر أربع سنوات من وقتك للحصول على درجة إجازة.

لمّا لُعِبَتِ اللعبةُ في مطلع خمسينيات القرن العشرين، كان أقل من ١٥ بالمئة من الناس بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين من العمر يذهبون إلى الجامعة.[1] ومن ثم، عليك أن تتنافس مع ثلاثة عشر طامحاً أو أربعة عشر. ومن المُؤكَّد أنَّ واحداً أو اثنين من الكراسي يمكن أن يمسكَ بها أشخاص أذكياء ويتمتعون بطاقة عالية على نحو متميز من الطبقة العاملة لم يشتروا بطاقات. لحسن الحظ، فإن عدداً قليلاً من منافسيك المباشرين يمكن أن يتسربوا من الجامعة، أو يواجهوا مشكلات بطرائق مختلفة؛ ومن ثم فإن كل ما تحتاج إليه هو البقاء في مسارك؛ وأن تحصل على علامات جيدة، ومن ثم على الشهادة؛ وأن تمتثل لتوقعات أساتذتك ومديريك. إذا اتبعت هذه القواعد، فإنك تضمن كرسياً. حتى إذا كنت غير محظوظ، ولم تفلح في الوصول إلى العشرة بالمئة الأكثر ثراءً، فسيتعيّنُ عليك أن تُخفقَ إخفاقاً صارخاً حقاً كي لا تتمكّن من الوصول إلى العشرية الثانية التي تضمن لك أيضاً مستوى لائقاً جداً من الرفاه. إلى هذا الحد، الأمورُ جيّدة.

لكنْ بمرور السنوات، تصبح اللعبة أصعب. إذا دخلت المنافسة بعد خمسة عشر عاماً، في عام ١٩٦٦، فإنك ستلعب ضدَّ ثلاثين طامحاً آخر، وفي عام ١٩٩٠، سيصبح أكثر من نصف الأفراد في مجموعتك أعضاء في اللعبة – خمسين

1- Claudia Goldin, "Enrollment in institutions of higher education, by sex, enrollment status, and type of institution: 1869–1995," table Bc523–536 in *Historical Statistics of the United States, Earliest Times to the Present*: *Millennial Edition*, edited by Susan B. Carter et al. (New York: Cambridge University Press, 2006), http://dx.doi.org/10.1017/ISBN-9780511132971.Bc510-736.

لاعباً، وعشرة كراسٍ فقط. واليوم، فإنّ ثُلُثَي الشباب بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين يدخلون الجامعة.[1]

ما الذي يمكن أن تفعله؟ دعونا نَعُدْ إلى عام ١٩٦٦، لمّا كان ثلاثون بالمئة من الشباب يدخلون الجامعة. لكي تنجح في المنافسة، عليك أن ترفع رهاناتك، وتشتري بطاقةً أعلى سعراً، ومن ثم بعد الجامعة تلتحق بكلية الحقوق، أو بكلية الطب، أو بكلية أخرى للدراسات العليا. الآن، يصبح في إمكانك معَ اثنين أو ثلاثة آخرين من حاملي الشهادات العليا أن تحصلوا على كرسيّ بسهولة، مع اكتفاء الآخرين بدرجة الإجازة.

الأشياء ممتازة إلى حين، لكنْ سرعان ما يلتحق الآخرون باللعبة. بين عامي ١٩٦٠ و١٩٧٠، تضاعف عدد شهادات الدكتوراه التي منحتها الجامعات الأميركية ثلاث مرات – من أقل من عشرة آلاف إلى ثلاثين ألفاً. وقريباً جداً، نعود إلى ميدان الإفراط في إنتاج النخب؛ الاختلاف الوحيد هو أنّ سعر البطاقة أصبح أعلى.

إننا نلعب هذه اللعبة التي يكون فيها عدد الكراسي محدوداً. في العالم الفعلي، مِنَ المُؤكَّد أنَّ عددَ مناصب النخبة يتغيّر باستمرار، ففي ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، كان هناك طلب كبير جداً على الحاصلين على شهادات الدكتوراه من الجامعات التي كانت في حاجة إلى تعيين أساتذة لتدريس جيل ما بعد الحرب. أسرَّ لي أحد أساتذتي مرة أن الجامعات حينذاك كانت 'تكشط كعب الدست' ومستعدة لتعيين أي شخص يحمل تلك الشهادة، وقال: "لو تقدمت إلى الوظيفة اليوم، ما كنت لأعيَّن. كان ذاك في عام ١٩٨٥، وكنت على وشك إكمال درجة الدكتوراه الخاصة بي. لمّا بدأت أبحث عن وظيفة أكاديمية، اعتقدتُ أنّ السوق فيما يخصُّ شهادات الدكتوراه الجديدة كان قاسياً حينذاك، لكنه بات أسوأ بكثير اليوم".

1- US Department of Education, Institute of Education Sciences, "Immediate College Enrollment Rate," National Center for Education Statistics, last updated May 2022, https://nces.ed.gov/programs/coe/indicator/cpa.

شهدت مهن أخرى تتطلب شهادات عليا أيضاً نمواً في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. صدم سبوتنك (Sputnik) النخب الأميركية، ومع جملة من العوامل الإضافية الأخرى، دفع إلى زيادة كبيرة في تمويل البحث العلمي، الذي امتص أعداداً كبيرة من شهادات الدكتوراه، وفي الوقت نفسه، أصبح امتداد نفوذ الولايات المتحدة عالمياً، وكانت الشركات الدولية في حاجة إلى جيوش من المحامين. (هكذا حصل والد جين على بطاقته الذهبية.)، لكنْ في النهاية، فإنَّ كلَّ هذا الارتفاع في الطلب على الشهادات العليا تراجعَ، في حينِ أنَّ العرضَ استمرَّ في الارتفاع، فبين عامي ١٩٥٥ و١٩٧٥، تضاعف عدد الطلاب المسجلين في كليات الحقوق ثلاث مرات.

ما يُحدِّدُ ما إذا كان لدينا مشكلة في الإفراط في إنتاج النخب هو التوازن بين المعروض من الشباب الحاملين شهادات عليا والطلب عليها – عدد الوظائف التي تتطلب مهاراتهم. يا للأسف! بحلول نهاية القرن العشرين، كما هو معروف، كانت أعداد حاملي الشهادات تفوقُ بكثير المواقعَ الوظيفية التي تطلبها.

وعدم التوازن كبير في العلوم الاجتماعية، وهو أكبر في العلوم الإنسانية، لكنَّ الولايات المتحدة تفرطُ كثيراً في إنتاج درجات، حتى في العلوم، والتكنولوجيا، والهندسة، والرياضيات. في صفحة رأي بلومبيرغ في كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١، أقرَّ المدون وكاتب الأعمدة نوا سميث أنّ الإفراط في إنتاج شهادات الدكتوراه كان مشكلةً منذ عدد من السنوات في الولايات المتحدة، فمن جهة، حين تكون العامة متعلمة جيداً فإن هذا أمر جيد، لكنْ من جهة أخرى، حالما يتخرّج طلاب الدكتوراه، فإنهم يجدون أنّ الوظائف الأكاديمية التي تدرّبوا كي يشغلوها قد أصبحت قليلة جداً، ويكتب سميث: "أجْرِ بحثاً سريعاً على غوغل حول الاتجاهات في المجال الأكاديمي – التاريخ، الأنثروبولوجيا، الأدب الإنكليزيّ – ومن المرجح أن تجد أرقاماً مرعبة تُظهِرُ التراجع في الوظائف الدائمة لأعضاء الهيئة التدريسية". ويتابع:

وهذا يحكم على كثير من الباحثين بحياة قاتمة قائمة على أجور متدنية وعمل مؤقت. كحال الخدم الذين يعيشون هنا وهناك في هوليوود على أمل أن تتاح لهم فرصة كبيرة، فإن كثيرين يظلون يأملون سنة بعد سنة، ويتخلون عن التأمين الصحي، أو يعيشون في شقق رثة، في حين تتردى مؤهلاتهم لوظائف خارج السلك الأكاديمي.

لكن حتى لمّا أصبحت حياة الأستاذ الجامعي التي يسعى كثيرون إليها أبعد منالاً، استمرت البلاد في إنتاج المزيد من شهادات الدكتوراه.[1]

حين ننظر على نحو وثيق أكثر إلى ما يُفترَض أنها الطبقة المتعلمة الغنية، نجد أنّ الأشياء ليست وردية في نظرها كما كنا نفترض. عنوان مسلسل تلفزيوني مكسيكي شعبي يعبر عن ذلك تعبيراً جيداً: **الأغنياء يبكون أيضاً (*Los ricos también lloran*)**. اليوم، لم تعد الشهادة العليا تُعَدُّ دفاعاً مثالياً، أو حتى فعالاً على نحو معقول، ضد الهشاشة. في الواقع، فإن غاي ستاندنغ (Guy Standing)، الذي أدخل مصطلح البريكاريا في الوعي العام، يرى في حمَلة الشهادات أحد فصائل البريكاريا. وعن هذه المجموعة ("التقدميون")، يكتب:

تتكوّن من أشخاص يدخلون الجامعة، التي وعد آباؤهم ومدرسوهم والسياسيون بأنها ستمنحهم مسيرةً مهنية، وسُرعانَ ما يدركون أنهم بيعوا ورقة يانصيب، ويخرجون من الجامعة دون مستقبل، ومع كثير من الديون. أفراد هذا الفصيل خطيرون بطريقة أكثر إيجابية، فمن غير المرجح أن يدعموا الشعبويين، لكنهم يرفضون أيضاً الأحزاب السياسية القديمة المحافظة أو الديمقراطية الاجتماعية. إنهم، بحدسهم، يتطلعون إلى 'سياسة فردوس' جديدة، لا يرونها في الطيف السياسي القديم أو في مؤسسات مثل نقابات العمال.[2]

1- Noah Smith, "America Is Pumping Out Too Many Ph.D.s," *Bloomberg*, January 4, 2021, https://www.bloomberg.com/opinion/articles/2021-01-04/america-is-pumping-out-toomany-ph-d-s.

2- Guy Standing, "Meet the precariat, the new global class fueling the rise of populism," World Economic Forum, November 9, 2016, https://www.weforum.org/agenda/2016/11/precariat-global-class-rise-of-populism/.

ينبئنا التاريخ، وقاعدة بيانات الأزمات، أنّ البريكاريا حاملة الشهادات (أو، بلغة الكليوديناميكا، طبقة النخبة الطامحة المحبطة) هي الطبقة الأكثر خطورة على الاستقرار المجتمعي. إنّ الإفراطَ في إنتاج شباب يحملون شهادات عليا كان أحد أهم العوامل الدافعة إلى الاضطرابات المجتمعية، من ثورات عام ١٨٤٨ إلى الربيع العربي عام ٢٠١١. المثير للاهتمام، أنّ مهناً مختلفة لها خصائص مختلفة في إنتاج القادة الثوريين. قد لا تُفكّر في مدرِّس على أنه ثوريّ محتمل، لكنّ هونغ، قائد تمرُّد تايبينغ، الذي صادفناه في الفصل الأول، كان معلماً قروياً قبل أن يصبح متمرداً، وكذلك كانت حال ماو.

لكنْ يبدو أن الوظيفة الأكثر خطورة هي مهنة المحاماة، فروبرسبير، ولينين، وكاسترو كانوا محامين، وكذلك لنكولن وغاندي. في الولايات المتحدة، توفر شهادة الحقوق واحداً من أفضل المسارات نحو المنصب العام، ومن ثم فإن معظم الطامحين سياسياً يتوجهون إلى كلية الحقوق. دعونا نُلْقِ نظرةً أكثر دقة على ما حدث لخرّيجي كليات الحقوق في العقود القليلة الماضية.[١]

لكثير من السنوات، كانت الجمعية الوطنية للوظائف القانونية، تجمعُ البيانات عن الرواتب التي يحصل عليها خرّيجو كليات الحقوق حين بداية عملهم. في عام ١٩٩١، لم يكن هذا التوزيع لافتاً على نحو خاص. كان هناك ذروة وصلت إلى ٣٠ ألف دولار تعكس الراتب الأكثر شيوعاً. كان "ذيل" التوزيع إلى اليسار قصيراً، إذ لم يكن هناك رواتب تقلّ عن ٢٠ ألف دولار، أما الذيل اليميني فكان أطول، إذ وصل أعلى مستوى فيه إلى ٩٠ ألف دولار. كما لاحظ فلفريدو باريتو (Vilfredo Pareto)، أولاً، من الشائع أن يكون لتوزيعات الدخل ذيول أطول إلى اليمين، الأمر الذي يشير إلى أنه مع ارتفاع الرواتب، يصبح أولئك الذين يحصلون عليها أقلّ عدداً.

---

١ - يتابع هذا النقاش المادة الواردة في كتاب **عصور الخلاف** حول الإفراط في إنتاج النخب، في الفصلين ٤ و١٣. انظر على نحو خاص الأشكال ٤,٤ و١٣,٤. انظر أيضاً "Salary Distribution Curves," NALP, accessed August 10, 2022, https://www.nalp.org/salarydistrib.

في عام ١٩٩٦، انتفخ الذيل اليميني قليلاً، لكنْ لم يحدث تغيُّر نوعيّ في شكل التوزيع. كان لا يزال في الانحناءة نتوءٌ واحد. حدث الاختلاف الكبير في عام ٢٠٠٠. فجأةً، نشأت قمة ثانية إلى اليمين من القمة الرئيسة، وانتقلت القمة الرئيسة إلى اليمين قليلاً، لكنّها ظلت متركزة على ٤٠ ألف دولار. على العكس من ذلك، فإنّ القمة الجديدة تحركت بعيداً إلى اليمين، وتركزت على ١٢٥ ألف دولار. بعد عشر سنوات، انتقلت القمة اليُسرى إلى اليمين قليلاً، وتركّزت على ٥٠ ألف دولار، في حين قفزت القمة اليمينية بعيداً لتصل إلى ١٦٠ ألف دولار. فيما يتعلّق بخرّيجي عام ٢٠٢٠، فإنّ الانتفاخة اليسارية تسطّحت قليلاً، إذ كان معظم الرواتب يُراوِحُ بين ٤٥ ألف دولار و٧٥ ألفاً، أي بما يصل إلى الـ ٥٠ بالمئة من الرواتب المذكورة، لكنّ القمة اليمينية أصبحت الآن عند ١٩٠ ألف دولار، مع أكثر من ٢٠ بالمئة بقليل من التوزيع. كان هناك عدد قليل جداً من الرواتب بين القمتين، وكان متوسط الراتب ١٠٠ ألف دولار، لكنّ هذا الرقم لا معنى له، إذ إنّ أقلّ من ٢ بالمئة من خرّيجي الحقوق كانوا أعضاءً في هذه الفئة.

هذا ما تبدو عليه لعبة الطامحين حين تُدفَع إلى أقصاها. الـ ٢٠ بالمئة في القمة اليمنى، مع رواتبهم البالغة ١٩٠ ألف دولار، في طريقهم إلى الانضمام إلى النخب التقليدية. وأولئك الموجودون في الانتفاخة إلى اليسار، ويكسبون بين ٤٥ ألفاً و٧٥ ألف دولار، يواجهون مشكلة. بالنظر إلى أنّ نصفَ خرّيجي كلية الحقوق في عام ٢٠٢٠ راكموا ديوناً بقيمة ١٦٠ ألف دولار أو أكثر (وواحداً من كلّ أربعة يدين بـ ٢٠٠ ألف دولار)، فإنّ عدداً قليلاً من هؤلاء الأفراد سيتمكّن من دخول صفوف النخب. بدلاً من ذلك، فإن معظمهم سيسحقه الدَّين وفوائده المتراكمة دون هوادة. من الغريب أنْ يفكر المرء في معظم خريجي كلية الحقوق في أميركا على أنهم أفراد في البريكاريا، لكنْ هكذا هم الآن.

ربما كانت بطلتنا الخيالية، جين، حكيمة في رفض المشاركة في هذه اللعبة.

كيفَ تُمرّر الخيطَ في ثقب الإبرة؟

في كتاب **ثقافة الخُدّاع: لماذا يُسيءُ عددٌ أكبرُ من الأميركيين كي ينجحوا** (*The Cheating Culture*: *Why More Americans Are Doing Wrong to Get Ahead*)، وهو كتاب يعبِّر عن نفاذ بصيرة لمؤلفه ديفيد كالاهان (David Callahan)، نُشِرَ في عام ٢٠٠٤، يُحلِّلُ تداعيات التحوّل الثقافي الذي بدأ في ثمانينيات القرن العشرين، ومن ثم أطلق العنان لدرجة مفرطة من التنافس، وانعدام المساواة، وعقلية الرابح يأخذ كل شيء. ويكتب عن فضائح الشركات، والرياضيين الذين يتعاطون عقاقير ممنوعة، والصحفيين الذين يسرقون موادهم، والطلاب الذين يغشّون في امتحاناتهم. لقد أصبح الغش يشكل أزمة أخلاقية عميقة وواسعة الانتشار. وتلقى حجته القائلة بأنّ "ارتفاع معدلات الغش تعكس قلقاً وانعدامَ أمن عميقَين في أميركا اليوم، بل حتى اليأس، إضافةً إلى غطرسة الأغنياء وكلبية الناس العاديين" صدىً في عدد من الخيوط التي يعالجها هذا الفصل. فيما يتعلق بالآثار الهدامة للإفراط في إنتاج النخب، على نحو خاص، يكتب كالاهان:

> مع تضخم صفوف الأغنياء على مدى العقدين الماضيين، ارتفعت أيضاً أعداد الأطفال الذين يتلقون الـمَزِيّاتِ كُلَّها في تعليمهم. وفي المقابل، فإن ازدياد حدة المنافسة، أجبرت كثيراً من الأهل على إنفاق المزيد من المال واستعمال الأدوات الممكنة كلها في محاولة مَنْحِ أبنائهم مَزِيّةً إضافيّة. إنّ ما يتكشّف أمامنا لا يقلّ عن سباق تسلُّح أكاديميّ داخل الشرائح العليا من المجتمع الأميركي. لكنْ حتى الجهود الأكثر بطولية – أو فضائحية – لا تضمن الحصولَ على مزيّة حاسمة.[1]

منذُ عام ٢٠٠٤، أصبحت الأشياء أكثرَ سوءاً. في إطار تحضيرها لكتابة مقالة بعنوان "لقد أصبحت المدارس الخاصة فاحشةً فعلاً،" نشرتها في مجلة **ذا أتلانتك** (*The Atlantic*)، في نيسان/ أبريل ٢٠٢١، أجرت كيتلين فلاناغان

1- David Callahan, *The Cheating Culture*: *Why More Americans Are Doing Wrong to Get Ahead* (Boston: Mariner Books, 2004), 211.

(Caitlin Flanagan) مقابلة مع روبرت إيفانز (Robert Evans)، وهو عالم نفس يدرس العلاقة بين المدارس الخاصة وأهالي طلابها، فأخبرها إيفانز: "ما تغيّرَ في السنوات القليلة الماضية هو قسوةُ الأهل، ففي غالبية الحالات أصبحوا مُتعسّفين، لا يتوقّفون، ولا يتهاونون، وكثير منهم لا يستطيعُ التخلي عن مخاوفه من أن أطفاله يتعرّضون للإهمال". في الوقت الذي يصل فيه أطفالهم إلى الصفوف الأعلى، يريد الأهل من المدرسين، والمدربين، والموجهين أن يركزوا تماماً على مساعدتهم في خلق تقرير درجات لا تستطيع جامعة هارفارد مقاومته. وقال إيفانز لفلاناغان: "هذا النوع من الأهل لديه فكرة عن النتيجة التي يرغب فيها؛ في حياتهم العملية يستطيعون الحصول عليها. إنهم محاطون بموظفين؛ ويستطيعون تفويض موظفيهم بالمهمات". وعن القلق الاقتصادي الكامن خلف أفعال هؤلاء الأهل، تكتب فلاناغان:

لماذا يحتاج هؤلاء الأهل إلى كل هذه التطمينات؟ إنهم "يجدون صعوبة أكبر فأكبر في إدخال أطفالهم من ثقب الإبرة " – أي قبولهم في أفضل البرامج، على طول الخط من روضة الأطفال إلى الجامعة، لكنّ الأمر يتجاوز ذلك. لدى الأهل شعور بأنّ أبناءهم سيدخلون مشهداً أكثر قتامة مما فعلوا هم. إن الاقتصاد المتوحش الذي يأخذ فيه الفائز كلّ شيء لن يلحق بهم؛ فقد تجاوزوه، لكنهم يخشون أنه سيلحق بأطفالهم، وأنّ التعليم الجيد قد لا يضمن لهم مسيرةً تضمنُ لهم الوجودَ في الطبقات المهنية.

في عام ٢٠١٩، عصفت فضيحة الرشى في القبول الجامعي بكبريات الجامعات، بما في ذلك ستانفورد، وجورج تاون، وييل.[1]

الديناميكية الأساسية هنا شاملة لما يحدث في ألعاب الطموح مع تقدمها إلى مراحلها المتأخرة. على عكس نسخها الأكثر هوادة، فإن التنافس المفرط لا يؤدي

1- Associated Press, "College bribery scandal: students sue elite schools in class action," *The Guardian*, March 14, 2019,https://www.theguardian.com/usnews/2019/mar/14/college-admisisons-scandal-fraud-lawsuit-yale-usc-stanford.

إلى اختيار المرشحين الأفضل، المرشحين الأكثر ملائمة للمواقع. بل إنها، على العكس، تضر بقواعد اللعبة، والأعراف الاجتماعية والمؤسسات الحاكمة لكيفية عمل المجتمع عملاً وظيفياً، وهي تُدمِّرُ التعاون، وتظهر الجانب المظلم في نظام الجدارة. إنها تخلق عدداً محدوداً من الرابحين وأعداداً كبيرة من الخاسرين، وبعض طامحي النخب الخاسرين يتحوّلون إلى نُخب مضادة راديكالية لديها الحافز لتدمير النظام الاجتماعي الظالم الذي أنشأها، وهذا ما يأخذنا إلى موضوع التطرُّف.

تشظِّي المشهد الأيديولوجيّ

حتى هذه النقطة، ركّزتُ على القُوى "الديموغرافية البنيوية" الدافعة إلى عدم الاستقرار الاجتماعيّ، مع التأكيد على البؤس الشعبي والإفراط في إنتاج النخب، وهذه عوامل بنيوية لأنها تتعلّق بالبنى المجتمعية، مثل الفروق بين العامّة والنخب (أو بين الأقلّ تعليماً والأكثر تعليماً) وبين الشرائح المختلفة للنخب، وهي ديموغرافية لأننا نتتبّع التغييرات في أعداد المجموعات المختلفة من السكان ورفاهها. تشكل النظرية الديموغرافية البنيوية جزءاً مهماً من الكليوديناميكا لأنها تساعدنا في فهم حالات التمرد، والثورات، والحروب الأهلية، وقد صاغ هذه النظرية في البدء عالم الاجتماع التاريخي جاك غولدستون (Jack Goldstone)، وطوّرها وعبَّر عنها لاحقاً أندريه كوروتاييف (Andrey Korotayev)، وأنا وزملاء آخرون.[1]

لكنَّ الدراسات البنيوية للثورة وانهيار الدولة تعرّضت للانتقادات بسبب إهمالِها العواملَ الأيديولوجية والثقافية.[2] على العكس، فإنّ هدف الكليوديناميكا هو دمج القوى المهمة جميعاً في التاريخ، سواء أكانت ديموغرافية، أم اقتصادية، أم اجتماعية، أم

1- Jack A. Goldstone, *Revolution and Rebellion in the Early Modern World* (Berkeley: University of California Press, 1991); Turchin, *Historical Dynamics*; Andrey Korotayev et al., "A Trap at the Escape from the Trap? Demographic-Structural Factors of Political Instability in Modern Africa and West Asia," *Cliodynamics*: *The Journal of Quantitative History and Cultural Evolution* 2, no. 2 (2011): 276–303, https://doi.org/10.21237/c7clio22217.

٢- انظر Goldstone, *Revolution and Rebellion*.

ثقافية، أم أيديولوجية. رأينا، على سبيل المثال، أن خصائصَ أساسيّةً للمجتمع مثل الأعراف الاجتماعية الناظمة للزواج (تعدُّد الزوجات مقابل أحاديّة الزوجات) لها أثر جوهري في الطول المميز لدورات الازدهار والانهيار (الفصل الثاني).

المشكلة هي أنه في مناخ اليوم، لمّا سلّحتْ فصائلُ النخبة المتنافسة الأيديولوجيا، فإنّ أي نقاش لها هو في منزلة دخول حقل ألغام. وثمة صعوبة أكثر مفاهيمية في دراسة دور الأيديولوجيا في الانهيار المجتمعي تتمثل في أنّ المحتوى المعرفي للأيديولوجيات التي تعتنقها فصائلُ النخبة المتنافسة مُتنوّعٌ جداً بمرور الوقت بين أجزاء مختلفة من العالم، ففي أثناء الحروب الأهلية الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت السمة المميزة للمعارك الأيديولوجية هي الدين. على سبيل المثال، الهوغونوتس مقابل الكاثوليك في الحروب الدينية الفرنسية، كما كانت حالات تمرُّد الفلاحين الصينيين العظيمة غالباً بوحي من الحركات الدينية، مثل دين تايبينغ (الفصل الأول)، الذي دمج عناصر من المسيحية والدين الشعبي الصيني معاً. من عصر الثورات فصاعداً، كانت الأيديولوجيات الراديكالية، على الأقل في أوروبا، علمانية، لا دينية.

إضافةً إلى ذلك، فإنّ المحتوى الأيديولوجي لكثير من الحركات الثورية، إذا دامت مُدّةً كافية، ينزعُ إلى التطوّر. في مساهمته التأسيسية لدراسة الثورات وحالات التمرد، يشير جاك غولدستون إلى أن إحدى صعوبات وصف دور الأيديولوجيا يتمثل في أنها تنزع إلى كونها مُتقلّبة جداً. وكما يكتب غولدستون، فإن الأيديولوجيا تُخفِقُ في توفير "دليل واضح على نيّات القادة الثوريين وأفعالهم،" لأنّ الثوريين غيّروا مواقفهم ومواقعهم على نحو متكرر استجابةً إلى الظروف المتغيرة. وفي كثير من المناسبات، أنتجت التقلبات والتحولات في الصراع الثوري نتائج غير متوقعة. سعى الطهرانيون الإنكليز إلى خلق مجتمع من القديسين، لكنّ إنكلترة أصبحت مجتمعاً يهيمن عليه الجنود لمّا توقفت الحروب".[1] باحثةٌ أخرى في شؤون الثورات، ثيدا سكوكبول

1- Goldstone, *Revolution and Rebellion*, 417.

(Theda Skocpol)، تخلص إلى استنتاج مماثل حين تكتب: "لا يمكن المجادلة... في أنّ المحتوى المعرفي للأيديولوجيات يوفر بأيّ معنى مفتاحاً تنبُّؤياً يفضي إلى نتائج الثورات".[1]

بتتبُّع غولدستون، نستطيع أن نميز ثلاث مراحل للتطور الأيديولوجي مع انزلاق المجتمعات إلى الأزمات، ومن ثم خروجها منها. في المرحلة الأولى، أو مرحلة ما قبل الأزمة، وهي المرحلة التي تسبق انهيار الدولة، تصارع الدولة للمحافظة على سيطرتها في وجه مجموعة واسعة من التحديات الأيديولوجية القادمة من مختلف فصائل النخبة. في المرحلة الثانية، حين يخسر النظام القديم شرعيّتَهُ تماماً (ما ينتجُ منهُ في كثير من الأحيان انهيار الدولة)، يتصارع عددٌ كبير من المتنافسين الذين يسعون إلى تأسيس احتكار جديد للسلطة فيما بينهم على الأسبقية، وفي المرحلة الأخيرة، حين تنتصر إحدى المجموعات، وتهيمن على خصومها، وتتحرك لترسيخ استقرار سيطرتها على الدولة، تُركّز على كسب القبول الروتيني للمؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية التي أُعِيدَتْ هيكلتُها.

ثمة سمة عامة تقريباً لمراحل ما قبل الأزمة، وهي تشظّي المشهد الأيديولوجي وانهيار التوافق الأيديولوجي للنخب الذي يكمن وراء القبول الروتيني بمؤسسات الدولة. يتّسمُ بعضُ العقائد التي تكتسب أتباعاً بالتطرف، من حيث أنّهُ يهدفُ إلى إعادة صياغة المجتمع بطريقة جديدة، أفضل. عقائد أخرى تقليدية تنظر إلى الماضي لتستعيد عصراً ذهبياً متخيلاً، لكنَّ مثل هذا التشخيص "المحافظ" يمكن أن يدفع بسهولة إلى فعل راديكالي.[2] ولأنّ ثمة تصوُّراً عامّاً بأن البلاد تذهب في الاتجاه الخطأ، وأنّ المجتمع يطغى عليه عدم العدالة وعدم المساواة (ليس فقط بين العامة والنخب، بل أيضاً بين الرابحين والخاسرين في أوساط النخب)، فإن المناشدات لتصحيح الأوضاع باستعادة "العدالة الاجتماعية" تكتسبُ كثيراً من الشعبية. سمة عامة أخرى تتمثل في أن

1- Goldstone, *Revolution and Rebellion*, 417.

2- Goldstone, *Revolution and Rebellion*, 420.

الأيديولوجيات الانقسامية – الطائفية والهوياتية – تطغى على الأيديولوجيات الموحِّدة، وهذا ما يُدخِلُناعُصورَ الخلاف.

ومن ثم، فإن عملية التشظي الأيديولوجي والاستقطاب السياسي تُشكِّلُ تحدّياً للدراسة باستعمال المناهج الكميّة. لحسن الحظ، وجد علماء السياسة بعض المناهج المفيدة جداً.[1] جمع كيث بول (Keith Poole)، وهوارد روزنثال (Howard Rosenthal)، وانضمّ إليهم لاحقاً نولان ماكّارتي (Nolan McCarty)، مجموعةَ بيانات ضخمة حول الميول السياسية لأعضاء الكونغرس جميعاً منذ بداية الجمهورية الأميركية، وأعطوا كُلَّ عُضوٍ في الكونغرس مكاناً على طيف، يحتلُّهُ المحافظون من طرف، والليبراليون من الطرف الآخر، في حين يملأ المعتدلون الفضاءَ القائم بينهما. ويُقاسُ الاستقطابُ السياسي بحساب المسافة بين الدرجات الوسطية للحزبين الرئيسَين (الجمهوريين والديمقراطيين اليوم، إضافة إلى الديمقراطيين والأحرار من القرن التاسع عشر)، ويُحسَب عددهم لكل كونغرس (أي كل سنتين).

حين نرسم نتائج هذا التحليل،[2] نلاحظ أن الديناميكياتِ بعيدةَ المدى للاستقطاب السياسي في الولايات المتحدة مرّت بدورتين كبيرتين. أولاً، تراجُع الاستقطاب السياسي من مستويات مرتفعة نسبيّاً نحو عام ١٨٠٠ إلى مستويات متدنية جداً في عشرينيات القرن التاسع عشر. يُعرف هذا التراجع في العداء الحزبي بـــ 'حقبة المشاعر الطيّبة'، التي تتزامن تقريباً مع رئاسة جيمس مونرو (James Monroe)، (١٨١٧-١٨٢٥). بعد عام ١٨٣٠، ارتفعت حدة

1- Keith T. Poole and Howard Rosenthal, "The Polarization of American Politics," *The Journal of Politics* 46, no. 4 (1984): 1061–79, https://doi.org/10.2307/2131242; Keith T. Poole and Howard Rosenthal, *Congress*: *A Political-Economic History of Roll Call Voting* (Oxford: Oxford University Press, 2000); Nolan McCarty, Keith T. Poole, and Howard Rosenthal, *Polarized America*: *The Dance of Ideology and Unequal Riches* (Cambridge, MA: MIT Press, 2006).

٢- انظر الفصل ٤، ولا سيما الشكل 4.8a في **عصور الخلاف**.

الاستقطاب، وتميزت المرحلة الممتدة بين ١٨٥٠ تقريباً و١٩٢٠ بدرجة مرتفعة جداً من التشظي في أوساط النخب السياسية. لكنْ في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، توافقت النخب السياسية، وتراجع الاستقطاب مرة أخرى. بعد الصفقة الجديدة والحرب العالمية الثانية، وصل الاستقطاب إلى حدٍّ أدنى مرة أخرى. ومن ثم، فإن العقود الثلاثة التي تلت الحرب تميّزت بوجود نخب مُوحّدة نسبياً. في هذه المرحلة كان هناك درجة كبيرة من التقاطع بين علامات الليبراليين والمحافظين التي حصل عليها الديمقراطيون والجمهوريون في الكونغرس. تميّزت خمسينيات القرن العشرين بذروة التوافق الأيديولوجي في الولايات المتحدة، وشملَ هذا التوافق التزاماً قوياً بالرأسمالية، لكنْ "بوجه بشري،" يتميز بالتعاون بين العمال، ورأس المال، والدولة. وتعزّز الدعم العام لاقتصاد السوق الحر والحوكمة الديمقراطية بفضل صراع الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي. حكمت البلادَ نخبةٌ ثقافية متجانسة من الذكور البيض الأنغلوساكسونيين البروتستانت، لكنْ في سبعينيات القرن العشرين، تضاءل التقاطع، وارتفع معدل الاستقطاب. بحلول مطلع الألفية الثالثة، كانت فجوة كبيرة قد انفتحت بين التوزيعات بين جمهوريين وديمقراطيين. لكي نكون واضحين، فإن مثل ذلك التوافق الأيديولوجي يمكن أن يكون خانقاً، وأخرج كثيراً من الناس بقسوة من هذا التوافق الذي يهيمنُ عليه الذكورُ البِيضُ الأنغلوساكسونيُّون البروتستانت. إضافةً إلى ذلك، فإنّ الاستقرارَ والتوافُقَ ليسا فضيلتين بالضرورة، إذا كان ما حُوفِظَ على استقراره نظاماً ظالماً، وسيكون من القسوة عدم الشعور بالتعاطف مع المجموعات ذوات الهويات المختلفة التي أُبقِيَت في الخارج في أثناء هذه المرحلة، وسيكون من الخطأ عدم الإقرار بالتقدُّم الـمُحْرَز على كثير من الجبهات التي فُتِحَتْ على مدى الخمسين عاماً الماضية. وفي السياق نفسه، فإنّ مرحلة تدنّي الاستقطاب في عشرينيات القرن العشرين لم تكن نعمةً إذا كنت عاملاً أُجبرتَ على البقاء في معسكر للعمل العبودي في الأراضي الخصبة للجنوب الأميركي التي كانت قد طُهِّرت حديثاً من سكانها السابقين،

لكنَّ النقطة الرئيسةَ هنا هي عدم إطلاق حكم قيمة على هذه النزعة، بل ملاحظتها كما هي.

انهيارُ التوافُق الأيديولوجيّ لحقبة ما بعدَ الحرب

تضع منهجية ماكّارتي، وبول، وروزنثال السياسيين الأميركيين جميعاً على طيف واحد يُراوِحُ بينَ المحافظ والليبرالي. لكن لمّا أصبحت عملية التشظّي الأيديولوجي أكثر تطرفاً في العشرية الأولى من الألفية الثالثة، فإن هذا التصنيف أحاديّ البعد لم يعد كافياً. أدّى انتخاب ترامب في عام ٢٠١٦ إلى انقسام الحزب الجمهوري إلى فصيلين، إذ يقودُ الفصيل المعادي لترامب الحرسَ القديم (الذين سُمُّوا، ودون قصد السخرية، "جمهوريّين بالاسم فقط". على نحو مماثل، ثمة خطّ تماس كبير، ويتمدّد داخل الحزب الديمقراطيّ بين "الوسطيّين" و"اليساريين".

لقد تقدم التشظي الأيديولوجي الآن إلى حدٍّ لم تَعُدْ فيه أيُّ خطة تصنيف مفيدة. إنّ تنوُّعَ الأفكار التي تحفز الفصائل السياسية ومقترحات العمل هي ببساطة أكبر مما يمكن إدارته؛ إذ تُـجمَعُ الأفكارُ، ويُعادُ تركيبها ومزاوجتها باستمرار. وثمة حركات جديدة – اليمين الجديد، واليمين المتطرف، واليسار المتطرف – تظهر، وتبرز مُدّةً وجيزةً، ثمّ تتلاشى.

إضافةً إلى ذلك، فقد دخلنا حقبةً جديدة تهيمن عليها الأيديولوجيات الراديكالية. إن مصطلح 'السياسة الراديكالية'، يُشيرُ بالتعريف الشعبيّ إلى نيّةِ تحويلِ مبادئ أساسية للمجتمع أو النظام السياسي أو استبدالها، غالباً بالتغيير الاجتماعي، والتغيير البنيوي، أو الثورة، أو الإصلاح الجذري.[١] كي نفهم المشهد الأيديولوجي اليوم، من المفيد أن نبدأ بعكسه، أي حقبة المشاعر الطيبة الثانية، التي حدث فيها توافق كبير بين النخب الحاكمة لأميركا. سأشير إلى هذا الاتفاق الأيديولوجي بتوافق ما بعد الحرب، وقد دام نحو ثلاثين عاماً، بدايةً بعام

١- انظر أيضاً "Radical Politics," Wikimedia Foundation, last modified August 31, 2022, 17:44, https://en.wikipedia.org/wiki/Radical_politics.

١٩٣٧، لمّا تُـوُصِّلَ إلى الصفقة الجديدة، وطوال الحرب العالمية الثانية وخمسينيات القرن العشرين (الذروة)، حتى مطلع ستينيات القرن العشرين.

على الجانب الثقافي، نستطيعُ أن نتعرَّفَ العناصرَ الآتية لتوافُق ما بعد الحرب:

- كانت الأسرة المعيارية تتكوّن من رجل وامرأة، وكان اتحادهما يُكرَّس عادةً في الكنيسة أو في مؤسسة دينية أخرى، إضافةً إلى أطفالهما، وكان الأشخاص الذين يعيشون "أساليب حياة بديلة" يُجبَرون غالباً على فعل ذلك في الظلّ.
- كانت أدوار النوع الاجتماعي محددةً بوضوح: الرجال يكسبون الرزق، والنساء يُدِرْنَ البيت.
- كان توافقُ ما بعد الحرب ينظر بعدم ارتياح إلى المحاولات جميعها تقريباً لتغيير "الجسد الطبيعي" اصطناعياً، وكان يُنظَر إلى أشكال التعديلات جميعها على الجسد، من التعديلات الطفيفة مثل الوشم وثقب الجسد، إلى الأشكال الأكثر حدة، مثل ربط الأقدام والخصاء (لخلق الخصيان)، على أنها أشياء يفعلها الأجانب "غير المتحضرين" فقط. (كان هناك استثناء رئيس واحد لهذه القاعدة، بالنظر إلى أنّ قص جزء من الأعضاء التناسلية– الختان لم يكن يُسمَح به فحسب، بل كان طبيعياً أيضاً)، ولم يكن الإجهاض محلَّ تشجيع، بل كان غيرَ قانوني في معظم الولايات.
- العنصرية المؤسساتية، بما في ذلك قوانين جيم كرو (Jim Crow)، في الولايات الجنوبية، جعلت من الأميركيين السود مواطنين من الدرجة الثانية فعليّاً، وحرَمَـتْهُم من معظم ثمار توافُق ما بعدَ الحرب.
- معَ أنّ نخبةَ الذكور البيض الأنغلوساكسونيين كانت من البروتستانت على نحو طاغٍ، لم يكن هناك دين للدولة في الولايات المتحدة، لكنَّ الانتماء إلى كنيسة، أو كنيس، أو مسجد، أو طائفة دينية أخرى، كان أمراً طبيعياً. كان الطلاق إشكالياً بعمق للمسؤولين المنتخبين؛ أمّا الإلحاد فقد كان ينزع الأهلية عمّن يسعى إلى المنصب.

- يُشارُ إلى الأيديولوجيا العلمانية لتوافق ما بعد الحرب أحياناً 'بالعقيدة الأميركية'، وكانت العناصر الرئيسة لهذه الأيديولوجيا: الديمقراطية (التي ينصّ الدستور على مبادئها)، والاقتصاد الحر، والوطنية الأميركية.

على الجانب الاقتصادي، ومعَ أنّ الولايات المتحدة كانت بلداً رأسمالياً صريحاً، (وكان يقمع الحزب الشيوعي)، لكنْ من حيث الممارسة كان ديمقراطياً اجتماعياً، أو حتى بلداً اشتراكياً على أساس النموذج الإسكندينافي. شمل توافقُ ما بعد الحرب العناصرَ الاقتصادية الآتية:

- دعم نقابات عمال قوية.
- التزام بزيادة الحد الأدنى للأجور بسرعة تتجاوز التضخم.
- نظام ضريبي تدريجي جداً، إذ تصلُ الضرائب إلى ٩٠ بالمئة على أعلى الدخول.
- دعم نظام الرفاه الاجتماعي، الذي كان يشمل: معاشاتٍ تقاعديّةً شاملةً (ضماناً اجتماعياً)، وتأميناً ضدّ البطالة، وتعويضاتِ رفاه اجتماعي للأشخاص ذوي الإعاقة أو الأطفال المحتاجين.
- نظام هجرة محدودة يفضّل العمال، ويُشجّع الانسجامَ الثقافيّ. (في هذا التصنيف، تتقاطع القضايا الاقتصادية والثقافية.).

بنظرة إلى هذه القائمة، نجد من المذهل مدى تغيُّر المشهد الأيديولوجي. بدأت أشكال اليقين الثقافي تتداعى نتيجة الحركات المعادية للحرب وحركات الحقوق المدنية في ستينيات القرن العشرين، وتداعت الدعامات الاقتصادية تحت هجوم الاقتصاد الليبرالي الجديد بدايةً من سبعينيات القرن العشرين. (سأعودُ إلى هذا في الفصل القادم). لكنْ بحلول عام ٢٠٢٠، لم يكنْ توافُق ما بعد الحرب قد استُبْدِلَ بأيِّ شيء متماسك بالمقدار نفسه يمكن أن تقبلَهُ الأغلبية الساحقة للنُّخب والسكان. وباستخدام البيانات السوسيولوجية التي تستطلع مواقف الأميركيين بشأن جملة متنوعة من المسائل، نستطيع تحديد نقطة متوسطة على الطيف الأيديولوجي (الموقع الوسطي – لكنْ ثمة درجة كبيرة جداً من التباين حولها).

إضافةً إلى ذلك، ليس هناك "عقيدة راديكالية" واحدة تتحدى كل ما يمكن أن يُعَدَّ وسطياً أيديولوجياً اليوم. بدلاً من ذلك، ثمة عددٌ كبير وديناميكيّ من الأفكار الراديكالية، وثمة اختلافات هائلة بين الأفكار التي تقبلها فصائل أيديولوجية مختلفة داخل نطاق الشباب المتعلم.

على أقصى اليسار، هناك ثوريّون ملتزمون، ومعادون للفاشية، وفوضويّون، وعدد قليل من الشيوعيين على النمط القديم. من حيث الأعداد، هذه مجموعة صغيرة، لكنْ ليس هناك حدود واضحة بين المتطرفين والتصنيف التالي الأكبر بكثير. هؤلاء ناشطون يظلون بعيدين عن العنف والشغب في المناطق الحضرية، لكنهم يدعمون أهداف المتطرفين، إلى درجة أكبر أو أقل، أو يدعمون بعض قضايا اليسار التقدمي، وإن لم يكن كلها. يحضرون المظاهرات الكبيرة المعادية للحكومة، ويتبرّعون لقضايا اليسار المتطرف، بما في ذلك دفع كفالات لأعضاء أنتيفا الذين كانت الشرطة قد اعتقلتهم. وفي المقابل، فإن هذه المجموعة تتلاشى إلى المجموعة التالية، التي لا يمتلك أفرادها حوافز قوية على نحو خاص، أو ليس لديهم حوافز على الإطلاق، لدعم قضايا اليسار، لكنهم غيرُ مُستعدّين للاعتراف بذلك، ومن ثم فإنهم يدعمونها علناً.

بحكم الاستناد إلى نتائج الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٢٠، فإنّ أكثرَ من ٨٠ بالمئة من طلاب الجامعات صوّتوا لبايدن،[١] وهذا ما يعطينا تقديراً تقريبياً لنسبة اليساريين أو الميّالين إلى اليسار. أما بقية الطلاب، فمعظمهم لا يبدو مهتمّاً بالسياسة، وينزع إلى تجنب النشاط السياسي في الحرم الجامعي. تتكون المجموعة

١- حُسِبت من بيانات مركز بيو للأبحاث التي تُظهِر أنه في عام ٢٠٢٠، صوَّت ٦١ بالمئة من الناخبين الأكثر تعليماً لمصلحة بايدن و٣٧ بالمئة لترامب. من بين الناخبين الشباب (١٨-٢٩ عاماً)، صوَّت ٥٩ بالمئة للديمقراطيين، و٣٥ بالمئة للجمهوريين. يمكن أن نُقدّر على نحو تقريبيّ أنّ نسبة الشباب الأكثر تعليماً (التي تقارب طلاب الجامعات) التي صوتت لبايدن كانت ١ – (١ – ٠,٦١) (١ – ٠,٥) = ٠,٨٤. انظر Ruth Igielnik, Scott Keeter, and Hannah Hartig, "Behind Biden's 2020 Victory," Pew Research Center, June 30, 2021, https://www.pewresearch.org/politics/2021/06/30/behind-bidens-2020-victory/.

الأخيرة الصغيرة من متطرفين يمينيين في مختلف نوادي الجمهوريين في الجامعة الذين يُعارِضُونَ بقوّة القضايا اليسارية.

وهذا الطيفُ تقريبيّ (في أفضل الأحوال) لجملة متنوعة من المواقف الأيديولوجية بشأن القضايا الثقافية بين الشباب الأكثر تعليماً. يرغب الراديكاليون اليساريون في دفع المجتمع إلى نحو يبتعد عن توافق ما بعد الحرب أكثر مما فعل حتى الآن. ويريد التقليديون والمحافظون على اليمين أن يعود إليه، وهو مقترح أكثر راديكالية من أيّ شيء يسعى اليسار لتحقيقه في حالة كثير من القضايا. كما ينبغي أن نتذكر أن اليسار واليمين على حدٍّ سواء منقسمان بعمق، وأنَّ ثمة حروباً ثقافيةً داخلَ كُلِّ جناح يمكن أن تفوقَ الصراعات بين اليمين واليسار من حيث شدّتُها.

ويزداد تعقيد الوضع بسبب الاصطفافات المختلفة بشأن القضايا الاقتصادية. تريد شخصيتنا الخيالية جين ثورة تطيح بالنظام الأميركي القمعي الظالم. ستيف بانون، الذي كان الأيديولوجي الرئيس في معسكر ترامب مُدّةً من الزمن، يَعُدُّ نفسَهُ ثورياً أيضاً: "أريد أن أهدم كلَّ شيء، وأن أدمّرَ كُلَّ المؤسسة القائمة اليوم".[1] السيناتور بيرني ساندرز (Bernie Sanders)، وهو ليس ثورياً، يتهم مؤسسة الحزب الديمقراطي بإدارة ظهرها للطبقة العاملة، ويدعو الديمقراطيين إلى إجراء "تصحيح مسار جذريّ" يُركّز على النضال من أجل الطبقة العاملة الأميركية والوقوف في وجه "مصالح الشركات القوية".[2] هذا التلاقي بين (بعض) اليمين المتطرف و(بعض) اليسار المتطرف بشأن القضايا الاقتصادية ليس حكراً على الولايات المتحدة. في فرنسا، تستعملُ

1- Gwynn Guilford and Nikhil Sonnad, "What Steve Bannon really wants," *Quartz*, February 3, 2017, https://qz.com/898134/what-steve-bannon-really-wants/.

2- Steven Greenhouse, "Bernie Sanders says Democrats are failing: 'The party has turned its back on the working class,' " *The Guardian*, January 10, 2022, https://www.theguardian.com/us-news/2022/jan/10/bernie-sanders-democrats-failingworking-class-interview.

مارين لوبان وجان– لوك ميلونشون لغةً مشابهة إلى حدٍّ كبير في أثناء التحدُّث عن الطبقة العاملة.

النُّـخبُ الـمُضادَّة رُوَّادَ أعمالٍ سياسيّين

ينزع الناشطون اليمينيون إلى أنْ يكونوا في موقف أضعف في الجامعات، لأن عددهم أقل بكثير من الراديكاليين اليساريين وغالبية الطلاب الذين يدعمون، ولو على نحو سلبي القضايا اليسارية، لكنَّ اليمينيين يحصلون على مزيّة واضحة حالما يتخرّجون. وتتمثل هذه المزيّة في قدرتهم على حشد الدعم بين ناخبي الطبقة العاملة (الأقل تعليماً). وثمة حالة شائعة في مراحل الأزمات تتمثل في أنّ روّاد الأعمال السياسيين يستخدمون إمكانَ التعبئة الجماهيرية المرتفعة للسكان من غير النخب للدفع بأجنداتهم الأيديولوجية ومسيراتهم السياسية. مثال تاريخي بارز هو تايبيروس وغايوس غراتشوس، اللذان أسسا الحزب الشعبوي في أواخر جمهورية روما. استخدمَ دونالد ترامب بالتأكيد الإستراتيجية الشعبوية للوصول إلى الرئاسة في عام ٢٠١٦. في عام ٢٠٢٢، كان المثال الأبرز مارجوري تايلر غرين، عضو مجلس النواب عن جورجيا. استوعبت غرين الدروس المستمدة من إستراتيجية ترامب في عام ٢٠١٦. من الواضح أنه ما من نظرية مؤامرة يمينية لا تدعمها، مهما كانت غريبة. سُحبت منها أدوارها في اللجان بتصويت من أعضاء مجلس النواب، وأُغلِقَ حسابُها على تويتر.[1] لكنْ يبدو أنها تزدهر أكثر في مثل هذه المحاولات "لإلغائها"، ومن الواضح أنها تتطلّع إلى هدف أكبر من الكونغرس.

شخصيتنا الخيالية التي بدأ بها فصلنا هذا، جين، ليست عضواً "نموذجياً" في جماعة الشباب الأميركي الأفضل تعليماً. موقعها أيديولوجياً و"مهنياً" (لأنها ثورية ملتزمة، معَ أنها تدرس للحصول على درجة جامعية في الحقوق)، على أقصى اليسار. معَ ذلك، فإنَّ مسارَ حياتها صيغ بالقُوى نفسها التي تستمرُّ في صياغة حياة

١- استُعِيدَ حسابُها على تويتر في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٢، ولا يزال حسابها الرسمي التابع للكونغرس نشطاً.

الشباب الآخرين الحاصلين على شهادات عليا (حتى الناشطين اليمينيين، بل، ولا سيما هؤلاء)، كما أنَّ مسيرتها مثيرة للاهتمام، لأنها تسير وَفْقَ كثيرٍ من الثوريّين والراديكاليين المشاهير من القرن الماضي وما قبله. كان أسلافُها المباشرون أعضاء جمعية وذر أندرغراوند (Weather Underground)، مثل بيرناردين دورن، وكاثي بودين، وسوزان روزنبيرغ.[1] لكنَّ راديكاليّي سبعينيات القرن العشرين الأميركيين أخفقوا في إحداث ثورة كانوا يرغبون فيها بشدة، لأن الظروف البنيوية اللازمة للثورة لم تكن متوافرة. تُـقِـرُّ روزنبيرغ بهذا في مذكّراتها.

ثوريون مشاهير آخرون في النخبة المضادة – روبرسبير، هونغ، لينين، روزا لوكسمبورغ، ماو، كاسترو – نجحوا في إحداث ثورات. ربما كانوا ببساطة محظوظين لأنهم كانوا في الأماكن الصحيحة في الأوقات الصحيحة، ويعيشون في بلدان كانت فيها القوى الدافعة البنيوية إلى عدم الاستقرار تعملُ بأقصى قوتها. في المحصلة، فلكُلٍّ لينين، كان ينبغي أن يكون هناك حزب بلشفي، وكان البلاشفة جزءاً من النظام البيئي الذي تعيش فيه مجموعات راديكالية – الفوضويون، والمناشفة، والبوند، والثوريون الاشتراكيّون، إلخ. الأكثر أهمية من هذا أنّ تلك المجموعات الراديكالية جميعها، التي كانت كالسمك في المياه، تسبحُ في أوساط اجتماعية داعمة. بعد أن أطلقت الفوضوية الروسية فيرا زاسوليتش النار على محافظ سانت بطرسبرغ في عام ١٨٧٨، أصبحت بطلةً لدى الإنتلجنسيا التقدمية، وبرّأتها هيئة محلفين متعاطفة معها. لم تحظَ وذر أندرغراوند بمثل هذا الدعم الشعبي قبل خمسين عاماً. لكنَّ الظروف البنيوية في الولايات المتحدة مختلفة جداً اليوم – وهي أقرب بكثير إلى مجتمعات ثورية أخرى، مثل روسيا أواخر القرن التاسع عشر، منها إلى الولايات المتحدة في سبعينيات القرن العشرين.

١- مصادري هي *Days of Rage* and *An American Radical*: Bryan Burrough, *Days of Rage*: *America's Radical Underground, the FBI, and the Forgotten Age of Revolutionary Violence* (New York: Penguin Books, 2016); Susan Rosenberg, *An American Radical*: *Political Prisoner in My Own Country* (New York: Citadel Press, 2011).

الثورةُ تأكلُ أبناءَها

على الرغم من أنّ معظم المعارك المرئية، بما في ذلك القتال الفعلي في الشوارع، يدورُ بين المتطرفين اليمينيين واليساريين، ثمة كثير من الانقسام والاقتتال داخل كُلٍّ من اليسار واليمين بحيث أنَّ مثل تلك التصنيفات الواسعة لا يمكن أن تُعدَّ أحزاباً متماسكة. فيالأحوال كلها، فإنّ المحتوى المعرفي للعقائد لا يهمُّ كثيراً. المهم هو الانقسام والصراع.

بحلول عام ٢٠٢٢، من الواضح أننا في مرحلة انتقالية: من مرحلة ما قبل الأزمة حين تكون الدولة لا تزال تصارع للمحافظة على السيطرة على المشهد الأيديولوجي في وجه مجموعة كبيرة من أفراد النخب المضادة الذين يتحدّونها، إلى المرحلة التالية حين يتصارع عددٌ كبير من المتنافسين فيما بينهم على الأسبقية. السياسيون الذين لا يزالون يتمسّكون بقيم النظام القديم التي تركّز على الاعتدال والتعاون بين النخب، يتقاعدون، أو يخسرون الانتخابات لمنافسيهم الذين يتبنّون آراءً أكثر تطرفاً. يشبه الوسط الأيديولوجي اليوم طريقاً ريفياً في تكساس، مهجوراً تقريباً إلّا من شريط أصفر وحيوانات المدرَّع الميتة. ونتيجة لانهيار الوسط، ينتقل الاقتتال الأيديولوجي من الصراع ضد النظام القديم (أو الدفاع عنه) إلى الصراع بين فصائل النخب المختلفة. تستعمل الاختلافات الأيديولوجية الآن سلاحاً في الصراعات فيما بين النخب، سواء لإسقاط أعضاء النخب التقليدية أم لدفع خصومهم الطامحين إلى الأمام.

أُخذ كثير من المراقبين على حين غرة بحدة "ثقافة الإلغاء" التي ظهرت فيما يبدو دون أن يعرف أحد من أين. لكنَّ مثل تلك الصراعات الأيديولوجية الشريرة تُعدُّ مرحلة شائعة في أي ثورة. جاك ماليه دوبان، الذي كان من سوء حظه أنه عاش في أثناء ثورتين، لا ثورة واحدة (في مدينته جنيف في عام ١٧٨٢، ثم في فرنسا عام ١٧٨٩)، وضع ملاحظته في شكل قول مأثور: "مثل ساترن، الثورة تأكل أبناءها". وهذه لازمة ضرورية، وحالة يقينية رياضياً، تنتج من الإفراط في إنتاج النخب

بصفتها القوة الدافعة الأكثر أهمية لحالات التمرد، والثورة، والحروب الأهلية. ومن أجل استعادة الاستقرار، ينبغي الاهتمام بمسألة الإفراط في إنتاج النخب – تاريخياً وتقليدياً بالقضاء على فائض النخب بالمذابح، أو السجن، أو الهجرة، أو القبول طوعاً بالتحرك نزولاً على السلم الاجتماعي. في أميركا اليوم، يُعامَل الخاسرون بطرائق أقلّ خشونة، على الأقلّ حتّى الآن.

لقد تضاءلت شرعية النظام القديم المحكوم بنخب الذكور البيض الأنغلوساكسونيين البروتستانت تضاؤلاً كبيراً. ويدفع المنطق الاجتماعي للمرحلة الثانية من المعارك الأيديولوجية التي يبدو أننا ننتقل إليها، إلى مزيد من الراديكالية. وفي الصراع بين الفصائل المتنافسة، فإن تلك المستعدة لتصعيد الاتهامات تفوز على الفصائل المعتدلة. ومع تهميش الخاسرين، يحدث تحوّلٌ في ميدان المعركة. ففكرةٌ بدت راديكاليةً قبل بضع سنوات تصبح ميدانَ معارك أيديولوجية أخرى ويُطبَّقُ المنطق نفسه على الطرفين اليميني واليساري على الطيف الأيديولوجي.

يعلن **البيان الشيوعي** أنه "ليس لدى البروليتاريين ما يخسرونه سوى قيودهم". لكنْ تبيّن أنّ ماركس العجوز مخطئ؛ فالبروليتاريون البائسون ليسوا هم الذين يديرون ثورات ناجحة. الثوريون الخطرون حقاً هم النخب الطموحة المحبطة، الذين يتمتعون بالامتيازات، والتدريب، والمعارف التي تمكِّنهم من ممارسة النفوذ على نطاق واسع. حتى أقلية الشباب الحاصلين حديثاً على الشهادات، الذين يصلون إلى مواقع النخبة مباشرة، مثل الـ ٢٠ بالمئة من خريجي كليات الحقوق الذين يحصلون على وظائف بمرتبات تبلغ ١٩٠ ألف دولار سنوياً، ليسوا سعداء أو راضين، لأنهم يشعرون بالمناخ العام لانعدام الأمن. النسبة المتعاظمة المكوَّنة من الشباب الحاصلين على شهادات والذين من المحتم أن يصبحوا البريكاريا المتعلمة هم الذين ليس لديهم ما يخسرونه سوى هشاشتهم.

الفصل الخامس

الطبقة الحاكمة

أندي وكلارا

التقت كلارا أندي لمّا أجرت معه مقابلة لمصلحة مجلة معنيّة بالتكنولوجيا. كان ذلك لمّا كان رائدَ أعمال شابّاً، قبل أن يجني أول مليار بسنوات. تواعدا مُدّةً، ثم انتقلا للعيش معاً، وفي النهاية تزوّجا. براعة أندي في الرياضيات والهندسة ومهارات كلارا الاجتماعية وأحكامها الصائبة جعلت منهما فريقاً عظيماً.

قدِم والدا كلارا إلى أميركا مُهاجرَين فقيرين من أميركا الوسطى. عملا بجدٍّ لافتتاح مطعم وإنجاحه. لمّا كانت كلارا شابّةً، كانت في كثير من الأحيان تساعد في العمل في المطبخ أو في خدمة الزبائن. بعد المدرسة الثانوية، التحقت بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، حيث درست الصحافة.

نشأ أندي في أوروبا الوسطى؛ وكان والداه عالمَين، والده فيزيائي، وأمه عالمة أحياء. ومنذ عمر مبكر، أظهر قابلية كبيرة لتعلُّم الرياضيات. ولمّا حان وقت الالتحاق بالجامعة، كانت طموحاته عالية، فبعث بطلبات انتساب إلى عدد من أفضل الجامعات الأميركية، بما في ذلك معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، وكالتيك، وستانفورد. اختار الذهاب إلى ستانفورد لأنها عرضت عليه منحة، ولأنه كان متشوقاً إلى ترك الشتاءات القادمة القاتمة وراءه.

قرّر ألّا يسيرَ كما سارَ والداه، واختار أن يصبح رائدَ أعمال. انطلقت أولى شركاته الناشئة التي نظّمها مع زملاء له في جامعة ستانفورد، وبدأت العمل،

حتى قبل تخرجه بامتياز مع مرتبة الشرف. تبع ذلك شركات ناشئة أخرى، بالتقاطع مع الوقت الذي كان أندي يقضيه بوصفه مسؤولاً رئيساً عن التكنولوجيا في شركتين من شركات وادي السليكون نجحتا نجاحاً كبيراً، وجنى منهما كثيراً من المال، وهو الآن مدير تنفيذيّ لإحدى شركاته الناشئة التي نمت إلى أن أصبحت شركةً كُبرى.

مع الثروة تأتي المسؤولية

قبل بضع سنوات، أطلقت كلارا وأندي مؤسسة خيرية، يتبرعان لها بكرم، وتدعم مؤسستهما جملةً من القضايا التقدمية. إحدى القضايا التي يشعران بشغف حيالها هي قضية الهجرة. قدم والدا كلارا وأندي إلى الولايات المتحدة بحثاً عن الحلم الأميركي، وكانت النتيجة جيّدة جداً لهما، وهما يريدان أن تكون للآخرين أحلام كبيرة، وأن يعملوا بجدٍّ كي ينجحوا. كما أنّ ثمة دافعاً أنانياً هنا، إذ إنّ شركة أندي في حاجة إلى إمداد مستمر بالعاملين الأذكياء المتعلّمين تعليماً عالياً، ومن وجهة نظر أندي، فإنّ معظم الأميركيين لا يُـحقّقون ذلك الشرط. إذا أردنا أن نعبِّر عن ذلك بفجاجة، فإنهم غالباً جاهلون وكُسالى، ويُريدون أجوراً أعلى مما ينبغي مقابلَ العمل الذي يقومون به. بالتأكيد، ليس خطأ الشباب أن النظام التعليمي الأميركي قصّر كثيراً عن أنظمة التعليم في أوروبا والصين، لكنَّ ذلك هو الواقع، ومن ثم فإنّ شركة أندي تُوظّف كثيراً من العمال القادمين من شرق آسيا، والهند، وأوروبا الشرقية. هؤلاء مُدرَّبون جيداً، ومستعدون للعمل ساعات طويلة، ويرضون برواتب معقولة.

ولكلارا دافعٌ بعيد أيضاً، أو على الأقل دافع له تأثير في تفكيرها. فبالنظر إلى أنها قادمة من الوسط البوهيمي في لوس أنجلوس، الذي تنتمي إليه الأغلبية الساحقة من أصدقائها القدامى، فإنها تعرفُ أنَّ المحافظةَ على المستوى المعيشيّ لن تكونَ مُمكنةً لمعظمهم في غياب العمالة المهاجرة الرخيصة.

الرواتب ليست مرتفعة، ويمكن أن يحصل انقطاع في العمل في أي وقت، فالذي يسمح لزملائها في الإنتلجنسيا أن يعيشوا عيشة أرستقراطية هم عمال تنظيف المنازل، والمربيات، وسائقو أوبير، والعمال الذين يوصلون الطعام، والذين يعملون جميعهم بأجور زهيدة. مثل هذه العوامل ليست هي بالضرورة التي يمكن لها أو لأندي أن يعترفا بها لشخص غريب، وفي الأحوال كلها، فإنّ البشرَ مُعقَّدُون، وثمة تلاقٍ بين الدوافع المثالية والمادية تكمن وراء دعمهم لقوانين هجرة أكثر تساهلاً.

يتبرّع أندي وكلارا بكرم للحملات السياسية، وتبرُّعاتهما إستراتيجية، ولا تقتصر على ولايتهما. العميل الرئيس لشركة أندي هي الحكومة الأميركية، إذ إنّ نحو ٩٠ بالمئة من عائداته تأتي من العقود الاتحادية. ومن ثم فإنه في حاجة إلى أعضاء كونغرس متعاطفين معه في واشنطن للمساعدة في ضمان أن تذهبَ العقود المربحة إلى شركته، بدلاً من أن تذهب إلى منافسيه. يتبرعان للديمقراطيين والجمهوريين بالتساوي تقريباً، فهما يُحبّان الأجندة التقدمية للديمقراطيين، لكنهما يُقدِّران أيضاً الممارسات الاقتصادية للجمهوريين، ولا سيما موقفهم حيال خفض الضرائب. وهذا أحد الأمور التي يشعران بقوة حيالها. أتيا إلى هذه البلاد فقيرَين مُعدَمين، وحقّقا الحلم الأميركي تحقيقاً كاملاً بجهودهما، فلماذا تضع الحكومةُ يديها الجشعتين على أموالهما، ومعظم ضرائبهما، على أيّ حال، ستُهدَر نتيجةَ الفساد؟ لذلك يفضلان أن يتبرعا مباشرة للقضايا المستحقة من مؤسستهما، بدلاً من أن يهدرَ أموالهما بيروقراطيون فاسدون وغيرُ أكْفَاء. مهما كان ترامب منفّراً لهما، فإنهما اعترفا بفضله بشأن قانون التخفيضات الضريبية والوظائف الذي صدر عام ٢٠١٧، إذ إنه خفّضَ ضرائبهما تخفيضاً ملحوظاً. مع ذلك، من المريح أنّ ترامب خرجَ من البيت الأبيض، إذ يُـمثِّلُ جو بايدن عودةً إلى الممارسات السياسية الطبيعية، وهو لن يرفع الضرائب عليهما، بصرف النظر عمّا قاله في أثناء الحملة الانتخابية. إنه يعرف مصلحته جيداً، وإذا تمكّن الجناح

اليساري في حزبه من طرح مشروع قانون فرض الضرائب على الأغنياء، استطاعا أن يثقا بأنّ الجمهوريّين سيُعطّلونه حتى الموت.

الطبقاتُ الحاكمةُ في التاريخ واليوم

على الرغم من أنَّ أندي وكلارا لم يشغلا منصباً عاماً قط، لكنهما عضوان في الطبقة الحاكمة في أميركا، وهذا ما لا يعلِّمونكم إياه في صفوف الثقافة المدنية في المدرسة الثانوية. مع ذلك أخشى، استناداً إلى الأدلة، أنّهُ أكثرُ من منصف أن تُوصَفَ الولايات المتحدة بأنها بلوتوقراطية، (plutocracy)، أو مجتمع يحكمه الأثرياء، وهذه ليست نظريةَ مؤامرة، بل هي بيانٌ دقيق يقبله على نحو واسع علماءُ الاجتماع الذين يدرسون تدفُّقات السلطة.[1] لكنْ قبل أن ندلف إلى آليّات العمل الداخلية للسلطة في الولايات المتحدة، دعونا أولاً نرجع خطوةً إلى الوراء، ونتحدّث عن السلطة الاجتماعية عامَّةً.

دعونا نبدأ بمبدأ عام، ففي المجتمعات البشرية المعقدة الكبيرة كلّها طبقاتٌ حاكمة، ولا يهم ما إذا كانت الدولة محكومة بطريقة ديمقراطية أو أوتوقراطية (استبدادية)؛ هناك دائماً نسبة صغيرة من السكان تملك حصة غير متناسبة من السلطة الاجتماعية متركزة في أيديها. لكنْ، كما رأينا في الفصل الأول، فإنّ ثمة تنوُّعاً كبيراً بين البلدان المختلفة، في الماضي والحاضر، حين يتعلّق الأمر بمصدر السلطة الذي تبرزه النخب الحاكمة، وكيف "تُنتَج" النخب، وهذا ما لا يتضمّن الإنجابَ البيولوجي فحسب، بل استقدام آخرين من العامة أيضاً.

كانت الدول الأولى تحكمُها عادةً النُّـخبُ العسكرية التي كان المصدر الرئيس لسلطتها الاجتماعية يتمثل ببساطة في القوة. وكان ذلك نتيجة واحد من أهم مبادئ النشوء والتطور الاجتماعي، أي أنّ "الحرب صنعت الدولة، والدُّوَل

١- يتشاطر هذا الرأيَ – أنّ أميركا بلوتوقراطية – عددٌ من المفكرين المؤثرين، بمن فيهم بول كروغمان، وجوزيف ستيغليتز، وكيفين فيليبس، وكريستال فريلاند. سأناقش الأساس التجريبي لهذا الادّعاء في جزء لاحق من هذا الفصل، بناءً على عمل مارتن غايلنز وبنيامين بيج.

صنعت الحرب".[1] لم تنمُ الدول الأولى ببساطة نمواً سكانياً، أو باكتساب المزيد من الأراضي سلمياً، بل إنها نشأت في بيئات من الحرب المكثفة، وتوسّعت إما بالاحتلال وإمّا بالتحالف العسكري الذي يصبح أكثر تماسكاً ومركزيةً، وفي النهاية يُحوّلُ نفسَهُ إلى دولة.[2]

لكنَّ القوةَ الفجّة ليست طريقةً ناجعةً جدّاً في حُكم بلدٍ من البلدان، ولا سيما في زمن السلم. لنتذكر مقولة تتعلق بمسدس وكلمة طيبة، تُنسَب على نطاق واسع (لكنْ على نحو غير دقيق) إلى آل كابون؟ حسناً، تشير التجربة الفعلية للدول التاريخية إلى أنّ علينا أن نعكسها: "يمكنك أن تحصل بكلمة طيبة ومسدس على أكثر بكثير مما يمكن أن تحصل عليه بمسدس فحسب". تعمل القوة الشرعية على نحو أفضل من القوة فحسب – إذا استطعت إقناع الناس بفعل ما تريد، فلن يتعيّن عليك أن تدفع لهم، أو تجبرهم على فعله.

نظراً إلى فهمها هذه الحقيقةَ، سعت النخب المحاربة الأولى إلى السيطرة على القوة الأيديولوجية بتعيين أنفُسِها كهنة، أو بالسيطرة الكاملة على المتخصصين بالدين. كثير من الدول الأولى حكمها كهنة– ملوك، أو حتى آلهة– ملوك، فالفراعنة المصريون، على سبيل المثال، كانوا يُعبَدون بوصفهم آلهة. كما أضاف حكام الدول الأولى القوى الاقتصادية إلى هذا المزيج أيضاً ولأن الوسيلة الرئيسة للإنتاج في المجتمعات ما قبل الصناعية كانت الأرض

١- تُعزى هذه المقولة الشهيرة إلى عالم السياسة الأميركي تشارلز تيلي. تحليلنا لـ 'سيشات: قاعدة بيانات تاريخ العالم'، الذي اختبر النظريات الرئيسة جميعاً المتعلقة بنشوء المجتمعات المعقدة وتطوُّرها بمقارنةِ بعضِها مع بعض، أظهر أنّ الحرب هي الدافع الرئيس للتعقيد الاجتماعي، إضافة إلى الزراعة. انظر Peter Turchin et al., "Disentangling the Evolutionary Drivers of Social Complexity: A Comprehensive Test of Hypotheses," *Science Advances* 8, no. 25 (2022), https://doi.org/10.1126/sciadv.abn3517. يُستكشف هذا الموضوع على نحو أشمل في كتابي القادم، *The Great Holocene Transformation*.

٢- يمكن قراءة المزيد عن هذا التطور في كتابي Peter Turchin, *Ultrasociety*: *How 10,000 Years of War Made Humans the Greatest Cooperators on Earth* (Chaplin, CT: Beresta Books, 2016).

– لإنتاج الغذاء والأنسجة وتربية المواشي – فإن النخب كانت تتكون من مالكي الأرض، وتستعمل الفلاحين، أو الأقنان، أو العبيد للعمل فيها. أخيراً، مع اتساع أملاكها وزيادة عدد سكانها، واجهت قيود الحكم المباشر، وتعيَّن عليها على مضض أن تتقاسم السلطة مع المختصين بالإدارة، أي البيروقراطيين. لقد توصل تحليلنا لعينة عالمية من المجتمعات التاريخية إلى أن الكيانات السياسية المكونة من عدد من السكان يُراوِحُ بين بضع مئات الآلاف يمكن أن يحكُمَها زعماء وحواشيهم دون مديرين يعملون دواماً كاملاً.[1] لكنْ حالما يصبح لديك مليون من الرعايا أو أكثر، فإما أن تُنشِئ خدمةً مدنية، وإمّا أنْ تُعاني من حالات انعدام كفاءة، بحيث ينهار كيانك السياسي عاجلاً أم آجلاً، وإمّا أنْ تخسر في المنافسة مع إمبراطوريات بيروقراطية، ونتيجة لذلك، ما بدأ أرستقراطيّةً مُحاربةً تطوّرَ دائماً إلى طبقة حاكمة ربما استمرت في التركيز على القوة العسكرية، لكنْ في الواقع سيطرت على مصادر السلطة جميعها، وتلك النخب التي لم تُنوِّع مصادرَ سلطتها أُطِيحَ بها، إمّا على أيدي أعداء داخليين، وإمّا على أيدي أعداء خارجيّين.

مصر، عسكرقراطية

تُعدُّ جمهورية مصر العربية مثالاً معاصراً للعسكرقراطية (دولة تحكمها نخب عسكرية). مصر ديكتاتورية عسكرية، معَ أنها تجري انتخابات لأغراض تجميلية. تعود جذور هذا الشكل من الحكم إلى قرون عدة. لنأخذ جولة تاريخية قصيرة لتتبُّع تطوُّر الأطر المؤسساتية التي أنتجت الحاكم الحالي لمصر في وقت كتابة هذا الكتاب: عبد الفتاح السيسي. ثمة عطالة ثقافية لافتة تحكم ماهية الترتيبات المؤسساتية التي تعود إليها مناطق العالم المختلفة، حتى بعد وقوع اضطرابات خطيرة فيها، مثل الثورات وانهيار الدولة. أما الثقافة فإنها تستمر.

١- Turchin et al., "Disentangling the Evolutionary Drivers of Social Complexity."
استكشف هذا الموضوع على نحو أوسع في كتابي القادم *The Great Holocene Transformation*.

لننظر في حالة صلاح الدين، أو باسمه الأكثر رسميّةً الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (١١٣٧-١١٩٣)، الذي قد يكون أشهر كرديّ في تاريخ العالم. قاتل صلاح الدين ضد الصليبيين في فلسطين، وتُوِّجَتْ إنجازاته بطردهم من القدس. مع نهاية حكمه، كان قد بنى إمبراطورية واسعة تشمل مصر، وسورية، وفلسطين، والأطراف الغربية لشبه الجزيرة العربية. أما الحُكّام الذي خلفوه فقد تنازلوا عن السلطة العسكرية لجنرالاتهم المماليك. كان المماليك طبقة من المحاربين الذين اشْتُـرُوا في أسواق النخاسة، ومن ثم تدريبهم ليكونوا جنوداً. في عام ١٢٥٠، أطاحوا بآخر ورثة السلالة الأيوبية (الذي كان اسمه على اسم والد صلاح الدين)، وبدؤوا مرحلة طويلة من حكمهم لمصر. امتد حكم الأيوبيين أقل من قرن من الزمن. (كما رأينا، فإن مثل تلك الدورات السياسية القصيرة نموذجية في المجتمعات ذوات النخب متعددة الزوجات، لأنها تفرط في إنتاج النخب الطامحة بسرعة أكبر بكثير من المجتمعات ذوات النخب أحادية الزوجات.).

اللافت أن المماليك احتفظوا بقبضتهم على السلطة في مصر نحوَ ثلاثة قرون، وحققوا هذا الإنجاز بمنع أبناء المماليك من وراثة مناصب آبائهم. بدلاً من ذلك، استمروا في شراء الفتيان الذي تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى والقوقاز في أسواق العبيد وتدريبهم ليكونوا جنوداً وضباطاً، وفي النهاية حُكّاماً. سواء أكان ذلك عن قصد أم غير قصد، فإن تجنب الإفراط في إنتاج النخب جعل نظام المماليك مستقراً على نحو خاص. ولإعطائكم فكرة عن مدى فعالية حكم المماليك، يكفي القول إنهم كانوا القوة العسكرية الوحيدة التي تمكّنت من إيقاف المغول (في معركة عين جالوت في عام ١٢٦٠).

لكنّ المماليك أخفقوا في تحديث جيشهم. كانت فرق الخيّالة ممتازة، لكنهم تأخّروا في تبنّي استعمال الأسلحة التي تستعملُ البارود، ونتيجةً لذلك، هُزمت مصر في عام ١٥١٧ على يد أقرب "إمبراطورية بارود" إليها، وهي الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك، استمرّ المماليك في حكم مصر بوصفهم ولاةً تابعين لإسطنبول، لكنَّ سلطتهم تحطّمت أخيراً بعد ثلاثة قرون على يد جنرال آخر هو

محمد علي، القائد العسكريّ الألباني الذي أرسلته الإمبراطورية العثمانية لاستعادة مصر في عام ١٨٠٥، بعد انسحاب قوّات الحملة العسكرية الفرنسية بقيادة نابليون. مارس محمد علي نهجاً متطرفاً في تقويض الإنتاج المفرط للنخب. دعا القادة المماليك إلى احتفال، ثم قتلهم جميعاً ببساطة، وهكذا اكتسبَ سلطةً مطلقة على مصر. في ظل السلالة التي أسّسها، أصبحت مصر مستقلةً عن الإمبراطورية العثمانية بحكم الأمر الواقع أولاً، ثم بحكم القانون(على الرغم من أنها أصبحت أيضاً محمية بريطانية في جزء من تاريخها). استمرّت سلالة محمد علي نحو ١٥٠ عاماً، إذ أُطيحَ بآخر خليفة له، الملك فاروق، في انقلاب عسكريّ في عام ١٩٥٢.

أعتقد أنَّ بوسعكم رؤية النمط العام. منذ القرن الثاني عشر، حكمت مصر سلسلةٌ من النخب العسكرية، وحالما كانت النخبة الحاكمة تفقد سيطرتها على السلطة العسكرية، كانت تُستَبدل بمجموعة أخرى من المحاربين. كيف يساعدنا هذا في فهم مصر اليوم؟

بعد ثورة عام ١٩٥٢، حكمت مصر سلسلة من الجنرالات: محمد نجيب، جمال عبد الناصر، أنور السادات، حسني مبارك. ومثَّل هذا عودةً إلى حكم المماليك، لكنَّ الجنودَ كانوا يُستقدَمُونَ من السكان المصريين بدلاً من شرائهم من أسواق العبيد.

ثم أتى الربيع العربي. من المنطقي أنْ تفكروا في أنَّ الثورة المصرية عام ٢٠١١ كانت نتيجة احتجاجات شعبية واسعة النطاق ضدّ وحشيّة الشرطة؛ وغياب الحريات المدنية وحرية التعبير؛ والفساد؛ وارتفاع معدلات البطالة؛ وتضخم أسعار الأغذية؛ وتدنّي الأجور.[١] هذا صحيح إلى حدّ ما، لكنَّ تحليلاً ديموغرافياً – بنيوياً للثورة المصرية أجراه المستعرب الروسي الكليوديناميكي

١- انظر أيضاً "2011 Egyptian revolution," Wikimedia Foundation, last modified October 2, 2022, 12:50, https://en.wikipedia.org/wiki/2011_Egyptian_revolution.

أندريه كوروتاييف يوفر لنا تبصرات إضافية إلى القوة الاجتماعية العميقة التي تعمل تحت سطح الأحداث.[1]

قبل تسعينيات القرن العشرين، انضمت نسبة صغيرة من الشباب المصري إلى الطبقة حاملة الشهادات.[2] ثم وسَّع نظام مبارك، الذي كان عازماً على تحديث البلاد، إلى حد كبير، الوصولَ إلى التعليم الجامعي، ونتيجة لذلك، في تسعينيات القرن العشرين، تضاعفت نسبة السكان الملتحقين بالجامعات والمعاهد أكثرَ من مرة، وتزامن هذا التوسع في التعليم الجامعي مع "انتفاخة شبابية". بين عامي ١٩٩٥ و٢٠١٠، ارتفع معدل السكان في العشرينيات من عمرهم بمعدل ٦٠ بالمئة، وفي الوقت نفسه، لا تكاد أعداد الشواغر المتاحة لهؤلاء الشباب حملة الشهادات تتغير، وكانت النتيجة مشكلة حادة تتطوّر بسرعة في الإفراط في إنتاج النخب. كان هؤلاء، من خرّيجي الجامعات العاطلين مِنَ العمل، الذين وفّروا القوات الثورية للمظاهرات الحاشدة المعادية للنظام.

الأمر الذي لا يقل أهمية كان الانقسام داخل النخب الحاكمة، فمبارك وصل إلى السلطة بالطريقة المعتادة؛ أولاً بالارتقاء في الرتب العسكرية، ثم أصبح الوريث المحتمل لسلفه، أنور السادات، لكنْ حالما أصبح في السلطة، كسر قواعد الخلافة لمّا بدأ بتحضير ابنه، جمال مبارك، خليفةً له. لم يرتقِ جمال سُلّم الرتب العسكرية؛ وبدلاً من ذلك، حصل على ماجستير في إدارة الأعمال، وأصبح أحدَ قادة النخب الاقتصادية الجديدة في مصر. لو خلف جمال والده حاكماً لمصر، لكان ذلك في منزلة ثورة اجتماعية استُبدلت فيها النخب العسكرية القديمة بنخب اقتصادية جديدة.

1- Andrey Korotayev and Julia Zinkina, "Egyptian Revolution: A Demographic Structural Analysis," *Entelequia* 13 (2011): 139–69; Andrey Korotayev and L. Isaev, "The Anatomy of the Egyptian Counter-revolution," *Mirovaya Ekonomika i Mezhdunarodnye Otnosheniya* 8 (2014): 91–100.

٢- بيانات البنك الدولي حول معدلات الالتحاق بالمدارس:

https://data.worldbank.org/indicator/SE.TER.ENRR?end=2018&locations=EG&start=1971&view=chart.

من الواضح أن ضباط الجيش لم يكونوا متحمسين حيال فقدانهم السلطة. طبقاً لما قام به كوروتاييف من إعادة بناء الصراعات التي حدثت داخل النخب، التي كانت كامنة وراء الثورة (التي تلتها ثورة مضادة)، لمّا اندلعت الاحتجاجات الشعبية في عام ٢٠١١، تنحّى الجيش جانباً، وسمح بسقوط نظام مبارك، لكنَّ التحالفَ الذي أخرج مبارك من السلطة، كان خليطاً غيرَ متجانس، فالمجموعتان الرئيستان داخله كانتا تتألفان من الثوريين العلمانيين الليبراليين، القادمين من الطبقة الحضرية حاملة الشهادات، والإخوان المسلمين الإسلاميين، وقاعدة دعمهم الرئيسة في المناطق الريفية. حالما أطاحتا بمبارك، اختلفت هاتان المجموعتان اللتان تحملان رؤيتين متعارضتين حول الاتجاه الذي ينبغي لمصر أن تتخذه. فاز الإخوان في الانتخابات، ونتيجة لذلك أصبح زعيمهم محمد مرسي رئيساً. الآن، عاد المتظاهرون الليبراليون إلى ميدان التحرير للاحتجاج على حكم الإسلاميين. الأمر الأكثر أهمية، هو أن نخب الأعمال (التي كان صراعها مع الجيش هو جذر الثورة) أرعبها الاتجاه الليبرالي الذي كانت مصر ماضية إليه. لمّا أطاحَ الجيش بمرسي، عادت النخب الاقتصادية إلى التحالف بين الجيش وطبقة الأعمال بوصفها شريكاً أصغر، وكانت نتيجة الأزمة التي استمرت بين عامي ٢٠١١ و٢٠١٤ أنّ مصر عادت إلى تشكيلة السلطة التقليدية المستمرة منذ ما لا يقلّ عن ألف عام. عادت النخب العسكرية إلى تَسلُّم السلطة.

ما الذي تنبئنا به هذه الجولة في التاريخ المصري؟

أولاً، من أجل فهم القوة المزعزعة للاستقرار، بما في ذلك دور الإفراط في إنتاج النخب، علينا أن نضعها داخل الأطر المؤسساتية للبلاد التي ندرسها، ويمكن لهذه الأطر المؤسساتية والثقافات السياسية التي تدعمها أن تتفاوت كثيراً من منطقة إلى منطقة، لكنْ في كل بلد، تُظهر كثيراً من الاستمرار والصمود بمرور الوقت، وفي كثير من الأحيان تُعيدُ بناءَ نفسها، حتى بعد حدوث صدمات قوية جداً.

لنأخذ مثالاً آخر هو الصين. على عكس مصر (والولايات المتحدة الأميركية)، فقد حكمت الصين أكثرَ من ألفَيْ عام نُخبٌ كان مصدرها الرئيس للسلطة إدارياً. بعبارة أخرى، حكمَتْها بيروقراطيات. كانت الطبقة الحاكمة تُستقدَمُ بنظام مُعقّد من الامتحانات المحلية والإمبراطورية، ومن أجل النجاح في هذه الامتحانات، كان يتعيّن على القادمين اتباع تدريب مكثف في الأعمال الكلاسيكية الصينية. ونتيجة لذلك، كان المسؤولون الصينيون من الباحثين الكونفوشيوسيين دائماً، أي إنهم يجمعون السلطة الإدارية والأيديولوجية. وكانت النخب العسكرية والاقتصادية تُضبَط على نحو وثيق، ولا يُسمَح لها بالقيام بدور كبير في شؤون الدولة. كان آخر صدمة تعرّض لها هذا النظام الثورة الشيوعية. وأين الصين اليوم؟ تقريباً في المكان نفسه الذي كانت فيه على مدى الألفي عام الماضية. تحكمها طبقةٌ حاكمة من البيروقراطيين، فتعبير الحزب الشيوعي الصيني يمكن أن يُستبدَل ببساطة بالحزب الكونفوشيوسي الصيني. من وجهة نظرِ نظريةِ دورات السلالات، يحكمُ الصِّينَ اليوم خليفةُ سلالةِ تشينغ، التي يمكن أن نسميها "السلالة الحمراء". وتتمثل إحدى المهمات الثقافية لكل سلالة في كتابة تاريخ حاسم وقطعي للسلالة السابقة، ففي عام ٢٠٠٢، أعلنت جمهورية الصين الشعبية أنها ستُكمِلُ **تاريخَ تشينغ**، وهكذا تجعل من مكانتها بوصفها سُلالةً أمراً رسميّاً.

على مدى التاريخ الإمبراطوري الصيني، كانت طبقة الماندرين تبقي الطبقة التجارية تحت السيطرة، ويصح الأمر ذاته على السلالة الحمراء، ففي ١٧ آب/ أغسطس ٢٠٢١، ألقى الحاكم الحالي للصين، شي جين بينغ، خطاباً رئيساً دعا فيه إلى الرخاء العام، وأكَّدَ الحاجةَ إلى وضع ضوابط للمجموعات ذوات الدخول المرتفعة، وهذا ما فُسِّرَ في الصحافة الغربيّة على أنه هجوم على الأغنياء.[1] لكنْ ما

1- James Palmer, "Xi's Prosperity Gospel," China Brief, *Foreign Policy*, August 25, 2021, https://foreignpolicy.com/2021/08/25/china-xi-jinping-common-prosperity-billionaires/.

من شيء جديد هنا، فطبقةُ الماندرين تُذكِّر **(مرّةً أخرى)** أصحابَ المليارات بمن يُمسِكُ بزمام الأمور في الصين.

تُعدُّ الصين مثالاً نموذجياً للإمبراطورية البيروقراطية، وقد كانت كذلك على مدى ألفي عام، لكنَّ الانتقالَ من طبقات حاكمة عسكرية إلى طبقات حاكمة إدارية قاعدة عامة في التاريخ، على الأقل فيما يخصُّ الدُّوَل الكبرى. ماذا عن النخب التي تكون مصادر قوتها الرئيسة أيديولوجية أو اقتصادية؟ ثمّةَ مثلُ هذه الدول في التاريخ، لكنّها كانت نادرة نسبياً. مثال على دولة ثيوقراطية تاريخية هي الدُّوَل الباباوية، وأفضل مثال على دولة ثيوقراطية اليوم هو الجمهورية الإسلامية الإيرانية، التي تكمن السلطة النهائية فيها في القائد الأعلى، وهو رجل دين إسلاميّ شيعي يختارُهُ مجلسُ حكماء.

الدول البلوتوقراطية كانت نادرة أيضاً في التاريخ، وتشمل الأمثلة الأكثر شهرة في التاريخ الجمهوريات التجارية الإيطالية مثل البندقية وجنوة، إضافةً إلى الجمهورية الهولندية، أما اليوم فأفضل مثال على الدولة البلوتوقراطية هو الولايات المتحدة الأميركيّة.

تشكيل الطبقة الحاكمة الأميركية

لا نستطيع فهم مجتمع في أي لحظة زمنية دون معرفة من أين أتى، ولهذا السبب، فإن روايتي لحكاية الطبقة الحاكمة الأميركية لا بد أن تعود إلى أصولها. لحسن الحظ، لا يتعيَّن علينا المضي بعيداً في الزمن، بل إلى ما بعد الحرب الأهلية فحسب.

كما رأينا، قبل الحرب الأهلية، كان يحكم الولايات المتحدة ائتلاف من مالكي العبيد الجنوبيين والتجار الأرستقراطيين في الشمال الشرقي. دمّرت هزيمة الجنود في الحرب الأهلية الطبقة الحاكمة.[1] وقُتِل ربع الرجال الجنوبيين في سن الخدمة العسكرية في ميدان المعركة. أما الأمر ذو الأثر البعيد، فكان أن الثروة الجنوبية، التي كان الجزء الأكبر منها مستثمَراً في بشر مستعبدين، دُمِّرَ بفضل

١ - ثمّةَ سردٌ مُفصَّل لهذا في الفصل ٩ من **عصور الخلاف**.

تحرير العبيد، إضافةً إلى ذلك، فإن الضرر الذي وقع على ممتلكات الجنوبيين وإلغاء ديون الحرب والتزاماتها جميعاً، العائدة إلى الكونفدرالية، قضى على جزء كبير ممّا تبقّى. في الميدان السياسي، دشّنت هزيمة الكونفدرالية حقبة طويلة من هيمنة الحزب الجمهوري، فبين عامي ١٨٦٠ و١٩٣٢، تمكّن الديمقراطيون (الذين كانوا لوقت طويل حزب الجنوب الذي يتبنّى تفوُّق العرق الأبيض) من الوصول إلى الرئاسة ثلاث مرات فقط: في ١٨٨٤، و١٨٩٢، و١٩١٢.

ثمّةَ مدرسةٌ في الفكر التاريخيّ ترى في الحرب الأهلية وما تبعَها، أي إعادة البناء، الثورةَ الأميركيةَ الثانية، ولو كانت ثورةً لم تكتمل. معَ أنَّ الحربَ الأهلية حرّرت العبيد، لكنها أخفقتْ قطعاً في إنتاج المساواة العرقية، ومن ثم كان الأثر الرئيس الثورة التي حدثت في القمة: أي تغيُّر النخب. بعد كسر سيطرة النخب الجنوبية المالكة للعبيد على الحكومة الفيدرالية على نحو حاسم، استُبدلت بطبقة حاكمة جديدة يهيمن عليها رجالُ الأعمال الشماليون.

كما كتب كيفن فيليبس (Kevin Phillips) في **الثروة والديمقراطية: تاريخ سياسي للأثرياء الأميركيين** (*Wealth and Democracy*: *A Political History of the American Rich*)، ففي الوقت نفسه الذي دمرت الحربُ الأهلية الثروةَ الجنوبية، ضاعفت ثروات الرأسماليين الشماليين على نحو هائل. كان إقراض الاتحاد مربحاً جداً؛ وإمداد المجهود الحربي للاتحاد مربحاً أكثر. وكتب فيليبس: "عدد مفاجئ من عمالقة التجارة والمال في أواخر القرن التاسع عشر – ج. ب. مورغان، جون د. روكفلر، أندرو كارنيجي، جي غولد، مارشال فيلد، فيليب أرمر، كوليس هانتنغتون، وعدد آخر من أقطاب السكك الحديدية – كانوا شماليين شباباً تجنّبوا الخدمة العسكرية، عادة بشراء بدائل عنهم، واستعملوا الحرب لصعود درجات سُلّم ثروة المستقبل".[1] في عشر سنوات فقط، من ١٨٦٠ إلى ١٨٧٠، انفجرَ عددُ أصحاب الملايين في أميركا، من ٤١ إلى ٥٤٥.

1- Phillips, *Wealth and Democracy*, 34–36.

أحدثَ صعودُ الطبقة الحاكمة الجديدة تحولاً لافتاً في العلاقات السياسية– الاقتصادية للأمة. نستطيع أن نرى هذا التحول الاقتصادي ينعكس في تركيبة إدارة لنكولن. لا يُركِّزُ عادةً على نحو كبير على هذه الناحية من مسيرة لنكولن، لكنْ كان لديه خبرة كبيرة في القانون التجاري، وعمل مع عدد من شركات السكك الحديدية في الغرب الأوسط، ولا سيما خط إيلينوي المركزي (إيلينوي سنترال). كان لكثيرين في إدارته علاقات بالسكك الحديدية وعالم المال، ولا ينبغي أن يكون مفاجئاً أنّ مساحات كبيرة من الأرض مُنحت، بوصفها إجراءاتٍ ترويجيةً، لشركات سكك الحديد التي كانت تعمل في الولايات الغربية، كما وصل نفوذ بارونات السكك الحديدية إلى اختيار قضاة المحكمة العليا، ونتيجة لذلك، "بحلول عام ١٨٧٦ كانت صناعة السكك الحديدية قد ظهرت بوضوح على أنها القوة السياسية– الاقتصادية المهيمنة في البلاد".[1]

عكست تشريعات أخرى بدأت في أثناء إدارة لنكولن أيضاً هيمنة مصالح رجال الأعمال الشماليين، إذ لقيت الصناعاتُ الشمالية الحمايةَ برفع الرسوم الجمركية، وأُسِّسَ نظامٌ مصرفي وطني. خَوَّلت قوانينُ شركات السكك الحديدية للمحيط الهادئ إصدارَ سندات حكومية ومنح مساحات واسعة من الأراضي لشركات السكك الحديدية، وعكست السياسة السابقة التي لم تكن تفضل مثل تلك التحسينات الداخلية. معَ أنَّ الجُزءَ الأكبر من التشريعات التي صدرت في أثناء رئاسة لنكولن كانت مُحفَّزة باحتياجات النخب الاقتصادية الجديدة، لكنَّ لنكولن كافأ مُكوِّنات أخرى أيضاً نهضتْ بدور أساسيّ في إيصاله إلى السلطة في عام ١٨٦٠، كما أفاد أنصار تحرير العبيد الرأسماليين الشماليين، ولو على نحو غير مباشر، بإفقار النخب الجنوبية وتقليص قدرتها على التأثير في السياسات على المستوى الاتحادي.

1- Philip H. Burch, *Elites in American History*, vol. 2, *The Civil War to the New Deal* (New York: Holmes & Meier, 1981), 47.

حصل أنصار إلغاء العبودية المتطرفون على إعلان تحرير العبيد لعام ١٨٦٣، الذي تبعه التعديل الثالث عشر بعد سنتين، كما عاد تحرير العبيد بالفائدة على الرأسماليين الشماليين، ولو على نحو غير مباشر، بإفقار النخب الجنوبية وتقليص قدرتها على التأثير في السياسات على المستوى الاتحادي.

على النقيض من ذلك، كان قانون المنازل لعام ١٨٦٢، مكافأةً للمزارعين الأحرار، فقد مكَّنَ حركة العمالة الفائضة من الأراضي التي لا يدّعي ملكيتها أحد، وقد كان هناك مساحات وافرة منها في الغرب، وكان أثره الثانوي تقليص المعروض من العمالة في الشرق، ورفع كلفتها. وللتغلب على هذه الآثار غير المرغوب فيها (فيما يخصُّ مصالحَ رجال الأعمال بالتأكيد أمّا العمال فقد رحّبوا بالأجور الأعلى)، مرَّر الكونغرس الذي يهيمن عليه الجمهوريون قانون الهجرة لعام ١٨٦٤، الذي كان يهدف، كما أعلن، إلى توفير عدد كافٍ من العمال، وأسّس مكتب الهجرة الذي سهّل استيراد العمال من أوروبا. شرحت المنصة الجمهورية في عام ١٨٦٤ أهمية مثل هذه الخطوات على النحو الآتي: "ينبغي تعزيز وتشجيع الهجرة الأجنبية، التي أضافت في الماضي كثيراً إلى الثروة، وتطوير الموارد، وزيادة قوة هذه الأمة – الملاذ الآمن لمضطهدي الأمم جميعاً –بسياسة ليبراليّة وعادلة".[1]

ينبغي ألّا نبالغ في درجة الوحدة التي كانت تربط نخب ما بعد الحرب الأهلية، فحالما تيقَّنت أنّ الطبقة الحاكمة "ذهبت مع الريح،" بدأت الصراعات داخل النخب مباشرةً في الطبقة الحاكمة الجديدة، وكانت المرحلة الواقعة بين عامي ١٨٧٠ و١٩٠٠، التي عُرفت بالعصر المُذَهَّب، مرحلة فوضوية وخلافية جداً في التاريخ الأميركي. إضافة إلى ذلك، في عام ١٨٧٠ كانت الطبقة الحاكمة الجديدة لا تزال تفتقر إلى المؤسسات التي ستصوغ لاحقاً هوية مشتركة، وتساعد في تنسيق العمل الجماعي الذي تقوم به النخب، وهذا ما حوّلها إلى "طبقة خاصة بنفسها،" إذا كان لي أن أستعيرَ مُصطلحاً ماركسياً.

1- Charles A. Beard and Mary R. Beard, *The Rise of American Civilization* (New York: Macmillan, 1927), 110.

كان لإحدى مجموعات مؤسسات الطبقة العليا، التي تطورت في العصر المُذَهَّب، وظيفة مزدوجة تمثّلت في تعزيز التواصل بين النخب، وفي الوقت نفسه خلق حدود واضحة تفصل بين النخب والعامة، فالسجل الاجتماعي، الذي كان يرد فيه ما يُسمّى بأفراد المجتمع المخملي، أصبح سجلاً للأرستقراطية، وكانت النوادي الاجتماعية للنخب والمنتجعات الصيفية الحصرية تخدم هدفاً وغايةً مماثلة، وكان أبناءُ العائلات النخبوية يختلطون مع أبناء طبقتهم بالالتحاق بمدارس داخلية مرموقة، أُسِّسَ معظمها في هذه المرحلة، وبالالتحاق بكليات الجامعات النخبوية.

وكانت تطورات موازية تحدث على مستوى الاقتصاد السياسي، فنحو نهاية العصر المُذَهَّب، بات يُعبَّر عن فكرة أنّ المنافسة غير المقيدة تُحدِثُ ضرراً باللاعبين جميعاً بتواتر أكبر على لسان قادة قطاع الأعمال، بمن فيهم عمالقة كبار مثل جون د. روكفلر وج. ب. مورغان.[1] ونجمَ عن كراهيتهم للفوضى التي نشأتْ سَعْيَهم لجعل المستقبل قابلاً للتنبؤ في حركة الاندماج الكبرى (Great Merger Movement) بين عامي ١٨٩٥ و١٩٠٤. في معظم الحالات، كانت هذه الاتحادات في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أقلَّ كفاءةً اقتصادياً من الخصوم الجدد الذين ظهروا فوراً تقريباً، أمّا مزيّاتُها الرئيسة فلم تكن في زيادة الكفاءة الاقتصادية، بل في زيادة القوة السياسية للشركات. بعد اتحاد مُصنّعي الحديد والصلب في عام ١٩٠١، علَّق مُحرِّرُو مجلة المصرفيين (*The Bankers' Magazine*) على ذلك بصراحة غير معتادة:

١- يقدم غابرييل كولكو عدداً من الاقتباسات: "إن المنافسة الجاهلة غير المقيدة، حين تصل إلى خاتمتها المنطقية، تعني الموت لبعض المتنافسين وإلحاق الضرر بالجميع"؛ "لقد ثبت أن المنافسة غير المقيدة سراب خادع، وكان ضحاياها يصارعون على كل جبهة ليجدوا وسيلة ما للنجاة من مخاطر بيئتهم. وكان من الطبيعي جداً، في هذا الوضع الصعب، أن تطرح فكرة التعاون العقلاني نفسها بدلاً من المنافسة الدموية القاتلة". انظر:

Gabriel Kolko, *The Triumph of Conservatism*: *A Reinterpretation of American History*, 1900–1916 (New York: Free Press, 1963), 13–14.

لمّا كان رجال الأعمال يُشكّلون وحدات منفردة، يعمل كلٌّ منهم لتحقيق نجاحه الذاتي بصرف النظر عن الآخرين، وفي تنافس شرس، كان للرجال الذين يسيطرون على التنظيم السياسي اليد العليا. كانوا يكرِّسون القوانين، ويستعملون العائدات الضريبية في بناء قوة تنظيمهم، لكنْ مع تعلُّم رجال أعمال البلاد سرّ الاندماج، فقد باتَ ذلك يُقوِّضُ تدريجياً سلطة السياسي، ويجعله خادماً لغاياته. تُجبَر الهيئات التشريعية والسلطات التنفيذية للحكومة على نحو متزايد على الإصغاء إلى مطالب المصالح المنظمة للشركات. أما وإنهم لا يخضعون كلياً لسيطرة هذه المصالح، فمردُّه إلى حقيقة أنّ تنظيم الشركات لم يصل إلى مرحلة الكمال بعد. ويُعدُّ الاندماج الذي حدث أخيراً لصناعتَي الحديد والصلب مؤشراً على إمكانِ تركُّز السلطة. إنّ كلَّ شكل من الشركات قادرٌ على اتّباع نهج اندماج مماثل، وإذا حذت الصناعات الأخرى حذو صناعات الحديد والصلب، فمن السهل أن نرى في النهاية أنه لا بد أن تصبح حكومة البلاد حيث تُحشَد القوى المنتجة، وتُدرَّب تحت سيطرة عدد محدود من القادة، مُجرَّدَ أداةٍ في يد هذه القوى.[1]

تطوُّر مهمٌّ آخر، حدث لاحقاً (نحو عام ١٩٢٠)، كان تحالف ما وصفه عالم السياسة ج. ويليام دومهوف (G. William Domhoff) "شبكة تخطيط السياسات،" وهي شبكة للمنظمات غير الربحية يصوغُ فيها قادة الشركات وأفراد الطبقة العليا النقاشات السياساتية في الولايات المتحدة. كانت هذه المؤسسات المتشابكة، والمؤسسات البحثية، ومجموعات النقاش السياساتية يُموِّلها مجتمع الأعمال، الذي كان أفراده يسيطرون على الرسائل التي تبعث بها هذه المؤسسات بوجودهم في مجالس أمنائها، وكان الجزء الأكبر من المال يأتي من ثلاثة أعضاء فقط من النخبة الاقتصادية: قطب الفولاذ أندرو كارنيغي، وبارون النفط جون د. روكفلر، والتاجر الثري من سانت لويس، روبرت بروكينغز.[2]

1- "Editorial Comment," *The Bankers' Magazine*, 1901, 497–514.

2- G. William Domhoff, *Who Rules America*?, 5th ed., *Power, Politics, and Social Change* (New York: McGraw-Hill, 2006).

وهكذا، في السنوات الخمسين التي تلت نهاية الحرب الأهلية، اندمجت المصالح التجارية والنخب السياسية الشمالية في طبقة عليا وطنية حقيقية، كما كتب المؤرخ اليساري غابرييل كولكو (Gabriel Kolko) في كتابه انتصار النزعة المحافظة (*The Triumph of Conservatism*)، "كانت نخب الأعمال والنخب السياسية يعرفُ بعضُها بعضاً، وتذهب إلى المدارس نفسها، وتنتمي إلى النوادي نفسها، وتتزوّج من العائلات نفسها، وتتشاطر القيم نفسها – في الواقع، شكّلت ظاهرة سُمِّيت لاحقاً 'المؤسسة' (The Establishment)".[1]

البلوتوقراطية الأميركية اليوم

لقد عبَّر عن فكرة أن الولايات المتحدة بلوتوقراطية رؤساء، وعلماء اجتماع، ومثقفين عامّين أميركيين.[2] وأنا قلت ذلك أيضاً. لكني أستعمل هذا المصطلح بمعناه الحيادي، أي ببساطة كلمة تصف دولة تهيمن عليها النخب الاقتصادية. (المعنى الحرفي لبلوتوقراطية هو "حكم الثروة")، لكن ما الذي يكمن وراء هذه التسمية؟

إذا شئنا التبسيط قُلْنا إنَّ على قمة هرم السلطة في أميركا يجلس مجتمع الأعمال: مالكو الأصول الكبيرة المولِّدة للدخل ومديروها، مثل الشركات، والمصارف، وشركات المحاماة.[3] ثمة قطاعات أعمال كثيرة نافذة ومتماسكة جداً بتأثيرها في السياسات العامة بحيث إنها، بمرور السنوات، اكتسبت أسماء مثل المجمع

---

١ - انظر أيضاً E. Digby Baltzell, *Philadelphia Gentlemen*: *The Making of a National Upper Class* (Piscataway, NJ: Transaction Publishers, 1989); and E. Digby Baltzell, *The Protestant Establishment Revisited* (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1991).

٢ - توفر المقالة على ويكيبيديا عدداً من الاقتباسات: "Plutocracy," Wikimedia Foundation, last modified September 13, 2022, 19:49, https://en.wikipedia.org/wiki/Plutocracy.

3 يشبه هذا الرأي نظرية الهيمنة الطبقية التي طوّرها عالمُ الاجتماع وليام دومهوف في سلسلة من المنشورات التي أحدثت أثراً مهماً، بما في ذلك كتاب من يحكم أميركا؟ (الذي نُشرت طبعته الأولى في عام ١٩٦٧، ووصل الآن إلى الطبعة الثامنة.) تحليل دومهوف شبيه بتحليلي، من حيث أنه مُؤطّر بنظرية الشبكات الأربع، أو كما شرحت في الفصل ١، المصادر الأربعة للسلطة الاجتماعية. لكنْ، كما سأجادل لاحقاً في الكتاب، فإن النخبة الاقتصادية (أو الـ ١ بالمئة) تحكم في ائتلاف مع الأفراد الأكثر نفوذاً في طبقة حملة الشهادات (الـ ١٠ بالمئة).

الصناعي العسكري، وقطاع التمويل، والتأمين، والعقارات، وقطاع الطاقة (النفط والغاز، وشركات الكهرباء، ووادي السيلكون، والشركات الغذائية الكبرى، وشركات الأدوية الكبرى، ومجمع الصناعات الطبية، ومجمع الصناعات الصناعية التعليمية). في عام ٢٠٢١، أنفق ١٢ ألف عضو في جماعات الضغط ٣.٧ مليار دولار للتأثير في السياسات على المستوى الاتحادي، طبقاً للمجموعة البحثية غير الحزبية 'الأسرار العلنية' (Open Secrets).[١] الصناعات الكبرى الثلاث، التي تنفق مئات ملايين الدولارات على حشد الدعم والتأييد، (lobbying)، هي صناعة الأدوية، والإلكترونيات، والتأمين.[٢] وتلحق بها الصناعات الأخرى.

طبقاً لنظرية "الهيمنة الطبقية" هذه، فإن مجتمع الشركات يحكم أميركا على نحو غير مباشر.[٣] وتسمح لها "قوتها الاقتصادية البنيوية" بالهيمنة على الطبقة السياسية بعمل مجموعات الضغط، وتمويل الحملات، وترشيح رجال الأعمال إلى المناصب السياسية، وتعيين قادة الشركات في مناصب حكومية رئيسة، وسياسة "الباب الدوار" – أي تحرُّك الأفراد جيئة وذهاباً بين المناصب الحكومية والصناعية. في الواقع، فإن شبكتي السلطة، الاقتصادية والإدارية، متحدتان ومنصهرتان معاً تماماً، لكنّ الشبكة الاقتصادية هي المهيمنة.

كما يسيطر مجتمع الأعمال أيضاً على الأساس الأيديولوجي للسلطة بملكية شركات وسائل الإعلام وشبكات تخطيط السياسات التي تتكون من مؤسسات خاصة، ومراكز بحثية، ومجموعات نقاش السياسات، أما المصدر المتبقي للسلطة الاجتماعية، وهو الجيش، فقد كان خاضعاً تماماً للشبكة السياسية على مدى التاريخ الأميركي. يُشكَّلُ الضُّبّاطُ المستقبليون عقائدياً عبر غرس ثقافة طاعة قادتهم السياسيين، وعلى المستويات العليا، يتطلع الجنرالات والأدميرالات إلى

1- "Lobbying Data Summary," OpenSecrets, accessed August 10, 2022, https://www.opensecrets.org/federal-lobbying/summary.

2- "Industries," OpenSecrets, accessed August 10, 2022, https://www.opensecrets.org/federal-lobbying/industries.

٣- وهنا أيضاً أتَّبع على نحو وثيق أفكار دومهوف في كتاب من يحكم أميركا؟

شغل مناصب ذوات رواتب مرتفعة بعد التقاعد في مجالس إدارة الشركات التي تعتاش على العقود الحكومية.

المؤامرة مقابل العِلم

كي أكون واضحاً، فإن القول إن أميركا بلوتوقراطية ليست نظرية مؤامرة، بل إنها نظرية علمية. ما الفرق؟

أولاً، دعونا نعترف أن بعض المؤامرات حقيقية، والتاريخ حافل بأمثلة على مجموعات من الناس تآمروا سرّاً لتحقيق مصالحهم وأهدافهم على حساب مجموعات أخرى أو مجتمعات بأكملها، فقد خطّطَ غاي فوكس (Guy Fawkes) والمتآمرون معه حقاً لتفجير مجلس اللوردات في بريطانيا عام ١٦٠٥، لأنهم أرادوا استبدال الملك جيمس الأول بملك كاثوليكي. وارتكبت إدارة ريتشارد نيكسون حقاً جملةً من الأفعال غير القانونية، مثل التنصُّت على خصومها السياسيين ومضايقة السياسيين والناشطين، ومن ثم حاولت التغطية على ذلك. وفي بعض الأحيان يُتَـجَاهَـلُ أشخاصٌ يحاولون كشف مؤامرات حقيقية خطأً، على أنهم من أتباع نظرية المؤامرة، بل يُوصَمُونَ بأنهم مرضى عقلياً، وهذا ما حدث لمارثا ميتشيل (Martha Mitchell)، "كساندرا ووترغيت".[١] وهكذا، فإنّ ما نناقشه أدناه لا يتعلّق بالمؤامرات، بل بنظريّات المؤامرة.

ثمة عدد كبير من نظريات المؤامرة بشأن مجموعات تعمل في الظل ذوات دوافع شريرة يفترض أنها تسيطر على الحكومة الأميركية، أو تريد أن تخلق دولة عالمية قمعية. تفترض نظريات "حكومة الظل" و"النظام العالمي الجديد" أن القوة السياسية الحقيقية بيد المصارف المركزية، أو المنظمات اليهودية، أو الماسونيين، أو المستنيرين، أو اليسوعيين، أو المخابرات المركزية الأميركية، أو الأمم المتحدة، أو

---

١ - انظر أيضاً "Martha Mitchell effect," Wikimedia Foundation, last modified August 4, 2022, 13:56, https://en.wikipedia.org/wiki/Martha_Mitchell_effect. كساندرا في الأسطورة اليونانية كانت كاهنة طروادية مُكرَّسة للإله أبولو الذي حكم عليها بإطلاق التنبؤات الصحيحة، وفي الوقت نفسه بألّا يصدقها أحد. (م)

المنتدى الاقتصادي العالمي. في الماضي، كان (البعبع) المفضل يتمثل في الشيوعيين السوفييت، لكنْ بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، تحوّل تركيز التخيُّلات التآمرية إلى الشيوعيين الصينيّين (فيما يتعلّق باليمين) وروسيا فلاديمير بوتين (فيما يتعلّق باليسار). على سبيل المثال، يعتقد ستيوارت رودس (Stewart Rhodes)، مؤسس سَدَنة القسَم (Oath Keepers)، أن "الشيوعيين الصينيين" اخترقوا الحكومة الأميركية اختراقاً كاملاً،[1] في حين أن برنامج ريتشل ماداو (Rachel Maddow) على MSNBC تمتع بنسب مشاهدة هائلة في عام ٢٠١٧ لادعائه المتكرر بأن الحكومة الروسية هي التي تحرك خيوط رئاسة ترامب.[2]

ما سمات نظريات المؤامرة التي تميّزها من النظريات العلمية؟[3] أولاً، تكون نظرية المؤامرة غالباً غامضة بشأن دوافع القادة الذين يعملون من وراء الكواليس، أو تعطيهم دوافع يصعب تصديقها. ثانياً، تفرض أنهم يتمتعون بذكاء ومعرفة خارقين. ثالثاً، تضع السلطة في يد قائد واحد أو مجموعة صغيرة من الأفراد. وأخيراً، تفترض أن الخطط غير القانونية يمكن أن تبقى سراً فتراتٍ طويلةً وغير محدودة من الزمن. أما النظرية العلمية، مثل نظرية الهيمنة الطبقية، فهي مختلفة تماماً. دعونا نستعرض هذه النقاط الأربع بالترتيب نفسه.

أولاً، إنَّ دوافع أصحاب الثروة شفافة تماماً، فلسنا في حاجة إلى قراءة العقول لفهم أنهم يريدون زيادة ثرواتهم، لا أن يشهدوا تقلّصها. هذا،

١- "حسناً، يا للأسف! فالقضاة متواطئون، وكذلك السياسيون. لقد قوّض الحزب الشيوعي الصيني، مع دعاة العولمة، هذه الأمة، واستولوا عليها من القمة إلى القاعدة". انظر الفيديو المحظور، "أحد حراس العهد، ستيوارت رودز – 'إننا في حالة حرب أصلاً، ترامب في حاجة إلى أن يكون رئيساً في حالة حرب الآن،'" BitChute, December 13, 2020, video, 0:24, https://www.bitchute.com/video/w7ut83CCvRby.

2- Trudy Ring, "Maddow: Russians May Be Controlling Our Government," *Advocate*, March 10, 2017, https://www.advocate.com/politics/2017/3/10/maddow-russians-maybe-controlling-our-government.

٣- انظر أيضاً G. William Domhoff, "There Are No Conspiracies," Who Rules America?, March 2005, https://whorulesamerica.ucsc.edu/theory/conspiracy.html.

بالتأكيد، تبسيطٌ شديد؛ فالبشر كائنات معقدة ذوات دوافع كثيرة ومتقاطعة، فالأشخاص المختلفون يدفعُهم مزيجٌ من الأهداف المادية والمثالية، لكنَّ أحد الدوافع التي يتشاطرها أصحاب الثروة بوصفهم طبقة، يتمثل عامّةً في الرغبة في المحافظة على ثرواتهم وزيادتها. تُفرِطُ النظرياتُ (والنماذج) جميعها في تبسيط الواقع الفوضويّ، لكنّ هذا الافتراض أقرب ما يمكن الوصول إليه.

ثانياً، تضع نظرية الهيمنة الطبقية آليات يمكن التحقق منها تجريبياً تُهيمنُ بها طبقةُ الشركات على الطبقة السياسية، وهي تفعل ذلك بإنشاء لجان عمل سياسي عليا، وتموّل جماعات الضغط، وتسهم في الحملات الانتخابية للمرشحين، وتدفع بأعضاء الطبقة إلى الترشُّح بأنفسهم إلى المناصب، ويتأثر شاغلو المناصب أنفسهم بوسائل الإعلام الرئيسة، التي تملكها النخب الاقتصاديةعامّةً، ويتشاطرون فهماً عاماً لما يكون "أخباراً"، وما لا يكون، وتفاصيل التشريعات تكتبها غالباًمراكز الأبحاث وجماعات الضغط، التي تسيطر عليها، مرة أخرى، النخب الاقتصادية.

ثالثاً، ليس هناك مركز، فالنخب الاقتصادية منظمة بطريقة مختلفة جداً عن النخب العسكرية، على سبيل المثال، مع تراتبياتها المفصّلة لسلسلة القيادة والتحكم ووجود قائد أعلى في قمة الهرم. بدلاً من ذلك، يُيَسِّرُ العملَ الجماعيَّ أفرادُ شبكة السلطة الذين يكونون قد اختلطَ بعضُهم ببعض في المدارس الابتدائية والجامعات والنوادي وعلى ملاعب الغولف، ويعمل هؤلاء في مجالس إدارة الشركات معاً، ويشاركون في مختلف المجموعات والتجمعات المهنية، مثل غرف التجارة، والجمعيات الصناعية، والمؤتمرات العالمية (مثل دافوس)، وتُوضَعُ سياساتٌ ملموسة في شبكة تخطيط السياسات تتكوّن من مراكز بحثية مترابطة، ومعاهد، ومؤسسات خيرية. ومرة أخرى، ليس هناك مركز – لا قائد أعلى، ولا حلقة داخلية صغيرة. بدلاً من ذلك، تتوزع السلطة داخل شبكة غير تراتبية تتكون من آلاف الأفراد، وهناك اختلافات في الرأي، بل صراعات بين الحلقات المختلفة في الشبكة. كما أن درجةَ الوحدة والتماسُك

داخل الطبقة الحاكمة مسألة ديناميكية، فهي تتغير بمرور الوقت. وسأعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

أخيراً، هناك السرّية مقابل الشفافية. لا بد من الإقرار بأنَّ أعضاءَ الطبقة الحاكمة يحاولون في كثير من الأحيان المحافظة على ما يقومون به بعيداً عن نظر الجمهور، فهم يعيشون في مجتمعات مغلقة نسبياً، ويختلطُ بعضهم ببعض في نوادٍ نخبوية لا يتمكن العامة من الوصول إليها، لكنّ البيانات التي يستعملها علماء الاجتماع في دراسة العمليات الداخلية للطبقة الحاكمة، متاحة للجمهور، فمنظمات مثل 'أسرار معلنة' جمعت كمية كبيرة من البيانات حول نفوذ المال في الحياة السياسية والسياسات الأميركية.[1] وقد أعاد علماء الاجتماع بناء شبكة النخبة الحاكمة الأميركية بعناية شديدة – ويمكنكم مراجعة ذلك على موقع whorulesamerica.net، المورد الذي وضعه دومهوف على الإنترنت.[2]

الاختلاف الأكثر أهمية، والحاسم في الواقع، بين نظريات المؤامرة والنظريات العلمية، يتمثّل في أنّ الأخيرة تطلق تنبؤات جديدة يمكن اختبارها عن طريق البيانات، فنظرية الهيمنة الطبقية اقترحها أولاً دومهوف قبل ٥٠ عاماً، وقد مرّ وقتٌ طويل منذ ذلك الحين تمكّن فيه علماءُ الاجتماع من اختبار تنبؤاتها.

الرخاء والنفوذ

تتلخص نظرية كيفية عمل الدولة الأميركية التي تُدرَّس في المدارس على نحو أنيق بإشارة أبراهام لنكولن إلى حكومة "للشعب، من الشعب، من أجل الشعب". ويشير علماء الاجتماع إلى فكرة الحوكمة هذه على أنها "ديمقراطية

1- "Our Vision and Mission: Inform, Empower & Advocate," OpenSecrets, accessed August 10, 2022, https://www.opensecrets.org/about/.

2- "Power Elite Database," Who Rules America?, accessed August 10, 2022, https://whorulesamerica.ucsc.edu/power_elite/.

الأغلبية الانتخابية". تفترض هذه النظرية أن السياسات الحكومية تُشكَّلُ استناداً إلى الإرادة الجماعية للمواطنين العاديين، التي تُنقَلُ بعمليّة الانتخابات الديمقراطية، وتتنبأ النظرية بأن التغيرات السياساتية، مثل تشريع جديد يتبنّاه الكونغرس، ستعكس على نحو رئيس تفضيلات المواطنين العاديين، أو "المقترعين المتوسطين". على العكس من ذلك، إنَّ نظرية الهيمنة الطبقية تتنبّأ بأنّ التغيُّرات السياساتية ستعكس تفضيلات النخب الاقتصادية فحسب. من المحقّ إذاً؟

جمع عالم السياسة مارتن غيلينز (Martin Gilens) بمساعدة جيش صغير من المساعدين البحثيين، مجموعة بيانات ضخمة – نحو ألفي قضية سياساتية بين عامي ١٩٨١ و٢٠٠٢، وكانت كل قضية تتطابق مع تغيير سياساتي مقترَح في استطلاع آراء على المستوى الوطني يطرح سؤالاً عما إذا كنت تفضل/ تعارض المبادرة. وفَّرت البيانات المسحية الخام معلومات مكَّنت غيلينز من فصل تفضيلات الفقراء (في العشرية الأدنى من توزيع الدخل) والنموذجية (متوسط التوزيع) عن الأثرياء (العشرية العليا).[1]

أظهر التحليل الإحصائي لمجموعة البيانات المهمة هذه أن تفضيلات الفقراء لم يكن لها أثر في التغيّرات السياساتية، وهذا ليس مفاجئاً تماماً، أما المفاجئ فهو أنه لم يكن هناك أي أثر للناخب المتوسط في الإطلاق. لقد كان الأثر الرئيس على اتجاه التغيير بفضل التفضيلات السياساتية للأثرياء، وكان هناك أثر إضافي أيضاً لمجموعات المصالح، وأكثرها نفوذاً مجموعات الضغط التي توظفها الشركات، وحالما تُدخِل في النموذج الإحصائي تفضيلات أعلى بـ ١٠ بالمئة ومجموعات المصالح، لا يعود من الممكن تمييز أثر العامة إحصائياً من الصفر.

1- Martin Gilens and Benjamin I. Page, "Testing Theories of American Politics: Elites, Interest Groups, and Average Citizens," *Perspectives on Politics* 12, no. 3 (2014): 564–81, https://doi.org/10.1017/s1537592714001595.

وهذا لا يعني أن المواطنين العاديين يخسرون دائماً، فثمة عدد من القضايا السياساتية التي يتفقون عليها مع الأثرياء، وغالباً ما تُنفَّذ هذه التغييرات السياساتية. لكن، استناداً إلى الأدلة، فإن القضايا التي يختلف عليها العامة والنخب الاقتصادية تُسوَّى -دائماً- لمصلحة النخب. تلك هي البلوتوقراطيّة.

هذه هي نظرية ديمقراطية الأغلبية الانتخابية. دعوني أُضِفْ أنّ لهذا التحليل سمات عدّة حرَّفت النتائج ضد نظرية الهيمنة الطبقية. إننا نرغب حقاً في تمييز آثار تفضيلات الـ ١٠ بالمئة من تفضيلات الـ ١ بالمئة (بل الأفضل من الـ ٠,٠١ بالمئة). في المحصلة، فإن أفراد شبكة السلطة، الذين يُحدِّدُهم دومهوف، يشكّلون نسبةً ضئيلة من السكان، لكنَّ التدقيق على هذا النحو لم يكن ممكناً بالنظر إلى طبيعة البيانات التي تمكَّن غيلينز وفريقه من الوصول إليها. اعتبار آخر هو أنّ هذا التحليل عالج فحسب ما يسميه علماء السياسة "الوجه الأول للسلطة": قدرة المواطنين على صياغة نتائج السياسات في القضايا موضع النزاع، لكنَّ "الوجه الثاني للسلطة،" وهو تشكيل أجندة القضايا التي ينظر فيها صنَّاع السياسات، فيُعدُّ طريقة غير مباشرة، لكن قوية جداً لتحصل النخب على ما تريده. وأخيراً، فإنّ "الوجه الثالث للسلطة" يتمثل في قدرة النخب الأيديولوجية على تشكيل تفضيلات العامة.

الوجه الثالث أكثر أنواع السلطة حذاقةً، وقد يكون أخبثها، ومثالي المفضل على فعاليته هو عنصر "ضريبة الموت" الذي اخترعه أحدُ دهاقنة البروباغاندا الأذكياء، لكنِ الأشرار، في أحد المراكز البحثية، لإلغاء ضريبة الميراث على الثروات الكبرى. يحتج الناس العاديون ضد الحكومة ويطالبونها: "أبعدي مخالبك القذرة عن المال الذي سأتركه لأطفالي" دون أن يدركوا كما يبدو أنّ الضريبة المقترحة ستؤثر في كبار الأغنياء فحسب.[١]

١- انظر Michael J. Graetz and Ian Shapiro, *Death by a Thousand Cuts*: *The Fight over Taxing Inherited Wealth* (Princeton: Princeton University Press, 2006).

يُعدُّ البحثُ المتميز الذي أجراه غيلينز مثالاً ممتازاً على كيفية عمل هذا العلم. يأخذ العلماء نظريتين متنافستين أو أكثر (في هذه الحالة، الهيمنة الطبقية وديمقراطية الأغلبية الانتخابية)، ويستخلصون تنبؤات محددة منها، ومن ثم يجمعون البيانات لرؤية أي النظريات صحيحة. إن ديمقراطية الأغلبية الانتخابية نظرية جميلة، لكنْ يا للأسف، لا تؤيدها الحقائق البشعة.[1]

الهجرة

الآن، وقد اكتسبنا فهماً أفضل لكيفية عمل السلطة في أميركا، دعونا نستخدم هذا الفهم للتفكير في إحدى الأحجيات المتعلقة بالديمقراطية الأميركية: السياسات السجالية المتعلقة بالهجرة. طبقاً لعدد كبير من استطلاعات الرأي، فإن الأميركيين يعارضون بقوة الهجرة غير الشرعية.[2] هناك موقع تحقُّق إلكتروني، وهو موقع على الإنترنت لوزارة الأمن الوطني تسمح للشركات بتحديد أنظمة عمل الموظفين المحتملين، لكنْ ليس هناك تفويض اتحادي يطلب

١- كما هو معتاد في الوسط الأكاديمي، فقد خضعت مقالة عام ٢٠١٤ التي كتبها غيلينز وبيج للنقد، ولخّصها ديلان ماثيوز في مقالة بعنوان "Remember that study saying America is an oligarchy? 3 rebuttals say it's wrong," *Vox*, May 9, 2016, https://www.vox.com/2016/5/9/11502464/gilens-page-oligarchy-study. رد غيلينز وبيج على هؤلاء النقاد في **واشنطن بوست** ("Critics argued with our analysis of U.S. political inequality. Here are 5 ways they're wrong," May 23, 2016, https://www.washingtonpost.com/news/monkey-cage/wp/2016/05/23/critics-challengeour-portrait-of-americas-political-inequality-heres-5-ways-they-are-wrong/). وأخيراً، تراجعت الحجج المتعلقة بالقضايا التقنية لتفسح المجال لسلسلة من المقالات في مجالات مختلفة تتفق مع أطروحة غيلينز/بيج، وتقدم أدلة إضافية على أن السياسة الأميركية تخضع لهيمنة كبار الأثرياء.

٢- "نحو ثلاثة أرباع (٧١ بالمئة) من الأميركيين يقولون إن 'من غير المقبول' أن يهاجر الناس على نحو غير شرعي إلى الولايات المتحدة". انظر "E Pluribus Unum: Findings from the Cato Institute 2021 Immigration and Identity National Survey," Cato Institute, April 27, 2021, https://www.cato.org/survey-reports/e-pluribus-unum-findings-catoinstitute-2021-immigration-identity-national-survey.

من أرباب العمل استعماله. يعتقد كثيرون أن مثل هذا التفويض يمكن أن يكون طريقة أكثر فعالية وإنسانية للحد من الهجرة غير الشرعية من النظام الحالي. من الواضح أن ثمة عدداً من الأطراف لها علاقة بهذه القضية المعقدة، لكنْ لا بد للمرء من التساؤل حين يُطبَّق حلٌّ ينطوي على إنفاق مليارات الدولارات على أمن الحدود واحتجاز المهاجرين – مع نتائج غير مثالية، على أقل تقدير – في حينِ لم يُتبَنَّ حلٌّ ينطوي على وقف الأموال التي تجتذب المهاجرين إلى هذه البلاد في المقام الأول. "من المستفيد؟" كما كان يقول الرومان.

تكتب آنجيلا نيغيل (Angela Nagle) في مقالة "حجة اليسار ضد الحدود المفتوحة".[1]: "من 'اليميني' أن تكون 'ضد الهجرة'، و'من اليساري' أن تكون 'مع الهجرة'، لكنَّ اقتصاديات الهجرة تروي قصة مختلفة". مِنَ المُؤكَّد أنَّ الاقتصادَ واحدٌ فحسب من الاعتبارات التي ينبغي أن تسهم في وضع السياسة العامة بشأن الهجرة، فقد أصبحت هذه قضية عاطفية جداً، وكما تضيف نيغيل:

> بوجود صور بذيئة لمهاجرين يتقاضون أجوراً متدنية تطاردهم إدارة الهجرة والجمارك كالمجرمين، وآخرين يغرقون في المتوسط، والتنامي المقلق للمشاعر المعادية للمهاجرين في جميع أنحاء العالم، من السهل أن نرى لماذا يريد اليسار الدفاع عن المهاجرين غير الشرعيين بدلاً من استهدافهم وتحويلهم إلى ضحايا. وينبغي أن يدافع عنهم، لكنْ بإسناد عمله إلى دافع أخلاقي صحيح في الدفاع عن الكرامة الإنسانية للمهاجرين، فإنّ اليسار أعاد الحدود إلى الوراء كثيراً، وهذا ما أدّى فعلياً إلى الدفاع عن نظام الهجرة الاستغلاليّ نفسه.

دعونا نتابع نيغيل للنظر إلى ما يكمن تحت سطح القضايا البنيوية – الاقتصاد، لكنّ الأكثر عمقاً السلطة.

1- Angela Nagle, "The Left Case Against Open Borders," *American Affairs* 2, no. 4 (2018), https://americanaffairsjournal.org/2018/11/the-left-case-against-open-borders/.

الحجة الاقتصادية واضحة جداً، إذ إنّ الهجرة الجماعية ترفع المعروض من العمالة، الذي يؤدي بدوره إلى تخفيض كلفتها – بعبارة أخرى، تخفيض أجور العمال، ومن الواضح أن مثل هذا التطور يعود بالفائدة على مستهلكي العمالة – أرباب العمل، أو "الرأسماليين"، ويضرّ بالعُمّال.

مِنَ المُؤكَّد، كما رأينا في الفصل الثالث، أنَّ الهجرةَ من القُوى الكثيرة التي تؤثر في الأجور. يشير تحليلي الإحصائي لاتجاهات البيانات طويلة الأمد إلى أنّ الهجرة كانت مساهماً مهماً في ركود/ تراجع الأجور في الولايات المتحدة على مدى العقود الماضية، ولا سيما ما يتعلّقُ بالعمال غير الحاصلين على تعليم جامعيّ، معَ أنها ليست المساهم الوحيد.[1] ثمة سبب لتزامن أكبر موجة هجرة في التاريخ الأميركي في أواخر القرن التاسع عشر مع العصر المُذَهَّب الأول، وهي مرحلة عدم مساواة مفرطة في الدُّخول والبؤس العام يمكن أن تقارَن بعصرنا الراهن فحسب. إنّ أيَّ مُدخلات خارجية في أي نظام اجتماعي، بالتأكيد، تُـحدِثُ آثاراً عدّة، إذ إن المهاجرين إلى أميركا في العصر المُذَهَّب أغنوا هذا البلد على نحو كبير، كما يفعل مهاجرو اليوم، لكنهم خلخلوا أيضاً ميزان القوى لغير مصلحة العمال، بل لمصلحة المالكين، وهذا ما سرَّعَ مضخّةَ الثروة، وما لم تكن هناك مؤسسات قوية تحمي أجور العمال، فإنّ زيادة المعروض من العمالة سيخفض الأجور أكثر – فهذا ببساطة قانون العرض والطلب كما يتجسّد على الأرض. في كتابه المنشور عام ٢٠١٦، **أردنا عمالاً: تفكيك سردية الهجرة** (*We Wanted Workers: Unraveling the Immigration Narrative*)، يشرح عالم الاقتصاد في جامعة هارفارد جورج بورجاس (George Borjas) (وهو نفسه مهاجر) أنّ الأثرَ الرئيسَ للهجرة لا يتعلق بما إذا كانت مفيدة للاقتصاد أو عبئاً عليه، (إذ إنّ لها أثراً إيجابياً طفيفاً.) الحقيقة أنها تُنتج رابحين وخاسرين. إنَّ تدفُّقاً جماعياً للمهاجرين غير المهرة يؤدي إلى خفض

١ - انظر الفصل ١٢ في **عصور الخلاف**.

أجور العمال الأقل تعليماً المولودين في البلد، والمجموعات الأكثر هشاشة، مثل الأميركيين السود غير الحاصلين على تعليم جامعي، يتأثرون على نحو سلبيّ، لكنَّ أجورهم الأدنى تُترجَم إلى أرباح أعلى لأولئك الذين يوظّفون المهاجرين – أصحاب الشركات والمديرون.[1]

١- أود أن أعترف بأن مسألة ما إذا كانت الهجرة تخفض أجور عمال البلاد الأصليين أم لا، قضية سجالية جداً في علم الاقتصاد. يقدِّر جورج بورجاس وزملاؤه أن درجة مرونة أجور الهجرة تُراوِحُ بين ٠,٣ و٠,٤. بعبارة أخرى، حين يزيد عدد المهاجرين بمعدل ١٠ بالمئة، تتراجع أجور عمال البلاد الأصليين بمعدل ٣-٤ بالمئة. على العكس من ذلك، يجد ديفيد كارد وزملاؤه أثراً أقل بكثير، أو لا أثر على الإطلاق. انظر Alan de Brauw, "Does Immigration Reduce Wages?," *Cato Journal*, Fall 2017, https://www.cato.org/cato-journal/fall-2017/doesimmigration-reduce-wages#. يبدو أن الإجماع الحالي هو أن الحقيقة تكمن في مكان ما بين التقديرين. بعبارة أخرى، إنَّ زيادة الهجرة بنسبة ١٠ بالمئة تخفض الأجور بنسبة ٢ بالمئة. المناظرة تقنية جداً، لأن الاختلافات الصغيرة في كيفية تحليل البيانات ينتج منها تغييرات كبيرة في حجم الآثار المقدَّرة، وكثيراً ما يقرأ أنصار الهجرة الأدبيات قراءةً انتقائية لتأكيدِ عدمِ وُجودِ آثار. إحدى المقالات التي تُقتبَس بكثرة دعماً لنظرية عدم وجود أثر كتبها ديفيد كاردَ وجيوفاني بيري IZA ("Do immigrant workers depress the wages of native workers?" World of Labor, May 2014, https://doi.org/10.15185/izawol.42).

على أساس مراجعته لـ ٢٧ دراسة تجريبية، يستنتج بيري أن "معظم الدراسات المجراة على الدول الصناعية لم تجد أثراً في الأجور، وسطياً، وآثاراً متواضعة فحسب في اختلافات الأجور بين اللاجئين الأكثر والأقل تعليماً وعمال البلاد الأصليين". لكنّ تحليله لا يميز البلدان التي فيها مؤسسات حماية عمال قوية، مثل الدنمارك، من البلدان التي فيها مؤسسات حماية عمال ضعيفة، أو لا وجود فيها لمثل تلك المؤسسات أصلاً، مثل الولايات المتحدة. في قائمته للأسباب التي "قد لا يؤدي فيها وجود المهاجرين إلى الضغط على أجور عمال البلاد الأصليين،" لا يذكر مجرد ذكر الأثر المقيِّد لمؤسسات العمال في انخفاض الأجور الناجم عن العرض المفرط من العمالة. ومعظم الآليات التي يذكرها تعمل على المدى الطويل. وهكذا، فإن صدمة تسببها الهجرة لمرة واحدة من المتوقع أن تُحدث آثاراً إيجابية في أثناء خمس سنوات إلى عشر، لكنْ حين تستمر الهجرة بأعداد كبيرة على مدى عقود، فإنّ الآثار السلبية قصيرة الأجل تصبح، في جوهرها، طويلة الأمد. باختصار، ثمة قدرٌ كبير من انعدام اليقين بشأن هذه القضية، أساساً لأن الهجرة، كما أكّدتُ في متن هذا الكتاب، واحدة فحسب من القوى المؤثرة في الأجور، وقد لا تكون حتى القوة الرئيسة (انظر الفصل الثالث). قد يكونُ نقلُ الإنتاج إلى خارج البلاد أو الأتمتةُ عامِلَينِ أكثر أهمية. على مستوى آخر، قد لا تكون مسألة ما إذا كانت الهجرة تؤدي إلى انخفاض الأجور في الواقع =

كما تشير نيغيل، فإن هذه الفكرة كانت واضحة لكارل ماركس، الذي "جادل في أنّ استيراد المهاجرين الإيرلنديين ذوي الأجور المنخفضة إلى إنكلترة أجبرهم على خوض منافسة عدائية مع العمال الإنكليز، ورأى في ذلك جزءاً من نظام الاستغلال الذي قسم الطبقة العاملة، وشكّل امتداداً للنظام الاستعماري". كما كان واضحاً لأولئك الذين تأثروا سلباً – العمال ومنظماتهم:

من القانون الأول الذي يُقيّد الهجرة في عام ١٨٨٢ إلى سيزار شافيز والاحتجاج متعدد الإثنيات الشهير لعمال المزارع الموحَّدين ضد استعمال أرباب العمل للهجرة غير الشرعية وتشجيعها في عام ١٩٦٩، عارضت نقابات العمال غالباً الهجرة الجماعية، ورأتْ في الاستقدام المُتعمّد للعمال غير الشرعيين ذوي الأجور المتدنية إضعافاً لقدرة العمالة على التفاوض وشكلاً من أشكال الاستغلال. ليس ثمة مجال للالتفاف على حقيقة أن قوة الاتحادات تعتمد حسب تعريفها على قدرتها على تقييد المعروض من العمالة وسحبه، وهذا ما يصبح مستحيلاً إذا أصبح من الممكن استبدال قوة عمل كاملة بكلفة قليلة. تُشكّل الحدودُ المفتوحة والهجرة الجماعية انتصاراً لأرباب العمل.

من غير المفاجئ إذاً أنَّ النخب الاقتصادية الأميركية كانت تعي أيضاً أنّ استمرار تدفُّق المهاجرين يسمح لها بتخفيض أجور العمال وزيادة العائدات على رأسمالها. في عام ١٨٨٦، قارن أندرو كارنيغي الهجرة بـ "جدول ذهبي يتدفّق إلى

= القضية الرئيسة. الـ ١% الأكثر ثراءً والطبقة العاملة كلاهما يعتقد أنها تُسبِّب ذلك، وهذا ما يخلق "واقعاً اجتماعياً" قائماً بذاته. فكرة أخيرة: حين يشير ممثلو الطبقة الحاكمة في وسائل الإعلام الرئيسة وفي المؤسسات البحثية إلى تحليلات غامضة للاقتصاديين (وهم أنفسهم جزءٌ من الطبقة الحاكمة، الـ ١٠% الحاملة للشهادات)، فإنَّ هذا غير مقنع على الإطلاق للناس العاديين، الذين يعرفون "بحدسهم" أنّ زيادة المنافسة التي يُشكّلها المهاجرون تؤدّي إلى تراجع رفاهيتهم الاقتصادية، وتتمثل أفضل طريقة تظهر الطبقة الحاكمة بها للطبقة العاملة أنّ الهجرة لا تؤدي إلى انخفاض أجورهم في إعادة إدخال الأجور المتوسطة في نظام النمو، كما كانت قبل موجة الهجرة الحديثة، التي ستُحدث زيادات موازية أيضاً في حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي (وفي إنتاجية العامل).

البلاد كل عام".[1] في القرن التاسع عشر، استعملت الشركات غالباً الدولة الأميركية لضمان استمرار تدفُّق هذا "الجدول الذهبي". لنتذكّر أنه في عام ١٨٦٤ (في أثناء إدارة لنكولن)، مرّرَ الكونغرس قانونَ تشجيع الهجرة، وكان أحد بنوده ينص على تأسيس مكتب الهجرة الاتحادي الذي يهدف صراحةً إلى "تطوير قوة عمل 'فائضة'". أمّا قادة الأعمال اليوم فهم أكثرُ حذراً.

وبالكشف عن جوهر الحجة الرئيسة التي تقدمها نيغيل، يتبين أن العولمة تفرضها النخب الحاكمة لزيادة سلطتها على حساب غير النخب. إنها مضخة ثروة أخرى تأخذ من العمال لتعطي "أرباب العمل". كما أنها مضخة ثروة عالمية تنقل الثروة من العالم النامي إلى المناطق الغنية، إذ إن بعض الثروة الفائضة تَحوَّل لاحقاً إلى سلطة سياسية كُبرى للشركات الكُبرى. إضافةً إلى ذلك، فإنّ العداوة بين العمال من أهل البلاد والعمال المهاجرين تقلِّص قدرتهم على تنظيم أنفسهم، ونتيجة لذلك، تجادل نيغيل:

> لقد أصبح الناشطون ذوو النوايا الطيبة اليوم الحمقى المفيدين للشركات الكبرى، فبتبنيهم ومناصرتهم لـ "الأبواب المفتوحة" – والحجج الأخلاقية المطلقة والشرسة التي تَعُدُّ أيَّ قيد على الهجرة شراً مستطيراً – يصبح أي انتقاد للنظام الاستغلالي للهجرة الجماعية شكلاً من أشكال التجديف فعلياً.

"ما هو كائن" و"ما ينبغي أن يكون"

بالابتعاد عن السؤال المحدَّد المتعلق بمن يحكم أميركا، في العلم – وفي الحياة – من المهم تمييز "ما هو كائن" من "ما ينبغي أن يكون،" وعدم السماح للثانية بحجب الرؤية عن الأولى. إن علماء الاجتماع، مثل دومهوف وغيلينز، الذين أثبتوا أن ديمقراطيتنا ليست الديمقراطية التي تُدرَّس في صفوف الثقافة المدنية، ليسوا معادين للديمقراطية. على العكس تماماً. إنهم مدفوعون برغبة

---

١ - مقتبس في Kitty Calavita, *U.S. Immigration Law and the Control of Labor*: 1820–1924 (London: Academic Press, 1984), 49.

لجعل مجتمعنا يعملُ على نحو أفضل، والطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن نجعل الأمور أفضل تتمثل في فهم كيفية عملهم الحقيقية، وليس بفرض فكرة مُتصوَّرة مسبقاً للكيفية التي ينبغي لهم العمل بها. إنَّ قولَ هذا أمرٌ واضح. لكن ينبغي أن يقال، لأن العلماء الذين أنجزوا اكتشافات غير سارة اضطُهدوا، فقد تعيَّن على غاليليو التراجُع عن نظرياته، في حين أنّ غيوردانو برونو (Giordano Bruno)، حُرق على الخازوق، واليوم، يُمكِنُ أن يُوصَمَ عالمٌ يكتشف حقيقة غير مستساغة بأنه ناشر لـ "حقائق الكراهية". الأمر الأقرب إلى موضوعنا، هو أن أولئك الذين يكشفون آليات عمل الطبقة التي تحكمنا يخاطرون بأن يُتَّهموا بأنهم "محاربون طبقيّون".

الفصل السادس

ما الذي يجعل أميركا بلوتوقراطية؟

الاستثنائية الأميركية

إنّ درجةَ هيمنة النخب الاقتصادية على الحكومة في الولايات المتحدة استثنائيةٌ مُقارنةً بالديمقراطيات الغربية الأخرى، فدول مثل الدنمارك والنمسا فيها طبقات حاكمة تستجيب جيّداً إلى رغبات السكان. في حقبة ما بعد الحرب، حكم هذه الدول أحزاب يسار وسط قوية، مثل الديمقراطيين الاجتماعيين والاشتراكيين، وتداولتْ أحزابُ يسار الوسط السُّلطةَ مع أحزاب يمين الوسط، لكنْ كان هناك توافق قوي على دولة الرفاه الاجتماعي تتشاطره النخب الحاكمة على نطاق واسع في الديمقراطيات الأوروبية الغربية. تحتل دول مثل الدنمارك والنمسا عادةً المواقع العُليا حين تُصنَّف الدول الأعضاء في الأمم المتحدة طبقاً لقدرتها على توفير حياة ذات جودة عالية لمواطنيها، وحتى وقت قريب، قاومت النزعة السائدة عالمياً في اتجاه انعدام المساواة الاقتصادية على نحو متزايد. وعلى كثير من مؤشرات جودة الحياة، مثل متوسط العمر المتوقع، والمساواة، والتعليم، فإن الولايات المتحدة تأتي في مراتب متأخرة في العالم الغربي. لماذا؟

يكمن التفسير في آثار التاريخ والجغرافيا.[1] وثمّةَ عاملانِ رئيسانِ مُهمّانِ خُصوصاً، هما البيئة الجيو سياسية، والعرق/ الإثنية.

من أجل فهم الأصول التاريخية والجغرافية للبلوتوقراطية الأميركية، دعونا نبدأ بجولة قصيرة في تاريخ أوروبا الغربية في القرون الخمسة الماضية. قبل عام

---

١ - ما يأتي من نقاش يدمج تبصُّرات من جي. وليام دومهوف (G. William Domhoff)، وتشارلز تيلي (Charles Tilly)، وعالم الاجتماع مايكل مان (Michael Mann).

١٥٠٠، كان في أوروبا أكثر من ٥٠٠ دولة ودويلة، وبعضها صغير جداً، مثل المدن الإمبراطورية الحرة والإمارات المستقلة. ما عدا دولة دينية واحدة (الدولة البابوية)، فإن هذه الكيانات السياسية كانت تحكمها إما نخب عسكرية، وإمّا نخبٌ مالية (بلوتوقراطيات). كانت البلوتوقراطيات شائعة خصوصاً في المناطق الأكثر تحضُّراً الواقعة في وسط أوروبا، من إيطاليا إلى وادي الراين، ثم الدول الواقعة على ساحل بحر البلطيق، وتشمل الأمثلة النموذجية جمهوريات المدن في شمال إيطاليا وأعضاء الرابطة الهانزية (Hanseatic League) التي كانت تسيطر على تجارة بحر البلطيق.

وفي القرون الأربعة التالية، أعيد تشكيل هذا المشهد الجيوسياسي كاملاً. أولاً، تقلَّص العدد الإجمالي للدول في أوروبا جذريّاً، من أكثر من ٥٠٠ إلى نحو ٣٠. ثانياً، اندثرت معظم البلوتوقراطيات، وابتلعتها الدول التي تحكمُها نخبٌ عسكرية. والسبب؟ كلمتان: الثورة العسكرية.[١]

شهدت الأسلحة التي تستعملُ البارودَ تطوراً سريعاً في القرن الخامس عشر، وبحلول عام ١٥٠٠ كانت قد غيّرت طبيعة الحرب جذرياً. تقدُّم تكنولوجي مهم آخر تمثل في تطوير السفن العابرة للمحيطات التي وسَّعت كثيراً الامتدادَ الجغرافي لإمبراطوريات البارود الجديدة.[٢] كانت أوروبا رائدةً في هذه التطورات، وهذا ما يُفسّر سبب تحقيق أوروبا مع وليدتها في أميركا الشمالية هيمنةً عالمية بحلول عام ١٩٠٠. إن ظروف الحرب المكثفة تميل لمصلحة الدول الكبرى والأكثر تماسُكاً. لم يعد في إمكان الإمارات والدول المدن أن تختبئ وراء جدرانها، التي بات يمكن دكُّها بالمدافع بسهولة. استأصلت المنافسة العسكرية المكثفة بين الدول الأوروبية تلك الدول التي لم تتمكن من حشد جيوش كبيرة؛ وإنتاج

١- لمراجعة المزيد عن "الثورة العسكرية" في القرن الخامس عشر، والثورات العسكرية الأخرى التي سبقتها، انظر كتابي القادم *The Great Holocene Transformation*.

٢- وهكذا، يُستحسن أن تسمى الثورة العسكرية التي وقعت نحو عام ١٥٠٠ ثورة السفن الحربية. انظر Peter Turchin, "A Theory for Formation of Large Empires," *Journal of Global History* 4, no. 2 (2009): 191–217, https://doi.org/10.1017/s174002280900312x.

البنادق والمدفعية بكميات كبيرة؛ وبناء تحصينات حديثة مكلفة يمكن أن تصمد أمام نيران المدافع. كما أحدثت الثورة العسكرية ثورة في الحوكمة والتمويل، لأن الدول الناجحة تعيَّن عليها تعلُّم كيفية جمع الثروة واستخدامها بجدارةٍ من سُكّانها، وكما كان الرومانُ قبلَ ألفي سنة يُحبُّونَ القول: "المال عصب الحرب".[1] ونتيجة لذلك، تطورت النخب العسكرية القروسطية إلى طبقات حاكمة جمعت الوظيفتين العسكرية والإدارية.

مع أنّ معظم البلوتوقراطيات اندثر بسرعة، فإن بعضها استمرَّ مُدّةً أطولَ ممّا استمرَّ غيرُه، فجمهورية البندقية الواقعة على جزر تحميها القنوات المائية، استمرت مُدّةً أطول ممّا استمرّتْ دُوَلُ مُدُنٍ إيطالية أُخرى. واستمرت هولندا إلى القرن الحادي عشر، جزئياً بفضل ممراتها وقنواتها المائية، التي جعلت العمليات العسكرية الهجومية ضدها صعبة.

وتُعدُّ إنكلترة الحالةَ الأكثرَ إثارةً للاهتمام، فقد نشأت في ظلّ الحكم النورماندي بعد عام ١٠٦٦ بصفتها دولة نموذجية تحكمها نخبة عسكرية قروسطية، لكن بفضل موقعها المحميّ في الجزر البريطانية، حالما احتلتها إنكلترة جميعاً، أصبح في إمكانها، وقد فعلت ذلك، التخلُّص من الجيش الدائم (على الأقل داخل إنكلترة نفسها). طبقة الملاكين المتوسطين، التي بدأت بصفتها طبقة عسكرية، فقدت تدريجياً طبيعتها العسكرية، وأصبحت ببساطة طبقةً من ملّاك الأرض، كان ينتخب منها أعضاء البرلمان البريطاني، وتطوّرت طبقة تجارية كبيرة، بفضل الإمبراطورية العالمية التي أقامتها بريطانيا. على عكس القوى الأوروبية العظمى الأخرى، التي تعيَّن عليها توجيه معظم مواردها إلى الجيوش الأرضية، أو أن تُهزَم، وجَّهت الإمبراطورية البريطانية مواردها إلى الأسطول، ونتيجةً لذلك، باتت تحكم المملكةَ المتحدةَ نخبةٌ جمعت الوظيفتين الاقتصادية والإدارية.

١- ورد أصل هذا المقتبس في Cicero's Fifth Philippic التي يمكن مراجعتها على موقع مشروع غوتنبيرغ: https://www.gutenberg.org/files/11080/11080-8.txt.

وكانت الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة في حقبة ما قبل الحرب نتاجاً مباشراً لطبقة ملّاك الأراضي الإنكليزية، ففرجينيا، وكارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية، وجورجيا استوطن فيها 'الكافاليير'، وهم الفصيل الذي دعم الملك تشارلز الأول الذي خسر الحرب الأهلية الإنكليزية، وقد أحضر هؤلاء معهم أساليبهم الأرستقراطية وخدمَهم الملتزمين بخدمتهم، وسُرعان ما استُبدل هؤلاء الأخيرون بالأفارقة المستوردين، المستعبدين مدى الحياة. وبعد أن انتصروا في الحرب الثورية ضد الإمبراطورية البريطانية، شرع المنتصرون في بناء دولتهم الخاصة بهم. نقل أصحاب المزارع الجنوبيون والتجار الشماليون إلى حدٍّ كبير الأشكالَ الثقافية للحكم التي كانوا يألفونها، فقد كانت الجمهورية الأميركية الأولى أوليغاركية بُنيت وَفْقَ نموذج المملكة المتحدة، على الرغم من أنها كانت دون ملك (الذي كان في هذا الوقت في طريقه ليصبح شخصية رمزيّة في الإمبراطورية البريطانية فيالأحوال كلها). ونتيجةً لذلك، ورثت الولايات المتحدة البلوتوقراطية بوصفها جزءاً من "بنيتها الوراثيّة الثقافيّة".

بالتأكيد، لم تصبح الولايات المتحدة دولةً كبيرةً تمتدُّ على مساحة واسعة في لحظة من لحظات الشرود، فمنذ تأسيس المستعمرات الأوروبّية الأولى في القرن السابع عشر، حتى نهاية القرن التاسع عشر، حدث التوسُّع الجغرافي على حساب الأميركيين الأصليين في صراع وصل إلى درجة من الحدَّة ترقى إلى الإبادة الجماعية، كما قاتلت أميركا ضد البريطانيّين (في أثناء الثورة، ومرّةً أخرى عام ١٨١٢). في الحرب المكسيكية– الأميركية (١٨٤٦-١٨٤٨)، ابتلعت الولايات المتحدة نحو نصفَ المكسيك.

لكنْ لمّا أطاحت البلوتوقراطيةُ التجاريةُ بالطبقة التي حكمت قبل الحرب في الحرب الأهلية، اكتملت عملية التوسع القاري هذه تقريباً. (أصبحت الجبهة جزءاً من الماضي، وحوصر الأميركيون الأصليون في محميات بحلول عام ١٨٩٠.). لم تكن المكسيك، ولا كندا تُشكّلان خطراً على الولايات المتحدة. إنّ أميركا الشمالية جزيرةٌ عملاقة محمية من أيِّ تهديدات محتملة بخندقين مائيين هائلين – المحيط

الأطلسي والمحيط الهادي. النخبة العسكرية التي كانت في الولايات المتحدة دُمِّرت في الحرب الأهلية، التي قاتلت فيها الأغلبية الساحقة من الضباط الأميركيين المحترفين على الجانب الخاسر، وكان الجهاز البيروقراطي، قبل عام ١٩١٤، صغيراً جداً، بالنظر إلى أنّ ٢ بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي كان يذهبُ إلى الحكومة الاتحادية. على كل حال، إنَّ الجهاز الإداري، في حالته تلك، كان واقعاً كلّه تحت هيمنة البلوتوقراطية، وبفضل "نظام الغنائم" سيّئ السمعة، استُبدل معظم المسؤولين الاتحاديين بين عامي ١٨٢٨ و١٩٠٠ **(**حتى مسؤولي البريد المحليين**!)** من الطرف الذي فاز في الانتخابات.

في سنوات تشكُّلها في حقبة ما بعد الحرب، لم يكن للبلوتوقراطية خصوم مُهمّون، سواء أكانوا داخليين أم خارجيين. وحالما ترسّخ حكمها، أصبح صعباً جداً إزاحتها دون ثورة اجتماعية، وهكذا، فإن نشوء البلوتوقراطية الأميركية يمكن تفسيره غالباً بالاستناد إلى سوابقه التاريخية وظروفه الجغرافية، لكنَّ استمرار بقائها وازدهارها، حتى القرن الحادي والعشرين، يعود إلى درجة كبيرة إلى السبب الثاني، أي العرق والإثنية.

وهكذا، أَكَلَ جيم كرو

لجعل هذه المقولة أكثر تجسيداً، دعونا نقارن أميركا بالدنمارك. في القرن التاسع عشر، نشأت عن التصنيع في الدنمارك، كما في دول أوروبية أخرى، طبقة عاملة تركزت في معامل كبيرة، وهذا ما جعل تنظيم العمال أكثر كفاءة. وأُسِّسَ أول حزب اجتماعي ديمقراطي في كوبنهاغن في عام ١٨٧١ على أيدي لويس بيو، وهارالد بريكس، وبول غيليث، الذين أصبحوا معروفين بالثالوث المقدس لحركة العمال الدنماركية. وكانوا جميعاً من خلفيات غير نخبوية، فقد كان بيو ابن مزارع غير مالك للأرض، في حين كان الآخران من "البورجوازية الصغيرة". لكنهم حصلوا على تعليم جيّد، وقرؤوا كثيراً من أعمال ماركس، وعملوا مُحرِّرين وناشرين. دخل الحزب الديمقراطي الاجتماعي البرلمان الدنماركي أول مرة عام

١٨٨٤، وفي عام ١٩٢٤، أصبح أكبرَ حزب في البلاد، إذ حصل على ٣٧ بالمئة من الأصوات، وأصبح زعيمه، ثورفالد ستوننغ (Thorvald Stauning)، (من خلفية عمالية)، رئيساً للوزراء. حكموا لفترة برلمانية واحدة فقط، واستُبدلوا مؤقتاً بالليبراليين، لكنْ في عام ١٩٢٩ عادُوا إلى السلطة، وهكذا، استغرق الأمر ٦٠ عاماً كي ينتقل الديمقراطيون الاجتماعيون من نخب مضادّة إلى نخب راسخة.

في حين كان بيو، وبريكس، وغيليف، راديكاليين متشددين، فإنّ ستوننغ أتقن فنَّ الحوار، وجمع بين الأفكار الراديكالية والليبرالية، وتوصل إلى تسوية مع المعارضة. في عام ١٩٣٣، تفاوض ستوننغ على اتفاقية كانسلرغيد (Kanslergade Agreement) التي وضعت أُسُسَ ما أصبح يُعرف بالنموذج النوردي. وكانت السمة الرئيسة للنموذج النوردي تتمثّل في التعاون الثلاثي بين العمال، ورجال الأعمال، والحكومة، والعمل معاً من أجل المصلحة العامة. معَ أنّ كل دولة نوردية اتبعت مسارها الفريد نحو الديمقراطية الاجتماعية، لكنَّ الدنمارك وفّرت نموذجاً وإلهاماً للدول الأخرى.[١] أثبت النموذج النوردي أنه طريقة ناجحة جداً في تمكين المجتمعات من توفير حياة ذات جودة عالية لأفرادها، وحديثاً في الولايات المتحدة، أشار مفكرون من يمين الوسط (مثل فرانسيس فوكوياما) وسياسيون يساريون تقدميّون (مثل بيرني ساندرز) إلى الدنمارك بوصفها نموذجاً يُحتذى به.

اتبعت الولاياتُ المتحدة مساراً مماثلاً مُدّةً من الزَّمن. على الرغم من أن الحزب الشعبوي (حزب الشعب) والأحزاب الاشتراكية التي ظهرت في أميركا في تسعينيات القرن التاسع عشر لم تصل إلى السلطة، لكنَّ أثرها في السياسة الأميركية التقليدية لا يمكن إنكاره. كان أحد الأحزاب الرئيسة، الحزب الديمقراطي، قد أصبح حزباً اجتماعياً ديمقراطياً زائفاً بقيادة فرانكلين روزفلت، ونتيجةً للإصلاحات التي اعْتُمِدَتْ في أثناء الحقبة التقدمية والصفقة الجديدة،

١ - أنا مدين لدينا ويتوشيك (Nina Witoszek) على هذه التفاصيل حول أصول النموذج النوردي.

أصبحت الولايات المتحدة في كثير من الأوجه "دولة نوردية". سأناقش هذا المسار بتفصيل أكثر لاحقاً في هذا الفصل، لكنْ دعونا نتحدث هنا عن السبب الكامن وراء افتراق مسار الدنمارك عن مسار الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن العشرين.

يتمثل جزء كبير من الجواب في المسألة العرقية، فقد كان العرق من القضايا الأكثر أهمية في السياسة الأميركية، منذ بداياتها حتى اليوم، ولأهميتها، سُيِّسَتْ وأُدْلِجَتْ إلى درجة كبيرة. ومع أنّ الحزب الديمقراطي، كما قلت قبل قليل، في فترة حكم فرانكلين د. روزفلت يمكن أن ينظر إليه على أنه حزب الطبقة العاملة، علينا أن نضيف محدِّداً مهماً، فقد كان حزباً للطبقة العاملة البيضاء. ومن أجل تمرير أجندته، تعيّن على فرانكلين د. روزفلت أنْ يتوصّل إلى صفقة الشيطان مع النخب الجنوبية، التي جعلت الجنوب غير قابل للتوصُّل إلى صفقة ثلاثية بين العمال، وأصحاب الأعمال، والحكومة التي شكّلتها إدارة روزفلت، وعلى نحو خاص، تُرك نظام الفصل العنصري في الجنوب على حاله، فأقصي العمال السود، ولا سيما في الجنوب، عن العقد الاجتماعي للصفقة الجديدة. وكما تكتب هاذر كوكس ريتشاردسون (Heather Cox Richardson)، في كتابها **كيف انتصر الجنوب في الحرب الأهلية** (*How the South Won the Civil War*):

> وهكذا أعيد ترسيخ المفارقة الأميركية الأصلية المتمثلة في الحرية القائمة على عدم المساواة. حكمت تلك الاستعادة على الملونين بعدم المساواة، لكنها قوَّضت أيضاً قدرة الأوليغاركات على تدمير الديمقراطية. كان ذوو البشرة السوداء والبُنّيّة أدنى مكانةً، ومن ثم لم يكن بوسع الرجال الأثرياء أن يجادلوا بإقناع في أنهم يسيطرون على الحكومة من أجل إعادة توزيع الثروة وتدمير الحرية. ومع نزع أنياب هذه الحجة، استعمل الأميركيون البيض الحكومة للحد من الثروة والسلطة، ومن رئاسة ثيودور روزفلت في مطلع القرن العشرين إلى رئاسة فرانكلين د. روزفلت بعد ٣٠ عاماً، نظَّم التقدميُّون الاقتصاد، وحموا الرفاه الاجتماعي، وعزّزوا البنية التحتية الوطنية. مع ذلك

فإن النشاط الحكومي ميَّز الرجال البيض على النساء وعلى الملوّنين، حتى برامج الصفقة الجديدة في مرحلة الكساد، التي صُمِّمت لرفع الفقراء من حالة البؤس، وفي الوقت نفسه كبح جماح الرأسمالية المنفلتة من أي قيود، حافظت على الفوارق بين النساء والرجال، والسود والبُنّيّين والبيض.[1]

في العقدين اللذين تليا الحرب العالمية الثانية، بدأ هذا الوضع بالتغيّر، إذ خلق النمو الاقتصادي القوي ما يكفي من الرخاء لتعويمالقوارب جميعها؛ ونشأ شعورٌ بالوحدة الوطنية ضدّ إقصاء الملونين؛ ووفّرت الخصومة الأيديولوجية بين خصوم الحرب الباردة دفعةً إضافية. (كان التذكير الدائم في الدعاية السوفييتية بانتشار العنصرية في الولايات المتحدة أمراً محرجاً.) حركة الحقوق المدنية، التي غذّتها هذه الظروف، أصبحت قوةً لا تُقاوَم من أجل التغيير الاجتماعي.

لكنَّ التوسيعَ التدريجي للعقد الاجتماعي ليشمل العمال السود وفَّر فرصةً لأولئك البلوتوقراطيين الذين لم تعجبهم أميركا بوصفها بلداً نوردياً زائفاً قُيِّدت فيه سلطتهم بمجموعتَي المصالح الأُخْرَيين: العمال والدولة، واستعملوا الحزب الجمهوري أداةً للدفع بأجندتهم الخاصة، بهدف تفكيك حمايات العمال وتخفيض الضرائب على الأثرياء. وترجمَ الأجندةَ إلى إجراءات سياسيون مثل باري غولدووتر (Barry Goldwater)، وريتشارد نكسون (Richard Nixon)، في البداية، ولاحقاً على يد رونالد ريغان (Ronald Reagan)، بصفتها "الإستراتيجية الجنوبية،" التي كان هدفها جعل الحزب الجمهوري الحزب المهيمن في الولايات الكونفدرالية السابقة عن طريق اجتذاب الناخبين البيض الجنوبيين باستعمال القضايا العرقية صراحةً أو ضمنياً.

ما كان لمثل تلك الإستراتيجية أن تنجح في الدنمارك، الذي كان بلداً متجانساً عرقياً وثقافياً، لكنْ في الولايات المتحدة، كانت الطبقة العاملة منقسمةً

1- Heather Cox Richardson, *How the South Won the Civil War*: *Oligarchy, Democracy, and the Continuing Fight for the Soul of America* (New York: Oxford University Press, 2020).

عرقياً إلى بيض، وسود، وبُنّيّين، وكما قالَ الرُّومان القدماء، فرِّقْ تَسُدْ. في كتابها **مجموعنا (***The Sum of Us***)**، تكتب هذر ماغّي **(**Heather McGhee**)**:

في تاريخ العمل الصناعي الأميركي الممتد إلى مئتي عام، لم يكن هناك أداة تُستعمَل ضد التفاوض الجماعي أقوى من قدرة أرباب العمال على تقسيم العمال حسب النوع الاجتماعي، أو العرق، أو الأصل، وإثارة الشكوك والتنافس بين مختلف المجموعات. الأمر بسيط: إذا كان ربّ عملك يستطيع توظيف شخص آخر بأجور أقل، أو تهديدك، فإنّ قُدرتَك على التفاوض تكونُ أضعف. في القرن التاسع عشر، كانت قدرة أرباب العمل على دفع أجور للعمال السود تُشكّل جزءاً ضئيلاً من أجور العمال البيض تجعلُ هؤلاء الأخيرين يشعرون بأنّ السود يُشكّلون تهديداً لسُبلِ عيشهم. وفي مطلع القرن العشرين، أضيف المهاجرون الجدد إلى الديناميكية التنافُسية، وكانت النتيجة لعبة صفرية: ربّ العمل حقق المزيد من الأرباح؛ وحصلت إحدى مجموعتَي العمال على عمل جديد أسوأ، وحُرمت المجموعة الأخرى من أيّ عمل. في سنوات الحرب، كان الرجال يحتجُّون على توظيف النساء، وكان التنافس بين المجموعات الديموغرافية جميعها السمةَ المميزة لسوق العمل الأميركي، لكنَّ هذا التقسيم إلى طبقات كان لمصلحة ربّ العمل فقط.

فهمَ مُنظِّمو العمال الأوائل جيداً نقطةَ الضعف المحتملة هذه لدى الطبقة العاملة، وكان من هذه المنظمات 'فرسان العمل' **(**Knights of Labor**)**، أول منظمة عمّالية جماعية في الولايات المتحدة:

لّما بدأ الفرسان بتنظيم أنفسهم في سنوات إعادة الإعمار الهشّة، كانوا يستقدمون العمال من الألوان جميعاً نتيجةَ اعتقادهم بأنّ إقصاء أي مجموعة عرقية أو إثنية يعودُ إلى مصلحة أرباب العمل. وكتبت الجريدة الرسمية للفرسان في عام ١٨٨٠: "لماذا يبقي العمال أي شخص خارج المنظمة يمكن

أن يستعمله ربُّ العمل أداةً لتخفيض الأجور؟" مع وجود العمال السود في الاتحاد، حقّق العمالُ البيض مكاسبَ بحرمان أرباب العمل من شريحة سكانية يمكن لهم أن يستغلوها لتخفيض الأجور أو كسر الإضرابات؛ وفي الوقت نفسه، كَسْب العمال السود بالعمل والاستفادة من أيّ مكاسب يحققها الاتحاد. كما ضمّ الفرسان النساءَ إلى صفوفهم. صحفيّ في تشارلستون، ساوث كارولاينا كتبَ في عام ١٨٨٦ عن نجاح الفرسان في تنظيم أعضائهم في تلك المدينة: " لمّا كان كلُّ شيء آخر قد أخفق، فإنَّ رابطَ الفقر وحَّدَ الميكانيكيين والعمال البيض والملوّنين".[1]

كان فرسان العمل جزءاً من حركة شعبوية أكبر تحدَّت البلوتوقراطية الأميركية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وكما يُوثِّق توماس فرانك (Thomas Frank)، في أحدث كتبه، **الشعب، لا: تاريخ موجز لمعاداة الشعبوية** (*The People, No: A Brief History of Anti-Populism*)، فإن المثل الأعلى للشعبويين كان العمل السياسي الطبقي الذي يشمل الفئات العرقية. لكنَّ الحركةَ الشعبوية أخفقت بوصفها حركةً ديمقراطية جماهيرية. لماذا؟ يتمثل أحد الأجوبة فيما قدّمه مارتن لوثر كينغ جونيور. في خطاب ألقاه في ختام مسيرة ١٩٦٥ من سيلما إلى مونتغمري، ألاباما، أعطى كينغ المشاركين معه في المسيرة درساً قصيراً في التاريخ. تحدّث كيف أنّ حزب الشعب حاول توحيد الجماهير البيض الفقيرة والعبيد السود السابقين في كتلة انتخابية من شأنها أن تهدد مصالح الطبقة الحاكمة، لكنّ البلوتوقراطيين "أخذوا العالم، وأعطوا الرجل الأبيض الفقير جيم كرو":

ولمّا صرخت معدته الفارغة طالبةً الطعام الذي لم تستطع جيوبه الفارغة توفيره، (نعم يا سيدي) أكل جيم كرو، وهو طير نفسي أخبره بأنه مهما كان فقيراً،

1- Heather McGhee, *The Sum of Us*: *What Racism Costs Everyone and How We Can Prosper Together* (New York: One World, 2021).

فإنه كان على الأقل رجلاً أبيض، وأفضل من الرجل الأسود. (نعم يا سيدي) أكل جيم كرو. (أها ها).[1]

عكس نزعة الحقبة التقدمية

كيف يساعدنا كلُّ هذا في تفسير نتائج تقصّينا لمن يحكم أميركا؟ أولاً، دعونا نتجنّب تحميل المسؤولية للأغنياء. النخب الاقتصادية ليست شريرة – أو، على الأقل، نسبة الأشرار فيها لا تختلف كثيراً عن نسبتها في الشرائح الأخرى من السكان. إنهم مدفوعون بمصلحتهم الذاتية، حتى أمثال الأم تيريزا، إذا كانوا غير موجودين بين أفراد الطبقة الحاكمة، فإنهم نادرون بين مجموع السكان أيضاً. إضافةً إلى ذلك، نعرفُ أنّ كثيرين بين أفراد مجموعة الـ ١ بالمئة لديهم دوافع تتجاوز المصلحة الذاتية قصيرة الأمد. نِك هانور (Nick Hanauer)، ليس وحيداً؛ فثمة مجموعة من "أصحاب الملايين الوطنيين" يقيمون حملة لرفع الضرائب عن الأغنياء جداً منذ عام ٢٠١٠.[2] وأصحاب المليارات جميعاً تقريباً يتبرّعون لما يعدُّونها قضايا مستحقّة (مع أنه قد يكون هناك بعض التبعات غير المقصودة في ذلك، سنُناقشها لاحقاً). أخيراً، في حين أن التاريخ حافل بأمثلة على نخب أنانية أوصلت البلدان التي حكمتها إلى الحضيض، هناك أيضاً أمثلة على نخب حريصة على الناس تتغلب على الأزمات، وتُعيدُ بناءَ التعاون الاجتماعي، وهذا مثال على ذلك.

على الرغم من أنّ النظام السياسي الأميركي يخضع لهيمنة نخب الشركات منذ الحرب الأهلية، لكنَّ هذه النخب في بعض الحقب التاريخية عملتْ لمصلحتها، وفي أوقات أُخرى نفّذت سياسات عادت بالفائدة على المجتمع برمته، حتى على حساب مصالحها الخاصة على المدى القصير، ومن السهل نسبياً فهم

1- Thomas Frank, The People, No: A Brief History of Anti-Populism (New York: Metropolitan Books, 2020).

العبارات بين الأقواس في هذا الاقتباس تعبّر عن تدخلات تشينغ الخطابية.

2- Patriotic Millionaires, accessed August 10, 2022, https://patrioticmillionaires.org/.

الفترات التي صاغ فيها الأثرياء والأقوياء الأجندة السياسية على نحو يناسب مصالحهم، كما حدث في العصر المُذَهَّب، لمّا ازداد عدم المساواة الاقتصادية بقفزات. لكنْ كيف يمكن أن نفسّر سياسات حقبة الاضمحلال العظيم، التي دامت تقريباً من ثلاثينيات القرن العشرين إلى سبعينياته، التي انخفض في أثنائها عدم المساواة في الدخل والثروة؟ ما الذي سبّب عكس تلك النزعة التي أنهت العصر المُذَهَّب، وأطلقت الانكماش العظيم؟

تشير التقصّيات في دراسات الحالات التاريخية إلى أن الدور الرئيس في حالات عكس هذه النزعات تلعبه فترات طويلة من انعدام الاستقرار السياسي الدائم. في بعض الأحيان، تنتهي بثورات اجتماعية، أو انهيار دول، أو حروب أهلية دموية، لكنْ في حالات أخرى، شعرت النخب أخيراً بالرعب بسبب العنف والفوضى المتواصلين، وأدركتْ أنها في حاجة إلى التعاضد، وإلى قمع خصوماتها الداخلية، والانتقال إلى طريقة أكثر تعاونيّة في الحكم.

شكَّل العقدان اللذان أحاطا بعام ١٩٢٠ وقتاً مضطرباً جداً في الولايات المتحدة.[١] كانت صراعات العمال قد أصبحت أكثر دموية وتواتراً منذ العصر المُذَهَّب، ووصلت إلى ذروتها في "السنوات العشر الأولى العنيفة" ومطلع العشرينيات. في عام ١٩١٩، شارك نحو أربعة ملايين عامل (٢١ بالمئة من القوى العاملة) في إضرابات عن العمل وأعمال تعطيل أخرى تهدف إلى إجبار أرباب العمل على الاعتراف بالنقابات والتفاوض معها، وكان أسوأ حادث في التاريخ العمالي للولايات المتحدة معركة بلير ماونتن (١٩٢١). معَ أنّ المعركةَ بدأت بنزاع عماليّ، لكنّها تحوّلت في النهاية إلى أكبر تمرُّد مُسلّح في تاريخ الولايات المتحدة، إلّا الحرب الأهلية. قاتلَ ضدَّ العمال الذين انتهكوا الإضرابات ورجال الشرطة، الذين كانوا يعرفون بلوغان دفيندرز (Logan Defenders) ما بينَ عشرةِ آلافٍ وخمسةَ عشرَ ألفَ عاملِ منجمٍ مُسلَّحينَ بالبنادق، وتعيَّن على جيش الولايات المتحدة التدخُّل لإنهاء التمرُّد.

---

١ - التفاصيل في الفصل العاشر من **عصور الخلاف**.

تشابكت القضايا العرقيّة بالقضايا العمالية، وفي كثير من حوادث العنف السياسيّ في هذه الفترة، من المستحيل فصل مجموعتَي القضايا. في أعمال شغب إيست سانت لويس في عام ١٩١٧، قُتل ما لا يقلّ عن ١٥٠ شخصاً، ووصلت أعمال الشغب المدفوعة بالقضايا العرقية إلى ذروتها أيضاً نحو عام ١٩٢٠، وكان أكثر اندلاعين خطورةً الصيف الأحمر عام ١٩١٩، ومذبحة تولسا العرقية في عام ١٩٢١. شملت اضطرابات الصيف الأحمر أعمال شغب في أكثر من عشرين مدينة في أنحاء الولايات المتحدة كافة، ونجم عنها مقتل نحو ألف شخص. أمّا أعمال شغب تولسا في عام ١٩٢١، التي أودَتْ بحياة نحو ٣٠٠ شخص، وقد تجلّت في شكل عملية جَلد جماعي، فقد اتخذت صبغة الحرب الأهلية، إذ تقاتل الآلاف من الأميركيين السود والبيض، المسلحين بالأسلحة النارية، في الشوارع، وفي معظم مقاطعة غرينوود، حيث دُمِّرَ حيٌّ غنيٌّ للسود.

أخيراً، شهدت العشرية الثانية من القرن العشرين قمة النشاط الإرهابي الذي قام به متطرفون من العمال وفوضويون، وبلغت حملة تفجير قنابل شنَّها فوضويون إيطاليون في انفجار عام ١٩٢٠ في شارع وول ستريت، الذي أدّى إلى مقتل ٣٨ شخصاً. تبع ذلك حادثٌ أسوأ، كارثة مدرسة باث في عام ١٩٢٧، التي قُتل فيها ٤٥ شخصاً، بمن فيهم ٣٨ من أطفال المدرسة، على يد إرهابيّ محليّ.

وشكّلت التحدياتُ الانتخابية الداخلية للحركات الاشتراكية والشعبوية، إضافةً إلى التهديدات الخارجية الناجمة عن صعود الشيوعية والفاشية في أوروبا، تطوُّراتٍ أقلَّ عنفاً، لكنْ في المحصلة أكثر تهديداً للطبقة الحاكمة. وجدت النخب الاقتصادية أخطر تهديد في انتصار ثورة تشرين الأول/ أكتوبر في روسيا وتأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية الروسية، وهي دولة ذات أيديولوجيا عولمية متشددة تحدَّت مباشرة أسس النظام السياسي الأميركي. ما فاقمَ الوضعَ أنَّ كثيراً من النخب المضادّة في أميركا – مُنظّمي العمال، والفوضويين، والاشتراكيين، والشيوعيين – كانوا مهاجرين وصلوا حديثاً من أوروبا الشرقية والجنوبية، وشكّل الإنذار الأحمر الأول، الذي انتشر في أنحاء البلاد جميعها بينَ

عامَي ١٩١٩ و١٩٢١ انعكاساً لمخاوف النخب من أنّ ثورةً بلشفية كانت وشيكة في أميركا.

كما رأينا سابقاً، فبحلول عام ١٩٢٠، كانت النخب الاقتصادية والسياسية في أميركا قد اتّحدت في شكل طبقة عليا حقيقية، كانت قد كسبت عدداً من المؤسسات التي روّجت للعمل السياسي المتماسك (مدارس داخلية نخبوية، جامعات نخبوية، نوادي ريفية نخبوية، والأكثر بروزاً، شبكة تخطيط السياسات). وتدريجياً، تنامى إدراكٌ بين عدد كبير من القادة الأميركيين أنه من أجل الحد من عدم الاستقرار، كان ينبغي اتخاذ خطوات لإعادة التوازن إلى النظام السياسي، وأن يُجرى ذلك بتمرير إصلاحات من الأعلى، وليس في شكل ثورة من الأسفل.

في القرن التاسع عشر، لم يكن الرأسماليون الأميركيون قد أظهروا أيَّ مخاوف بشأن رفاه الطبقات العاملة، فأفكار الداروينية الاجتماعية، وما نسميه الآن أصولية السوق، هيمنت على المشهد الفكري. بدأت الأمور بالتغيُّر بعد عام ١٩٠٠، في الحقبة التقدُّمية، وفي أواخر العشرية الأولى، كانت فكرة أنّ على الشركات أن تتصرّف بطريقة مسؤولة اجتماعياً قد بدأت بالترسُّخ. على سبيل المثال، شهدت هذه الفترة الشروع في تقديم خطط منح الأسهم إلى الموظفين في شركات عدّة.

وتمثّل التطور الرئيس في إيقاف مضخة الثروة لتمرير قوانين الهجرة لعامَيْ ١٩٢١ و١٩٢٤. على الرغم من أنّ قدراً كبيراً من الحوافز الكامنة وراء هذه القوانين كان إقصاء "الغرباء الخَطِرين،" مثل الفوضويين الإيطاليين والاشتراكيين من شرق أوروبا، فإنّ أثرها الأوسع تمثَّل في تقليص العرض المفرط من العمالة، وهو أمر كانت نخب الأعمال جميعها تعيه. قلَّصَ وَضْعَ حدٍّ للهجرة المعروض من العمالة، ووفّرَ تعزيزاً قوياً للأجور الحقيقية لعددٍ من العقود القادمة.

على الرغم من أنّ هذه النزعات كانت قد أُطلقت في الحقبة التقدمية، لكنّها نضجت في أثناء الصفقة الجديدة، وساعدتها الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية

التي سبّبها الكسادُ العظيم. بوجه خاصّ، صدر تشريع جديد يمنح الشرعية للتفاوض الجماعي من خلال النقابات، وحدّد حداً أدنى للأجر، وأسّس الضمان الاجتماعي. دخلت النخب الأميركية في الحقيقة "اتفاقاً هشّاً غير مكتوب" مع الطبقات العاملة. شمل هذا العقد الضمني الوعد بتوزيع ثمار النمو الاقتصاديّ توزيعاً أكثر مساواةً بين العمال ومالكي المعامل. في المقابل، لا تُتَحدّى أساسيات النظام السياسي– الاقتصادي. وكان تجنُّب حدوث ثورة أحد أكثر الأسباب أهمية لهذا الميثاق (مع أنه ليس السبب الوحيد). لمّا استقال رئيس نقابة عمال السيارات المتّحدين، دوغلاس فريزر، من مجموعة العمال–الإدارة في عام ١٩٨٧، في المرحلة التي كان الميثاق على وشك أن يُتخلّى عنه، كتب في رسالة استقالته اللاذعة: "قُبِلت الحركة العمالية، على حالها، لأنّ الشركات كانت تخشى البدائل".[1]

وفي هذه الرواية، من المهم عدم الإفراط في تأكيدِ درجةِ الوحدة بين النخب السلطوية الأميركية. لم يكن هناك مؤامرة رأسمالية خفيّة، ولم يكن هناك طبقة حاكمة أحادية. في تحليلهما لأصل إصلاحات الصفقة الجديدة وتنفيذها، يؤكّد دومهوف وفيبر أنه كان هناك على الأقل ستّ شبكات معترف بها شاركت في صياغة تشريع الصفقة الجديدة.[2] كان نموذجاً معقداً للصراع والتعاون بين هذه الجهات الفاعلة في السلطة حدَّدَ نجاحَ مختلف الإصلاحات أو إخفاقها، وكان يمكن للتشريعات المختلفة أن تحظى بتأييد حلفاء مختلفين.

أحدث عكس الحقبة التقدمية الانكماش العظيم، الذي كان مدة طويلة من انخفاض درجة عدم المساواة الاقتصادية. لكنْ في حين انخفض عدم المساواة "على نحو كمّيّ"، كان هناك وجه سلبيّ لهذا الترتيب. كان العقد الاجتماعي بين الطبقة العاملة البيضاء ونخبة البروتستانت الأنغلوساكسونيين البيض. أُقصي الأميركيون السود، واليهود، والكاثوليك، والأجانب عن "حلقة التعاون"،

1- Douglas Fraser, Resignation Letter from the Labor-Management Group, July 17, 1978, https://www.historyisaweapon.com/defcon1/fraserresign.html.

2- Domhoff and Webber, *Class and Power in the New Deal*.

ومُورِسَ التمييزُ ضدّهم. مع ذلك، في حين أنّ الميثاق جعل "حالات عدم المساواة المطلقة" أسوأ، فإنّهُ جعلَ حُدوثَ انخفاض جذريّ في عدم المساواة الاقتصاديّ الإجمالي أمراً ممكناً في المقام الأول.

كما رأينا، فإنّ إقصاء الأميركيين السود عن العقد كان نتيجة خيارات تكتيكية قامت بها إدارة ثيودور د. روزفلت، التي كانت في حاجة إلى أصوات الجنوبيين لدفع تشريعها ضد مقاومة نخب الأعمال المحافظة (التي انتظمت حول الجمعية الوطنية للمصنِّعين)، الذين كانوا مصممين على ألّا يُقدِّمُوا أيَّ تنازل إلى الطبقة العاملة. بالنظر خلفاً، فإنّ هذا القرار في التخلّي عن العمال السود جعلَ من الممكن أيضاً لقادة الجيل التالي، مثل جاك وروبرت كيندي وليندون جونسون، إطلاق حقبة حقوق مدنية جديدة اكتسحت في النهاية دولة الأبارتايد التي كانت النخب الجنوبية قد أقامتها في أعقاب الحرب الأهلية وإخفاق إعادة الإعمار.

الانكماش العظيم

لا يحدث التعاون دون كلفة، فمن أجل إنتاج الخير العام، يتعيّن على المتعاونين التضحية بمصالحهم الشخصية، إلى هذه الدرجة أو تلك، وكان يتعيّن دفع ثمن السياسات التي تقدّم مصلحة المجتمع في الحقبة التقدمية وحقبة الصفقة الجديدة – وتحملت التكاليف الطبقةُ الحاكمة الأميركية. ليس هناك تقدير يُذكَر لمدى ما تعيَّن على النخب الاقتصاديّة أن تتخلّى عنه لكي تُنجحها. بين عام ١٩٢٩ وسبعينيات القرن العشرين، تراجعت الثروات الكبرى، ليس من حيث النسب المئوية فحسب (مُقارنةً مع متوسط الثروة)، بل بالأرقام المطلقة أيضاً (حين نأخذ التضخم في الاعتبار).

ابتكر كيفن فيليبس طريقةً أنيقة لإعطاءِ كيفيّةِ تغيُّرِ ثروات الأغنياء في أثناء مسيرة الجمهورية الأميركية صُورةً بصريّة.[1] لفترات مختلفة من التاريخ الأميركي،

1- Phillips, *Wealth and Democracy*.

عثر على بيانات حول حجم الثروة التي كان يمتلكها الشخص الأكثر ثراءً، وقسّمها على الأجر السنوي النموذجي للعامل الأميركي. في عام ١٧٩٠، كان صاحب أكبر ثروة في أميركا إلياس ديربي الذي كان يملك نحو مليون دولار. كان العامل الأميركي النموذجي يكسب نحو ٤٠ دولاراً في السنة، وكان ذلك أجراً جيداً. (لتتذكر أنه في ذلك الزمن كان الأميركيون العاديون يتمتعون بظروف معيشية مرتفعة إلى درجة جعلت من الأميركيين أطول البشر على الأرض.)، وهكذا، كانت أكبر ثروة تساوي الأجور السنوية لـ ٢٥ ألف عامل. بحدود عام ١٩١٢، لمّا وصل المؤشر إلى ذروته الأولى، كانت أكبر ثروة ١ مليار دولار، وكان صاحبها المحظوظ جون د. روكفلر، وكانت تعادل ٢,٦ مليون أجر سنوي – أي أكبر بمئة مرة! في حين فرض الكساد العظيم في القرن التاسع عشر درجات هائلة من البؤس على الطبقات العاملة، لكنّهُ لم يكن له أثرٌ بعيد المدى في المسيرة المنتصرة للثروات الكبرى.

لكنّ الأمور تغيّرت في الحقبة التقدمية وحقبة الصفقة الجديدة، فالكساد العظيم، الذي أطلقه انهيار بورصة نيويورك في عام ١٩٢٩، قضى على ثلث أكبر المصارف، التي كانت أعضاء في نظام الاحتياطي الفيدرالي، وعلى نحو نصف المصارف الصغيرة، وانهارت العضوية في الجمعية الوطنية للمصنِّعين من أكثر من ٥,٠٠٠ في مطلع عشرينيات القرن العشرين إلى ١,٥٠٠ في عام ١٩٣٣. بين ليلة وضحاها، انحدر آلاف أصحاب الأعمال إلى طبقة العامة. (وبعضهم وصل حرفياً إلى موته، ممن قفزوا من مكاتبهم في الطبقات العليا من مباني الشركات.). في عام ١٩٢٥، كان هناك ١,٦٠٠ مليونير، وبحلول عام ١٩٥٠، بقي منهم أقلّ من ٩٠٠. ظل حجم الثروة الكبرى مليار دولار على مدى عقود. في عام ١٩٦٢، كان أغنى رجل في أميركا ج. بول غيتي، الذي كان المليار دولار الذي يملكه بالقيمة الاسمية نفسها لثروة روكفلر قبل ٥٠ عاماً، مع أن القيمة الحقيقية لملياره كانت أقلّ بكثير بسبب التضخم. بحلول عام ١٩٨٢، لمّا كان التضخم قد أدّى إلى تآكل الدولار، كان أغنى

رجل في أميركا دانييل لودفيغ، الذي كانت قيمة المليارِي دولار اللذين يملكهما تساوي ٩٣ ألف أجر سنوي "فقط".[١]

كان عكس الإفراط في إنتاج النخب شبيهاً في ضخامته بما حدث في أعقاب الحرب الأهلية، لكنه أُنجِزَ بوسائلَ غيرِ عنيفةٍ أبداً. لم تُسبِّبْ هذا أيُّ ثورة اجتماعية؛ بل سبّبْتْهُ الطبقةُ الحاكمة نفسها – أو على الأقل، سمحت لفصيل حريص على المجتمع منها بإقناع بقية النخب بالحاجة إلى الإصلاحات. من أجل مزيد من التوضيح، دعونا نتتبع مسارَ مُعدّل الضرائب على الدُّخول الكبرى. لمّا أُسِّسَ نظامُ الضريبة الاتّحادي عام ١٩١٣، كان معدل الضريبة على الشركات الكبرى ٧ بالمئة فقط. في أثناء الحرب العالمية الأولى، قفز إلى ٧٧ بالمئة، لكنْ بحلول عام ١٩٢٩، كان قد تراجع إلى ٢٤ بالمئة. في أثناء الكساد العظيم، ارتفع إلى ٦٣ بالمئة، ونحو نهاية الحرب العالمية الثانية، حلَّق إلى ٩٤ بالمئة، وكان ذلك مبرَّراً بوصفه تضحيةً ضرورية في مرحلة طوارئ وطنية، لكنْ حتى بعد انتهاء الحرب، ظلّ المعدل الأعلى فوق الـ٩٠ بالمئة حتى عام ١٩٦٤. لنفكر في ذلك – في أثناء العقدين السلميين بعد الحرب العالمية الثانية، تخلّى كبار الأغنياء للحكومة عن تسعة أعشار دخلهم!

في أشهر كتبه، **رأس المال في القرن الحادي والعشرين**، يجادل الاقتصاديّ الفرنسيّ توماس بيكيتي في أنّهُ على المدى الطويل، يكون معدل العائد على رأس المال أكبر عادةً من معدل النمو الاقتصادي، وهذا ما يؤدي إلى انعدام مساواة اقتصادية متزايد وتركُّز الثروة في أيدي النخبة.[٢] يدور كتاب **أعظم مُحقّق للمساواة (*The Great Leveler*)**، لزميلي وصديقي وولتر شيديل **(**Walter Scheidel**)**، حول العملية المعاكسة التي تُقلِّص انعدام المساواة. يجمع شيديل في كتابه عدداً كبيراً من الأمثلة التاريخية، ويجادل في أنَّ "الموت

١- انظر الفصل ٤ في **عصور الخلاف**.

2- Thomas Piketty, *Capital in the Twenty-First Century* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2014).

هو المحقق الأكبر للمساواة".[1] يتطلب الأمر عادةً اضطراباً كبيراً لتقليص عدم المساواة في الثروة، ويتخذ هذا الاضطراب عادةً شَكْلَ ثورةٍ اجتماعية، انهيارِ دولةٍ، حربٍ يحدثُ فيها حشدٌ جماهيريّ، أو وباء كبير. كما سنرى في الفصل التاسع، حين أراجع نتائج أول ١٠٠ حالة في قاعدة بيانات الأزمات، أجد أن وجهة نظر شيديل المتشائمة صحيحة بنسبة ٩٠ بالمئة فقط.

يُعدُّ الانكماش العظيم في أميركا إحدى الحالات الاستثنائية الباعثة على الأمل. لم تحدث ثورة دموية ولا انهيار دولة، ولا وباء كارثي، وجرت الحرب العالمية الثانية كلُّها فيما وراء البحار، ولعبت التهديدات بحدوث ثورة داخلية ومنافسة خارجية – ضد النظام النازيّ في أثناء الحرب العالمية الثانية وضدّ الاتحاد السوفييتي في أثناء ما تَبِعَها من حرب باردة – دوراً واضحاً في تركيز أذهان الطبقة الحاكمة الأميركية على تبني المزيج الصحيح من الإصلاحات، التي أغلقت مضخة الثروة، وعكست نزعة عدم المساواة، لكنْ سيكون من غير المنصف الاعتقاد بأنّ الخوف كان الدافع الوحيد للقادة الأميركيين من الحقبة التقدمية إلى الصفقة الجديدة، إلى المجتمع العظيم. بحلول مرحلة ما بعد الحرب، كانت غالبية النخب قد تمثّلت القيمَ التي دعت إلى التعاون الاجتماعي – بين النخب نفسها، وبين النخب والعامّة.

كما كتب المؤرخ كيم فيليبس– فين (Kim Phillips-Fein)، في **الأيدي غير المرئية** (*Invisible Hands*)، على الرغم من مقاومتهم الأولية لسياسات الصفقة الجديدة التي نظّمت علاقات العمال بالشركات، فإنّ معظم المديرين التنفيذيين في هذه الشركات وأصحاب الأسهم كانوا قد تصالحوا مع النظام الجديد بحدود خمسينيات القرن العشرين، وكانوا يتفاوضون بانتظام مع نقابات العمال في شركاتهم، ودعموا استعمال السياسة المالية والعمل الحكومي لمساعدة الأمة في التكيُّف مع حالات الركود الاقتصادي، وقبلوا بفكرة أنّ الدولة قد يكون لها دورٌ

1- Walter Scheidel, *The Great Leveler*: *Violence and the History of Inequality from the Stone Age to the Twenty-First Century* (Princeton: Princeton University Press, 2018).

ما تلعبه في توجيه الحياة الاقتصادية، وقال رئيس غُرَف التجارة الأميركية في خطاب له في الغرفة عام ١٩٤٣: "وحده الأعمى العنيد لا يرى أنّ الرأسمالية على الأسلوب القديم من التناحر البدائي المطلق ولّتْ إلى غير رجعة". وإذا وضعنا هذا في منظوره العام، فإنّ غرفة التجارة اليوم واحدة من منظمات النخبة الاقتصادية التي تدفع نحو أكثر أشكال الأصولية الليبرالية للسوق تطرُّفاً. في رسالة إلى أخيه، كتب الرئيس دوايت إيزنهاور:

إذا حاول أي حزب سياسي إلغاء الضمان الاجتماعي، وتعويض البطالة، وإلغاء قوانين العمل وبرامج المَزارع، فلن تسمع بذلك الحزب مرة أخرى في تاريخنا السياسي. ثمة مجموعة هامشية صغيرة جداً، بالتأكيد، تعتقد أنك تستطيع فعلَ هذه الأشياء. ومن بين هؤلاء ه. ل. هَنت... وبضعة مليونيرات نفط من تكساس، وبعض السياسيين أو رجال الأعمال من مناطق أخرى. عددهم لا يُذكر، وهم أغبياء.

هل ثمّةَ حاجةٌ إلى القول إنّ إيزنهاور كان جُمهوريّاً؟

ترشح باري غولدووتر ضد ليندون جونسون في عام ١٩٦٤ على برنامج تخفيض الضرائب وخطاب مُعادٍ للنقابات. بمعايير اليوم، كان غولدووتر محافظاً معتدلاً لم تكن سياسته مختلفة عن سياسات بيل كلينتون، مثلاً. لكنْ كان يُنظَر إليه على أنه راديكاليّ خَطِر، وتخلّى قادة الأعمال عن حملته لمصلحة جونسون، وهُـزِم غولدووتر هزيمةً ساحقة.[١]

هشاشة المجتمعات المعقدة

لقد مرت الجمهورية الأميركية بوضعين ثوريين، كما رأينا. سُوِّي الوضع الأول، الذي تطور في خمسينيات القرن التاسع عشر، بثورة اجتماعية هي الحرب الأهلية الأميركية، التي استبدلت النخب الحاكمة التي سادت قبل الحرب بطبقة حاكمة تجارية جديدة، وسُوِّي الوضع الثاني، الذي وصل إلى أوجه في عشرينيات

١- لمراجعة مصادر هذه الاقتباسات، انظر الفصل ١٢ من **عصور الخلاف**.

القرن العشرين، بتبنّي إصلاحات الحقبة التقدُّمية والصفقة الجديدة. اليوم، نمرُّ بحالتنا الثوريّة الثالثة. كيف ستُسوَّى – بحرب أهلية، بإصلاحات، أو بمزيج من الاثنين؟ هذا هو السؤال الذي سأعود إليه في الفصل الثامن، لكنْ هنا دعونا نتحدّث عن الدروس التي يمكن أن يفرزها تحليل "بنيوي– ديناميكي" **(انظر الفصل آ٣ لشرح مُفصّل لذلك)** لفهم عصر الخلاف الذي نعيشه.

يبدو الجزءُ البنيويّ من التحليل متشائماً تماماً – فمضخة الثروة مربحة جداً للنخب الحاكمة، ويبدو أن إغلاقها سيتطلب ثورةً عنيفة، لكنْ حين ننتقل إلى الجزء الديناميكي من التحليل، يظهر بعضُ الأمل. من الممكن للطبقة الحاكمة نفسها –أو، إذا توخينا الدقة، لفصائل حريصة على المجتمع داخلها – أن تعيد توازن النظام لوقف مضخة الثروة وعكس الإفراط في إنتاج النخب بطريقة سلمية نسبياً. **(ستُناقَش أمثلةٌ متفائلة أُخرى في الفصل التاسع.)**، لكنَّ مثلَ هذه الحصيلة تتطلّبُ قُوىً نصيرة للمجتمع تُقنِعُ النخب الاقتصادية بتحمل الإصلاحات التي ستكون ضد مصالحها الخاصة من أجل منع أزمة وشيكة، ولم نتوصّلْ إلى ذلك بعد.

الشخصيتان الخياليتان اللتان بدأ بهما الفصل الخامس، أندي وكلارا، مع أنهما لطيفتان، لكنهما تعملان على تقويض دعامات النظام الاجتماعي الذي تستفيدان منه كثيراً، وتفعلان ذلك بطريقتين، فدعمهما لسياسيين يُؤيّدُون خفض الضرائب يحرم الدولة من الإيرادات التي تحتاج إليها في عملها، وتدعم مؤسستهما قضايا ذوات نيّات طيبة، العمل من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة، لكنّ مجتمعاتنا أنظمة معقدة تترابط فيها الأجزاء المختلفة بطرائق يَصْعُبُ تَتبُّعُها، فالأفعال القائمة على نيّات طيبة يمكن أن يكون لها تبعات غير مقصودة، فبتمويل قضايا اليسار الراديكالي، قد ترفع مؤسسة كلارا وأندي عن غير قصد مستوى الخلاف الاجتماعي، وتُعمِّق الاستقطاب المجتمعي، وقد يُؤدّي هذا إلى نتائج عكس المقصودة.

ولأنّ آخر مرحلة من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في الولايات المتحدة كانت في ستينيات القرن العشرين، التي كانت معتدلة جداً بالمعايير

التاريخية، فإن الأميركيين اليوم يقللون بحدّة من أهمية هشاشة المجتمع المعقد الذي نعيش فيه، لكنَّ درساً مهماً من التاريخ هو أنّ الناس الذين عاشوا في حقب ما قبل الأزمة سابقاً لم يكونوا يتخيلون أيضاً أن مجتمعاتهم يمكن أن تنهار من حولهم فجأةً.

سافا موروزوف، أحد أغنى الصناعيين في روسيا ما قبل الثورة،[1] لم يكن يستطيع أن يتخيل مثل تلك الحصيلة الكارثية أيضاً. كان محسناً بارزاً وراعياً للفنون. في مقره الباذخ في المدينة (الشهير بأنه أغلى منزل في موسكو)، كان هو وزوجته، زينايدا، يستضيفان زبدة الإنتلجنسيا الروسية – (كُتَّاب، ومؤلفون موسيقيون، وعلماء شهيرون)، لكنَّ موروزوف كان يهتم حقاً برفاه العمال الذين يعملون في معامل النسيج التي يمتلكها، فقرّر مَنْحَ العاملات الحوامل إجازات مأجورة، ومَنْحَ الطلاب رواتب لإكمال دراستهم في المعاهد التقنية (وبعضهم في الخارج)، وبنى مستشفى ومسرحاً للعمال. دعا موروزوف إلى إصلاحات دستورية، بما في ذلك حرية الصحافة والتجمع، والمساواة العامة، والسيطرة العامة على موازنة الدولة، كما كان يُؤيّدُ حقَّ العمال بالانضمام إلى النقابات وبالإضراب من أجل أجور وظروف عمل أحسن.[2]

وكان موروزوف يدعم أيضاً الأحزاب الراديكالية بما فيها البلاشفة، وطبقاً لتقارير ظهرت لاحقاً، كان يتبرّع بمئات آلاف الروبلات (مبلغ هائل حينذاك) للثوريين. وموَّل وحده طباعة ونشر **إيسكرا** (*Iskra*)، أو **الشرارة** (*The Spark*)، وهي جريدة سرية ينشرها الحزب الديمقراطي الاجتماعي المحظور، الذي تطوّر لاحقاً إلى الحزب الشيوعيّ الروسيّ. من الواضح أنّ دوافع موروزوف لدعم الثوريين لم تكن تهدف إلى انهيار الدولة كي تتبعه سنواتٌ من الحرب الأهلية الدموية، ومن ثم تأسيس ديكتاتورية بلشفية. الأمر الأكثر ترجيحاً، هو أنه أراد

---

١ - كانت عائلة موروزوف خامس أغنى عائلة في روسيا نحو عام ١٩٠٠.

2- Lizunov, V. S., "Origins," in *The Past Passes Before Me* [in Russian] (Orekhovo-Zuyevo: Bogorodsk-Noginsk, 2007), https://www.bogorodsknoginsk.ru/articles/24_lizunov1.html.

استعمال الراديكاليين عصاً يضرب بها النظام القيصريّ، لإجباره على تبنّي إصلاحات حقيقية من شأنها أن تُغيِّرَ روسيا نحوَ الأفضل.

لمّا اندلعت الثورة الأولى في كانون الثاني/ يناير ١٩٠٥، صدمَ تصاعدُ العنف الراديكالي وقمعُ الدولة موروزوف، وبالنظر إلى أنه لم يتمكّنْ من التأثير في الأحداث، فإنه أُصِيبَ بانهيار عصبي وغرق في الاكتئاب. بناءً على نصيحة أطبائه وأسرته، سافر هو وزوجته إلى الريفيرا الفرنسية ليتلقّى علاجاً نفسياً، لكنْ بعد دخولِهِ فُندقاً في كان، يبدو أنه انتحر بإطلاق النار على نفسه من مُسدّس، معَ أنّ شائعات قوية ظهرت لاحقاً مفادُها أنه في الواقع اغتيل، وأنّ انتحاره كان عملية مُرتَّبة. عادت زوجته زينايدا إلى روسيا، حيث استمرّت في الاستمتاع بالثروة الهائلة التي تركها لها زوجها، لكنَّ حياتها المترفة انتهت مع الثورة الثانية في عام ١٩١٧، إذ صادرَ البلاشفة ممتلكاتها كافة، وتركوها فقيرةً معدمة، ولتتجنّبَ البُؤسَ، أُجبِرَتْ على مبادلة بعض قطع الجواهر التي ظلّت تملكها، وفي تطوُّر أخير غريب، فإنَّ عزبتها الريفية الفارهة، غوركي (التلة)، أصبحت السكن الرئيس لقائد الثورة البروليتارية، فلاديمير لينين، وأصبحت الآن متحفاً يعرضُ كثيراً من الممتلكات والتذكارات التي تركها أوّلُ حاكم لاتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية.

معَ دراستِنا حالات انهيار الدولة حالةً بعدَ حالةٍ، نرى دائماً في كُلِّ حالة أنَّ الأغلبيّةَ الساحقة لنخب ما قبل الأزمة – سواء أكانت تنتمي إلى الطبقة المالكة للعبيد في حقبة ما قبل الحرب، أم إلى نبلاء النظام الفرنسي القديم، أم إلى الإنتلجنسيا الروسية نحو عام ١٩٠٠ – لم يكن لديها أيُّ فكرة عن الكارثة التي كانت على وشك أن تُحدِقَ بها. لقد هزَّتْ أُسسَ الدولة، ومن ثمّ فُوجئتْ لمّا انهارَتْ. دعُونا نتحدّث الآن عن انهيار الدولة في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث.

الجزء الثالث

الأزمة وتداعياتها

الفصل السابع

انهيار الدولة

نيرون يستيقظ وحيداً

في ليلة صيفية في عام ٦٨م، استيقظ نيرون كلوديوس قيصر أغسطس جيرمانيكوس، حاكم الإمبراطورية الرومانية، في قصره الإمبراطوري في روما، ووجد أنّحراسه كلهم قد اختفوا. ذهب نيرون يبحث عن أنصاره في الغُرَف التي يستعملونها في القصر، لكنهم كانوا جميعاً قد ذهبوا، ولمّا عاد إلى غرفة نومه، اكتشف أن بقية خدمه كانوا أيضاً قد هربوا، "آخذين معهم حتى أغطية الأسِرّة وصندوق السُّمّ، "كما يرد في سيرة نيرون الذاتية التي وضعها سويتونيوس (Suetonius). أدرك نيرون أن الوقت قد حان لإنهاء حياته، لكنّ الخدم الهاربين كانوا قد سرقوا السُّم الذي يحتاج إليه لفعل ذلك دون ألم، ولم يستطع حَشْدَ ما يكفي من الشجاعة لقتل نفسه بسكين.

تموت الدول بطرائق مختلفة. بعضها يذهب بجلبةٍ وعُنف؛ وبعضها يتفكّك بهدوء، ويموت، وهو يئنّ. السلالة اليوليوسية – الكلودويوسية، التي حكمت روما من عام ٢٧ قبل الميلاد إلى ٦٨ بعده، انتهت، ونيرون يُغمغم: "يا للفنان الذي يموت في داخلي!".

المثقفون العامّون، والسياسيون، ومعظم الناس، يبالغون بشدّة في كثير من الأحيان بقُوّة الحُكّام. وينعكس هذا في اللغة الشائعة المستعملة، مثل "صدام حسين قتل شعبه بالغاز". هل قاد صدام الطائرات، ورمى القنابل الكيميائية على القُرى الكردية بنفسه؟[١] في أحسن الأحوال، هذه لغة كسولة، وفي أسوَئها، تنمّ

١ - لمناقشة الكيفية التي كان صدام يمارس السلطة بها، انظُر *War and Peace and War*.

عن سوء فهم لعلم الاجتماع، وهو سوء فهم يمكن أن يفضي إلى سياسات سيّئة، كما من المحتم أن يحدث حين يُصاب السياسيون بالهوس حيال دوافع حاكم واحد، بدلاً من محاولة فهم شبكة السلطة التي يعمل داخلها ذلك الفرد. كما يُظهر مثال نيرون، فإنّ إمبراطور إمبراطورية قوية يُصبح نَكِرةً حالما تتخلّى عنه شبكةُ سلطته.

في حالة نيرون، تردَّت سلطته على مراحل. أولاً، حدثت حالات تمرُّد في مقاطعات بعيدة، في فلسطين، ثم في مقاطعات أقرب، في الغال وإسبانيا، وحاولت فيالق عسكرية في جرمانيا استعادة قائدها وإمبراطورها، لكنّه رفض، ولمّا ظهر قائد آخر ادّعى حقه في السلطة في إسبانيا، غيّرَ الحرس الإمبراطوري، أول حرس شخصي للإمبراطور، ولاءَهُ، وحوّله إلى القائد الجديد. حاول نيرون الهرب إلى المقاطعات الشرقية، لكنَّ ضباطه رفضوا إطاعة أوامره. ويذكر سويتونيوس أنه لمّا طلب نيرون استعمال سفينة حربية لينجو بها، أجابوا: "هل هو أمر مُروِّعٌ جدّاً أن تموت؟،" في إشارة أقوى من التلميح إلى أنه آنَ الأوان كي ينحني نيرون، ويخرج من مسرح الأحداث. عاد نيرون إلى قصره، ليستيقظ في منتصف الليل، ويجد أن الجميع قد تخلّوا عنه، بمن فيهم خدمه الشخصي. في النهاية، قَبِلَ نيرون بمصيره، واستجمعَ شجاعتَه ليغرس خنجراً في حنجرته، وينزف حتى الموت.

انهيارُ الدولة، (حين تتفكّكُ السلطة المركزية فجأةً)، وعلى نحو كارثيّ، حدثٌ متكرر في التاريخ. مثال أحدث، ولا يزال حياً في الذاكرة يتمثل في الثورة الكوبية، التي أصبحت حقيقةً منجزة في ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩، لمّا اختار الديكتاتور فولغينسيو باتيستا ببساطة أن يهرب، إذ ركبَ طائرةً إلى جمهورية الدومينيكان. دخلت القوات الثورية هافانا دون مقاومة. والمثال الأحدث على النوع نفسه من انفجار السلطة من الداخل (على الأقل، وأنا أكتب هذا الكتاب)، هو لمّا انهارت الجمهورية الإسلامية الأفغانية في ١٥ آب/ أغسطس ٢٠٢١. هرب كبار

المسؤولين، من الرئيس إلى من هم أدنى منه، وتبدّد الجيش جزئياً، وانشقّ جزئياً، والتحق بطالبان، وغادر رجال الشرطة مواقعهم، ولم يكن هناك أحد ليوقف عمليات النهب في كابول، تماماً كما حدث في الثورة الكوبية، فإن الفراغ الذي نشأ في المركز مُلِئ مباشرةً لمّا دخلت قواتُ طالبان كابول دون معارضة.

الطريف في هذه القصّة أنّ أشرف غني، رئيس أفغانستان حينذاك، بدأ حياته المهنية أكاديمياً يدرس انهيار الدولة وبناء الأمم، حتى إنه كتب مع كلير لوكهارت كتاباً في عام ٢٠٠٨ حول هذا الموضوع بعنوان **إصلاح الدول الفاشلة (*Fixing Failed States*)**، الذي صادف أن كتبتُ مراجعة عنه حينذاك لمجلة **نيتشر** العلمية.[١] يا للأسف! إن خبرته لم تساعده في إصلاح أفغانستان، مع أنه أصبح رجلاً ثرياً جداً في أثناء محاولته إصلاحها. المشكلة في الدولة التي حكمها غني أنها مثال متطرف على الكليبتوقراطية (kleptocracy)[٢]، أو الدولة التي يحكمها اللصوص. في حالة أفغانستان، كان يُحافَظُ على آلية عمل الدولة فقط بتدفق المساعدات الدولية، التي كان معظمها يذهب إلى جيوب مسؤولي الدولة الفاسدين وزبانيتهم. الكليبتوقراطيات الصرفة نادرة لأنها شديدة الهشاشة، وكانت هشاشة نظام غني مفهومة، إذ قدَّرت وكالة المخابرات المركزية الأميركية أنّ كابول ستسقط في أشهر بعد انسحاب القوات الأميركية، لكنّ السرعة التي تفكك بها نظامه الكليبتوقراطي فاجأت القادة الأميركيين؛ ففي اليوم الذي تلا انهيار الدولة، علَّق الرئيس جو بايدن، قائلاً: "تكشَّف ذلك بأسرع مما توقّعنا".[٣]

كانت "لحظة نيرون،" التي تمثل انفجار الدولة من الداخل، كما حدث مع باتيستا وغني، موجودة منذ تطورت الدول الأولى قبل نحو خمسة آلاف عام،

1- Peter Turchin, "Building nations after conflict," *Nature* 453 (2008): 986–87, https://doi.org/10.1038/453986a.

٢- الكليبتوقراطية حكومة يستعمل قادتها الفاسدون سلطتهم السياسية للاستيلاء على ثروة الشعب الذي يحكمونه، عادة عن طريق الاختلاس أو إساءة استعمال الأموال الحكومية على حساب السكان.

٣- انظر أيضاً "Fall of Kabul (2021)," Wikimedia Foundation, last modified October 3, 2022, https://en.wikipedia.org/wiki/Fall_of_Kabul_(2021)#Capture_of_Kabul. 18:20,

ومن المؤكد أنها ستحدث من جديد، وسيكون من الخطأ افتراض أن الديمقراطيات الناضجة في أميركا الشمالية وأوروبا الغربية محصنة تماماً ضدها.

ستالين مشغِّلاً جيداً للشبكات

قارنْ مصير نيرون بمصير جوزيف ستالين، الذي قد يكون أنجح ديكتاتور في القرن العشرين. وصل ستالين إلى السلطة، ومن ثم حكم من خلال تعيينه أشخاصاً موالين له شخصياً في المناصب الرئيسة، ثم عيَّن طبقةً أخرى من الموالين لمراقبة المجموعة الأولى، ومن ثم كان يقوم بعمليات قمع منتظمة لمسؤوليه واستبدالهم بمسؤولين طموحين كانوا أقل منهم مكانة. لمّا انضمّ ستالين إلى الحزب البلشفي، كانت روسيا تعاني من مشكلة هائلة في الإفراط في إنتاج النخب، وهذا ما شكَّلَ سبباً أساسياً للثورتين الروسيتين عام ١٩٠٥ و١٩١٧.[١] بحلول عام ١٩٤١، لمّا دخل الاتحاد السوفييتي الحرب العالمية الثانية، كان ستالين قد حلَّ هذه المشكلة لمّا قضى دون رحمة على هذا "الفائض" من النخبة. أوجد قناةً للمسؤولين الطموحين المتطلعين إلى السلطة لدخول هذه النخبة، والتقدُّم في مراتبها، ثم أعدمهم، أو أرسلهم إلى معسكرات العمل.

كانت تلكَ عمليةً نُفِّذَتْ بعناية للمحافظة على التوازن، ومارسَها ستالين في غاية الإتقان، لكنَّ الخوف والمصلحة الذاتية ليسا كافيين، إذ إنّ ستالين استعمل أيضاً أفكاراً كُبرى لإلهام أتباعه، مثل شعاره "بناء الاشتراكية في بلدٍ واحد". وما كانَ يعنيهِ ذلكَ فعليّاً هو استعادة الإمبراطورية الروسية قوةً عظمى تحت قناع الاتحاد السوفييتي، كما أثبت ستالين فعاليته، بوصفه مديراً، بتوجيه عمليّات التصنيع الناجحة في ثلاثينيات القرن العشرين. دون تلك القاعدة الصناعية، كان الاتحاد السوفييتي سيخسر الحرب العالمية الثانية، تماماً كما خسرَ الحربَ العالمية الأولى. كان ستالين متواضعاً شخصياً. على عكس القادة الديكتاتوريين غير الناجحين، تجنّبَ الاستعراضيّة في اللباس أو في رفقة النساء. على عكس مبارك

١- لمزيد من التفاصيل، انظر *Secular Cycles*.

(وعدد كبير جداً من الديكتاتوريين)، لم يحاول ترسيخَ سلالةٍ بنقل السلطة إلى ابنهفاسيلي. لمّا ألقى الألمان القبضَ على ابنه الأكبر، ياكوف، رفضَ أن يبادله، وتُوفّي ياكوف في سجن معسكر ألماني. كان كلُّ شيء مسخَّراً لاحتياجات الدولة، بما في ذلك مصالح ستالين الشخصية.

حكم ستالين الاتحاد السوفييتي ثلاثين عاماً، وقادَهُ إلى الانتصار في الحرب العالمية الثانية، وإلى الوصول إلى مكانة الدولة العظمى. تدفّق فيضٌ صادق من الحزن الشعبي لمّا تُوفّي في عام ١٩٥٣. حقّق ستالين كلَّ هذا لأنه، على عكس نيرون، كان يتقن بناءَ شبكات السلطة والمحافظة عليها وإبقاء نفسه في مركزها. كانت سلطته الهائلة مستمدة من نفوذه على النخب والعامة على حدٍّ سواء، لكنَّ الأكثر أهمية، هو أن القوى البنيوية كانت إلى جانبه. لقد أظهرت أبحاث جديدة أجراها اقتصاديون أنه على الرغم من وحشية عملية التصنيع التي أطلقها ستالين، فإنّ حياة الناس العاديين تحسّنت فعلياً في ثلاثينيات القرن العشرين، مهما بلغت صعوبة تجاهل ملايين الوفيات من المجاعة في أعقاب إنشاء التعاونيات الزراعية الجماعية.[1] بعد الصدمة المدمِّرة للحرب العالمية الثانية، بدأت الحياة تتحسّن مرّةً أخرى. لمّا نشأتُ في الاتحاد السوفييتي في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، كانت الحياة تتحسّن تحسُّناً ملحوظاً. انتقلت أسرتي من شقّة مُكوّنة من غرفة واحدة (ليست بغرفة نوم واحدة، بل كانتالشقة كلّها غرفة واحدة!) إلى شقّة من غرفتين، ومن ثم إلى شقة من ثلاث غرف. كنا لا نزال فقراء بالتأكيد مقارنةً بالأميركيين، لكنّ الاتجاه نحو الرفاه كان في تصاعُد مُستمرّ. كان البؤس الشعبي يتضاءل، وكان الإفراط في إنتاج النخب قد عُولجَ في وقت سابق، في الاختبارات القاسية للثورة وعمليات التطهير التي تلتها.[2]

1- Robert C. Allen, *Farm to Factory*: *A Reinterpretation of the Soviet Industrial Revolution* (Princeton: Princeton University Press, 2003).

٢- لكنَّ الاتحاد السوفييتي السابق كان قد طوَّر شكله الخاص من الإفراط في إنتاج النخب – ولا سيما الإفراط في إنتاج "الإنتلجينسيا التقنية،" أو الأشخاص الذين يحملون شهادات في الهندسة.

أثبتت الدولة التي بناها الحزب الشيوعي بقيادة ستالين قدرتها على البقاء، واستمرّت عبر جيلين من الحكّام (حقبتَيْ خروتشوف وبريجينيف). لمّا غادرت البلاد في عام ١٩٧٧، كان الاتحاد السوفييتي قوّةً أحادية هائلة ستستمرّ قروناً، لكنني كنتُ مخطئاً، إذ تفكّكَ وانهارَ في عام ١٩٩١. لمّا زُرتُهُ في عام ١٩٩٢، لأوّل مرّة منذ غادرته، لم أتعرّف عليه – إذ بدا دولة فاشلة، وكان حقاً دولة فاشلة. في تسعينيات القرن العشرين، استمرّت روسيا في مسارها التفكُّكي – ففي عام ١٩٩٣، تصارع المتمسكون بالرئيس وأنصار البرلمان في الشوارع، وقصفت الدبابات مبنى البرلمان. في العام التالي، بدأت حربُ الشيشان الأولى.

الانهيار الاجتماعيّ: مقاربات سوسيولوجية وسيكولوجية

يقودنا هذا إلى الأسئلة المحورية لهذا الفصل: ما الذي يُفسِّر الانهيار الاجتماعي؟ ولماذا تنهار الدول؟ وكيف تبدأ الحروب الأهلية؟

ثمة طريقتان متعاكستان لمقاربة هذه الأسئلة. تتمثل المقاربة السوسيولوجية في تجاهُل الأفراد والتركيز كُلّيّاً على القوى الاجتماعية غير الشخصية التي تدفع المجتمعات إلى الانهيار، لكنَّ كثيرين (ممن هم ليسوا علماء اجتماع) يجدون هذه المقاربة غيرَ مُرضية. يريد هؤلاء أن يعرفوا من المسؤول؟ وخطأ من كانت الثورة الفرنسية؟ أكانت بسبب لويس السادس عشر، أم ماري أنطوانيت، أم روبسبير؟

ولذلك، فإنّ المقاربة البديلة للمقاربة السوسيولوجية تتمثّل في تحليل أخطاء قادة مثل لويس السادس عشر، ونيرون، وغورباتشوف، وتتجذر هذه النظرة في نظرية الرجل العظيم في التاريخ، التي كانت تحظى بالشعبية في القرن التاسع عشر خاصّةً، ولا تزال النظرةَ الشائعةَ في أوساط المعلقين، والسياسيين، وجمهور العامّة.

في علم التاريخ النفسي،[1] الذي يستعمل التحليل النفسي الفرويدي لفهم الأصول العاطفية لسلوك القادة. هذه "الكليوفرويدية" علم زائف. العلم يطرح نظريات، ومن ثم يجمع البيانات لاختبارها، أما العلم الزائف فإنه يُحرِّف هذا المنهج.

١- لا علاقة لهذا بما طرحه عظيموف من علم تاريخ خيالي.

كما يكتب المؤرخ هيو تريفور- روبر (Hugh Trevor-Roper)، في نقده لكتاب ولتر لانغر (Walter Langer)، عقل أدولف هتلر (*The Mind of Adolf Hitler*)، "يتحرك المؤرخون النفسيون في الاتجاه المعاكس. إنهم يستنبطون الحقائق من نظرياتهم؛ وهذا يعني فعلياً أن الحقائق تحت رحمة النظرية، إذ تُختار وتُقيَّم طبقاً لانسجامها مع النظرية، بل تُختَرَع لدعم النظرية".[1]

ويُشكّل العقلُ أحجيةً أُخرى – دوافعهم، نيّاتهم، أسبابهم التي دفعتهم للتصرف بطريقة معينة تكون مبهمة في كثير من الأحيان. إننا لا نفهم دوافعنا في كثير من الأحيان؛ فكيف يمكن أن نتحقّقَ من دوافع الآخرين؟ لذلك ينبغي ألّا يكون من المفاجئ لقرائي أني أجد المقاربة الكليوفرويدية حافلة بالعيوب. كما جادلت على نحو متكرر في هذا الكتاب، لا نستطيع أن نفهم المسارات المجتمعية دون أن نشرح أولاً الكيفية التي تعمل بها السلطة المجتمعية.

وفي الوقت نفسه، أتفق مع وجهة النظر القائلة إن القادةَ مُهمّون. على الرغم من أن الحكام مقيَّدون بالبنى الاجتماعية التي يعملون فيها، لكنهم يتمتعون ببعض النفوذ الذي يُمكِّنُهم من تحريك مسارات الدول التي يقودونها، ولا سيما حين يكونون مدعومين بشبكات سلطة متماسكة تعمل على تحقيق هدف مشترك. سنتحدث أكثر عن دور الأفراد لاحقاً، ولا سيما في الفصل الأخير، حين أراجع بعض "قصص النجاح" – المجتمعات التي دخلت أوضاعاً ثورية، لكنها تمكّنت من الخروج منها دون إراقة دماء كثيرة، ويمكن أن يكون الدور الإيجابي للقادة الحريصين على المجتمع واضحاً خصوصاً حين ينجحون في توجيه سفينة الدولة فوق المياه المضطربة.

لكنْ دعونا نتابع الآن وجهة النظر السوسيولوجية، لأنَّ فهم القوى الاجتماعية التي يتعامل معها القادة أهم من فهم عوالمهم الداخلية، ودُونَ مثلِ ذلك الفهم، سواء أكان مستمداً من الكليوديناميكا أم مِنْ سياسيٍّ موهوب يستوعبُ حدسيّاً الديناميكيات الاجتماعية، لن نتمكن من إيجاد طريقنا للخروج من أزمة.

1- Hugh Trevor-Roper, "Re-inventing Hitler," *The Sunday Times*, February 18, 1973.

في العقود القليلة الماضية، كرَّس علماء الاجتماع جهوداً كبيرة لدراسة أسباب الحروب الأهلية وشروطها المسبقة، ويُقارِبُونَ مجال الدراسة هذا بطريقة علمية مثيرة للإعجاب –أي بجمع مجموعات بيانات كبيرة وإجراء تحليلات إحصائية عليها. ثمة مركزان مهمَّان لهذا النوع من الأبحاث في البلدان النوردية: معهد أبحاث السلام في أوسلو، النرويج، وقسم أبحاث السلام والصراع في جامعة أوبسالا في السويد. في الولايات المتحدة، يُعدُّ المشروع البحثيّ الأكثر نفوذاً فريق عمل عدم الاستقرار السياسي. هذا المشروع الذي تُموِّله وكالة المخابرات المركزية الأميركية أطلقه تيد روبرت غور (Ted Robert Gurr)، في جامعة ميريلاند، وجاك غولدستون في جامعة جورج ميسون، ونحو عشرين باحثاً آخرين. (غولدستون أحد آباء النظرية الديموغرافية البنيوية التي تشكل إحدى دعامات هذا الكتاب.). باربرا وولتر مِنْ أعضاء فريق عمل عدم الاستقرار السياسي، وهي عالمة سياسية تعمل في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو، نشرتْ كتاباً عام ٢٠٢٢ بعنوان **كيف تبدأ الحروب الأهلية؟ وكيف تُوقَف؟** تُلخِّصُ فيه التبصُّرات المستخلصة من مشروع فريق عمل عدم الاستقرار السياسي، وتشرح ما تعنيه للولايات المتحدة. دعونا نرَ نَوْعَ التبصُّرات التي تخرج بها هذه الأبحاث، التي تساعدنا في فهم انهيار الدولة والحرب الأهلية.

كيف تبدأ الحروب الأهلية؟

يتمثل أفضل متنبئ بما إذا كان بلد ما سيعاني صراعاً داخلياً عنيفاً العام القادم في ما إذا كان هذا البلد في حالة صراع أصلاً هذا العام. ينشأ هذا "التنبؤ" ببساطة من ملاحظة أن الحروب الأهلية تنزع إلى الاستمرار سنواتٍ عدةّ، وهي لا توفر أيَّ فهم لسبب بدايتها (وكيف تنتهي). وهكذا، فإن السؤال المثير للاهتمام من وجهة نظر صُنَّاع السياسات، هو ما إذا كان من الممكن التنبؤ ببداية حرب أهلية، لِنَقُل، قبل عامين من بدايتها. فيما يتعلّقُ ببلد مُعيَّن يعيشُ الآن في حالة سلام، ما احتمال أن يكون لا يزال في حالة سلام بعد عامين من الآن؟ وما احتمال انزلاقه إلى حرب أهلية؟

للإجابة عن هذا السؤال، جمعَ مشروعُ فريق عمل عدم الاستقرار السياسي بيانات عن بدايات عدم الاستقرار السياسي في بلدان العام كافة بين عامي ١٩٥٥ و٢٠٠٣، وطوّروا نموذجاً إحصائياً يربط خصائص البلد باحتمال نشوب حرب أهلية فيه. ونشرَ نتائجَ هذه الدراسة غولدستون والمُؤلِّفُونَ المشاركون معه في عام ٢٠١٠.[١] واكتشفوا أن نموذجهم كان قادراً على التنبؤ ببدايات عدم الاستقرار بنسبة دقة قدرها ٨٠ بالمئة. ما كان مفاجئاً هو أنه، على الرغم من أنّ الباحثين اختبروا نحو ٣٠ مؤشراً مختلفاً، لكنَّ النموذج كان في حاجة إلى أنْ يعرفَ ثلاثَ خصائص للبلد أو أربعاً لتحقيق هذا المستوى من الدقة.

كان الأول، والأكثر أهمية، "نمط النظام". وهنا اعتمد باحثو فريق عمل عدم الاستقرار السياسي على مشروع بوليتي ٤ (Polity IV)، الذي يصنف البلدان على طيف ممتد من الاستبداد إلى الديمقراطية، ويُراوِحُ بينَ ناقص عشرة إلى عشرة، باستعمال مؤشرات مثل تنافسية المشاركة السياسية وطريقة تعيين المسؤولين التنفيذيين، والقيود المفروضة على الرئيس التنفيذي.[٢] وتُصنَّف كل دولة – سنة (على سبيل المثال، زيمبابوي عام ١٩٨٠) على أنها ديمقراطية كاملة (بعلامة تقترب من ١٠)، أو استبدادية كاملة (بعلامة تقترب من ناقص ١٠)، أو استبدادية جزئياً (بعلامة بين ناقص ١٠ و٠)، أو ديمقراطية جزئياً (بعلامة بين ٠ و١٠).[٣] كما قسم مشروع فريق عمل عدم الاستقرار السياسي الديمقراطيات الجزئية إلى تلك التي تحتوي الفصائليةَ، وتلك التي لا تحتويها، فالفصائلية هي "التنافس اللامحدود

1- Jack A. Goldstone et al., "A Global Model for Forecasting Political Instability," *American Journal of Political Science* 54, no. 1 (2010): 190–208, https://doi.org/10.1111/j.1540-5907.2009.00426.x.

٢- لمراجعة تقييم نقدي لهذه المقاربة، انظر Zach Jones, "An Analysis of Polity IV and Its Components," http://zmjones.com/polity/.

٣- لقد استُبدِلَ بوليتي ٤ الآن بالنسخة التالية، مشروع بوليتي ٥. انظر "The Polity Project," Center for Systemic Peace, http://www.systemicpeace.org/polityproject.html. لاحظ أيضاً أنهم يصنفون البلدان الآن بدرجات على بوليتي من ناقص خمسة إلى خمسة على أنها "أنوقراطيات" (anocracies)، وهي أنظمة حكم تُعدُّ مزيجاً من الديمقراطية والاستبداد.

القائم على الاستقطاب الحاد بين كتل تسعى إلى مصالحها الضيقة على المستوى الوطني. هذه المقاربة التي تنطوي على أن الفائز يأخذ كل شيء في السياسة، تصاحبها عادة تعبئة جماهيرية قائمة على المواجهة، كما حدث في فنزويلا في مطلع الألفية، وفي تايلاند قبل الانقلاب العسكري عام ٢٠٠٦، والتخويف خلال عمليات المنافسة الانتخابية والتلاعب بهذه العملية".[١] كانت الديمقراطيات الجزئية التي تحتوي الفصائليةَ أنظمةً سياسية غير مستقرة على نحو استثنائي؛ وكان ثمة احتمال كبير في أن تنزلق هذه البلدان إلى حروب أهلية. الدول القائمة على الاستبداد الجزئي متوسطة من حيث الاستقرار، وكانت الطبقات المتبقية في النظام (الديمقراطيات الجزئية دون فصائلية، والديمقراطيات الكاملة، والدول الاستبدادية) مستقرة نسبياً.

شملت العوامل الأخرى التي رفعت من احتمال قيام حرب أهلية، كما أظهر تحليل فريق عمل عدم الاستقرار السياسي، ارتفاع معدلات وفيات الأطفال، والصراع المسلَّح في الدول المجاورة، والقمع الذي تقوده الدولة ضد أقلية.

في كتاب **كيف تبدأ الحروب الأهلية؟** تصف وولتر مجموعة مماثلة من الأسباب الناجمة عن بداية عدم الاستقرار السياسي. كما في دراسة نشرت عام ٢٠١٠، فإن العامل الأول الذي تطرحه هو نوع النظام السياسي: "يتبين أن أحد أفضل المتنبئات بما إذا كان البلد سيعاني حرباً أهلية يتمثل فيما إذا كان متحركاً في اتجاه الديمقراطية أو مبتعداً عنها". وتشير إلى مثل تلك الأنظمة المتوسطة بين أنظمة استبدادية كاملة وأنظمة ديمقراطية كاملة، وتسميها "أنوقراطيات". يتمثل العامل الثاني، مرة أخرى، في الفصائلية، ولا سيما حين تستند إلى هوية إثنية أو دينية. إضافةً إلى ذلك، يكون خطر نشوب العنف مرتفعاً على نحو خاص، حين تتصور إحدى الفصائل الإثنية أنها تخسر – اقتصادياً، أو ثقافياً، أو من حيث المكانة. ويرفع قمع الحكومة لمجموعة تشكل أقلية فُرصَ لجوء الأقلية إلى استعمال

١- Goldstone et al., "A Global Model," 196.

السلاح، ويتمثل العامل الأخير على قائمة أسباب وولتر في ظهور الإنترنت، والتبني واسع النطاق للهواتف الذكيّة، ونشوء وسائل التواصل الاجتماعي، ومن وجهة نظرها، أنَّ خُوَارزميّات وسائل التواصل الاجتماعي تُشكّل "مُسرِّعات" للعنف، وذلك بالترويج للشعور بوجود أزمة دائمة، وهو شعور من اليأس المتنامي، والتصوُّر أن المعتدلين قد أخفقوا. "عند تلك النقطة يندلع العنف: حين يقتنع المواطنون بأنْ لا أملَ في إصلاح مشكلاتهم بالوسائل التقليدية".[1]

ثمّةَ قيمةٌ كبيرة في المنهج الذي تتبعه مجموعة فريق عمل عدم الاستقرار السياسي وتحليلات مشابهة تستعمل مجموعات بيانات العنف التي بناها باحثون نورديون، لكنْ تعتريها أيضاً قيود مهمة. صحيح أن متنبئات عدم الاستقرار قصيرة الأجل (قبل عامين) هي الأنوقراطية، والفصائلية، وقمع الدولة، لكنْ لماذا يتطور هذا النوع من العطالة؟ إنّ السببَ الشائعَ للأنوقراطية يتمثل إمّا في دولة استبدادية تحاول دمقرطة نفسها تحت ضغوط الصراع الداخلي للنخب والتعبئة الشعبية، وإمّا في ديمقراطية تنكص إلى الاستبداد لأسباب مماثلة – انهيار إجماع النخب وصعود الشعبوية، لكنّ هذا يعني أن الدولة المعنية هي أصلاً في خطر. يُعدُّ النذيران الآخران اللذان يسبقان الحرب الأهلية – الفصائلية وقمع الدولة – على نحو مماثل – وواضح) علامتين على عدم الاستقرار البنيوي. بعبارة أخرى، فإن نموذج فريق عمل عدم الاستقرار السياسي يعتمد على مؤشرات تقريبية للتنبؤ بالحرب الأهلية، لكنه لا يخبرنا لماذا يطوِّر أي بلد السياسات الانقسامية والتعطيلية التي تجعله عُرضةً لاندلاع الحرب الداخلية.

تتمثل مشكلة أخرى في العمق الزمني التاريخي الضحل للبيانات التي حلّلتها مجموعة فريق عمل عدم الاستقرار السياسي (التي تعود إلى عام ١٩٥٥

1- Barbara F. Walter, *How Civil Wars Start*: *And How to Stop Them* (New York: Crown, 2022), 127–28. See also Jonathan Haidt, "Why the Past 10 Years of American Life Have Been Uniquely Stupid," *The Atlantic*, April 11, 2022, https://www.theatlantic.com/magazine/archive/2022/05/social-media-democracy-trustbabel/629369/.

فقط)، فقد كان النصف الثاني من القرن العشرين، الذي استُمِدّت منه معظم بيانات فريق عمل عدم الاستقرار السياسي، فترة زمنية غير عادية في كثير من الأوجه. الأكثر أهمية، أنها جاءت بين موجتين رئيستين من عدم الاستقرار السياسي الذي ينزع إلى الحدوث كل ٢٠٠ سنة تقريباً. كما رأينا في الفصل الثاني، فإن المجتمعات البشرية المعقدة تمر أيضاً في حالة تناوب بين المراحل التكاملية والتفككية، فالعصور الوسطى العليا تبعتها أزمة العصور الوسطى المتأخرة، وعصر النهضة أتت بعده الأزمة العامة للقرن السابع عشر، وعصر التنوير أتى بعده عصر الثورات، التي انتهت في مطلع القرن العشرين، أما عصر الخلاف الذي نعيشه فهو في بدايته فحسب. ومن ثم، فإن المدة التي تغطيها بيانات فريق عمل عدم الاستقرار السياسي اتسمت بالهدوء النسبي لأنها جاءت بين عصر الثورات وعصر الخلاف الذي نعيشه. كان هناك كثير من الحروب الأهلية، وحالات التمرد، وبضع حالات إبادة جماعية أيضاً، لكنها أصابت الأجزاء الأقلّ تطوُّراً من العالم – مناطق كانت عمليات بناء الأمة فيها قد بدأت حديثاً نسبياً، وكان الشعور بالوحدة الوطنية لم يتشكل بعد. على سبيل المثال، أفريقيا جنوب الصحراء مقسمة الآن إلى دول مصطنعة، ظهرت بعد انحسار موجة الاستعمار الأوروبي، وفي معظم هذه الدول تعيش مجموعات عشوائية من مجموعات متعددة الإثنيات، وفي معظم هذه البلدان مجموعات عشوائية من فئات إثنية متعددة. الأسوأ من ذلك، أنَّ كثيراً من المجموعات الإثنية منقسمة بين دول عدّة، وعلى نحو مماثل، ولو أقل تطرفاً، الظروف في الشرق الأوسط، حيث انقسمت كردستان، على سبيل المثال، بين أربع دول مختلفة، لكنْ من غير المفاجئ أن الحروب الأهلية الأكثر تكراراً على مدى الخمسين عاماً إلى الستين الماضية كانت بين مجموعات إثنية مختلفة، وأن الإثنية كانت هي الأيديولوجيا التي دفعت الأطراف المتنافسة، وبسبب هذا الانحياز في بيانات فريق عمل عدم الاستقرار السياسي، تُبالغ وولتر في تقدير أهمية الهوية الإثنية بصفتها الدافعَ الرئيسَ للصراع.

حين نُوسّع الفترات التاريخية التي تُغطّيها بياناتنا (كما فعلنا في حالة قاعدة بيانات الأزمات)، نكتشف أن دوافع المشاركين في الحرب الأهلية تباينت في حقب تاريخية مختلفة، وفي أجزاء مختلفة من العالم، ففي أثناء أزمة العصور الوسطى المتأخرة، كانت معظم الصراعات في أوروبا صراعاتِ سُلالاتِ – اللانكاستريّين ضد اليوركيّين، والأورليانيّين ضدّ البورغونديّين. (كانت هذه الحروب الأهلية غالباً **ألعاب عروش**). على العكس من ذلك، ففي الأزمة العامة في القرن السابع عشر، كان الدين الأيديولوجيا الأكثر بروزاً – الهوغونوت ضد الكاثوليك، والبيوريتانيون ضد الأنغليكانيين، وهلمّ جرّاً. شهد عصر الثورات صعود الأيديولوجيات الحديثة، مثل الليبرالية والماركسية، وفي الوقت نفسه، كانت الشعبوية وصراع الطبقات أكثر من اختراعات حديثة صرفة، فقبل ألفي سنة، كانت الأطراف المتصارعة الرئيسة في أواخر الجمهورية الرومانية البابيولاريس (populares) (حزب الشعب) والأوبتيماتيس (optimates) (حزب الطبقة الحاكمة)، وعلى نحو مماثل، فإنّ الصراعات الإثنية لا تقتصر على العصر الحديث – فقد كانت حاضرة في العالم القديم أيضاً (على سبيل المثال، الحروب الرومانية– اليهودية في القرنين الأول والثاني). الفكرة إذاً هي أن الأيديولوجيات والدوافع المحددة للمشاركين في الحرب الأهلية متنوعة زماناً ومكاناً، كما أنها سائلة جداً، وعُرضة للتغيُّر في أثناء الصراعات الطويلة (كما ناقشنا في الفصل الرابع)، وهكذا، فإنّ بناءَ نموذج تنبؤيّ على السنوات الستين الماضية من التاريخ فحسب يمكن أن يكون مُضللاً. إننا نعيش الآن في بداية أحدث موجة من عدم الاستقرار العالمي، وقد لا تُشكّل دروسُ عالم ما بعد الحرب دليلاً جيداً على ما نتوقّعُهُ في المستقبل القريب والمتوسط.

في الواقع، يتبيّن أنّ هذا صحيح – إذ فقد نموذج فريق عمل عدم الاستقرار السياسي قدرته على التنبؤ بالصراع المستقبلي. كما ذكرت قبل قليل، فإن الدراسة التي نشرها المشروع في عام ٢٠١٠ أظهرت أن نموذج فريق عمل عدم الاستقرار السياسي كان قادراً على التنبؤ ببداية الحرب الأهلية بدقة ٨٠ بالمئة. كيف حُصِلَ

على هذه النتيجة؟ بنت مجموعة فريق عمل عدم الاستقرار السياسي أولاً نموذجها الإحصائي باستعمال بيانات مستقاة من الفترة الفاصلة بين عامي ١٩٥٥ و١٩٩٤، ثم قارنت تنبؤات النموذج بما حدث في العقد التالي (١٩٩٥-٢٠٠٤)، وهذه مقاربة علمية سليمة لأنها تنبئنا بمدى قدرة النموذج على إعطاء "تنبؤات من خارج العينات". عاد الباحثون بأنفسهم إلى عام ١٩٩٤، وتحقّقُوا مِنْ أنّ نموذجهم لا يعرف شيئاً عن البيانات التي سيُتَنَبَّأُ بها (في العقد التالي)، وتسير الأمور حتى الآن على ما يرام، لكنْ بعد عشر سنوات كرّرت مجموعة أخرى من الباحثين دراسة فريق عمل عدم الاستقرار السياسي باستعمال نموذجهم للتنبؤ بعقد ٢٠٠٥-٢٠١٤. يا للأسف! كان أداء نموذج فريق عمل عدم الاستقرار السياسي سيّئاً. على نحو خاص، إذ أخفق في ملاحظة الربيع العربي، مثل الثورة المصرية عام ٢٠١١ (انظر الفصل الخامس). الأكثر أهمية، هو أن مصر والدول العربية الأخرى، التي شملتها اندلاعات حادة للعنف السياسي في عام ٢٠١١، كانت جميعها دولاً استبدادية، (وليست أنوقراطيات، كما سيتنبأ نموذج فريق عمل عدم الاستقرار السياسي). إضافة إلى ذلك، فإن الإثنية لم تلعب دوراً في الثورة المصرية، بالنظر إلى أن المجموعات المتنازعة جميعاً كانت من السنة العرب. (كما أن في مصر أقلية إثنية هي الأقباط المسيحيون، لكنهم لم يلعبوا دوراً في الثورة إلّا بوقوعهم ضحايا عرضيّين للإسلاميين.). بعبارة أخرى، إنَّ ما حدث كان أن العوامل التي نجحت بوصفها مُؤشِّرات مقدمة لعدم الاستقرار قبل عام ٢٠٠٥ توقّفت عن أن تكون متنبئات جيدة بعد ذلك.

في مقالة عن التنبؤ بالعنف نُشرت في عام ٢٠١٧ – "التنبؤ بالصراع المسلح: حان وقت تعديل توقعاتنا؟" – كتب لارس–إيريك سيدرمان ونلز ب. ويدمان:

> في المحصلة، إنَّ الأملَ بأنْ تُوفِّرَ البياناتُ الكبيرة تنبُّؤاتٍ صالحةً بـ"القوة الوحشية" الخالية من النظرية في غير مكانه في مجال العنف السياسي، فخوارزميات استخلاص البيانات المؤتمتة، مثل مسح الشبكة، وتقصي العلامات استناداً إلى وسائل التواصل الاجتماعي، قد تتمكن من التقاط التوتر

السياسي المرتفع، لكنّ هذا لا يعني أن هذه الخوارزميات قادرة على التنبؤ بأحداث صراع غير محتمل كثيراً بدرجة عالية من الدقة الزمنية والمكانية.[1]

وهذا يقودني إلى أهم عيوبِ مُقاربةٍ قائمةٍ على خوارزميات خالية من النظرية. كما جادلت حتى الآن في هذا الكتاب، لا نستطيعُ فهم الانهيار الاجتماعي دون تحليل عميق لهيكليات السلطة داخل المجتمعات. من مجموعاتُ المصالح النافذة؟ ما أجنداتها؟ ما مصادرُ قوتها الاجتماعية؟ ما حجم السلطة التي تستعملها للدفع بأجنداتها؟ ما مدى تماسُكها وتنظيمها؟ هذه هي الأسئلة الرئيسة التي ينبغي طرحها إذا أردنا أن نفهم الصمود الاجتماعي وعكسه، الهشاشة الاجتماعية. وهنا يصبح تحليل باربرا وولتر في (كيف تبدأ الحروب الأهلية؟) غير كافٍ غالباً على نحو مؤسف، بل يصبح ساذجاً أحياناً على نحو مطلق. لنأخذ تفسيرها للثورة الروسية عام ١٩١٧، التي تزعم أنها "كانت مدفوعة بانعدام مساواة سياسي واقتصادي صارخ لمّا نهضت الطبقة العاملة الروسية، والأقنان، والجنود ضد الملكية لإقامة أول دولة اشتراكية في العالم". (أولاً، لم يكن هناك أقنان في روسيا في عام ١٩١٧؛ انظر مناقشتي لمرحلتي الإصلاح والثورة في روسيا في الفصل التاسع.)، أو لنأخذ تحليلها الأطول للثورة اليوروميدانية[2] في أوكرانيا، التي كانت، وَفْقَ ما تقول، انتفاضة لـ "مواطنين – كثير منهم شباب من غرب أوكرانيا ذوو ميول أوروبية" ضد فيكتور يانوكوفيتش، الذي سعى لتعزيز العلاقات الاقتصادية مع روسيا بدلاً من تعزيزها مع الاتحاد الأوروبي.

ما الخطأ في مثل هذه البيانات؟ إن "الناس" أو "المواطنين" لا يطيحون بالدول، أو يُؤسّسون دولاً جديدة. وحدهم "الناس المُنظَّمُون " يمكنهم أن

1- Lars-Erik Cederman and Nils B. Weidmann, "Predicting Armed Conflict: Time to Adjust Our Expectations?," *Science* 355, no. 6324 (2017): 474–76.

٢- إشارة إلى الاحتجاجات واسعة النطاق التي خرجت في أوكرانيا في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣، احتجاجاً على قرار الرئيس الأوكراني يانوكوفيتش عدم توقيع الشراكة السياسية والتجارة الحرة مع الاتحاد الأوروبي. (م)

يحققوا تغييراً اجتماعياً إيجابياً وسلبياً. مرّةً أخرى، من أجل أن نفهم لماذا كانت ثورة ناجحة (أو غير ناجحة)، نحن في حاجة إلى فهم ماهية مجموعات المصالح المتنازعة، ومدى القوة التي تستعملها، ومدى تماسكها الداخلي، ومدى تنظيمِها العملَ الجماعيّ. هذا هو جوهرُ المنهج البنيوي– الديناميكي (الذي شرحته في الفصل ٣).

ومن أجل إظهار أنّ مثل هذا التحليل للقوى ضروري لفهم انهيار الدولة (أو عدم انهيارها)، دعونا ندرس المسارات المتباعدة لثلاثة بلدان أُسِّسَتْ عام ١٩٩١ لمّا انهارَ الاتحاد السوفييتي: روسيا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا. في الواقع، إنَّ تفكُّكَ الاتحاد السوفييتي كانَ نتيجة مباشرة للاتفاق الذي توصل إليه القادة الثلاثة لهذه الجمهوريات (السابقة) في اتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية: اتفاقات بيلوفيش (Belovezh Accords). تشترك هذه البلدان السلافية الشرقية الثلاثة بثقافات متشابهة جداً. إضافةً إلى ذلك، في عام ١٩٩١، كانت متشابهة جداً طبقاً لمعايير مجموعة عمل عدم الاستقرار السياسي؛ فكل واحدة منها كانت أنوقراطية، وتنتقل من الاستبداد إلى الديمقراطية؛ وكانت جميعها تتميز بانقسامات إثنية؛ وكانت جميعها عرضة لـ "مسرِّعات" عدم الاستقرار الناجمة عن ظهور الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي بعد عام ٢٠٠٠، لكنْ، على الرغم من أوجه الشبه هذه، فإن مساراتها تباعدت. شهدَتْ أوكرانيا ثورتين ناجحتين بعد عام ٢٠٠٠، لا ثورة واحدة فحسب. وشهدت كلٌّ من روسيا وبيلاروسيا موجة كاسحة من المظاهرات ضد الحكومة (روسيا بعد الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠١١، وبيلاروسيا بعد الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٢٠)، لكنَّ أياً منهما لم ينجم عنه انهيار الدولة. ما الذي يفسر هذه المسارات المتباعدة؟

الدول السلافية في حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتي

كان الاتحاد السوفيتي حقاً شركة عملاقة تملك فيها الدولة الأصول المنتجة للثروة (أو "وسائل الإنتاج،" إذا شئنا استعمال المصطلحات الماركسية). لمّا انهار

في عام ١٩٩١، خَصْخَصَ مديرو هذه الشركة – مسؤولو الحزب، ومديرو المصانع، وأزلامهم رأسَ المال الهائل هذا بسرعة (إلّا في بيلاروسيا، كما سنرى أدناه). كانت الخصخصة عملية فاسدة وعنيفة على نحو لا يصدَّق، إذ مشى المنتصرون حرفياً على جثث منافسيهم الأقل حظاً. في حكاية مسلية، وإن كانت حزينة، في اجتماع بين اثنين من أقوى الأوليغاركات الروس، بيريزوفسكي وغوسينسكي، يُذكَر أن أحدهما سأل الآخر: "لماذا أمرت باغتيالي؟" الرد؟ "لا، أنت من أمر باغتيالي!"، وتبين أن كلاً منهما استأجر قتلة محترفين لاغتيال الآخر.

مع تركُّز الثروة في أيدي أقل من ١٠ أوليغاركات، فإن رفاه ٩٩ بالمئة انهار. كان الروس يموتون جماعات في حالات وفيات اليأس. بحلول عام ١٩٩٦، أصبح الاستياء الشعبي حاداً إلى درجة بات من الواضح أن الرئيس حينذاك، بوريس يلتسين، لم يكن أمامه فرصة للفوز في إعادة الانتخابات – إذ إن معدلات الرضا عنه كانت أقل من ١٠ بالمئة، وكان المتحدي الرئيس له الشيوعي غينادي زوغانوف. أصبحت الأوليغاركية قلقة من أن فوزاً للشيوعيين يمكن أن يخلق لها صعوبات تمنعها من الاستمرار في نهب البلاد. عقدت مجموعة من أقوى الأوليغاركات، بقيادة بريزوفوسكي وغوسينسكي، صفقة مع يلتسين فحواها أنه مقابل ضمانه لخصخصة مؤسسات الدولة، يُموّلون حملته، ويضعون مواردهم الإعلامية خلفه؛ ففي تلك المرحلة، كانوا يسيطرون على وسائل الإعلام، كما استأجروا فريقاً من الاستشاريين الأميركيين في الحملات السياسية (بمن فيهم سيّئ سيء الصيت ديك موريس) لإدارة الحملة وإعادة انتخاب يلتسين. حتى ذلك لم يكن كافياً، وفي النهاية تعيَّن عليهم اللجوء إلى عمليات احتيال انتخابي لإعادة انتخاب يلتسين.

هكذا أصبحت روسيا بلوتوقراطية مفرطة في عام ١٩٩٦، ولأنّ الأوليغاركات لم يُكِنُّوا احتراماً يُذكَر لإدارة الدولة، فإنّ عمليات تفكُّك الدولة تسارعت. توقّف مالكو المصانع عن دفع رواتب عمالهم، وحدثت موجة من

الإضرابات العمالية في الخريف الذي تلا الانتخابات، واندلعت حرب دموية في الشيشان مرة أخرى، وفي عام ١٩٩٨، ضربت البلادَ أزمةٌ مالية حادة نجم عنها تخفيض قيمة الروبل وعدم تمكُّن الدولة من سداد ديونها.

في هذا الوقت، تشكّلت شبكتا قوة رئيستان في روسيا. كان الفصيل الحاكم يتكون من النخب الاقتصادية (الأوليغاركات)، الذين سيطروا كُلّيّاً على النخب الأيديولوجية بامتلاكهم وسائلَ الإعلام الرئيسة. وشغلت المجموعة الثانية النخب الإدارية (البيروقراطية) والنخب العسكرية (ما يسمى بالسيلوفيكي، الذين كانوا يشملون ضباط الأمن والجيش في الدولة). في صراع القوى الذي نشأ، هزمَ تحالفُ النخب الإدارية/ العسكرية، بقيادة فلاديمير بوتين، البلوتوقراطيين. لم تحدث ثورة مفاجئة؛ إذ إنّ العملية كانت تدريجية، إذ أُرسِلَ الأوليغاركات واحداً بعد آخر إلى المنفى (بيريزوفسكي وغوسينسكي)، وسُجنوا، ثمّ نُفُوا (خودوروسفكي)، أو أُحِيلُوا إلى مناصب أدنى في تراتبية السلطة (بوتانين). خسر الأوليغاركات لأنهم لم يكونوا طبقة حاكمة متماسكة، وكانوا ينفقون على محاربة بعضهم بعضاً قدراً أكبر من الطاقة مما ينفقونه على الدفع بمصالحهم الجماعية، كما أنهم قلّلوا من أهمية السيطرة على الأجهزة القسرية، وأخيراً، كانوا يفتقرون إلى الشرعية، وكانت أساليبهم في النهب موضعَ كراهية عميقة من السُّكّان.

شكّلَ انتصار النخب الإدارية/ العسكرية عودةً إلى النمط التاريخي الذي كان قد ميز علاقات القوة في روسيا منذ القرن الخامس عشر على الأقل. كما رأينا في أمثلة تاريخية أخرى (مثل مصر والصين)، فإن الثقافة السياسية تنزع إلى الصمود وإعادة بناء نفسها، حتى بعد الاضطرابات الكبرى.

تبيّنَ أنّ الطبقةَ الحاكمة الجديدة (أو المستعادة) في روسيا تقوم على الفساد والمحسوبية على نحو كبير، فقد أثرى أفرادُها أنفسهم كثيراً بتجريد الأوليغاركات من الأصول المنتجة للثروة وتوجيه جزء كبير من نفقات الدولة

إلى جيوبهم. من غير المفاجئ إلى حدّ ما أنه على الرغم من الأوجه القوية للنهب في أوساط الطبقة الحاكمة الروسية، تبيّنَ أنّ إدارتها للدولة أقل تعطيلاً من إدارة الأوليغاركات الذين سبقوهم. تمتّع نظام بوتين بعدد من النجاحات، ولا سيما في السنوات العشر الأولى بعد وصوله إلى السلطة، فقد أنهى الحرب الأهلية في الشيشان، ووضع ماليّةَ الدولة على أساس صحيح، بل مكّن التنمية الاقتصادية (أو ربما لم يتدخل فيها).

كان النمو الاقتصادي سريعاً، ولا سيما في العقد ١٩٩٨-٢٠٠٨، وأفرز تحسُّناً جذرياً في الرفاه الشعبي. بعد عام ٢٠٠٨، تباطأ النمو الاقتصادي، بل عانى من انعكاس مساره مرّاتٍ عدّة، لكنَّ المؤشرات الأخرى على جودة الحياة، مثل زيادة العمر المتوقع عند الولادة، وتراجع معدلات جرائم القتل، استمرّت في التحسُّن.

أخفقت الاحتجاجاتُ الشعبية، التي بدأت عام ٢٠١١، واستمرّت حتى عام ٢٠١٣، في هزِّ نظام بوتين. تركّزَ معظم المتظاهرين في المدينتين، (موسكو وسانت بطرسبرغ)، في حين أنّ بقيّةَ أنحاء البلاد لم تدعم الاحتجاجات. الأمر الأكثر أهمية أنّ الجزء الأساسي من الطبقة الحاكمة (السيلوفيكي) لم يُظهِرْ أيَّ تردُّد في دعمه بوتين.

في بيلاروسيا، لم يَسْتَعِد الأوليغاركات السلطة. في السنوات الثلاث الأولى من الجمهورية الجديدة، اكتسب أحدُ مُديري مزارع الشباب السابقين وأحد قادة الحملة ضد الفساد، ألكساندر لوكاشينكو، شعبيّةً بسُرعة، ففاز في الانتخابات الرئاسيّة عام ١٩٩٤ فوزاً ساحقاً (بحصوله على ٨٠ بالمئة من الأصوات)، ولأنَّ نظامَ لوكاشينكو لم يندفع في مجزرةٍ عَبْرَ حملات خصخصة كبيرة، فإنّ الدولة احتفظت بملكية الشركات الصناعية الرئيسة، ومنعت صعود الأوليغاركات، ونتيجة لذلك، ليس في بيلاروسيا ملياردير واحد على قائمة مجلة **فوربس**. (ثمة عدد قليل من البيلاروسيين على القائمة، لكنهم جميعاً حقّقوا ثرواتهم في روسيا.).

بعد الانتخابات الرئاسية في آب/ أغسطس ٢٠٢٠، اندلعت احتجاجاتٌ شعبية ضد نظام لوكاشينكو في مينسك ومدن كبيرة أخرى، ولبرهة، بدا (للمراقبين الخارجيين) أنّ النظام يسقط، لكنَّ الأحداث التي تلت أثبتت خطأهم. كان واضحاً أن لوكاشينكو كان قد أقام صلات قوية مع النخب العسكرية. (أستعمل لفظ "عسكري" بالمعنى العام – وليس الجيش فحسب، بل الأجهزة الأمنية الداخلية أيضاً). لم تحدث انشقاقات عن شبكة سلطة لوكاشينكو، وظل النظام قائماً. سُجنَ عددٌ من قادة المعارضة، حتى قبل الانتخابات، ودُفِع آخرون إلى المنفى. أدّى تصميم النظام على عدم الانحناء للمطالب، إضافةً إلى حملات الاعتقال والاحتجاز الكبيرة للمتظاهرين، إلى تقويض استعدادهم للمشاركة في الاحتجاجات. إضافةً إلى ذلك، ظلَّ دعمُ لوكاشينكو خارج العاصمة قوياً، ونتيجة لذلك، تلاشت الاحتجاجات تدريجياً، إذ خرجَ آخرُها في آذار/ مارس ٢٠٢١.

أوكرانيا: بلوتوقراطية

دعونا نتحوّل الآن إلى أوكرانيا. في تسعينيات القرن العشرين، كان الاقتصاد السياسي الأوكراني يوازي نظيره الروسي، فمجموعة من الأوليغاركات وصلت إلى السلطة عن طريق خصخصة وسائل الإنتاج التي تملكها الدولة، لكنْ، بعد عام ١٩٩٩، افترقَ مسارُ البلدين. في أوكرانيا، لم تحدُثْ إطاحة بالاوليغاركية. بدلاً من ذلك، حقّقت النخب الاقتصادية سلطةً مطلقة.

ما الذي قدّمه الحكم الأوليغاركي إلى رفاه الأوكرانيين العاديين؟ دعونا ننظر إلى حصة الفرد الأوكراني من الناتج المحلي الإجمالي عشية ثورة عام ٢٠١٤. طبقاً لكتاب **حقائق العالم** (*World Factbook*)، الذي تنشره السي. آي. إيه، كانت حصة الفرد الأوكراني من الناتج المحلي الإجمالي عام ٢٠١٣، ٧,٤٠٠ دولار. أي أقل بكثير من نظيره في هنغاريا (١٩,٨٠٠)، أو بولندا (٢١,١٠٠)، أو سلوفاكيا (٢٤,٧٠٠ دولار)، كما أنه أدنى بكثير من مثيله في روسيا (١٨,١٠٠ دولار)،

الذي يبلغُ ضعفَيْ مثيلِه في أوكرانيا ونِصْفَ ضِعْفِه، وهذه ملاحظةٌ لافتة على نحو خاص بالنظر إلى أنَّ حصَّةَ الفرد من الناتج المحليّ الإجماليّ في أوكرانيا قبل انهيار الاتحاد السوفييتي أعلى منها في روسيا – أو بيلاروسيا.

قد لا تكون روسيا المثال الأفضل للمقارنة، لأنها تمتلك ثروة معدنية هائلة من النفط والغاز، ولذلك، ربما تكون المقارنة أفضل مع بيلاروسيا، وهي بلد يفتقر إلى الثروة المعدنية التي تمتلكها روسيا، ويفتقر أيضاً إلى المناخ الملائم و"التربة السوداء" الغنية التي تملكها أوكرانيا. معَ ذلك، فإنّ حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في بيلاروسيا عام ٢٠١٣ كان رقماً محترماً بلغ ١٠٠ر١٦ دولار، أي أكثر بمرتين من مثيله في أوكرانيا. إضافةً إلى ذلك، ولأن بيلاروسيا لم يكن فيها أي مليارديرز، فإن متوسط الدخل في بيلاروسيا كان أعلى مقارنة بأوكرانيا (أو روسيا)، لأن التوزيع الأكثر عدالة للثروة يرفع متوسط الدخل.

على الرغم من أنّ الأوليغاركات الأوكرانيين حكموا البلاد دون أي قيود داخلية، لكنهم لم يصبحوا طبقة حاكمة متماسكة. بدلاً من ذلك، شكّلوا فصائل عدة، وصارعَ بعضُهم بعضاً، مُستعملين أسلحةً مثل السياسات الانتخابية، والاستيلاء شبه القانوني على الممتلكات، والسجن أيضاً. لمّا وصل يانوكوفيتش إلى السلطة في عام ٢٠١٠، سجن خصمه، يوليا تيموشينكو، وهي إحدى الأوليغاركات التي عُرِفت شعبياً بأميرة الغاز. حوّلت الصراعاتُ الضارية بين الأوليغاركات الديمقراطيةَ الأوكرانية إلى مهزلة، فبصرف النظر عمن انتخبه الأوكرانيون، لم يفعل أصحاب المناصب شيئاً للناس العاديين؛ وبدلاً من ذلك انتزعوا الثروة والسلطة من الأوليغاركات الخاسرين، وتعمّقت العطالة العامة المتولدة أكثر مع انقسام ناخبي البلاد إلى مجموعتين متساويتين عددياً ومتعارضتين جذرياً من حيث الأفكار بشأن الاتجاه الذي ينبغي لأوكرانيا أن تسير فيه. (وكان هذا صحيحاً، إلى حد ما، فيما يخصُّ بيلاروسيا وروسيا، اللتين تحتوي كلٌّ منهما أقليّةً كبيرة تميلُ إلى الغرب). أراد النصف الغربي من أوكرانيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي، أما النصف الشرقي

فرغب في المحافظة على علاقات ثقافية واقتصادية مع روسيا وتعميقها؛ وكانَ مُصمّماً على منعِ دخولِ أوكرانيا حِلفَ شمال الأطلسي، وكانت مختلف فصائل الأوليغاركية تحاول جذب هذه المجموعة الانتخابية أو تلك، لكنْ في الواقع كانوا جميعهم ميّالين إلى الغرب، لأنهم أودعوا ثرواتهم في المصارف الغربية، وعلَّموا أطفالهم في أوكسفورد أو ستانفورد، واشتروا ممتلكات في لندن أو في الكوتازور، واحتكّوا بالنخب العالمية في دافوس.

في عرضي للقوى الأربع الدافعة إلى عدم الاستقرار **(**الفصل الثاني**)**، أشرت إلى أن القوة الدافعة الأخيرة، الضغوط الجيوسياسية، يمكن إهمالها، للتوفير، في نماذجنا الكليوديناميكية للإمبراطوريات الكبرى تاريخياً ولأقوى الدول المعاصرة، مثل الولايات المتحدة والصين، لكنْ بشأن بلدٍ متوسّط الحجم مثل أوكرانيا، يمكن لمثل تلك العوامل أن تكون مهمة جداً، وينبغي تضمينها في التحليل. ثمة سببان إضافيان يجعلان أوكرانيا هشّةً خصوصاً أمام الضغوط الخارجية.

أولاً، أنها تقع على خط التصدُّع الجيوسياسي بين مجال النفوذ والمصالح الأميركية **(**على نحو أساسي حلف شمال الأطلسي**)** ومجال المصالح الروسية **(**"الخارج القريب،" كما يشار إليه عادة في روسيا**)**. في الواقع، إن خط التصدع يمر تماماً في وسط أوكرانيا، حيث يميل النصف الغربي إلى حلف شمال الأطلسي والنصف الشرقي إلى روسيا. رأى إستراتيجيٌّ أميركيٌّ بارزٌ هو الراحل زبيغنيو بريجنسكي، استقلالَ أوكرانيا "فضاءً جديداً مهماً على رقعة الشطرنج الأوراسية،... بل محوراً جيوسياسياً لأنّ مُجَرَّدَ وُجودِها بلداً مستقلاً يساعد في تغيير روسيا، فمن دون أوكرانيا، تتوقّف روسيا عن أن تكون إمبراطورية أوراسية".[1] شريحة نافذة من مؤسسة السياسة الخارجية الأميركية تَعُدُّ استمرارَ وجود روسيا أضعف، لكنها لا تزال قوية، وتُعدُّ من أكثر التهديدات أهميّةً

1- Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard*: *American Primacy and Its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1997), 45.

للتفوُّق الأميركي، حتى إنها أكبر (من صعود الصين).[1] استناداً إلى آراء بريجنسكي، فإن هذه الشريحة دفعت في اتجاه توسيع الناتو إلى روسيا، وبحلول عام ٢٠١٤، وصل الدور إلى إضافة أوكرانيا إلى التحالف.

ثانياً، كان الأوليغاركات الأوكرانيون عُرضةً للوقوع تحت سيطرة المصالح الغربية خاصّة، ولأنَّ البلوتوقراطيين احتفظوا بمعظم ثرواتهم في مصارف غربية، كان يمكن أن تُجمَّد، أو يُستولى عليها حتى.[2] وهذا ما اكتشفه الأوليغاركات الروس في عام ٢٠٢٢.[3] وثمة تهديد أكثر مباشرةً يتمثل في الإجراءات القانونية لتسليم الولاياتِ المُتّحدةَ أحدَ الأوليغاركات لمحاكمته. دميترو فيرتاش – وهو عضو بارز من عائلة دونسك من الأوليغاركات

1- "Ukraine is the biggest prize": Carl Gershman, "Former Soviet states stand up to Russia. Will the U.S.?" *Washington Post*, September 26, 2013, https://www.washingtonpost.com/opinions/former-soviet-states-stand-up-to-russia-willthe-us/2013/09/26/b5ad2be4-246a-11e3-b75d-5b7f66349852_story.html..

في حزيران/يونيو ٢٠٢٢، صنف حلف شمال الأطلسي روسيا "التهديد الأكثر أهمية ومباشرة".

٢- أعلنت نائبة النائب العام في وزارة العدل الأميركية، ليسا موناكو، حين تشكيل فريق عمل خاص بإلقاء القبض على 'الكلبتوقراطيين': "نحذر الأوليغاركات من أننا سنستعمل كلَّ أداة ممكنة لتجميد عائداتكم المتأتية من الأنشطة الإجرامية ومصادرتها. انظر:
https://www.justice.gov/opa/pr/attorney-general-merrick-b-garland-announces-launchtask-force-kleptocapture.

٣- في آذار/مارس ٢٠٢٢، جمدت الحكومة البريطانية الأموال المتوافرة لدى ميخائيل فريدمان (مؤسس أكبر مصرف خاص في روسيا، وتبلغ قيمته أكثر من عشرة مليارات دولار). أبلغ 'أخبار بلومبيرغ' أنّ بطاقته الخاصة بالصراف الآلي لم تعد تعمل، وأنّ المملكة المتحدة قيّدت مصروفه الشهري بمبلغ ٢,٥٠٠ جنيه إسترليني. بعد تجميد أصوله، اشتكى فريدمان: "لا أعرف كيف أعيش. لا أعرف. فعلاً لا أعرف". انظر: Stephanie Baker, "Broke Oligarch Says Sanctioned Billionaires Have No Sway Over Putin," *Bloomberg*, March 17, 2022, https://www.bloomberg.com/news/features/2022-03-17/broke-russian-oligarchfridman-says-sanctioned-billionaires-can-t-sway-putin. لم يكن فريدمان الهدف الوحيد، إذ تدّعي الحكومات الغربية أنها جمدت أو صادرت أكثر من ٣٠ مليار دولار من أصول الأوليغاركات الروس منذ الحرب الروسية-الأوكرانية. انظر "Russian Elites, Proxies, and Oligarchs Task Force Joint Statement," US Department of the Treasury, June 29, 2022, https://home.treasury.gov/news/press-releases/jy0839.

الأوكرانيين، وكان قبل عام ٢٠١٤ داعماً قوياً لحزب المناطق بزعامة يانوكوفيتش– تحت الإقامة الجبرية في فيينا حالياً (في عام ٢٠٢٢)، ويُصارع ضدّ الإجراءات الأميركية لتسليمها إيّاه.

بحلول عام ٢٠١٤، كان "القناصل" الأميركيون، مثل الدبلوماسية المخضرمة فيكتوريا نولاند، قد حققوا درجة كبيرة من السلطة على البلوتوقراطيين الأوكرانيين، ولم يكن هذا رخيصاً؛ إذ تبجّحت نولاند بأن وزارة الخارجية كانت قد استثمرت خمسة مليارات دولار في توسيع نفوذها على الطبقة الحاكمة الأوكرانية.[1] كانَ ما ساعدَ العُملاءَ الأميركيين في هذا العداوات العميقة بين الأوليغاركات بعضهم تجاه بعض، وانقسام الطبقة الأوليغاركية، ولأنَّ الأوليغاركات لم يتمكنوا من الاتفاق فيما بينهم، فإنهم كانوا في حاجة إلى مدير خارجي لوضع أجندة مشتركة. في أثناء ثورة 'الكرامة' في عام ٢٠١٤، كما نعرف من تفريغ مكالمة هاتفية بينهم، اتخذت نولاند وجيفري هايت، الذي كان حينئذ السفير الأميركي في أوكرانيا، قرارات بشأن من ينبغي تعيينه في مختلف مناصب الدولة (الرئيس، الوزراء، إلخ.)[2] على مدى ثلاثين عاماً منذ استقرار أوكرانيا، تطورت بُناها السلطوية بتشكيل مكوَّن من ثلاث طبقات: الشعب، الأوليغاركات، والقناصل الأميركيين. كانت جماهير المواطنين الأوكرانيين تقترع في الانتخابات الدورية، لكنّ كل من كانوا ينتخبونهم، بصرف النظر عن هوياتهم، كانوا يسعون لتحقيق مصالحهم الخاصة دون أي اعتبار لرغبات الناخبين (إلا حين تتوافق الرغبات الشعبية مع رغبات الأوليغاركات)، ونتيجة لذلك، فإن كل إدارة تُنتخَب سُرعانَ ما تفقد الدعم الشعبي، وتغرق في وحل الفضائح. لم يتمكّن أيُّ رئيس من الاستمرار أكثر من فترة واحدة ما عدا ليونيد كوتشما. في الجولة التالية

1- Victoria Nuland, "Remarks" (speech), US-Ukraine Foundation Conference, Washington, DC, December 13, 2013, https://2009-2017.state.gov/p/eur/rls/rm/2013/dec/218804.htm.

2- "Ukraine crisis: Transcript of leaked Nuland-Pyatt call," BBC News, February 7, 2014, https://www.bbc.com/news/world-europe-26079957.

من الانتخابات، كان الناخبون المحبَطون يطردون الطاقم السابق، وينتخبون طاقماً آخر، وحدثت ثورتان، واحدة في عام ٢٠٠٤، والأخرى في عام ٢٠١٤، لكنّ السياسيين الجدد كانوا يُختارون أيضاً من بين الأوليغاركات أو الأشخاص الذين يسيطر عليهم هؤلاء على نحو وثيق. الشيء الوحيد الذي كان يتغير أنّ مجموعات مختلفة من الأوليغاركات تصطفُّ على معلف ثروات البلد.

الفصائل الأوليغاركية المتنافسة على السلطة متغيرة دائماً، إذ يدخل أوليغاركات أفراد ويغيّرون التحالفات طبقاً للوضع الراهن، لكنّ الباحثين حدّدُوا أربعَ شبكات، أو "عائلات،" رئيسة، بناءً على أصولهم الجغرافية: دنيبرو (دنيبرو بتروفسكي سابقاً)، ودونسك في الجنوب الشرقي، وكييف في الوسط، وفولينيا في الغرب، وكان انتخاب يانوكوفيتش رئيساً في عام ٢٠١٠، ونجاح حزب الأقاليم الذي يقوده في الحصول على أكبر عدد من مقاعد البرلمان، انتصاراً لعائلة دونسك.

بدأ يانوكوفيتش مسيرته السياسية حاكماً لمقاطعة دونسك، وكان الداعم الرئيس ليانوكوفيتش وحزب الأقاليم رينات أحمدوف، أغنى أوليغاركات أوكرانيا وزعيم عائلة دونسك. ملأ نحو ٦٠ شاغراً على قائمة حزب الأقاليم بأشخاص موالين له شخصياً، وكان الداعم الثاني فيرتاش، الذي اختار ٣٠.[1] حالما أصبح يانوكوفيتش رئيساً، كان من المتوقع منه أن يستعمل منصبه لإثراء داعميه (دون أن ينسى نفسه، بالتأكيد)، لكنّه بدلاً من أن يبقى داخل حدود النهب المعتادة، أطلق برنامجاً كاسحاً من إعادة توزيع الثروة لمصلحة عائلته. تلقّى ابنه، خاصّةً، ثروة هائلة، وسرعان ما أصبح واضحاً للأوليغاركات الآخرين أن يانوكوفيتش يهدف إلى بناء عائلة أوليغاركية جديدة، كانَ يُشار إليها بـ "الأسرة". لو سُمح لهذا بالاستمرار، لاستغنى يانوكوفيتش سريعاً عن دعم أحمدوف وفيرتاش، واستنتج

1- Christian Neef, "Yanukovych's Fall: The Power of Ukraine's Billionaires," *Der Spiegel*, February 25, 2014, https://www.spiegel.de/international/europe/how-oligarchs-inukraine-prepared-for-the-fall-of-yanukovych-a-955328.html.

الاثنان أن عليهما الافتراق عن يانوكوفيتش والشروع في البحث عن بدائل. وكما ذكر الصحفي كريستيان نيف في شباط/ فبراير ٢٠١٤، فإن "أحمدوف، على سبيل المثال، كان ينسجم دائماً مع تيموشينكو، على عكس فيرتاش، وبدأ بدعم أرسيني ياتسينيوك، الذي تولى قيادة تحالف 'الوطن' لمّا سُجنت. دعمَ فيرتاش، من جهته، حزبَ فيتالي كليتشكو، التحالف الديمقراطي الأوكراني من أجل الإصلاح".[1] نتيجة لذلك، فقد يانوكوفيتش، الذي كان يواجه أصلاً معارضة الأوليغاركات الآخرين، دَعْمَ عائلة دونسك. مع أنه لم يدرك هذا ربما حينذاك، وبات كل ما هو مطلوب لإسقاط يانوكوفيتش نوعٌ من الذريعة.

في ملخصه للأحداث التي أفضت إلى ثورة اليورو ميدان، يكتب الصحفي الأميركي آرون ماتيه:

كانت شرارة احتجاجات الميدان قراراً اتّخذَهُ الرئيس فيكتور يانوكوفيتش بالتراجع عن اتفاق تجاري عرضه الاتحاد الأوروبي، والرواية التقليدية أنّ يانوكوفيتش تعرَّض للتنمُّر من راعيه الرئيس في موسكو. في الواقع، إن يانوكوفيتش كان يأمل تطوير العلاقات مع أوروبا، و"تنمر على كل من دفع من أجل إقامة علاقات أوثق بين أوكرانيا وروسيا،" كما ذكرت وكالة رويترز حينذاك، لكنَّ الرئيس الأوكراني تراجع لمّا قرأ التفاصيل الدقيقة لعرض الاتحاد الأوروبي. لم يكن من المطلوب أن تحدَّ أوكرانيا من علاقاتها الثقافية والاقتصادية مع روسيا فحسب، بل أنْ تقبلَ بإجراءات تقشُّف قاسية مثل "رفع سن التقاعد وتجميد الأجور والمعاشات التقاعدية". وكانت هذه المطالب أبعد ما تكون عن تحسين حياة الأوكرانيين العاديين، بل إنها كانت ستضمن لهم الحرمان التام وإنهاء مسيرة يانوكوفيتش السياسية.[2]

1- Christian Neef, "Yanukovych's Fall: The Power of Ukraine's Billionaires."

2- Aaron Maté, "By using Ukraine to fight Russia, the US provoked Putin's war," *Aaron Mate* (Substack blog), March 5, 2022, https://mate.substack.com/p/by-using-ukraine-tofight-russia.

بدأت الانتفاضة لمّا احتشدَ عشرات آلاف المتظاهرين في ساحة الميدان في كييف، احتجاجاً على فساد الحكومة ومُطالبةً بالاندماج مع الاتحاد الأوروبي. قالَ الأوليغارك بيترو بوروشينكو، وهو أحد أعضاء عائلة فولهينيا التي كانت معارضة ليانوكوفيتش لاحقاً، في مقابلة: "من البداية، كنتُ أحدَ مُنظِّمي الميدان، ولعبتْ قناتي التلفزيونية – القناة ٥ – دوراً مهمّاً جداً".[1]

عند تلك النقطة كان يانوكوفيتش لا يزال يحتفظ بقدر من الدعم الشعبي، لكنّ مُؤيّديه كانوا جميعاً في شرق أوكرانيا، في حين أنّ سكان العاصمة كانوا جزءاً من النصف الموالي للغرب من البلاد، ومعظم هذه المجموعة كانت قد صوّتت ضدّ يانوكوفيتش في الانتخابات السابقة على أيّ حال. الأمر الأكثر أهمية أنّ عشرات آلاف الأوكرانيين الغربيين، وكان من بينهم مجموعة كبيرة من متطرفي أقصى اليمين، ذهبوا إلى كييف، وحوَّلوا حركةً كانت سلميةً إلى حملة لتغيير النظام.

مع تصاعُد حدة العنف، أدرك كلٌّ من أحمدوف وفيرتاش أنه بات عليهما التخلي عن السفينة الغارقة، وبين ليلة وضحاها، حرفياً، حوَّلت القناتان التلفزيونيتان اللتان يسيطران عليهما، 'أوكرايينا' و'إنتر'، دعمهما إلى المعارضة، وفي البرلمان، انشقَّ أعضاءُ حزب الأقاليم الحاكم، الذين كان أحمدوف وفيرتاش قد عيّناهُم، وانضموا إلى المعارضة، وانسحبت قوّات الأمن، التي كانت منخرطة في صدامات مع المتطرفين **اليمينيّين**، من ساحة الميدان، خشية أن يخونها يانوكوفيتش. (وأثبتت الأحداث التي جرت بعد ذلك أنهم كانوا على حق.).

كانت هذه لحظة نيرون بالنسبة إلى يانوكوفيتش، ففجأةً، تلاشى الدعمُ الذي يحظى به، وتُرك وحده لمواجهة المحتجين الغاضبين. لم يكن بوسع المليارات، التي

1- Lally Weymouth, "Interview with Ukrainian presidential candidate Petro Poroshenko," Washington Post, April 25, 2014, https://www.washingtonpost.com/opinions/interview-with-ukrainian-presidential-candidate-petro-poroshenko/2014/04/25/74c73a48-cbbd-11e3-93eb-6c0037dde2ad_story.html.

كان قد نهبها من أفراد الأوليغاركية الآخرين ومن الشعب الأوكراني، أن تحميه (وصُودرت من عائلته لمّا وصل النظام الجديد إلى السلطة). تجنّب يانوكوفيتش نهايةَ نيرون لأنه كان قادراً على الهرب إلى جنوب روسيا، حيث يعيشُ منفيّاً الآن.

كان الشعب قد انتصر، واستعيدت الديمقراطية. على الأقل، هكذا صُورت ثورة اليوروميدان في وسائل الإعلام التجارية. في الواقع، إنَّ الثورة الأوكرانية عام ٢٠١٤ لم تكن ثورة شعبية أكثر مما كانت أيَّ ثورة أخرى في التاريخ، إذ كانت مدفوعة بالقوى نفسها التي ناقشناها في صفحات هذا الكتاب، أي البؤس الشعبي والإفراط في إنتاج النخب. لم يحقق الشعب أي مكاسب نتيجة هذه الثورة، واستمرت الحياة السياسية الأوكرانية فاسدةً كما كانت من قبل. لم تتحسن جودة حياة الناس إلى درجة ملحوظة. انتُخب بترو بوروشينكو رئيساً، لكنْ سرعان ما فقدت إدارته الدعم الشعبي، وفي الانتخابات التالية (٢٠١٩)، حصل على أقل من ٢٥% من أصوات الناخبين.

أمّا النتيجة الأكثر كارثية لثورة عام ٢٠١٤ فقد كانت حرباً أهلية مريرة في إقليمي دونباس، وهما دونتسك ولوهانسك، حيث قاتلت ميليشيا دونباس، بدعم من روسيا، ضد الجيش الأوكراني وكتائب المتطوعين من النازيين الجدد، مثل كتيبة آزوف.[١] لمّا غَزَت القواتُ الروسية أوكرانيا في ٢٤ شباط/ فبراير ٢٠٢٢، كانت الحرب في دونباس قد أدّت إلى مقتل أربعة عشر ألف شخص.[٢] من المبكر جداً معرفة الكيفية التي ستنتهي إليها الحرب، لكنَّ السجلَّ التاريخي يشير إلى أن هذا الصراع سيُشكِّلُ على الأرجح نهاية البلوتوقراطية الأوكرانية،

١- انظر: Shaun Walker, "Azov fighters are Ukraine's greatest weapon and may be its greatest threat," The Guardian, September 10, 2014, https://www.theguardian.com/world/2014/sep/10/azov-far-right-fighters-ukraine-neo-nazis؛ و Andrew E. Kramer, "Islamic Battalions, Stocked with Chechens, Aid Ukraine in War with Rebels," New York Times, July 7, 2015, https://www.nytimes.com/2015/07/08/world/europe/islamic-battalions-stocked- with-chechens-aid-ukraine-in-war-with-rebels.html.

2- Maté, "By using Ukraine to fight Russia, the US provoked Putin's war."

بطريقة أو بأخرى. لقد فقد معظم الأوليغاركات حصصاً كبيرة من ثرواتهم، جزئياً نتيجة الانهيار الاقتصادي، وجزئياً نتيجة الدمار الذي سبّبَتْهُ الحرب.[1] الأمر الأكثر أهمية أن الحرب همَّشت الأوليغاركات، فقد كان دُخولُ الرئيسِ الأوكرانيِّ الحالي فولودومير زيلينسكي السياسةَ نتيجةَ مُنافسةٍ مع الأوليغاركات، بورو شينكو (رئيس أوكرانيا بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٩)، وإيهور كولوميسكي (زعيم عائلة دنيبروبتروفسك الأوليغاركية)، الذي كان في حاجة إلى مرشح لمعارضة بوروشينكو.[2] لكنْ لمّا تصاعدَ الصراعُ إلى حرب مكتملة الأركان في ٢٤ شباط/ فبراير، أعاد زيلينسكي اقتراحَ نفسه رئيساً حربياً، وتعهّد بالقتال حتى النصر. تواجه أوكرانيا الآن خياراً صارخاً؛ فإمّا أنْ تنهار بوصفها دولةً، وإمّا أن تتحوّلَ إلى عسكرقراطية، وسيُنبئُنا الزمن أيّ المستقبلين سيتحوّلُ إلى حقيقة.

الرسالة المُستخلَصة

ثمّةَ مفارقةٌ مفادُها أنَّ أوكرانيا هي الأكثرُ ديمقراطيةً من بين الجمهوريات السلافيّة الشرقيّة الثلاث التي تشكّلت بعد انهيار اتّحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكيّة، لكنّها كانتِ الأكثرَ فقراً والأقلَّ استقراراً، في حينِ أنَّ بيلاروسيا الأكثرَ استبداديّةً،تمتّعتْ برخاءٍ واستقلالٍ نسبيّين. ما مضامين هذه المفارقة؟ الاستنتاج الواضح أن الاستبداد ينجحُ أكثر من الديمقراطية، لكنَّ هذا خطأ، إذ ثمة كثير من الدول الاستبدادية الفاشلة التي أُفْقِرَ سُكّانُها، وانهارَ كثيرٌ منها

١- على سبيل المثال، خسر أحمدوف جوهرة إمبراطورية أعماله، وهي أشغال أزوفستال للحديد والصلب، التي دُمّرت في أثناء حصار ماريوبول، في حين خسر فيرتاش معمل آزوت للكيماويات في سيفيرودونيتسك.

2- Casey Michel, “Who Is Ihor Kolomoisky?” The Spectator, March 13, 2022, https://www.spectator.co.uk/article/who-is-ihor-kolomoisky/; David Clark, “Will Zelenskyy target all Ukrainian oligarchs equally?” UkraineAlert (blog), Atlantic Council, July 10, 2021, https://www.atlanticcouncil.org/blogs/ukrainealert/will-zelenskyy-target-all-ukrainian-oligarchs-equally؛ انظر أيضاً see also Maté, “By using Ukraine to fight Russia, the US provoked Putin’s war.”.

في الماضي، والبلدان الأفضل حوكمةً، التي تتمتع بمستويات مرتفعة من الرفاه في نظر الغالبيّة الساحقة من سُكّانها، مثل الدنمارك والنمسا، عادةً ما تكونُ ديمقراطيةً.

ثمة استنتاجٌ أفضل مفادُهُ أنه ليستِ الدُّولُ كُلُّها، التي تتخذُ مظاهرَ ديمقراطية، تُديرُ هذه المظاهرَ لمصلحة الشرائح الواسعة من السكان، ومن السهل تَعرُّفُ مثل هذه الديمقراطيات الزائفة، كما هو الحال حين يقرر مسؤولو الدولة أيّ الأحزاب ستشارك في الانتخابات، وأيها سيفوز، لكنْ لم تكن هذه هي الحال في أوكرانيا؛ إذ لم يكن السياسيون ومسؤولو الدولة همُ المُتحكّمين (المتحكمين هنا خبر يكن منصوب، و(هم) ضمير فصل هنا يفيد التوكيد) بالأوضاع. بدلاً من ذلك، كانوا يخضعون للسيطرة الوثيقة للأوليغاركات ومصالحهم الخاصة. ما الرسالة التي يمكن استخلاصها من هذا التحليل لحالات انهيار الدول في الماضي؟ إنّ السُّلطةَ السياسيةَ، التي تحكمُ مُجتمعاتٍ بشريّةً مُعقّدةً، أكثرُ هشاشة مما قد تبدو للوهلة الأولى، ويُعدُّ انهيارُ الدولة، أي التفكُّك المفاجئ لشبكة السلطة التي تحكم المجتمع، حدَثاً متكرراً، سواء تاريخياً أم في العالم المعاصر. في كثير من الأحيان، يُطاح بطبقة حاكمة (وأحياناً، تُباد) نتيجة خسارة حرب، أو معركة، أمام قوة طاغية. هذه هي الحال في الغزوات الخارجية الناجحة، كما في حالة غزوات المغول بقيادة جنكيزخان، وقتلِهم مَنْ واجَهُوهُمْ جميعاً، وتكوين رؤوسهم في شكل هرم. أو يمكن أن تكون في شكل هجوم مجموعة منظمة من الثوريين أو الانقلابيين، إذ تُوفِّي الرئيسُ التشيلي سلفادرو إيليندي تحت وابل من الرصاص، وبندقيته في يده، مقاتلاً حتى الموت ضد قوات الجنرال بينوشيه التي اقتحمت القصر الرئاسي، لكنّ السبب الأكثر تكراراً لانهيار الدولة (حين لا يكون ذلك بسبب غزو خارجي) هو انفجار الشبكة الحاكمة من الداخل، وقد تكون لحظة نيرون التي بدأتُ بها هذا الفصلَ المثالَ الأكثر وضوحاً. في حالات الثورة الكوبية وانهيار أفغانستان عام ٢٠٢١، كان هناك ضغوط من شبكة سلطة منافسة، لكنّ الشبكة الحاكمة تفكّكت قبل أن يتمكن المتمردون حتى من دخول العاصمة. للمصادفة، أن ثورة تشرين

الأول/ أكتوبر ١٩١٧ في روسيا جرت على السيناريو نفسه. عظَّمت البروباغاندا السوفييتية عملية اقتحام القصر الشتوي على أنها اللحظة الحاسمة، لكنَّ الحكومة المؤقتة كانت قد أصبحت وحيدة بعد أن تخلّتْ عنها غالبيّةُ القوّات، وكان رئيسها، ألكساندر كيرينسكي، قد هرب قبل دخول القوات البلشفية القصر. أخيراً، يمكن لنظام سياسي أن ينهار تحت ضغط احتجاجات شعبية كبرى، كما كانت الحال في أوكرانيا عام ٢٠١٤.

المقارنة بين الثورة الأوكرانية الناجحة عام ٢٠١٤ والانتفاضة البيلاروسية المخفقة عام ٢٠٢١ مفيدة للباحث خاصّة، إذ يتمثل العامل الرئيس الذي يُفسِّرُ هاتين النتيجتين المتباينتين في طبيعة المجموعة الحاكمة. في حالة أوكرانيا، كانت تلك المجموعة تتكون من تجمع للنخب الاقتصادية التي يكره بعضها بعضاً، والمتآمر بعضها على بعض، والمستعدة للتخلي عن السفينة الغارقة بسرعة حين تدعو الحاجة. في حالة بيلاروسيا، كانت نخبة إدارية – عسكرية متماسكة تغلّبت على الاحتجاجات الشعبية دون أن تُظهِرَ أيَّ انقسامات. في المحصلة، إنّ الفرق بين هاتين الدولتين السلافيتين الشرقيتين ينبع من المسارات السياسية – الاقتصادية التي اتبعتها على مدى عقدين من الزمن قبل نشوء الأوضاع الثورية عام ٢٠١٤ و٢٠٢١. أوجدت عملية الخصخصة الشاملة للشركات التي تملكها الدولة في أوكرانيا مضخة ثروة نجم عنها إفراط في إنتاج الأوليغاركات، وصراع فيما بينهم، وانهيارات متكررة للدولة. في بيلاروسيا، ليسَ ثمّةَ مضخّةُ ثروة، ولا أوليغاركات، ولا صراعات داخل النخب، ولا انهيار للدولة.

المجتمعات المعقدة جميعها عرضة للقوة التفكيكية لعملية الإفراط في إنتاج النخب، ولهذا فإنها تعاني جميعاً من انهيارات اجتماعية دورية، أما البلوتوقراطيات، التي شَكّلَتْ أوكرانيا (تُشكِّل)، مثالاً صارخاً عليها، فإنها عرضة لذلك على نحو خاص. المشكلة الرئيسة أن البلوتوقراطيات، التي تعمل من أجل مصالحها الأنانية، تنزع إلى إيجاد ترتيبات مؤسساتية تساعد في تشغيل مضخات الثروة، وتزيدُ مضخّةُ الثروة البُؤسَ الشعبيَّ منجهة،

وتُحدِثُ إفراطاً في إنتاج النخب من جهة أخرى (وذلك بتشكيل أعداد متزايدة من البلوتوقراطيين الأكثر ثراءً). بعبارة أخرى، إن مضخة الثروة هي واحدة من أكثر الآليات الاجتماعية التي عرفتها البشرية زعزعة للاستقرار. ليست الولاياتُ المتحدةُ أوكرانيا بالتأكيد، فالطبقة الحاكمة الأميركية مُوحَّدة ومُنظَّمة بوساطة مجموعة متقاطعة من المؤسسات، التي ناقشناها في الفصل الخامس، وأظهرت هذه الطبقة الحاكمة في المرحلة التقدمية ومرحلة الصفقة الجديدة أنها قادرة على العمل ضد مصالحها الأنانية الضيّقة من أجل المصلحة العامّة. لكنْ كيف ستتجاوز عقد العشرينيات الحافل بالاضطرابات؟ ما المسارات المحتملة التي قد تتبعها الولايات المتحدة في العقود القادمة؟ هذا هو السؤال الذي نتحوّل إليه في الفصل الآتي.

الفصل الثامن

تواريخُ المستقبل القريب

ما وراءَ نقطة التّحوُّل

إنَّ أيَّ شخص يراقب أحداث العقد الماضي عن بُعد – سواء أكان قادماً من الفضاء الخارجي، أم مؤرخاً مستقبليّاً – سيعجَب، ولا شك، بالطريقة التي تمكّن بها البشر الذين يقطنون أقوى أمة على سطح الأرض من تخريب مجتمعهم تخريباً كاملاً، فعلى الرغم من التقدم العلمي اللافت، والتغيير التكنولوجي الاستثنائي، والنمو الاقتصادي المثير للإعجاب، فإنَّ رفاه معظم الأميركيين في انحدار، حتى إنَّ كثيراً من الناجحين يشعرون بقلق عميق نحو تمكُّنهم من نقل نجاحهم إلى أطفالهم.

كما رأينا، فإن المجتمعات البشرية تتبع مسارات قابلة للتنبؤ بأوضاع ثورية، لكنْ كيف تُسَوَّى هذه الأزمات؟ الآن، وأميركا في أزمة، نريد أن نعرف ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك. نفهم أنه لا يمكن التنبؤ بالمستقبل بأي درجة كبيرة من الدقة، ففي حال الأنظمة الاجتماعية في الأوضاع الثورية، تكونُ التنبُّؤات الدقيقة صعبةً على نحو خاص. نستطيعُ أن نستعمل تشبيهاً فيزيائياً لشرح هذه الحالة.

لنفكر في الطريق إلى الأزمة على أنه وادٍ ذي حواف شديدة الانحدار. إنّ مجتمعاً يقترب من الأزمة يشبه كرة معدنية تتدحرج في هذا الوادي، ومسارها مقيّد بالجانبين المنحدرين، ومن ثم هو مسار يمكن التنبؤ به، لكنْ حالما تخرج الكرة من فم الوادي، تجد نفسها على عتبة (وضع ثوري)، بوجود كثير من المسارات المحتملة التي يمكن أن تسلكها. يمكن لدفعات صغيرة للكرة (أفعال

تقوم بها مجموعات المصالح، أو حتى أفرادٌ مُؤثِّرُون) أن تدفع الكرة على مسارات إمّا أن تكون حميدة نسبياً، وإمّا أن تكونَ كارثيّةً تماماً، ولهذا من الصعب جداً التنبؤ بما سيحدث بعد العتبة.

لكنْ ثمّةَ جانبٌ إيجابي لهذه الخلاصة التي تبدو متشائمة، إذ إن دفعاً خفيفاً للكرة يمكن أن يكون كلَّ ما يحتاجُ الأمر إليه لتوجيه المسار في اتجاه إيجابي. المعضلة هي في معرفة الجهة التي تُطبِّقُ الدَّفْعَ – ففي المحصلة، يمكن لتدخل واضح ظاهرياً أن تنتج منه تداعيات غير متوقعة، بل كارثية، وهنا يصبح المنطق اللفظي غيرَ كافٍ أبداً. مثالياً، نحن في حاجة إلى نموذج (رياضي) رسميّ يمكن أن ينبئنا بشأن أنواع الدفعات وأنواع النتائج الناجمة عنها. بتشغيل النموذج إلى الأمام في اتجاه نهاية القرن الحادي والعشرين، سنتمكن من استكشاف السيناريوهات المختلفة الناجمة عن مختلف الخيارات الممكنة والمتوافرة لمجموعات المصالح داخل الدولة، ولا سيما أقواها، المتمثلة في النخبة الحاكمة. بعد ذلك، سنراقب الخيارات الجماعية التي اختيرَتْ، وما إذا كان النموذج قد تنبأ على نحو صحيح بالتداعيات بعيدة المدى لهذه الخيارات.

التنبُّؤ مُتعدِّد المسارات

حتى الآن، لم تصبح الكليوديناميكا متقدمة بما يكفي لتحقيق مثل هذا الإنجاز في النمذجة، لكن على مدى السنوات القليلة الماضية، فكّرنا، أنا وزملائي، في هذه الطريقة، ونُسمّي هذه المقاربة 'التنبؤ متعدد المسارات'.[1] يأخذ محرك التنبؤ متعدد المسارات مدخلاته التي تكون في شكل مختلف السياسات أو الإصلاحات الممكن تبنّيها، ويتنبأ بكيفية تغيُّر المسار المستقبلي نتيجةً لمثل تلك التدُّخلات. وفي حين أنّ مثل هذا الجهاز سيتطلب عملاً كبيراً وموارد كبيرة (من

1- Peter Turchin et al., "A History of Possible Futures: Multipath Forecasting of Social Breakdown, Recovery, and Resilience," *Cliodynamics*: *The Journal of Quantitative History and Cultural Evolution* 9, no. 2 (2018): 124–39, https://doi.org/10.21237/c7clio9242078.

حيث المال والبشر)، فقد طوّرت حديثاً "نموذجاً أولياً" لإظهار كيف يمكن لمثل هذا المحرك أن يعمل. يمكن للمهتمين تقنياً أن يروا التفاصيل منشورة في مطبوعة أكاديمية،[1] لكن في الصفحات القليلة التالية سأصفه بالكلمات (دون معادلات)، ويتمثل دافعي الخفي للغوص في العمليات الداخلية لهذا النموذج الأولي في إظهار كيفَ يمكن للنظرية العامة التي شرحتها في هذا الكتاب أن تعمل في مثال محدد. وأحد الأشياء التي يعرفها جميع المنمذجين هو أن ترجمة نظرية لفظية إلى جملة من المعادلات الرياضية يُشكّلُ طريقةً رائعةً للعثور على جميع الافتراضات الخفيّة فيها ووضعها تحت الضوء.

إنَّ مضخّةَ الثروة هي القلبُ النابض لنموذج التنبؤ متعدد المسارات، والمُحرِّكُ الذي يوفر الزخم لجميع الأجزاء المتحركة داخله، وهكذا تعمل: أولاً، يتتبع النموذج عدد العمال الذين يبحثون عن عمل. يرتفع المعروض من العمالة نتيجة النمو الديموغرافي (التوازن بين العمال الجدد الداخلين قوى العمل والعمال كبار السن المتقاعدين)، ويتمثل مصدر آخر للعمال الجدد في الهجرة، ويتعيَّن على النموذج أيضاً أن يأخذ في الحسبان المواقف الاجتماعية المتغيرة المحيطة بالعمل، التي نجم عنها دخول كبير للنساء في قوى العمل. (بين عامي ١٩٥٥ و٢٠٠٠، ارتفعت مشاركة النساء الأميركيات في قوى العمل من ٣٥ إلى ٦٠ بالمئة.) ثانياً، يتتبع النموذج المعروض من الوظائف، الذي يتأثر بعوامل مثل العولمة (التي ينتج منها انتقال الوظائف إلى خارج البلاد)، والأتمتة (التي تحوِّل بعض الوظائف من البشر إلى الآلات، لكنها تخلق أيضاً وظائف أخرى في قطاعات اقتصادية جديدة).

لقد نجم عن النزعات الإجمالية للعمالة في الخمسين عاماً أو الستين الماضية إفراط في عرض العمالة يؤدي إلى انخفاض أجور العمال، وفي الوقت نفسه، أصبحت العوامل المؤسساتية، التي يمكن أن تشكل ثقلاً موازناً لهذا الأثر الاقتصادي، أضعف، فقد انخفضت نسبة العمال الذين ينتمون إلى نقابات العمال،

1- Peter Turchin, "Multipath Forecasting: The Aftermath of the 2020 American Crisis," preprint, submitted April 4, 2021, https://osf.io/preprints/socarxiv/f37jy/.

وكذلك الحد الأدنى الحقيقي المفروض اتحادياً، ونتيجةً لذلك، تراجعت الأجور النسبية (الأجور نسبة إلى حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي)، ولا سيما أجور العمال ذوي المهارات المتدنية، لكنْ أيضاً إلى أجور العمال المتوسّطين ("النموذجيين"). في المقابل، إن تراجع الأجور النسبية دفع مضخة الثروة، وأعاد توزيع الدخل من الطبقة العاملة إلى النخب الاقتصادية، كما رأينا في الفصل الثالث.

يكمن جمال هذه المقاربة البنيوية– الديناميكية (التي تُشرح بمزيد من التفصيل في الفصل آ٣) في أنها تسمح لنا بفهمِ كيفيةِ تأثيرِ تغيُّراتٍ في أحدِ أجزاء النظام الاجتماعي في ديناميكياتِ الأجزاء الأخرى، ولمضخة الثروة أثر رئيسٌ، ليس في فئة العامة فحسب، (التسبُّب بالبؤس)، بل في فئة النخبة أيضاً. تتغيّر أعداد النخبة نتيجة الديموغرافيا (الاختلاف بين معدلات الولادة والوفاة)، لكنَّ هذا عاملٌ غيرُ مهم نسبياً لنا لأنَّ المعدلات الديموغرافية بين النخب والعامة ليست مختلفة كثيراً في الولايات المتحدة. (كانت عاملاً رئيساً للمجتمعات ذوات النخب متعددة الزوجات.). تتمثل العملية الأكثر أهمية في المرونة الحركية الاجتماعية: في الحركة التصاعدية للعامة إلى فئة النخبة، وفي الحركة التنازلية للنخب إلى فئة العامة، أمّا ما إذا كانت المرونة الحركية الصافية صاعدة فإن هذا يعتمد على مضخة الثروة.

والآليّة بسيطة هنا. حين يحافظ مسؤولو الشركات على الزيادات في أجور العمال على نحوٍ أبطأ من نموّ عائدات الشركة، يستطيعون أن يستعملوا الفائض لمنح أنفسهم رواتب أعلى، وخيارات في الأسهم أكثر ربحية، وما إلى ذلك. يصبح الرئيس التنفيذي لمثل تلك الشركة، حين التقاعد مع "مظلة ذهبية،" مالكاً مئات الملايين، أو حتى ملياردياً. وللسبب نفسه، يحصلُ أصحابُ رأس المال على عائد أكبر عليه، وتنتفخ أعداد الأثرياء كثيراً.

ويمكن لهذه الديناميكية أن تعمل بالعكس أيضاً، حين ترتفع أجور العمال بسرعة أكبر من ارتفاع حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي (أي حين تنمو

الأجور النسبية)، يتوقف إنتاج الأفراد الأثرياء جداً. يستمر بعض الأفراد الاستثنائيين في توليد ثروات جديدة، لكنَّ أعدادهم قليلة. في هذه الأثناء، تتبّدد الثروة القديمة ببطء نتيجة الإفلاس، والتضخم، وتقسيم الممتلكات بين ورثة كثيرين. في ظل مثل هذه الظروف، فإن حجم طبقة كبار الأثرياء يتقلص تدريجياً.

يُفترَضُ أنْ يُحافظَ النظامُ الاجتماعيُّ على استقرار مثل هذا التراجُع الطفيف التدريجيّ. يشيرُ تحليلُ الحالات التاريخية في قاعدة بيانات الأزمات إلى أن السيناريو الأكثر تكراراً بكثير للمرونة الحركيّة الاجتماعية في الاتجاه النازل، التي تُوقِفُ الإفراطَ في إنتاج النخب، يرتبطُ بفترات تسودُها درجةٌ كبيرة من عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي، "عصور الخلاف". في مثل تلك الحالات، تكونُ المرونةُ الحركية النازلة سريعةً ومصحوبةً بالعنف عادةً. يُؤدّي عدم الاستقرار السياسي والحروب الداخلية إلى تقليم أفراد النخب بطرائق مختلفة، فبعض أفراد النخب يُقتَلُ ببساطة في الحروب الأهلية أو عن طريق الاغتيال. يمكن أن يُحرَم آخرون من مكانتهم النخبوية حين يخسر فصيلهم حرباً أهلية، وأخيراً، إنّ ظروفَ العنف وعدم تحقيق النجاح يثني كثيرين في "فائض" النخبة من الطموحين عن متابعة مسعاهم للحصول على مكانة النخبة، وهذا ما يؤدي إلى مرونة حركية نازلة مقبولة. ينمذج محرك التنبؤ متعدد المسارات مثل هذه العمليات نوعياً بافتراض أنّ زيادة عدم الاستقرار ترفع المعدل الذي يتحول فيه أفراد النخبة إلى عامة.

وهكذا، فإن قلب نموذج التنبؤ متعدد المسارات يتمثّلُ في الأجر النسبيّ ومضخة الثروة التي توفر له الطاقة. حين يتراجع الأجر النسبي، يؤدي إلى البؤس والإفراط في إنتاج النخب معاً. ويُشكِّلُ كلاهما، كما بتنا نعرف الآن، القُوّتَينِ الدافعتين الأكثر أهمية إلى عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي. إنَّ اندلاعَ حالات عدم الاستقرار – المظاهرات والإضرابات العنيفة ضد الحكومة، وأعمال الشغب الحضرية، والإرهاب والانتفاضات الريفية، و...، إذا وصلت

الأمور إلى جهنم، وإلى انهيارِ الدولة وحربٍ أهلية شاملة – إنَّ ذلكَ كُلّه نتائج أفعال أفراد. كيف يربط النموذجُ القوى الدافعة البنيوية بدوافع الأشخاص؟ إنه يفترض أنّ الدور المحوري في تلك الأحداث جميعاً يلعبه متطرفون، أولئك الذين دُفعوا إلى التطرف، وحُفِّزوا على العدوان. حين يكون عدد مثل أولئك المتطرفين قليلاً نسبةً إلى بقية السكان، فإنهم لا يشكلون تهديداً خَطِراً لاستقرار النظام، لأنَّ الشُّرطةَ يمكن أن تعزلهم وتقمعهم بسهولة، لكنهم إذا كانوا كثيرين، فإنهم يبدؤون بالاندماج في منظمات متطرفة، وهذا ما يمكن أن يُغيِّرَ الطبقة الحاكمة على نحو ذي مصداقية. ولذلك يمثل عدد المتطرفين نسبةً إلى عدد السكان، متغيراً محورياً يحتاج إليه نموذج التنبؤ متعدد المسارات من أجل التّتبُّع.

تتطوّرُ عمليّةُ التحوُّل إلى تطرُّف كالمرض الذي، إذا انتشرَ، غَـيَّـرَ سُلوكَ الناس وجعلهم يتصرّفون بطرائق عنيفة، ومن ثم فإنّ حجرة محرّك التنبؤ متعدد المسارات التي تربط القوى الدافعة البنيوية بالاضطراب تحتاجُ إلى نمذجةِ ديناميكيةِ العدوى الاجتماعية هذه، وهي تشبه كثيراً المعادلات التي يستخدمها علماء الأوبئة – على سبيل المثال، للتنبُّؤ بديناميكيات انتشار كوفيد.

يتتبّع النموذج ثلاثة أنواع من الأفراد. الأول هو النوع "الساذج"، الذي يتطابق مع نوع 'العُرضة للإصابة' في شبكة دراسات الأوبئة، وهذه هي الطبقة التي يوضع فيها الأفراد حين يصبحون بالغين. (يتتبع النموذجالأفراد البالغين النشطين فقط؛ أما الأطفالُ وكبارُ السنّ المتقاعدون فإنهم لا يُنَمْذَجُونَ، بالنظر إلى أنه يُفترَض أنْ لا أثرَ لهم في الديناميكيات.). يمكن أن يصبح الأفراد الساذجون "متطرفين" حين يتعرّضون لأفراد من النوع المتطرّف (الذي يتطابق مع الأفراد الذين يحملون العدوى في نموذج الأمراض). كلما كان هناك أشخاصٌ مُتطرِّفُونَ بين السكان ارتفعَتْ فُرصةُ إصابةِ الفرد الساذج بـ "فيروس التطرف".[1]

١- لاحظْ أنّ "الإصابة" هنا تشمل التفاعل في وسائل التواصل الاجتماعي. على عكس الوباء البيولوجي، فإنّ وباءَ التطرُّف لا يتطلّبُ تواصُلاً جسدياً.

حين تتحول نسبة مرتفعة من السكان إلى التطرف، يرتفع عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي أيضاً. تبدأ أعمال الشغب، وتنتشر بسهولة؛ وتزدهر المجموعات الإرهابية والثورية، وتتلقى الدعم من أعداد كبيرة من المتعاطفين؛ ويكون المجتمع هشّاً جدّاً وعُرضةً لاندلاع حرب أهلية، لكنَّ العلاقةَ بين درجة التطرُّف والمستوى الإجماليّ للعنف السياسي (مُقاساً، على سبيل المثال، بعدد القتلى) غيرُ خطّيّة. مع نمو نسبة المتطرفين بين السكان، يصبح من السهل على نحو متزايد أن يترابطوا، ويُنظِّمُوا، وربما يَقودُوا، نُموّاً انفجارياً من الأحزاب الثورية، كما أنّه ثمّةَ أثرُ العتبة. ما دامتْ قُوّة المجموعات الثورية أقلَّ من قوة الجهاز القمعي للدولة، فإنّ المستوى العام للعنف يمكن قمعه إلى مستوىً مُتَدَنٍّ، لكنْ إذا تحول التوازن إلى مصلحة المتطرفين، فإنّ قُوى النظام يمكن أن تنهار فجأةً من الداخل، كما رأينا في أمثلة عدّة لانهيار الدولة في الفصل السابق.

لقد تحدثنا حتى الآن عن "المتطرفين" كما لو أنهم مجموعة مصالح، لكنَّ هذه ليست الطريقةَ السليمة للتفكير في هذه المجموعة. في الواقع، إنّ المتطرفين لا ينتمون جميعاً إلى حزب متطرّف واحد، ففي فترات عدم الاستقرار السياسي الكبير، تكونُ هناك قضايا عدّة تقسمُ السكّان والنخب. (ناقشنا هذا التشظي في المشهد الأيديولوجي في الفصل الرابع.). وهكذا، ثمة فصائل كثيرة من المتطرفين، وكلٌّ منها مدفوع بأيديولوجيا مختلفة، ويتحارب مع فصائل أخرى. بعضهم يصبحون متطرفين يساريين، وآخرون ينضمون إلى منظمات يمينية؛ وآخرون يصبحون متطرفين إثنيين أو دينيين. حتى ضمن اليمين، كما في اليسار، تتشظّى المجموعات المتطرفة، وقد تُركّزُ على الاقتتال المميت أكثر من تركيزها على محاربة الطرف الآخر من الطيف الأيديولوجي.

إنَّ اندلاعَ العنف السياسيّ عامّةً يكونُ مُشابهاً ديناميكياً لحريق في البرية أو لزلزال. إن شرارة واحدة يمكنها أن تشعل حريقاً في البرية، كما اشتهر عن ماو قوله، لكنَّ غالبيّة الشرارات تُشعِلُ حرائقَ صغيرةً تنطفئ قبل أن تتمكّن من الانتشار، وتصبح حرائق كبيرة. بعضها يكبر ليصبح حرائق متوسطة الحجم،

وشرارات قليلة جداً تشعل حرائق تكتسح جميع البراري. لقد كرّس علماءُ التعقيد جزءاً كبيراً من اهتمامهم لمثل تلك العمليات التي يطيع فيه التوزيع الإحصائي لحجم الحدث "قانون الطبيعة". سواء أحسبنا هذه العمليات كمياً بالكيلومترات المربعة من البراري التي احترقت، أم بقوّة الزلزال على مقياس ريختر – أم بشدّة أحداث العنف السياسي كما تُقاسُ بعدد الأشخاص الذين يُقتَلون – فإنها تُشكِّلُ جميعاً النوعَ نفسه من الديناميكيات.[1] في حريق في البراري، يعتمد انتشار الحريق الأولي الذي اشتعل بسبب شرارة على كمية المواد القابلة للاشتعال التي يمكن أن يصل إليها، وما إذا كان يمكن للنيران أن تقفز من منطقة من الأعشاب الجافة إلى منطقة أخرى. حينَ تحدثُ ثورةٌ، فإنّ قابليّةَ الثورة الأولية ضد النظام للانتشار تعتمد على عدد من المتطرفين (الذين يشبهون الموادَّ القابلة للاحتراق) ومدى ترابطهم، أو مدى السرعة التي يستطيعون فيها توسيع شبكات تمرُّدهم، ونتيجةً لمثل هذه المسببات الذاتية، أي الديناميكيات المدفوعة ذاتياً، فإنّ حدثاً أولياً صغيراً يمكنه، على نحو غير متوقع، أن يتّسعَ ليُحدِثَ كارثةً نادرةً وواسعةَ النطاق – "بجعة سوداء" أو "ملك تنين".

ولأن العلاقة بين حاصل قسمة التطرف ومدى العنف السياسي الناجم عنه محكومة بقانون السلطة، فإن الإحصاءات الطبيعية (مثل المستوى المتوسط للعنف) لا تنجح. يتوصل نموذج التنبؤ متعدد المسارات إلى نتائج محتملة بتقييم احتمال وقوع أحداث حادة حقاً، مثل الحرب الأهلية الأميركية، أو تمرد تايبينغ. قد لا تكون مثل هذه الأحداث المتطرفة محتملة جداً، لكنْ علينا أن نقلق بشأنها، ببساطة لأنها تمتلك القدرة المحتملة على تسبيبِ بُؤسٍ بشريّ لا يمكن تخيُّله. هل

---

١ - انظر:

Bruce D. Malamud, Gleb Morein, and Donald L. Turcotte, "Forest Fires: An Example of Self-Organized Critical Behavior," *Science* 281, no. 5384 (1998): 1840–42, https://doi.org/10.1126/science.281.5384.1840; and R. Silva et al., "Nonextensive models for earthquakes," *Physical Review E* 73, no. 2 (2006): 1–5, https://doi.org/10.1103/physreve.73.026102.

احتمالُ حدوثِ حرب أهلية أميركية ثانية بنسبة ١٠ بالمئة مرتفعٌ أو مُتَدنٍّ؟ احسبها بطريقة شخصية: "هل تراهن على أن ذلك سيؤدي إلى اندثارك شخصياً مع احتمال ١٠ بالمئة"؟ أنا لن أراهن، حتى لو عُرِضَتْ عليَّ مكافأةٌ كبيرة جداً. إذ ينبغي لك أن تكونَ حيّاً لتستمتع بالجائزة، بصرف النظر عن حجمها.

دَعُونا نَعُدْ إلى نموذج التنبؤ متعدد المسارات. يتمثل عنصر إضافي في النموذج في أن الفرد الساذج يمكن أن يصبح متطرفاً، ليس بالاتصالات مع متطرفين آخرين فحسب، بل بالتعرض للعنف الناجم عن الأفعال المتطرفة أيضاً. على سبيل المثال، شخص ما، قُتِلَ قريبُه أو صديقه في عمل إرهابيّ نفّذه متطرفون يمينيون، قد ينضمُّ إلى مجموعة ثورية يسارية. يُشكِّلُ هذا المسارُ الثاني للتطرُّف نوعاً من العدوى الاجتماعية أيضاً (لكنْ بوساطة العنف بدلاً من الأيديولوجيا المتطرفة).

النوع الثالث من الأفراد في النموذج، إضافةً إلى السُّذَّج والمتطرفين هو "المعتدل" (الذي يتطابق مع "المتعافي" في النماذج الوبائية)، وتتكون هذه المجموعة من المتطرفين السابقين الذين انتُزِعَتْ منهم أوهامُ التطرف والعنف، واستنتجوا أنَّ أفراد المجتمع في حاجة إلى التوحُّد والتغلُّب على اختلافاتهم. يختلف المعتدلون عن السُّذَّج من حيث إنهم يُقدِّرون السلام والنظام أكثر من أيّ شيء آخر، ويعملون بنشاط لتحقيقهما. بعبارةٍ أُخرى، ليسَ لدى الأفرادِ الساذجين برنامجٌ سياسيّ نَشِط، والمتطرفون يعملون بنشاط لرفع درجة عدم الاستقرار، والمعتدلون يعملون بنشاط لتهدئة الأمور.

باختصار، إنّ المتطرفين الجدد يُخلَقون حين يُواجِهُ الساذجون المتطرفين أصلاً، أو يتعرّضون للعنف. كلما ارتفعَ عددُ المتطرفين (ومن ثم ارتفع مُعدّل العنف) أصبح من المرجح أن يصبح شخصٌ ساذجٌ متطرفاً، لكنَّ للمعتدلين دوراً أيضاً؛ إذ إنّ "العدوى" التي تنتقل عبر التطرف تتراجع حين يزدادُ عدد المعتدلين، ويفرضون اعتدالهم ونفوذهم القامع لعدم الاستقرار.

لكنَّ أعداد المتطرفين لا تزداد دون حدود. مع زيادة مستوى العنف، يبتعد بعض المتطرفين عن التطرّف، ويتحوّلون إلى معتدلين، ويرتفع احتمال أن يشعر مُتطرِّفٌ بالاشمئزاز من التطرف، ويتحوّل إلى معتدل مع المستوى العام للعنف، لكنْ مع تأخُّر زمنيّ، بالنظر إلى أن المستويات المرتفعة للعنف السياسي لا تُترجَم من فورها إلى مزاج اجتماعي يتجلّى في نبذ العنف والرغبة في السلام الداخلي. يعمل العنف بطريقة تراكمية؛ إذ ينبغي أن تَمُرَّ سنوات عدّة من انعدام الاستقرار الشديد، أو حتى الحرب الأهلية المباشرة، قبل أن يبدأ السكان بالتوق جدّياً إلى النظام.

وهكذا يتتبّع مكوِّن العدوى الاجتماعية في محرك التنبؤ متعدد المسارات عمليات التحول نحو التطرف والاعتدال. الآن، ينبغي لنا ربط ذلك بديناميكيات القوى البنيوية الدافعة إلى عدم الاستقرار، ويجري ذلك بوساطة مؤشر التوتر السياسي، الذي يجمع قوة البؤس والإفراط في إنتاج النخب.[1] يُقاس البؤس الشعبي بعكس الدخل النسبي (متوسط دخل الأسرة مُقسَّماً على حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي). وهكذا، حين تُخفِقُ الدخولُ النموذجية في زيادة النمو الاقتصادي، يُسبِّبُ هذا العاملُ رَفْعَ مؤشر التوتر السياسي. ويُقاس الإفراط في إنتاج النخب/ التنافس داخل النخب، بعدد النخب (بمن فيهم من يطمحُ إلى الانضمام إلى النخبة) نسبةً إلى العدد الإجمالي للسكان. "يولِّف" مؤشر التوتر السياسي إمكان أن يتحول فرد ساذج إلى متطرّف. حين ينجم عن الظروف البنيوية ضغوط اجتماعية مرتفعة نحو عدم الاستقرار، تقع الأفكار المتطرفة على تربة خصبة، وتتجذر بسهولة. بدلاً من ذلك، إذا كان مؤشر التوتر السياسي منخفضاً، فإنّ مواجهةً بين الساذج والمتطرف (أو ساذج يتعرّض لحدث سياسي عنيف) من غير المرجح أن تُفضي إلى التطرف.

١- هنا، للمحافظة على بساطة النموذج، أركّز على القوتين الرئيستين الدافعتين إلى عدم الاستقرار فحسب: البؤس والإفراط في إنتاج النخب. كما رأينا في الفصل الثاني، فإنّ ثمة قوى إضافية تسهم في عدم الاستقرار هي ضعف الدولة (تراجع الصحة المالية وضعف شرعية الدولة) وعوامل جيوسياسية. يمكن تشميل هذه القوى في النموذج، لكن على حساب جعله أكثر تعقيداً.

الآن، وقد أصبح لدينا محرك تنبؤ متعدد المسارات، دعونا نستعمله لدراسة المسارات المحتملة التي يمكن أن يتخذها النظام الاجتماعي الأميركي بعد عشرينيات القرن الحادي والعشرين. لنتذكّر أن هذا نموذج (بل إنه نموذج أولي)، وأنّ تنبؤاته ينبغي أن تُؤخذ بدرجة من التشكُّك، وليس الهدفُ التنبُّؤَ بالمستقبل، بل استعمال النموذج لفهم كيف يمكن للأفعال المحتملة أن تُشكِّل صيغاً مختلفة للمستقبل. إنّ محرك التنبؤ متعدد المسارات نوع من "الحكاية الأخلاقية،" مثل قصة فتاة طيبة وفتاة غير طيبة، وهو النموذج السردي الموجود في مئات المجتمعات التقليدية.

نُشغِّل المحرك عام ١٩٦٠، ونمضي به إلى السنوات الستين التي بات التاريخ فيها ثابتاً. من منظور التنبؤ متعدد المسارات، فإنّ النزعة الأكثر أهمية في هذه المدة كانت تراجع الأجر النسبي. تراجُع الأجر النسبي يشغل مضخة الثروة، وتبدأ أعداد النخب بالارتفاع على نحو متسارع. بحلول عام ٢٠٢٠، كان البؤس العام والإفراط في إنتاج النخب، ومن ثم مؤشر التوتر السياسي، يصل إلى مستويات مرتفعة جداً، ويبدأ منحنى التطرف بتتبع عدد المتطرفين، الذي كان مستقراً قرب الصفر، بالارتفاع بعد عام ٢٠١٠، وينفجر حرفياً في عشرينيات القرن الحادي والعشرين، ويحدث ذلك للعنف السياسي أيضاً. يتنبأ النموذج أنه في وقت مُعيَّن في أثناء العشرينيات يزداد عدم الاستقرار إلى درجة أنه يبدأ بخفض أعداد النخب. لنتذكر أن التنبؤ متعدد المسارات نموذج، أي إنه يحوِّل الواقع على نحو مجرّد إلى معادلات رياضية، لكنْ في الحياة الواقعية، عدم الاستقرار الذي يُسبِّبُ تراجُعَ أعداد النخب ليسَ مجرداً على الإطلاق. لنفكر فيما حدث في أميركا نتيجة الحرب الأهلية، لمّا قُتِلَ عدد كبير من الرجال من أفراد النخبة الجنوبية في ميادين المعركة، وحُرِم الباقون من مكانتهم في النخبة.

في النموذج، تُقلِّص كارثة العشرينيات أعداد النخب، وهذا ما ينجمُ عنه تراجُعٌ على مؤشر التوتر السياسي. إضافةً إلى ذلك، فإنّ المستويات المرتفعة من العنف تُسرِّع تَحوُّل معظم المتطرفين إلى معتدلين، وينخفض منحنى التطرف

بالسرعة نفسها التي ارتفع بها، وفي وقت مُعيَّن بعد عام ٢٠٣٠، يصل إلى الحد الأدنى، ولأنّ المتطرفين هم الأفراد الذين يدفعون بالعنف، فإنّ عدم الاستقراريتراجع أيضاً. يستعيد النظام الاجتماعي استقراره، لكنْ في سيناريو القصور الذاتي هذا، فإنّ السبب الجذري لعدم الاستقرار – مضخة الثروة – يستمر في العمل، وتبدأ أعداد النخب بالارتفاع تدريجياً. في هذه الأثناء، يكون المعتدلون الذين قَمعوا قمة عنف العشرينيات في مرحلة التقاعد والموت، ويستمر السلام القلق على مدى الجيل التالي (٢٥ إلى ٣٠ عاماً)، لكنْ يتكرر ما حدث في العشرينيات بعد خمسين سنة.[١]

وهكذا يتنبأ سيناريو العطالة بمستقبل قاتم تماماً: اندلاع عنف جدّيّ في العشرينيات، وإذا لم تُتّخَذ إجراءات لإغلاق المضخة، يحدثُ تكرار لذلك كلَّ خمسين عاماً أو ستّين.

ما البدائل؟

يتمثل أحد الافتراضات، والذي قد يبدو للقُرّاء غيرَ واقعي، في ترجمة سهلة لأعداد المتطرفين المرتفعة إلى حرب أهلية كاملة الأركان. في المحصلة، إنّ الجهاز القسري للدولة الأميركية يعملُ بطريقة جيدة، ولا يُظهِرُ علاماتٍ للتداعي. ماذا يحدث إذا لم يُسمَح لمستويات مرتفعة من التطرُّف بإشعال حرب أهلية؟ من بعض الأوجه، يكون المستقبل أقلّ سوءاً، لأنّ الحربَ الأهليةَ قد تُـجُنِّبَتْ، لكنّ ما يحدث بدلاً من ذلك ليس مُشرقاً تماماً، إذ تستمر المضخة في العمل، ويرتفع مؤشر التوتر السياسي بسبب ارتفاع مستويات البؤس والإفراط في إنتاج النخب، ويتحول معظم السكان إلى التطرف، ولا ينخفض منحنى التطرف، لأنّ ظروف الحرب الأهلية هي التي تجذب المتطرفين وتُحوِّلهم إلى معتدلين، ويظل النظام الاجتماعي عالقاً إلى ما لا نهاية في حالة من البؤس المفرط، وصراع النخب، والتطرف.

١- يمكن أن ترى المسارات التي يتوقعها النموذج في Turchin, "Multipath Forecasting: The Aftermath of the 2020 American Crisis."

لا، من أجل دفع النظام نحو توازن إيجابي، يجب إيقاف المضخة. نستطيع أن نُنَمذِج هذا بدفع الأجر النسبي إلى الارتفاع إلى النقطة التي يتحقّق عندها التوازن بين معدلات المرونة الحركية الصاعدة والنازلة بين العامة والنخب (ومن ثم إبقاؤها على هذا المستوى بضمان ارتفاع أجور العمال مع النمو الاقتصادي العام). يتبين أن هذا التدخل لن يلغي، بل لن يكون له أثر كبير في قمة العشرينيات – إذ إنّ هناك درجةً أكبر مما ينبغي من العطالة في النظام الاجتماعي. إضافةً إلى ذلك، سيكون له أثر غير مرغوب فيه في تفاقُم الإفراط في إنتاج النخب. إنّ إغلاق المضخة يُقلّصُ دخول النخب، لكنّهُ لا يخفض عدد أفرادها، وهذه وصفة لتحويل نسبة كبيرة جداً من النخب إلى نخب مضادة، وهذا الذي من المرجح جداً أن يجعل الحرب الداخلية أكثر دموية وأكثر حدّة، لكنْ بعد عقد مؤلم وعنيف، سيحقق النظام التوازن بسرعة. سيصل مؤشر التوتر السياسي إلى حده الأدنى، وستنخفض نسبة السكان الذين يتجهون إلى التطرف، وسيُقضَى على فائض النخب، وستكون الذكرى الوحيدة من اضطرابات عشرينيات القرن الحادي والعشرين النسبة المرتفعة للمعتدلين، الذين سيتلاشون تدريجياً بعد عام ٢٠٧٠، وستكون النتيجةُ "ألماً حادّاً قصيرَ الأمد، ومكسباً طويلَ الأمد".

يمكن استعمال محرك التنبؤ متعدد المسارات لاستكشاف سيناريوهات أخرى. على سبيل المثال، إذا رفعنا الأجر النسبي تدريجياً (على مدى عشرين عاماً، على سبيل المثال)، حينها لن تختفي عشرينيات القرن الحادي والعشرين المضطربة، بل سيكون من الممكن تجنُّب الإفقار الجذري للنخب.

قد يكون التبصُّر الأكثر أهمية من نموذج التنبؤ متعدد المسارات هو أنه فاتَ أوانُ تَجنُّبِ أزمتنا الراهنة، لكنّنا نستطيع أن نتجنّب المرحلة التالية من الانهيار الاجتماعي في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين، إذا تصرّفنا بسرعة لرفع الأجر النسبي إلى مستوى التوازُن، (ومن ثم وقف الإفراط في إنتاج النخب)، والمحافظة عليه عند هذا المستوى.

الوضعُ الثوريُّ في أميركا

يوفِّر لنا نموذج التنبؤ متعدد المسارات نظرة عامة وواسعة إلى جملة من المسارات المحتملة التي يمكن أن تتخذها أميركا في عشرينيات القرن الحادي والعشرين وما بعدها، والنموذج مُجَرَّد، ويتّبعُ متغيرات مُجَمَّعة مثل البؤس، وفائض المتطلعين إلى الانضمام إلى النخبة، والتطرُّف. دعونا الآنَ نُنْزِلْهُ إلى الأرض، ونرَ التبصُّرات التي يمكن أن يُقدّمها إلينا بشأن ديناميكيات السلطة لمجموعات المصالح المتنافسة في الولايات المتحدة، ولفعل ذلك نحن في حاجة إلى دمج التبصُّرات النظرية من النموذج مع تحليل بنيوي– ديناميكي ملموس للمجتمع الأميركي المعاصر.

كما اكتشفنا في الفصل الخامس، فإنّ الطبقةَ الحاكمة الأميركية تحالُفٌ مُكوَّن من أغنى أصحاب الثروة (الواحد بالمئة) وحملة أعلى الشهادات (العشرة بالمئة). لا يشاركُ أعضاءُ هذه المجموعات جميعاً في حُكم البلاد بنشاط، فكثيرٌ من الأثرياء النشطين اجتماعياً (من الواحد بالمئة) يستمتعون ببساطة بثروتهم ومكانتهم بوصفهم أعضاء في الطبقة العليا الاجتماعية، "الطبقة المرفَّهة". أمّا حاملو الشهادات فإنّ المُعلّقين اليمينيين يستمتعون بإدانة النفوذ الشرير لـ "أساتذة الجامعات الليبراليين، "لكنَّ ٩٩ بالمئة منهم في الواقع لا يتمتعون بسُلطة تُذكَر، فمن المرجح أن يدخل أستاذ جامعي مُثبَّت في جامعة جيدة فئةَ الـ ١٠ بالمئة حين يتقاعد، لكنّ معظمهم يدرِّسون أشياء مثل الطفيليات التي تعيش على سمك القرش وأنظمة الطحالب (تهانينا إذا كنت تعرف ما الطحالب)، ومواضيع تفصيلية تجهلها غالبية الناس، ولا علاقة لها بالسياسة والسلطة، وسينسى طلابهم معظم تعاليمهم بعد شهر من الامتحان النهائي. ومِنَ المُؤكَّد أنَّ نسبةً كبيرة من أصحاب الشهادات ليسوا أصلاً جزءاً من الـ ١٠ بالمئة. لنتذكر أصحاب شهادات الحقوق في الانتفاخة السفلى للتوزيع الثنائي. إنّ أفرادَ الجزء النشط من التحالف الحاكم – الرؤساء التنفيذيين للشركات وأعضاء مجالس إدارة الشركات الكبرى (مثل أندي)، وكبار المستثمرين، ومحامي الشركات (مثل

والد جين)، وكبار المسؤولين المنتخبين والبيروقراطيين، وأفراد شبكة تخطيط السياسات – هم الذين يحكمون.

رأينا في الفصل الخامس كيف حصلت الطبقة الحاكمة على شبكة من المؤسسات المترابطة التي مكّنتها من العمل في شكل مجموعة تعاونية متماسكة (على نحو معقول)، وتغلّبت على انقسامات حقبة الصفقة الجديدة، ووجّهت البلاد في أثناء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، وأوصلتها إلى مكانة القوّة العظمى، كما تبنّت سلسلة من الإصلاحات التي ضمنت تقسيماً منصفاً نسبياً للمكاسب من النمو الاقتصادي، الذي نجم عنه رخاءٌ ذو قاعدة واسعة على نحو غير مسبوق في التاريخ النشوئي لنوعنا. في ستينيات القرن العشرين، حقّقت النخبُ الحاكمة إنجازات مهمة في التغلب على أكبر مصادر انعدام المساواة في المجتمع الأميركي، والنابع من تاريخه في العبودية والعنصرية، لكنْ بعد عام ١٩٨٠، ابتعد المزاج الاجتماعي عن التعاون ذي الأرضية الواسعة والأهداف بعيدة المدى، واتجه نحو المصالح الذاتية الضيقة وقصيرة الأمد، وسُمح لمضخة الثروة بأن تعمل بإيقاع محموم على نحو متزايد.

رفع طوفانُ الثروة المتدفقة من الطبقات العاملة إلى النخب الاقتصادية أعدادَ هذه النخب، ونجم عنه إفراطٌ في إنتاجها، وهذا ما سبَّبَ تنامي المنافسة والصراع داخل النخب، وقد بدأ بتقويض وحدة الائتلاف الحاكم وتماسكه. في كتابه الصادر عام ٢٠١٣، **انقسام النخبة التجارية الأميركية (** *The Fracturing of the American Corporate Elite*)، يلاحظ مارك مزروتشي أن النخبة التجارية (كبار الرؤساء التنفيذيين والمديرين في الشركات الـ ٥٠٠ الكبرى)، التي كانت موحَّدة ومعتدلة وبراغماتية في حقبة ما بعد الحرب، تشظّت في العقود الأخيرة، وبات القادةُ الاقتصاديون أقلَّ اعتدالاً وأقلَّ استعداداً للمساهمة في المصلحة العامة، وهذا ما أصبح "مصدراً مهماً للأزمة الراهنة للديمقراطية الأميركية، وسبباً رئيساً للمأزق الذي تجد الولايات المتحدة نفسها فيه في القرن الحادي والعشرين".

تتمثل إحدى العلامات الواضحة على نحو متزايد للاستقطاب الحاصل داخل مجتمع الأعمال في ظاهرة دفع المؤسسات الخيرية بأجندات أيديولوجية متطرفة، فعلى أحد طرفي الطيف تجد المؤسسات المحافظة جداً: تشارلز كوك، وعائلة ميرسر، وسارة شيف، وغيرهم. يُسمّيهم دومهوف "شبكة تعطيل السياسات". على عكس المؤسسات البحثية التقليدية، التي تضع مقترحات سياسات، وتساعد في دفعها عبر العملية التشريعية، فإن هدف شبكة إعاقة السياسات يتمثل في "مهاجمة البرامج الحكومية جميعها وتفنيد دوافع المسؤولين الحكوميين جميعاً".[1] أحد الأمثلة التي طورها دومهوف ببعض التفصيل هي المنظمات التي تنكر التغيّر المناخي، مثل معهد هارتلاند، الذي يهدف إلى زرع الشكوك في الأسس العلمية للتغيّر المناخي وتقويض الإجماع الناشئ حول دور الوقود الأحفوري في إحداث الاحترار العالمي وزيادة حالات الطقس المتطرف (مثل أعاصير الفئة الخامسة). مثال آخر هو إثارة موضوع "ضريبة الموت" ونشره (الفصل الخامس). في المحصلة، إنّ شبكة إعاقة السياسات تسهم في تراجع الثقة بالمؤسسات العامة وبالتعاون الاجتماعي في المجتمع الأميركي.

لقد أصبحت تعيينات قضاة المحكمة العليا والقضاة الاتحاديين الآخرين ميدان معركة أخرى بين "أصحاب المليارات المتطرفين". على مدى عقود، تبرَّعت المؤسسات المحافظة جداً بملايين الدولارات للجمعية الاتحادية، التي "أعادت تشكيل الجهاز القضائي الاتحادي على نحو جوهري بتدريب مئات القضاة المعينين في مناصب في نظام المحكمة الاتحادية".[2] وقد تبرّع جورج سوروس حديثاً بنحو ٢٠ مليون دولار لتمويل عشرات المرشحين التقدُّميين

1- G. William Domhoff, *Who Rules America*?, 8th ed., *The Corporate Rich, White Nationalist Republicans, and Inclusionary Democrats in the* 2020*s* (London: Routledge, 2022), 105.

2- Domhoff, *Who Rules America*?, 106.

للتنافس في مناصب المدعي العام في أنحاء أميركا كافة.[1] منذ عام ٢٠١٧، دفعت جمعية سمارت جَستِس كاليفورنيا (Smart Justice California)، التي يموّلها أربعة مانحين أثرياء من نورث كارولاينا عشرات ملايين الدولارات لانتخابات القضاة الجنائيين والمرشحين المتحالفين معهم، وانتخاب النواب العامين الإصلاحيين جورج غاسكون (في لوس أنجلوس) وتشيسا بودن (في سان فرانسيسكو).[2] في أعقاب احتجاجات حركة "حياة السود مهمة" (Black Lives Matter)، عام ٢٠٢٠، انتُخِب مُدَّعُون عامُّون إصلاحيون أيضاً في مدن كبرى أخرى، لكنَّ التبعات غير المقصودة كانت الصراع المتزايد بين المدعين العامين التقدميين وأقسام الشرطة المحافظة. ومرة أخرى، خلقت المبادرات المنجزة بنِيَّة طيبة، التي قدّمها محسنون أثرياء المزيد من الاستقطاب، على نحو يقوِّض التعاون الاجتماعي. (وكما أُؤكِّدُ دائماً، فإن هذا ليس حكم قيمة حول الأهمية النسبية لهذه المبادرة أو تلك؛ بل إنّهُ تحليلٌ لآثارها المنهجية).

بالعودة إلى مزروتشي، نجده يستنتج أن النخب التجارية، بـ"إفقار الخزانة وبجمع موارد هائلة لنفسها... تقودُنا نحوَ مصير الإمبراطوريات الرومانية، والهولندية، وهابسبورغ الإسبانية... كان ينبغي لأعضائها أن يخدموا مصالحهم الذاتية على نحو مستنير في الوقت الحاضر".[3] حتى الآن لا بأس، لكن مزروتشي ينهي حجته بتأكيد الدرجة التي أصبحت فيها النخب التجارية اليوم "مجموعة غير فعالة وغير مستعدة لمعالجة القضايا الكبرى، على الرغم من ثروتها ونفوذها

1- Parker Thayer, "Living Room Pundit's Guide to Soros District Attorneys," Capital Research Center, January 18, 2022, https://capitalresearch.org/article/living-roompundits-guide-to-soros-district-attorneys/.

2- Jeremy B. White, "4 wealthy donors fuel overhaul of California's criminal justice system," *Politico*, July 17, 2021, https://www.politico.com/states/california/story/2021/07/17/four-wealthy-donors-fueloverhaul-of-californias-criminal-justice-system-1388261.

3- Mark Mizruchi, *The Fracturing of the American Corporate Elite* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2013), 286.

السياسي غير المسبوقين". على العكس، فعلى الرغم من الانقسامات الأيديولوجية التي ناقشناها في الفقرات السابقة، فإن الطبقة الحاكمة الأميركية لا تزال فعالة جداً في دفع مصالحها الضيقة قصيرة الأمد، ومع كلِّ تشريع ضريبي، يصبح القانون الضريبي أكثر رجعية؛ فاليوم تُعَدُّ الضرائب الفعلية على الشركات وأصحاب المليارات في مستواها الأدنى منذ عشرينيات القرن العشرين، وبالمجادلة بنجاح في أنَّ المال "حرية تعبير،" فككت الشركات القيود المفروضة على استعمال ثرواتها لتشكيل السياسة الأميركية، ويستمر الحد الأدنى الاتحادي للأجور في الانخفاض بقيمته الحقيقية، على الرغم من وصول التضخم إلى مستويات غير مسبوقة منذ ثمانينيات القرن العشرين.[1]

تركز الاختلافات بين المحافظين والتقدميين داخل الطبقة الحاكمة على نحو كامل تقريباً على القضايا الثقافية، إذ يمكن للنخب الاقتصادية، التي تهيمن على الكيان السياسي الأميركي، أن تتساهل حيال درجة كبيرة من تنوع الآراء بشأن مثل تلك القضايا، ما دامَ الإجماعُ قوياً على تعزيز مصالحها الاقتصادية الجماعية (إبقاء ضرائبها وأجور عمالها متدنية).

وهكذا، فإنّ خُلاصةَ هذا التحليل هي أنه ما من تحديات وجودية للطبقة الحاكمة الحالية ستنشأ من داخلها، على الأقل ليس في المستقبل القريب. إذاً، ما مجموعة المصالح التي من المرجح أن تشكل تهديداً ذا مصداقية للنظام الراهن؟

العمل الاجتماعي في حاجة إلى التنظيم

لقد أظهر تحليلنا البنيوي– الديناميكي أن ثمة مجموعتين رئيستين تتراجع رفاهيتهما، ومن ثمّ تتنامى إمكانات الحشد الجماهيري في أوساطهما. تتمثل المجموعة الأولى في الطبقة العاملة البائسة التي لا تحمل شهادات، أما الثانية فإنها

١- لمراجعة دراسة نقدية لأطروحة ميرزوتشي، انظر أيضاً "Is the Corporate Elite Fractured, or Is There Continuing Corporate Dominance? Two Contrasting Views" by G. William Domhoff in *Class, Race and Corporate Power* 3, no. 1 (2015), https://doi.org/10.25148/CRCP.3.1.16092135.

تتمثل في الطامحين المحبطين داخل الطبقة حاملة الشهادات، وطبقاً لمعظم المعلقين في وسائل الإعلام التجارية التقليدية، فإنّ التهديد الأكبر للوضع الراهن في أميركا اليوم يكمن في الأميركيين البيض غير المتعلمين في الجامعات، وهذه دعوة إلى التعبئة من ستيفن مارش (Stephen Marche)، مؤلف الكتاب الذي نُشر في عام ٢٠٢٢، وحظي باستقبال جيّد: **الحرب الأهلية القادمة: رسائل من المستقبل الأميركي (*The Next Civil War: Dispatches from the American Future*):**

ثمة أزمة لا شرعية ناشئة، بصرف النظر عمَّن يُنتخَب في عام ٢٠٢٢، أو في عام ٢٠٢٤. طبقاً لتحليل أجرته جامعة فيرجينيا لتوقُّعات تعداد السكان، فبحلول عام ٢٠٤٠، سيُسيطر ٣٠ بالمئة من السكان على ٦٨ بالمئة من مجلس الشيوخ، وستحتوي ثماني ولايات نصف السكان. يُعطي سوءُ توزيع أعضاء مجلس الشيوخ الناخبينَ البيضَ غيرَ المتعلمين جامعياً مزيّات طاغية. في المستقبل القريب، يمكن لمرشح ديمقراطي أن يفوز بالأصوات الشعبية بفارق ملايين الأصوات، ومع ذلك يخسر الانتخابات. لنقم بالحسابات: لم يعد النظام الفيدرالي يُمثّل إرادة الشعب الأميركي.

واليمين يحضِّر لانهيار القانون والنظام، لكنه يسيطر أيضاً على قوات القانون والنظام. لقد اخترقت المنظمات اليمينية المتشددة كثيراً من قوات الشرطة – وتبلغ أعداد المرتبطين بها المئات – بحيث إنَّ الشرطة أصبحت حليفاً لا يمكن الركون إليه في الصراع ضد الإرهاب الداخلي.

ليسَ أنصارُ تفوُّقِ العرق الأبيض في الولايات المتحدة قُوّةً هامشية، بل باتوا داخل مؤسساتها.[1]

لكنَّ ثورة ناجحة تتطلب حزباً ثورياً متماسكاً ومنظماً يتمتع بدعم شعبي عميق. لنفكر في الحزب الشيوعي بقيادة ماو في أثناء الحرب الأهلية الصينية.

1- Stephen Marche, "The next US civil war is already here-we just refuse to see it," *The Guardian*, January 4, 2022, https://www.theguardian.com/world/2022/jan/04/next-uscivil- war-already-here-we-refuse-to-see-it.

ليس هناك تنظيم مماثل في الولايات المتحدة، ولا يمكن بناء مثل ذلك التنظيم في الوقت الذي تظل فيه الشرطة الاتحادية فعّالة. إنّ جهاز المراقبة والممارسات القسرية للدولة أقوى ممّا يمكن فعل شيء حياله، كما أن المسار البلشفيّ إلى السلطة – حيث أخفى هؤلاء تنظيمهم عن الشرطة السرية القيصرية في لندن وزيورخ – مسار غير محتمل أيضاً. أين يمكن لحزب يساري راديكالي أن يجد ملاذاً – الصين؟ روسيا؟ من الصعب تخيُّل أي بلد آخر مستعد لإيواء شخص مصنف إرهابياً في الولايات المتحدة. إضافةً إلى ذلك، فإنّ اليسار الراديكالي مفكك على نحو يائس. إنّ الافتقار إلى الوحدة وغياب التنظيمات الفعّالة ذوات النطاق الواسع حوَّل اليسار الراديكالي إلى وضع يجعله غير ذي صلة أبداً.

لكنّ اليمين الراديكالي على الأقل مفكَّك بالمقدار نفسه وعاجز كما اليسار الراديكالي. دعاة تفوُّق العرق الأبيض، والنازيون الجدد، والكلان (Clan)، واليمين المتطرف، والمتطرفون الخِفاف، والبيض المتطرفون، إلخ... جميعهم مجموعات ثانوية تظهر، وتختفي. طبقاً لرابطة مناهضة التشهير والمركز الجنوبي لقانون الفقر، وهما منظمتان تتبعان المتطرفين اليمينيين، فإنّ كو كلوكس كلان (*Ku Klux Klan*)، تتكون اليوم من عشرات الفروع المستقلة التي يُنافِسُ بعضُها مع بعضاً. مع تنامي البؤس الشعبي في العقود الماضية، فإن أعداداً متزايدة من الذكور الذين لا يحملون الشهادات الجامعية أصبحوا متطرفين، وانضموا إلى مجموعات اليمين المتطرف، كما نما عددٌ مثل هذه المجموعات، ومعها حوادث الإرهاب.[1] لكنّ اليمين المتطرف ليس مفككاً فحسب؛ بل إنه يفتقر أيضاً إلى منظمات واسعة النطاق يمكن أن تُشكِّل أدوات لتنظيم عمل ثوري. إنه لا يشكل

1- Southern Poverty Law Center, *The Year in Hate and Extremism* 2019 (Montgomery, AL: Southern Poverty Law Center, 2020), https://www.splcenter.org/sites/default/files/yih_2020_final.pdf; and Southern Poverty Law Center, *The Year in Hate and Extremism* 2021 (Montgomery, AL: Southern Poverty Law Center, 2022), https://www.splcenter.org/sites/default/files/splc-2021-year-in-hateextremism-report.pdf.

تهديداً ذا مصداقية للنظام. خذ، على سبيل المثال، مؤامرة اختطاف حاكم ميشيغان، غريتشين ويتمر.

عمل قائد المؤامرة المفترضة، آدم فوكس مقاولاً لمصلحة فاك شاك، وهي وظيفة لا تكاد تبقي رأسه فوق الماء. لمّا طردته صديقته، لم يتمكن من العثور على شقة، وانتقل إلى قبو محل فاك شاك. أراد أن يطلق ثورة للإطاحة بالنظام الفاسد الذي كان مسؤولاً عن بؤسه، وكما ذكرت **نيويورك تايمز**، أبلغ مخبراً يعمل لمصلحة الإف بي آي: "إني أريد أن أجعل العالم يشتعل يا صاحبي! سنقلبه رأساً على عقب يا صاحبي!"[1]، لكنْ لم يكن هناك حزب ثوري ينضم إليه. بدلاً من ذلك، اخترَقَتْهُ الإف بي آي هو ورفاقه، وفي النهاية، كان عميل الإف بي آي هو الذي اقترح عليه اختطاف حاكم ميشغان. كان نحو نصف المجموعة شبه العسكرية التي خططت للاختطاف، وحوكمت، وخططت لإعدام ويتمر من المخبرين. من قبيل المفارقة أن الفراغ التنظيمي على اليمين المتطرف فادح إلى درجة أنّهُ تَعيَّن على الإف بي آي تنظيم هذه المجموعة الإرهابية اليمينية المتطرفة.

شخصيتنا الخيالية "البائسة،" ستيف، أذكى بكثير من أن ينضم إلى أيّ مؤامرات من هذا النوع. إذ قال لي: "يا صاحبي! حالما يكون هناك ثلاثة أشخاص في مخطط مُعيَّن، فإن أحدهم مخبر للإف بي آي". انضم ستيف إلى 'حراس العهد'، لكنَّ دافعه الرئيس كان حماية حقوقه في التعديل الثاني. لم يذهب إلى واشنطن، دي. سي، في ٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١، لأنه شعر بأن مثل تلك المظاهرات جميعاً كانت عبثية، بالنظر إلى قوة الدولة، ولمّا قرأ في الأخبار أنّ ستيوارت رودس، مؤسس 'حراس العهد'، اعتُقل واتُّهم بالتآمر لإحداث فتنة

1- Nicholas Bogel-Burroughs, Shaila Dewan, and Kathleen Gray, "F.B.I. Says Michigan Anti-Government Group Plotted to Kidnap Gov. Gretchen Whitmer," *New York Times*, April 13, 2021, https://www.nytimes.com/2020/10/08/us/gretchen-whitmer-michiganmilitia.html.

عن دوره في هجوم ٦ كانون الثاني/ يناير على الكابيتول،[1] ذهب ستيف إليسيارته، وأزال عنها لصاقة 'حراس العهد'. دون منظمات فعّالة، لا تُشكّلُ جماهيرُ الطبقة العاملة الأميركية البائسة تهديداً ذا مصداقيّة.

المعارضون

لو صنفنا الأميركيين النشطين سياسياً طبقاً للطيف التقليدي من اليسار إلى اليمين، فإنَّ الطبقةَ الحاكمةَ والسياسيّين الذين يخدمونها بإخلاص تحتلُّ المركز. وعلى الطرفين هناك الراديكاليون اليساريون واليمينيون،، الذين قد يحلمون بالإطاحة بالنظام الحاكم، لكنهم يفتقرون إلى الأعداد والتنظيم ليشكلوا تهديداً ذا مصداقية، لكنْ بين الراديكاليين والمركز، هناك أولئك الذين ينتقدون النظام، لكنهم غير مستعدين لاستعمال الوسائل العنيفة/ غير القانونية لتغييره. لنُسمِّهم "المعارضين". يشمل المعارضون اليساريون الآن (في حين كتابة هذا الكتاب) السياسيين الديمقراطيين، مثل السيناتور بيرني ساندرز (فيرمونت) والسيناتور إليزابيث وارن (ماساشوستس). كانت لساندرز محاولة حقيقية لتسميته مرشحاً عن الحزب الديمقراطي للرئاسة في عام ٢٠١٦ و٢٠٢٠، لكنَّ الحزبَ استبعدَهُ لمصلحة مُرشّحين تُفضّلهم الطبقة الحاكمة. يناصر ساندرز والمعارضون اليساريون الآخرون سياسات شعبوية مثل رفع الحد الأدنى الاتحادي للأجور وزيادة الضرائب على الأغنياء، ويتمتع بمزيّة فريدة بين الديمقراطيين التقليديين، فقد كان معارضاً للحدود المفتوحة. في مقابلة في مجلة **فوكس** عام ٢٠١٥ أجراها معه إيزرا كلاين، الذي سأل عمّا إذا كان ساندرز يوافق على "رفع مستوى الهجرة التي نسمح بها، حتى مستوى الحدود المفتوحة،" قال ساندرز: "هذا مقترح الإخوة كوك،" ثم مضى قائلاً:

1- Ryan Lucas, "Oath Keepers face seditious conspiracy charges. DOJ has mixed record with such cases," NPR, February 1, 2022, https://www.npr.org/2022/02/01/1076349762/oath-keepers-charged-capitol-riot-seditiousconspiracy.

ما سيُحبُّه اليمينيون في هذه البلاد هو أن تكون هناك سياسة حدود مفتوحة. أدخلوا جميع أنواع الناس، الذين يعملون مقابل دولارين أو ثلاثة دولارات في الساعة، هذا سيكون عظيماً لديهم. أنا لا أؤمن بذلك.[1]

وفي مقابلة لاحقة تلك السنة، تابع في الموضوع نفسه:

حين يكون لديك ٣٦ بالمئة من الأطفال من أصول إسبانية في هذا البلد ممن لا يستطيعون العثور على عمل، وتُدخِل عدداً كبيراً من العمال غير المهرة إلى هذا البلد، فما الذي تعتقد أنه سيحدث للـ ٣٦ بالمئة من الشباب العاطلين من العمل اليوم؟ ٥١ بالمئة من الشباب الأميركيين الأفارقة؟[2]

حالما تخلّى الحزب الديمقراطي عن الطبقات العاملة، وهذا ما أصبح واقعاً صلباً في ظل حكم الرئيس الديمقراطي بيل كلينتون **(١٩٩٣-٢٠٠١)**، توقف الشعبويون اليساريون داخل الحزب عن التمتع بأي نفوذ على السياسات الديمقراطية، وبحكم هذا المنطق، من أجل عدم خسارة الانتخابات، يتعيَّن على الحزب التحرُّك نحو الوسط، و"الوسط،" بالتأكيد، يمثل السياسات التي تُفضّلها الطبقة الحاكمة.

على الجبهة الأيديولوجية، يحصل المعارضون اليساريون على معاملة مختلفة جداً طبقاً لمحتوى انتقاداتهم، وتشغل القضايا الثقافية – العرق، الإثنية، قضايا المثليين، والهوية المتقاطعة – مساحات واسعة من وسائل الإعلام التجارية، أمّا القضايا الاقتصادية الشعبوية، ولا سيما انتقاد النزعة المادية الأميركية، فتخضع لتغطية أقل بكثير. مثال حيّ على هذا يتمثل في كيفية تعامل الطبقة الحاكمة مع

1- Ezra Klein, "Bernie Sanders: The Vox Conversation," *Vox*, July 28, 2015, https://www.vox.com/2015/7/28/9014491/bernie-sanders-vox-conversation.

2- David Weigel, "Bernie Sanders criticizes 'open borders' at Hispanic Chamber of Commerce," *Washington Post*, July 30, 2015, https://www.washingtonpost.com/news/post-politics/wp/2015/07/30/bernie-sanderscriticizes-open-borders-at-hispanic-chamber-of-commerce/.

أحد أقدم المعارضين الأميركيين، نعوم تشومسكي (Noam Chomsky). إنهم يتجاهلونه ببساطة. ليس هناك حظر على كتبه أو تحدُّثه في الجامعات (كما يمكن أن يحدث لو كان معارضاً في الاتحاد السوفييتي)، لكنه لا يُدعى إلى الظهور على وسائل الإعلام التجارية، ونتيجة لذلك، يظلُّ مثل أولئك المفكرين اليساريين شخصيات هامشية في المشهد الأيديولوجي والسياسي الأميركي.[1]

الحالُ مختلفةٌ فيما يخصُّ المعارضين اليمينيين، فقبل عام ٢٠١٦، كان الحزب الجمهوري معقل الطبقة الحاكمة، وأداة الـ ١ بالمئة، أمّا اليوم، وأنا أكتب هذا الكتاب، فإنّ الجمهوريين يقومون بعملية تحوُّل ليصبحوا حزباً ثورياً حقيقياً. (سواء أنجحت عملية التحول هذه أم لا، فإننا سنكتشف ذلك في السنوات القليلة القادمة.). بدأت عملية التحول بالفوز غير المتوقع لدونالد ترامب. ليسَ ترامب ثورياً بالتأكيد. إنه رائد أعمال سياسي نموذجي استغل الاستياء الشعبي، ولا سيما في أوساط الأميركيين الذين لا يحملون الشهادات، للدفع بنفسه إلى السلطة، لكنْ حالما أصبح في السلطة، حاول أن يفي بوعوده الانتخابية (وهو أمر غير معتاد لدى السياسيين التقليديين، وهذا دليلٌ إضافيٌّ على أنه ليس واحداً منهم). لم تكن المبادرات التي اقترحها جميعها ضدّ مصالح الطبقة الحاكمة، وهكذا، فإنّ تشريعاته الضريبية نجحت، وهذا ما جعلَ القانون الضريبي أكثر رجعية، كما عيَّن قُضاةً محافظين في المحكمة العليا، لكي يُرضي البلوتوقراطيين المحافظين، بين مصالح أخرى، لكنه على جبهات أخرى، عمل على نحو كامل ضد أولويات النخب الاقتصادية، وكانت جريمته الأسوأ سياسته المعادية للهجرة، كما رأينا.

---

١ - ويكون هؤلاء أيضاً مؤثرين فعالين جداً على وسائل التواصل الاجتماعي. في تحليل لهذه الوسائل، وجدت مجلة **بوليتيكو** ومعهد الحوار الإستراتيجي أنه على الرغم من صرخات الرقابة، فإن "الأصوات الصديقة لـ 'الحزب القديم العظيم' تفوق بكثير الليبراليين في تحديد اتجاه النقاشات" على الإنترنت. انظر

Mark Scott, "Despite cries of censorship, conservatives dominate social media," *Politico*, October 26, 2020, https://www.politico.com/news/2020/10/26/censorshipconservatives-social-media-432643.

شملت مبادراتُ ترامب الأخرى رَفْضَهُ سياساتِ السوق المفتوح الجمهورية التقليدية لمصلحة السياسات الصناعية، مع أنه لم يكن ناجحاً في ذلك المجال خاصّة. لاحظ معهد السياسات الاقتصادية الذي يميل نحو اليسار أنَّ "سياسات ترامب التجارية الخاطئة، والمدفوعة بأناه المتضخمة، وغير المتّسقة، لم تُحقِّقْ أيَّ تقدُّم يمكن قياسه" في إعادة توطين وظائف التصنيع.[1] أخيراً، إن تشكك ترامب حيال الناتو وعدم استعداده لإطلاق مبادرات (مخفقة) خارجيّة جديدة ضد الإجماع بشأن أهداف "عنيفة" في السياسة الخارجيّة تتشاطرهما النخب الحاكمة على نطاق واسع. كان ترامب الرئيس الوحيد في التاريخ القريب الذي لم يبدأ حروباً جديدة. في حين لا يَعدُّ ترامب نفسه راديكالياً، فإن أحد أعضاء فريقه، كبير استراتيجييه ستيف بانون (Steve Bannon)، ثوريٌّ معمَّد (كما ناقشنا في الفصل الأول). يَعدُّ بانون نفسه "لينينياً" يريد أن "يهدم كل شيء، ويدمر المؤسسة القائمة اليوم كلها".[2] هذه الرؤية لا يتشاطرها معه رئيسه السابق. في كتاب **الحرب للأبد: داخل حلقة بانون اليمينية المتطرفة من صناع القوى العالميين (***War for Eternity: Inside Bannon's Far-Right Circle of Global Power Brokers***)**، يذكر بنجامين تايتلباوم (Benjamin Teitelbaum):

> كما أخبرني [بانون]، "كي تجعل أميركا عظيمة مرة أخرى، عليك... أن تهدم، قبل أن تعيد البناء". من وجهة نظر بانون، فإن دونالد ترامب هو "الهادم". كما سمعته يقول "المدمِّر" أيضاً. هذا هو فهم ستيف، على الأقل. ويستذكر ستيف إجراء محادثة سريعة مع ترامب عن هذا كله في البيت الأبيض

1- Robert E. Scott, "We can reshore manufacturing jobs, but Trump hasn't done it," Economic Policy Institute, August 10, 2020, https://www.epi.org/publication/reshoringmanufacturing-jobs/.

2- Ronald Radosh, "Steve Bannon, Trump's Top Guy, Told Me He Was 'a Leninist,' " *Daily Beast*, August 22, 2016, https://www.thedailybeast.com/steve-bannon-trumps-top-guytold-me-he-was-a-leninist.

في نيسان/ أبريل ٢٠١٧، بعد بعض التغطية الإعلامية لقراءته لـ **التحول الرابع (*The Fourth Turning*)**. لم يكن الرئيس مسروراً. رأى دوره على أنه بنّاءٌ، وليس هدّاماً، وكان يزعجه الحديث الغريب عن النهاية والدمار والانهيار. لم يدفعه ستيف إلى الحديث أكثر. كان ذلك حديثاً سريعاً. إضافة إلى ذلك، لم يكن هناك حاجة إلى جعل ترامب يرى العالم بالطريقة التي يراه هو بها.[1]

قد يَعُدُّ ترامب نفسه بنّاءً، لكنّ المسار اللاحق لرئاسته الفوضوية (الأكثر فوضوية نهايتها) أظهرَ أن تشخيص بانون في عام ٢٠١٧ لترامب على أنه "الهادم" كان منصفاً.

ترامب وبانون كلاهما من النخب المضادة، لكنَّ نشوءَ ترامب وتطوُّرَهُ ليصبح محارباً ضدّ النظام جاء على مسار الثروة، في حين أن بانون اتبع مسار التعلُّم والشهادات. نشأ بانون في أسرة من الطبقة العاملة في فيرجينيا، وخدم في الأسطول الأميركي، وبينما كان يخدم في الأسطول، حصل على شهادة الماجستير من جامعة جورج تاون، ثم على ماجستير في إدارة الأعمال من كلية الأعمال في جامعة هارفارد. أوصله هذا إلى منصب استثماري في مصرف غولدمان ساكس، ثمّ أطلقَ مصرفَهُ الاستثماريَّ الخاص، ومشاريعَ في الترفيه والإعلام، لكنْ بدلاً من الاندماج في الطبقة الحاكمة، أصبح راديكالياً. (يصف نفسه في هذه المرحلة من حياته بأنه "لا مُنْتَمٍ"). تبدو كراهيته للنخب الحاكمة ورغبته في إسقاطها متجذرة في تجربته في العيش والعمل في أوساطها.[2] في خطابه في الفاتيكان عام ٢٠١٤، قال:

> تمكّنت من رؤية هذا لمّا عملتُ في غولدمان ساكس – هناك أشخاص في نيويورك يشعرون بأنهم أقرب إلى الناس في لندن وبرلين مما هم عليه في كانساس وكولورادو، وأنهم يمتلكون تلك العقلية النخبوية التي سيُملونها على الجميع بشأن الكيفية التي ينبغي إدارة العالم بها. سأخبركم أن الرجال والنساء العاملين

1- Benjamin R. Teitelbaum, *War for Eternity*: *Inside Bannon's Far-Right Circle of Global Power Brokers* (New York: Dey Street Books, 2020).

2- Guilford and Sonnad, "What Steve Bannon really wants."

في أوروبا وآسيا والولايات المتحدة وأميركا اللاتينية لا يصدقون ذلك. إنهم يعتقدون أنهم يعرفون ما الأفضل لهم، وكيف يديرون حياتهم.

في عام ٢٠١٢، أصبح بانون الرئيس التنفيذي لـ بريتبارت نيوز (Breitbart News)، وهو موقع إخباري يميني متطرف على الإنترنت. في الوقت الذي قضاه بانون في بريتبارت، أدار برنامج مقابلات إذاعية واتصالات حظي بشعبيّة، وشنَّ هجوماً نارياً على الجمهوريين التقليديين، مؤيداً بدلاً منهم مجموعة هامشية من الشخصيات المحافظة المتطرفة. من بين تلك الشخصيات كان ترامب، الذي كان ضيفاً متكرراً على البرنامج. أسّسا علاقةً دفعت ببانون في النهاية إلى إدارة حملة ترامب الشعبوية للوصول إلى البيت الأبيض.[1]

لكنْ تبيّن أن الوصول إلى المكتب البيضاوي شكَّل قمّةَ إنجازات الاثنين.[2] لم يكُنْ أيٌّ منهما يتمتع بالقدرة أو بالانضباط للتمكُّن من "تجفيف المستنقع،" كما كانا قد وعدا في أثناء الحملة الانتخابية. لم يقتصر الأمر على عدم قدرة ترامب على تنفيذ برنامج إصلاحات منهجية، بل أثبت أنه سيّئٌ جداً في إدارة البلاد ببساطة، مع أنه، للإنصاف، قُوبِلَ كُلُّ شيء حاول فعله ضد مصلحة الطبقة الحاكمة بعمليات تعطيل هائلة من الطبقة نفسها. القصة معروفة جيداً، ولا حاجة إلى سرد التفاصيل المبتذلة. يكفي القول إن بانون وترامب اختلفا، على الأقل جزئياً، نتيجة تعبير بانون عن آراء ليس فيها كثير من الإطراء على ترامب وعائلته.

كان بانون واحداً فقط من كثير ممن تربطهم علاقات عمل بترامب، وتركوا إدارته في فضائح. في الواقع، يبدو أنّ أغلبية فريق ترامب (كما كان الحال) غادره في ظروف مريبة. كثيرون أُدينوا، وبعضُهم سُجِنَ فعليّاً. أظهر ترامب أنه يتقن طرد الموظفين أكثر بكثير من إتقانه بناءَ شبكةِ سُلطةٍ فعّالة ومتماسكة، حتّى مُنتقِدُوهُ، الذين يتهمونه بمحاولة تحويل نفسه إلى ديكتاتور، يُقرّون بأنه أثبت أنه غير مؤهل نهائياً لممارسة الاستبداد. في عام ٢٠٢٠، أدارت 'المؤسسة' "حملةً

1- Guilford and Sonnad, “What Steve Bannon really wants.”

٢- حتى الآن. من يعلم ما الذي سيجلبه عام ٢٠٢٤...

مضادة للتمرد،" نجحت في إخراج هذا 'المزعج' من الجسد السياسي. كان اقتحام الكابيتول في ٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١ آخر مناوشة في تلك المعركة،[١] معَ أنَّ هذا التمرُّد بالمعايير التاريخية العالمية، لا يُعدُّ شيئاً يُذكَر؛ وبالتأكيد لا يرقى إلى اقتحام الباستيل أو القصر الشتويّ.

لكنْ، وهذا له تداعياتٌ بشأن عام ٢٠٢٤، قد يكونُ الحزب الجمهوري في حالة تطور من حزب الواحد بالمئة إلى حزب الشعبوية اليمينية. الجمهوريون التقليديون (أي الأنصار المؤيدون للطبقة الحاكمة) يغادرون الحزب بالعشرات، وبعضهم يستقيل مبكراً، وآخرون يجري تحدِّيهم وهزيمتهم على يد مرشحين "ترامبيين". ولا بد من الانتظار لرؤية مدى نجاح هذا التحوّل في المستقبل. هل يصبح 'الحزب الكبير العظيم' تنظيماً ثورياً يهدف إلى الإطاحة بالنخبة الحاكمة، كما يريد بانون؟ هذا بالتأكيد مثار قلق كبير للطبقة الحاكمة.

ويستمر اليمين الراديكالي مفككاً، ويفتقر إلى أيديولوجيا مشتركة. ومن المُؤكَّد أنَّ ترامب ليس شخصيةً يُمكِنُ أن يُتَّحَدَ حولها، ولا تشكل "الترامبية" أيديولوجيا متماسكة، بل هي برنامج رغبويّ لإعادة رجل واحد إلى السلطة. بعض السياسيين اليمينيين محاربون ثقافيون فحسب، في حين يركز آخرون على قضايا شعبوية. في الوقت الراهن، إن الظاهرة الأكثر إثارة للاهتمام، التي قد تشكل، أو لا تشكل، النواة المتبلورة، تتمثل في ظاهرة تاكر كارلسون (Tucker Carlson). كارلسون مثير للاهتمام لأنه أكثر منتقدي 'المؤسسة' صراحةً وأعلاهم صوتاً، ويعمل داخل وسائل الإعلام التجارية، في حين أنّ وسائلَ إعلام مثل سي. إن. إن، وMSNBC، و**نيويورك تايمز**، و**واشنطن بوست** تفقدُ مصداقيتها لدى السكان عامّةً (ولا سيما في أوساط الأميركيين من غير حملة الشهادات)، فإنّ كارلسون يحظى بشعبية متزايدة. إنه المعلق السياسي الذي يصغي إليه الناس أكثر من أيّ معلق آخر في أميركا، كما أنه مثير للاهتمام من حيث إن من الواضح أنه

---

١ - على الأقل في زمن كتابة هذا الكتاب. بالنظر إلى أن معظم الجمهوريين يعتنقون الرأي القائل بأن انتخابات عام ٢٠٢٠ سُرِقت من ترامب، فإن المعركة مستمرة.

صاغ أيديولوجيا متماسكة، طرحَها بطريقة مُيسَّرة في كتاب أصدرَهُ عام ٢٠١٨ بعنوان **سفينة الحمقى: كيف تدفع طبقة حاكمة أنانية بأميركا إلى حافة الثورة؟** (*Ship of Fools: How a Selfish Ruling Class Is Bringing America to the Brink of Revolution*).

في بداية الكتاب، يسأل كارلسون: "لماذا انتخبت أميركا دونالد ترامب؟" ويجيب من فوره:

لم يكن انتخاب ترامب يتعلق بترامب نفسه، بل كان في منزلة رفع إصبع وسطى نابضة في وجه الطبقة الحاكمة الأميركية. كانت إشارة اشمئزاز، صرخة غضب، النتيجة النهائية لعقود من القرارات الأنانية وغير الحكيمة اتّخذَها قادةٌ أنانيون وغير حكماء. الدول السعيدة لا تنتخب دونالد ترامب رئيساً. الدول اليائسة هي التي تفعلُ ذلك.

يشكل هذا الجواب تشخيصاً أيضاً، ويحدد لهجة ما تبقى من الكتاب. أميركا في مشكلة؛ فما أسبابها الجذرية؟ يوازي انتقاده للطبقة الحاكمة الأميركية في كثير من الأماكن تحليلنا للقوى الاجتماعية التي تدفع الولايات المتحدة نحو الحافة. على الرغم من أنه لا يستعمل المصطلحات نفسها بالضرورة، فإن كتابه حول تفكك التعاون الاجتماعي ("الغراء القوي بما يكفي للمحافظة على تماسك ٣٣٠ مليون نسمة")، والبؤس الشعبي ("انحدار الطبقة الوسطى")، والنخب الأنانية (حسناً، "النخب الأنانية")، لكنّهُ يغفل دافعاً رئيساً من دوافع عدم الاستقرار يتمثل في الإفراط في إنتاج النخب، ويتمسك بالقضايا الثقافية، لكنْ ثمّة فرقٌ بينَ أنْ يفهمَ المرءُ بالحدس أهميةَ مختلف القوى الاجتماعية التي ناقشتُها في هذا الكتاب، من جهة، وبينَ أن يفهمَ كيفَ تترابطُ هذه الأجزاء – الخرطوم، والأنياب، والسيقان العمودية – التي ترتبط معاً لتُكوِّن فيلاً كاملاً.[١]

١ - على المدى الطويل، فإن منهجاً علمياً يجمع نماذج رسمية إلى البيانات الكبرى، ويتبنّاه مجتمع من الباحثين، سيتفوق على أي فرد، مهما بلغ ذكاؤه. وفي الوقت نفسه، سأكون أول من يعترف بأن الكليوديناميكا منهجٌ فتيّ جداً، وما زلنا في بداية إدراكِنا الخطوطَ العامة لهذا الكائن الكبير.

ولأنّ كارلسون يوفر أقرب ما يكون إلى أيديولوجيا مشتركة لـ "اليمين الجديد،" فمن المهم إلقاء نظرة عامة على كتاب **سفينة الحمقى.** وهنا بعض الأفكار الرئيسة في الكتاب:

- كان الحزب الديمقراطي حزب الطبقة العاملة، لكن بحلول عام ٢٠٠٠، أصبح حزب الأغنياء. لقد التقى الحزبان الحاكمان في الولايات المتحدة. "قد يكون زواج رأسمالية السوق والقيم الاجتماعية التقدمية المزيج الأكثر تدميراً في التاريخ الاقتصادي الأميركي... إن الانحناء أمام أجندة التنوع أقل كلفة بكثير من رفع الأجور".
- لقد لقيت الهجرة الجماعية دائماً الدعم من غرفة التجارة (وهي منظمة تعزز مصالح أرباب العمل). على العكس من ذلك، فإنه ما من عضو في الحزب الديمقراطي كان يشك في أن تدفقاً كبيراً للمهاجرين "ذوي المهارات المتدنية" سيقلِّص أجور العمال الأميركيين، ولا سيما العمال الأقل تعليماً. لكن بحلول عام ٢٠١٦، "لم يبقَ فعلياً أي مشككين بشأن الهجرة على اليسار... وكان التغيير نتيجة حسابات سياسية صرفة. فَهِمَ الديمقراطيون أنّ الأغلبية الساحقة من الناخبين المهاجرين سيُصوّتون للديمقراطيين".
- الجمهوريون والديمقراطيون "متفقون الآن على حكمة التدخُّل العسكري المتكرر في الخارج... ونتيجة لذلك، ظلت أميركا في حالة حرب دائمة تقريباً". العراق، أفغانستان، ليبيا، سورية – وبِيعَ كُلٌّ من هذه التدخلات للجمهور على أنه مسعى لتحقيق أهداف نبيلة، مثل استبدال ديكتاتوريات فاسدة بديمقراطيات نابضة بالحياة، لكنّ النتيجة النهائية كانت سلسلة من البلدان المدمرة.
- "كان هناك وقت مثّلَ فيه التعديل الأول للدستور نصاً علمانياً للأميركيين المتعلمين". لم يعد كذلك. الآن، بات الجناحان اليساري واليميني للطبقة

الحاكمة يَعُدَّان الآراء المعارضة تهديداً لسلطتها؛ "يُعدُّ الاختلاف الخطوة الأولى نحو التمرد". وأدينت حرية التعبير في الجامعات، كما أدانها وادي السليكون، والصحافة. "كان الصحفيون قد أصبحوا خدماً للسلطة".

- "لماذا نفرض على رأس المال نصف معدل الضريبة التي نفرضها على العمل؟" "لماذا يموت العمال في سن أصغر؟". إن طرح أسئلة كهذين السؤالين بات يزعج الطبقة الحاكمة، وبدلاً من تحميل الناسِ النُّخبَ الحاكمةَ المسؤوليّةَ، "فإنك ترغب في جَعْلِ الناسِ يُحمِّلُ بعضُهم بعضاً المسؤوليّة... تتمثل أسرع طريقة للسيطرة على السكان في تحويل بعضهم ضد بعض... وتُعدُّ سياسات الهوية وسيلةً مناسبة لفعل ذلك".

تاكر كارلسون رجل خَطِرٌ جداً، وتتمثّل إحدى العلامات الواضحة على أنّ النخب التقليدية تتعامل معه بجدية كبيرة في سلسلة من ثلاث مقالات في **نيويورك تايمز** ظهرت في نيسان/ أبريل ٢٠٢٢.[1] أجرى باحثو **نيويورك تايمز** قدراً كبيراً جداً من الأبحاث من أجل كتابة هذه المقالات الثلاث، وقرؤوا نصوصَ حلقات **تاكر كارلسون تونايت** جميعها، والبالغ عددها ١١٥٠ حلقة من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٦ (لمّا بدأ بثُّ البرنامج) إلى عام ٢٠٢١، وطبقاً لتحليل **نيويورك تايمز**، ثمة ثلاثة موضوعات رئيسة يتحدث عنها كارلسون، مرة بعد مرة. اثنان منها لهما علاقة مباشرة بالمسائل التي يناقشها هذا الكتاب: "الطبقة الحاكمة" (التي استحضرها كارلسون في أكثر من ٨٠٠ حلقة – أي في ٧٠ بالمئة من حلقات البرنامج)، و"تدمير المجتمع" (٦٠٠ حلقة). والموضوع الثالث هو "الاستبدال" (الذي ذُكر في ٤٠٠ حلقة، فكرة أن السياسيين الديمقراطيين يرغبون في إحداث تغيير ديموغرافي بوساطة الهجرة)، وهذا ما دفع **نيويورك تايمز** إلى تصنيف برنامج كارلسون على أنه "البرنامج الأكثر

1- Nicholas Confessore, "How Tucker Carlson Stoked White Fear to Conquer Cable," *New York Times*, April 30, 2022, https://www.nytimes.com/2022/04/30/us/tucker-carlson-goprepublican-party.html.

عنصرية في تاريخ الأخبار التي تُنقَل عبر الكابلات". لم تعالج سلسلة **نيويورك تايمز** الأفكار التي قدّمَها كارلسون في **سفينة الحمقى**؛ وبدلاً من ذلك ركّزت على نحو كامل على برنامجه التلفزيوني.[1] وبالفعل، فإن التناقض بين لهجة الكتاب ولهجة البرنامج التلفزيوني كبير إلى درجة أنهما يمكن أن يكونا نتيجة عمل شخصين مختلفين، فقد تطوّرت لهجةُ البرنامج التلفزيوني بمرور الوقت، إذ تراجع ظهورُ ضيوف يعارضون كارلسون، في حين أصبحت المونولوجات الفردية أكثر طولاً وتواتراً، وتشير **نيويورك تايمز** إلى أنّ هذا التغيير في صيغة البرنامج كان مدفوعاً بمسعىً لتحقيق معدلات مشاهدة تلفزيونية أعلى. من المُؤكّد أنّ **تاكر كارلسون تونايت** أصبح أكثر البرامج التلفزيونية نجاحاً في تاريخ الأخبار المنقولة عبر الكابلات.

ولا ينبغي أن يكون مفاجئاً أنّ كارلسون مكروه على نطاق واسع من وسائل الإعلام التجارية الأخرى، إضافةً إلى المُعلّقين في فوكس نيوز نفسها التي يعملُ فيها. لقد وُصف بأنه مُحرِّض يميني، و"مُروِّج لبروباغاندا غير نزيهة"، و"عنصري مملّ"، و"عميل أجنبي"، بل حتى خائن لبلاده.[2] وقد دعا سياسيون

١- تذكر المقالة الأولى كتاب كارلسون عرضاً، متجاهلة إياه على أنه "مناحة من حقبة فوكس عن أنانية النخب الأميركية".

٢- فيما يأتي بعض الاقتباسات التي تُعدُّ أمثلة على ذلك:

"دعائي غير نزيه" جون ستيوارت (دومينيك ماستراتغيلو، "جون ستيوارت يحطّم 'الدعائي غير النزيه' تاكر كارلسون بسبب ملاحظاته عن بوتين،" *The Hill*, March 3, 2022).

"عنصري مملّ" *The New Republic* ("تاكر كارلسون مملّ جداً،" *The New Republic*، ٢٩ نيسان/ أبريل ٢٠٢١.)

"خائن" – شيري جيكوبز (@CheriJacobus "تاكر كارلسون صلة الوصل بين ترامب وبوتين، وهو يعمل الآن على إكمال العملية،" تويتر، ٢٢ شباط/ فبراير ٢٠٢٢، ١٠:٠٨ بعد الظهر.

"إنه ديماغوجي موهوب جداً" – بِل كريستول (مايكل كرانيش، كيف أصبح تاكر كارلسون صوت مظالم البيض،" *Washington Post*, July 14, 2021.

"عميل أجنبي" – آنا نافارو (دومينيك ماستراتغلو، "اللجنة العاملة على 'The View' تدعو وزارة العدل إلى التحقيق مع تاكر كارلسون بشأن كلامه عن بوتين،" *The Hill*، ١٤ آذار/ مارس ٢٠٢٢.)

وشخصيات إعلامية (**"خدم السلطة"**) محطةَ فوكس إلى طرده، لكنْ دون نجاح حتى الآن.

ليس كارلسون صوتاً وحيداً في البرّيَّة، فإضافة إلى المونولوجات التي تميزه، فإنه يستضيف على نحوٍ متكرر ضيوفاً في برنامجه، وتنبئنا هوياتهم بأشياء كثيرة عن التمرد المعارض الذي ينتقد القوى القائمة. في عامي ٢٠٢١ و٢٠٢٢، شملَ ضيوفُ كارلسون غلين غرينوولد (Glenn Greenwald)، وتولسي غابارد (Tulsi Gabbard) من اليسار، ومايكل فلين (Michael Flynn)، وجي. د. فانس (J. D. Vance) من اليمين.

ذاتَ مرّة، اتّهمَ الممثلُ الكوميدي والمعلّقُ السياسي جون ستيوارت روبروت مردوك (Rupert Murdoch)، الذي يملك فوكس نيوز، ويوظّف كارلسون، "بمحاولة تدمير نسيج هذا البلد".[1] لكنْ يُمكنُ أن تُوجَّهَ تهمةٌ أكثر دقّة إلى كارلسون تتمثل في أنه يرغب في الإطاحة بالنخب الحاكمة. من كثير من الأوجه، يمثل شخصية نموذجية من شخصيات النخبة المضادة. هل ينبغي أن يأخذ مردوك هذه المناشدات على محمل الجد، على الأقل إذا كان مهتماً بالمحافظة على هيمنة النخب الاقتصادية (التي يُعَدُّ هو نفسه أحدَ أفرادها بالتأكيد)؟ لكنّ مردوك، على ما يبدو، أكثر اهتماماً بالحدّ الأدنى الذي وضعه لنفسه شخصياً من اهتمامه بالدفاع عن طبقته.

المعركةُ القادمة

انتصر التحالُفُ الحاكم في المعركة الأولى في الحرب الأهلية الجارية حالياً، فقد سيطر الحزب الديمقراطي على جناحه الشعبويّ، وبات الآن حزب الـ ١٠ بالمئة والـ ١ بالمئة، لكنّ الـ ١ بالمئة تفقد أداتها السياسية التقليدية، أي الحزب

1- Dominick Mastrangelo, "Jon Stewart rips 'dishonest propagandist' Tucker Carlson for Putin comments," *The Hill*, March 3, 2022, https://thehill.com/homenews/media/596764-jon-stewart-rips-dishonest-ropagandist-tucker-carlson-for-putin-comments.

الجمهوري، الذي سيطر عليه الجناح الشعبوي. قد يكون تاكر كارلسون، وليس دونالد ترامب، البذرةَ البلورية التي يتشكّلُ حولها حزبٌ راديكالي جديد، أو يمكن لشخصية أخرى أن تصعد فجأة – إذ إن الأزمنة الفوضوية تنزع إلى تفضيل صعود قادة جدد (وسقوطهم السريع أيضاً في كثير من الأحيان). جادلتُ في مكان سابق من هذا الكتاب بأنه لا يمكن لثورة أن تنجح دون تنظيم واسع النطاق. يعتزم الشعبويون اليمينيون استعمال 'الحزب القديم العظيم' بوصفه تنظيماً موجوداً أصلاً للوصول إلى السلطة، كما أنّ ثمة مزيّة إضافية تتمثل في أن السيطرة على أحد الحزبين الرئيسين توفر لهما مساراً قانونياً غير عنيف يوصل إلى السلطة.

يُعرَف هذا الفصيل الشعبوي اليميني الناشئ بأسماء مختلفة؛ ولعلَّ أكثرَها شُيوعاً الآن 'اليمين الجديد' و'المحافظون الوطنيّون'. ويُعدُّ ج. د. فانس أحد النجوم الصاعدين للمحافظين الوطنيين، وهو عضو مجلس شيوخ منتخب حديثاً عن الحزب الجمهوري في أوهايو، ولمسار حياة فانس كثير مما يجمعه مع بانون، فقد نشأ فانس في 'حزام أوهايو الصدئ، وعانى مباشرة من الآثار المدمرة لنزع السمة الصناعية عن الطبقة العاملة، بما في ذلك مشكلات مثل العنف المنزلي والإدمان على المخدرات. والده ووالدته مطلقان، وتربى على يد جده وجدته. تطوَّع في قوات البحرية الأميركية، وخدم في العراق، ثم اتّخذَ مسارُ حياته تحوُّلاً دراماتيكياً، فبعد تخرُّجه في جامعة ولاية أوهايو، مُنِحَ دكتوراه في القانون من تلك التشكيلة من الكوادر الثورية المسماة كلية الحقوق في جامعة ييل.[1] لمّا كان في كلية الحقوق، شجعته أستاذة هناك هي إيمي شوا، على كتابة مذكرات، وكانت النتيجة **مرثية هيليبيلي: مذكرات عائلة وثقافة في أزمة**، نُشِرَ عام ٢٠١٦. بعد التخرج، عمل في شركة محاماة تجارية، ثم عمل شريكاً في مثريل كابيتال، إحدى

١ - إن العدد الكبير من أفراد النخب المضادة في أميركا الذين يحملون درجات جامعية من جامعة ييل أمر لافت: من اليساريين مثل تشيسا بودين إلى اليمينيين مثل ستيوارت رودس، زعيم 'حراس العهد'.

شركات بيتر ثيل المغامرة، والآن فاز بمقعد في مجلس الشيوخ على برنامج للمحافظين الوطنيين. موَّلت شركة ثيل ترشيحه، وحصل على معاملة تنم عن التعاطف في برنامج تاكر كارلسون، كما ظهر فانس مرات عدّة على بودكاست ستيف بانون، بعنوان **غرفة الحرب** (*War Room*). مرشح آخر لمجلس الشيوخ في عام ٢٠٢٢ ذو مسار مشابه (مع أنه يحمل إجازة في الحقوق من جامعة ستانفورد، وليس من جامعة ييل) هو بليك ماسترز (Blake Masters). حصل على تمويل من ثيل أيضاً وعلى دعم من كارلسون. هاتان شخصيتان نموذجيتان من أوساط النخب المضادة.

بحلول أواخر عام ٢٠٢٢، ما من وسيلة تمكننا من معرفة ما إذا كان كارلسون، وفانس، وعلى نحوٍ أوسع، المحافظون القوميون، سينجحون في السيطرة على الحزب الجمهوري، لكن من الواضح أن المحافظين القوميين يعيدون تشكيل الحزب العظيم القديم، بالبناء على ما أُنجِزَ على يد ترامب وبانون، وكما كتب جيسون زينغرل (Jason Zengerle)، في **نيويورك تايمز**، "يعتمد الأمر على وجهة نظرك؛ فإمّا أنّ المحافظين القوميين يحاولون إضافة ثقل فكري إلى 'الترامبية'، وإمّا أنهم يحاولون إجراء هندسة عكسية لعقيدة فكرية توازي شعبوية ترامب الغبية".[1] حتى السياسيون الجمهوريون التقليديون يتحركون في الاتجاه الشعبوي، بعد أن بدؤوا بالتشكيك في ولائهم للشركات الكبرى. ويشمل هؤلاء السياسيون أعضاءَ مجلس شيوخ جمهوريين ومرشّحين رئاسيين من الحزب القديم العظيم لعام ٢٠١٦ تيد كروز (Ted Cruz)، وماركو روبيو (Marco Rubio). أعلن كروز حديثاً أنه لن يقبل تبرُّعات من لجان العمل السياسي، أمّا روبيو فلم يُصرِّح بمثل هذا التعهُّد، لكنه يبعث على نحو متزايد برسائل شعبوية: "على مدى السنوات الماضية، كنت أقولُ إن عدداً أكبر مما ينبغي من الشركات الأميركية يعطي الأولوية للمكاسب المالية قصيرة

1- Jason Zengerle, "The Rise of the Tucker Carlson Politician," *New York Times Magazine*, March 22, 2022, https://www.nytimes.com/2022/03/22/magazine/tuckercarlson-politician.html.

الأمد على حساب الأُسَر، والمجتمعات المحلية الأميركية، والأمن الوطني. وثمّة أعداد متزايدة من الناس باتت متفقة مع وجهة النظر هذه، سواء في الحزب الجمهوري أو في البلاد عامة".[1] ويدفع السيناتور جوش هولي (Josh Hawley)، (خريج آخر في كلية الحقوق في جامعة ييل) بتشريع يقول إنه "سيفكك الشركات التقنية الكبرى"، ويفرض "عقوبات جديدة قاسية" على الشركات التي تنتهك قوانين منع الاحتكار.[2]

تجد الطبقة الحاكمة الأميركية نفسها اليوم في مأزق تكرر آلاف المرات على مدى التاريخ البشري. لقد سحب كثير من الأميركيين العاديين دعمهم للنخب الحاكمة، و"رفعوا إصبعاً وسطى غليظة في وجه الطبقة الحاكمة في أميركا". وتشكل شرائح كبيرة من حملة الشهادات المحبطين في مسعاهم للحصول على مواقع في أوساط النخبة، تربة خصبة للنخب المضادة، التي تحلم بالإطاحة بالنظام القائم. معظم أصحاب الثروات غير مستعدين للتضحية بأي امتياز شخصي من أجل المحافظة على الوضع القائم. المصطلح التقني لمثل هذا الوضع هو "حالة ثورية". فيما يتعلّق بالطبقة الحاكمة، ثمة مساران للخروج من حالة ثورية. يفضي أحدهما إلى الإطاحة بها، أما المسار البديل، فإنه يتمثل في تبنّي سلسلة من الإصلاحات التي تعيد التوازن إلى النظام الاجتماعي، وتعكس نزعات الإفقار الشعبي والإفراط في إنتاج النخب. فعلت النخب الحاكمة الأميركية ذلك مرة، قبل قرن من الزمن. هل تستطيع فِعلَ ذلك مرّةً أخرى؟ ما الذي يُنبئُنا به التاريخ؟

1- Niall Stanage, "Cruz, Rubio ramp up criticisms of big business," *The Hill*, May 3, 2021, https://thehill.com/homenews/campaign/551318-exclusive-cruz-rubio-ramp-upcriticisms-of-big-business/.

2- Niall Stanage, "Cruz, Rubio ramp up criticisms of big business."

الفصل التاسع

مضخة الثروة ومستقبل الديمقراطية

نتائج الأزمة

يظهر تحليل الحالات المئة في قاعدة بيانات الأزمات التي جمعنا البيانات عنها حتى الآن أن ثمة اختلافاً جوهرياً في الكيفية التي تدخل بها المجتمعاتُ مراحلَ الأزمات والكيفية التي تخرج بها منها. إذا كان الدخول شبيهاً بوادٍ ضيّق، فإن الحصائل تدفع مروحة من المسارات المحتملة ذوات درجات متباينة جدّاً من "الشدة". رمَّز فريقنا البحثي الشِّدَّة باستخدام جملة من مؤشرات التداعيات السلبية (بلغ مجموعها اثني عشر).[1] تتناول إحدى المجموعات التداعيات الديموغرافية: هل تقلَّص العدد الإجمالي للسكان نتيجة الاضطرابات التي تلت الأزمة؟ هل انتشر وباء كبير؟ وجدنا أن تراجع أعداد السكان شائع جداً؛ فنصف حالات الخروج من الأزمة ترافقت مع تراجع في عدد السكان، وارتبط ٣٠ بالمئة من حالات الخروج من الأزمة بانتشار وباء كبير.

تُركِّزُ مُؤشِّراتٌ أُخرى على ما حدث للنخب، ففي ثلثي الحالات تقريباً، نجم عن الأزمة انتقال أعداد كبيرة من أفراد النخب إلى صفوف العامة. في سُدس الحالات، استُهدفت مجموعات النخب بالإبادة، وبلغ احتمال اغتيال الحاكم ٤٠ بالمئة، وهذه أخبار سيّئة للنخب. الأخبار الأسوأ للجميع كانت أنّ ٧٥ بالمئة من الأزمات انتهت بثورات أو بحروب أهلية (أو بهما معاً)، وفي خُمس

1- Daniel Hoyer et al., "Flattening the Curve: Learning the lessons of world history to mitigate societal crises," preprint, submitted on January 2, 2022, https://doi.org/10.31235/osf.io/hyj48.

الحالات، استمرّت الحروب الأهلية المتكررة مُدَّةَ قرن أو أكثر، وأدّى ٦٠ بالمئة من حالات الخروج من الأزمة إلى موت الدولة؛ إذ احتلّتها دولةٌ أخرى، أو تفكّكت ببساطة إلى شظايا.

الاستنتاج العام قاتم، فثمّةَ عددٌ قليل من الحالات التي تمكّنت فيها المجتمعات من معالجة أزماتها بتداعيات كبرى قليلة أو دون تداعيات. في معظم الحالات، اجتمعت كوارث عدة، وتعرّضَ بعضُ المجتمعات لحصائل حادّة حقاً. على سبيل المثال، تعرّضت سلالة فالوا (Valois) في فرنسا لتسعة من اثني عشر تداعياً حادّاً في أثناء الحروب الدينية الفرنسية في القرن السادس عشر. اغتيل الملوك والدوقات؛ وأُبيدَت النخب في عدد من المناسبات (مثل مجزرة عيد القدّيس بارثولوميو)؛ ويُقدَّر أنّ ثلاثة ملايين شخص ماتوا جراء العنف، أو المجاعة، أو الأمراض في هذه المدة من الحرب الأهلية، وتشمل حالات حادة أخرى سقوط سلالتي تانغ وسونغ في الصين، وانهيار الإمبراطورية الساسانية، وأزمة القرن السادس في شرق الإمبراطورية الرومانية.

لكنّ السجلات التاريخية تُقدّمُ بعض الأمثلة على مجتمعات تمكّنت من النجاة من أزماتها دون أن تتأثر نسبياً، إذ كان العنف في حدّه الأدنى؛ واحتفظت بالسيادة؛ ولم يكن هناك خسائر تُذكَر في الأراضي، أو لم يكن هناك خسائر على الإطلاق؛ وظلّت غالبيّةُ الهيكليات والمؤسسات الاجتماعية دون مساس، إلّا عبرَ إصلاحات مؤسساتية أو سياساتية معينة. تمكّنت هذه المجتمعات على نحو ما من "تسوية منحنى" الاضطرابات المتصاعدة والعنف الطائفي اللذين طغيا على مجتمعات كثيرة أخرى. كيف بالتحديد تمكنت هذه المجتمعات من تجنب النتائج الكارثية؟

دعونا نركز على الموجة الكاملة الأخيرة من انهيار الدول، أو عصر الثورات، الذي كان عالمياً في نطاقه. على نحو خاص، كان النصف الثاني من عصر الثورات، بين عامي ١٨٣٠ و١٨٧٠ تقريباً، مرحلة مضطربة جداً في تاريخ العالم. شهدَتْ أغلبيّةُ الدول الكبرى تقريباً ثوراتٍ أو حروباً أهليّة (أو كلتيهما

معاً)، وشملت هذه الدول الولايات المتحدة والصين (كما رأينا في الفصل الأول)، وطغت على أوروبا موجة من الثورات في عام ١٨٤٨. تمكّنت فرنسا من استضافة ثلاث ثورات – في أعوام ١٨٣٠، و١٨٤٨، و١٨٧١. في اليابان، سقط نظام توكوغاوا في عام ١٨٦٧، لكنْ كان هناك استثناءان تمثّلا في الإمبراطوريتين البريطانية والروسية. شهدت الدولتان أوضاعاً ثورية، لكنهما تمكّنتا من التعامل معها بتبنّي المجموعة المناسبة من الإصلاحات. حتى الآن، امتلأ كتابي بـ "العِلم الكئيب" حول تفكُّك المجتمعات وانهيار الدول. حان الوقت الآن للنظر إلى الجانب الأكثر إشراقاً للأمور.

إنكلترة: المرحلة الميثاقية (Chartist Period)، (١٨١٩ - ١٨٦٧)

بعد نهاية الأزمة التي مرت بها إنكلترة في القرن السابع عشر (١٦٤٢ - ١٦٩٢، التي شملت الحرب الأهلية الإنكليزية والثورة المجيدة)، شهد القرن التالي توسُّعاً دراماتيكياً للإمبراطورية في الخارج، على الرغم من خسارة المستعمرات الأميركية، وارتفع عددُ سُكّان الجزر البريطانية نتيجة ارتفاع معدلات الولادة وتراجع معدلات الوفاة تدريجياً. انتهى الأمر بجزء كبير من النمو السكاني في المراكز الصناعية مثل لندن ومانشستر، التي أصبحت مراكز مكتظة مملوءة بالأمراض وسوء التغذية. كان العمال في هذه المدن يعملون ساعات طويلة مقابل أجور متدنية مع عدم وجود إجراءات سلامة تُذكَر. بدأ الإفراط في عرض العمالة بتقليص الأجور الحقيقية بعد عام ١٧٥٠، وأدّى البؤسُ الشعبي إلى انخفاض متوسّط الطول، وهو مُؤشِّرٌ رئيسٌ للرفاه العام. في عام ١٨١٩، قمعت السُّلطاتُ بوحشيّةٍ حركةً احتجاجية شعبية واسعة في مانشستر تُطالبُ بمنحِ الذكور جميعاً حقَّ الاقتراع وبتحسين ظروف العمل. قُتِل خمسة عشر شخصاً، وجُرح مئات لمّا هاجمَ سلاحُ الخيّالة، ورماحُهم مُشهَرة، حشداً مُكوّناً من ستين ألف متظاهر. صدمت مذبحة بيترلو، كما باتت تُعرف، الأمة. في الوقت نفسه، بدأت حركة التصنيع، التي كانت بريطانيا رائدة فيها،

بكسب زخم متزايد، وأدت إلى مرحلة طويلة غير مسبوقة من النمو الاقتصادي النشط. بدأت مضخة الثروة بإنتاج نخب اقتصادية جديدة. علامة أخرى واضحة على الإفراط في إنتاج النخب تمثلت في ارتفاع معدلات الالتحاق بالجامعات، التي كانت في انخفاض من أوجها عشية الحرب الأهلية الإنكليزية، ثم ارتفعت مرة أخرى بعد عام ١٧٥٠، واندلعت مناظرات شرسة داخل فصائل النخبة بشأن كيفية معالجة الاضطرابات. في عام ١٨٣١، أدى هذا الصراع إلى حل البرلمان البريطاني، وهذا ما أدّى إلى إجراء انتخابات بعد عام واحد من الانتخابات السابقة وفوز الإصلاحيين، مع أنّ القضايا ظلت إشكالية.

يمكننا تتبع الضغوط المؤدية إلى عدم الاستقرار بعدد الاعتقالات والوفيات في اجتماعات عامة مثيرة للجدل في بريطانيا العظمى. حدثت ثلاث موجات اعتقال في عام ١٧٥٨ وحده، لكنّ العدد ارتفع في العقود التالية، فوصل إلى قمة بلغت ١٨٠٠ معتقل في عام ١٨٣٠، ووصل عدد الوفيات إلى أوجه في عام ١٨٣١، لمّا قُتل ٥٢ شخصاً. كان من الواضح أن المملكة المتحدة باتت في وضع ثوريّ. استمرت الاضطرابات حتى عام ١٨٦٧، لمّا وُسِّعَتْ قاعدةُ الناخبين لتشمل المواطنين الذكور جميعاً، وفي هذه الأثناء، حدثت احتجاجات وأعمال شغب عدّة، في حين أُصْدِرَتْ سلسلةٌ من قوانين العمل وإصلاحات أخرى تهدف إلى تحسين الأحوال المعيشية للطبقة العاملة الحضرية. سُمّيت المرحلة باسم ميثاق الشعب لعام ١٨٣٨، التي كانت وثيقة رسمية للاحتجاج تطالب بهذه الإصلاحات.

وقد كان منتصف القرن التاسع عشر، دون شك، وقتاً شهد ضغوطاً واضطرابات عظيمة في إنكلترة، ويتفق الباحثون المتخصصون في هذه المرحلة عامّةً على أن "هذه العقود امتلكت إمكانات ثورية كامنة، و... أن البلاد اقتربت أكثر من أي وقت مضى من الثورة منذ القرن السابع عشر".[1] لكنْ لم تحدث حرب

1- John E. Archer, *Social Unrest and Popular Protest in England*, 1780–1840 (New York: Cambridge University Press, 2000), 89.

أهلية رئيسة أو تمرُّد مُعلَن، وكان نطاق العنف السياسي أقل بكثير مما حدث في دول أوروبية أخرى (أو في عصر الخلاف السابق في إنكلترة، ١٦٤٢-١٦٩٢). ما الذي يفسر هذه النتيجة السعيدة؟

يكمن جزء من الجواب في استفادة إنكلترة من الموارد التي وفرتها إمبراطوريتها الشاسعة، إذ هاجر ملايين من العامة من إنكلترة في المرحلة الميثاقية، على نحو رئيس إلى ممتلكات مثل كندا، وأستراليا، والولايات المتحدة الأميركية (التي كانت قد أصبحت مستقلة)، وكان هذا مدفوعاً جزئياً بالضغوط الديموغرافية والاقتصادية التي تواجه شريحة كبيرة من السكان. كما يسَّرت الدولة هذه الحركة إلى الخارج برفع القيود عن الهجرة، بدايةً بتسعينيات القرن التاسع عشر، ودعم السفر إلى المناطق التي تسعى للحصول على مستعمرين، ولا سيما أستراليا ونيوزيلندا. ولم يهاجر أفراد العامة فحسب، فكثير من أفراد النخب الطامحين المصابين بالإحباط جراء إشباع مواقع السلطة والامتيازات في الوطن هاجرُوا إلى الخارج – بعضهم إلى مناصب في الإدارة الاستعمارية، وآخرون بوصفهم مواطنين أفراداً.

يمكن القول إنّ الإصلاحات المؤسساتية التي جرت في تلك المرحلة كانت العاملَ الأكثر أهميةً في إنهاء الأزمة، فردّاً على الاضطرابات، اقتنعت شريحة واسعة من النخبة السياسية الإنكليزية بالحاجة إلى إجراء إصلاحات حاسمة عدّة. في عام ١٨٣٢، وُسِّعَ حقُّ الانتخاب ليشمل مالكي الأرض الصغار وبعض السكان الحضريين، كما نقل قانون الإصلاح لعام ١٨٣٢ ميزان القوى بعيداً عن مالكي الأراضي ولمصلحة النخب التجارية الصاعدة بإلغاء "الدوائر الانتخابية العَفِنَة" (rotten boroughs)، (التي تحتوي عدداً ضئيلاً من السكان، ويتحكم بها الأرستقراطيون الأغنياء) وبتحويل المدن التجارية والصناعية الرئيسة إلى دوائر انتخابية منفصلة. في عام ١٨٣٤، عُدِّلَ قانون الفقر في محاولة لزيادة دعم الدولة للعمال المرضى أو العاطلين من العمل. لمّا أخفق قانون الفقر الجديد في تحقيق أهدافه المعلنة، اندلعت موجة جديدة من الاحتجاجات

وأعمال الشغب، التي أدّت إلى ميثاق الشعب. رداً على ذلك، أجري عدد إضافي من الإصلاحات في العقدين التاليين، وكان أحد الإجراءات الأكثر أهمية التي خففت حدة البؤس الشعبي إلغاء قوانين الحبوب التي كانت قد فرضت رسوماً جمركية على واردات الحبوب، وهذا ما كان يعود بالفائدة على مالكي الأراضي، لكنه يُضخِّم أسعار المنتجات الغذائية الرئيسة في الأسواق المحلية. تمثلت ديناميكية مهمة أخرى في هذه المرحلة في نضال العمال لترسيخ حقهم بإنشاء نقابات عمالية. نجم عن هذه التطورات المختلفة استعادة الأجور الحقيقية بحلول عام ١٨٥٠ الخسائرَ التي كانت قد مُنيت بها منذ عام ١٧٥٠. بعد عام ١٨٦٧، بدأت أجور العمال بالارتفاع بمعدلات غير مسبوقة تاريخياً، إذ تضاعفت في الخمسين عاماً التالية.

وكانت العملية السياسية فوضوية، وأتت تنازلات البرلمانيين الإنكليز بعد موجة واسعة ومستمرة من الاحتجاجات الشعبية شارفت على التمرد، كما استغرق ذلك وقتاً طويلاً – نحو خمسين عاماً – لإجراء جميع الإصلاحات، وانقسمت النخب نفسها بشأن كيفية التعامل مع هذه الاضطرابات. مع ذلك، سعت النخب الحاكمة إلى تلبية مطالب الغالبيّة البائسة، ولو جزئياً، بالإصلاحات المؤسساتية، كما تطلب تنفيذ هذه الإصلاحات مبالغ كبيرة من الإنفاق العام لدعم برامج الرفاه الجديدة. على حد تعبير أحد المؤرخين، "من عشرينيات القرن التاسع عشر فصاعداً، أظهرت النخبة البريطانية قدرة كبيرة على إصلاح مؤسساتها والانتقال من دولة مالية – عسكرية إلى دولة إدارية قادرة على تلبية احتياجات مجتمع تجاري وصناعي يزداد تعقيداً".[1]

روسيا: مرحلة الإصلاحات (١٨٥٥ - ١٨٨١)

للمسارات التاريخية في بداية الإمبراطوريتين الروسية والبريطانية كثير من السمات المشتركة، فحتى القرن السابع عشر، كانتا لاعبتين غير مهمتين

1- Edward Royle, *Revolutionary Britannia*? *Reflections on the Threat of Revolution in Britain*, 1789–1848 (Manchester, UK: Manchester University Press, 2000), 171.

وهامشيتين نسبياً في سياسات القوى الأوروبية.[1] لكنْ في القرن الثامن عشر، أسّستْ هاتان الدولتان إمبراطوريتين كبيرتين، الأولى قاعدتها برية، وهي روسيا، والثانية قاعدتها بحرية، وهي إنكلترة، وبعد أن ألحقتا مجتمعتين الهزيمة بفرنسا نابليون، أصبحت الإمبراطوريتان البريطانية والروسية "القُوّتَينِ العُظْمَيَيْنِ " في أوروبا، وفعلياً في العالم (مع تداعي إمبراطورية كينغ تدريجياً بسبب عوامل داخلية). في عام ١٨٣٣، كانت روسيا أقوى قوة برية أوروبية، حيث بلغ تعداد جيشها ٨٦٠,٠٠٠، لكنَّ الثورة الصناعية التي اكتسبت زخماً في شمال غرب أوروبا بعد عام ١٨٠٠ غيّرت ميزان القوى داخل أوروبا، ولأن روسيا تراجعت، ولم تحقق تقدماً يُذكَر في تحديث اقتصادها، فإنها تلقّت هزيمة مذلة أمام تحالف عسكري قادته بريطانيا في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦). شكَّلت هذه الهزيمة شرارة وضع ثوري وجدت الإمبراطورية الروسية نفسها فيه في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر.

أولاً، كانت روسيا واحدة من آخر الدول التي ألغت القنانة. كيف كان من الممكن لهذا النظام الاجتماعي غير المنصف على نحو صارخ أن يتطور؟ لفهم السبب، علينا أن نعود إلى أصول الإمبراطورية الروسية. نحو نهاية القرن الخامس عشر، شكَّلت الدولة الموسكوفية ومالكو الأرض والفلاحون عقداً اجتماعياً ثلاثياً، تخدم فيه طبقة مالكي الأرض في الجيش، في حين يعمل الفلاحون لدعم هؤلاء المحاربين والدولة (التي كان جهازها الإداري ضئيلاً في الأحوال كلها، وموظفوه من مالكي الأرض الذين كانوا يُعوَّضون بمنحهم الأرض والفلاحين). مالكو الأرض الذين لم يكن في إمكانهم الخدمة، أو لا يرغبون فيها، كانت تُصادَرُ أراضيهم (بفلاحيها). مكَّن ذلك العقد موسكوفي،

١- نجم عن الحروب الأنغلو-هولندية في القرن السابع عشر من أجل السيادة في البحار هزيمة إنكلترة. انتهت الحرب في عام ١٦٨٨، لمّا غزا حاكم هولندة، وليام الثالث من أورانج، إنكلترة ونصَّب نفسه ملكاً. (حُرِّف هذا الغزو لاحقاً، وسُمِّيَ 'الثورة العظمى'.)، وتعرّضت روسيا لغزوات من جيران أقوى منها أيضاً. على سبيل المثال، احتلت القوات البولونية الكرملين في موسكو في 'زمن الاضطرابات'.

التي كانت تقع في جوار جيوسياسي صعب جداً، إذ كانت محاطة بأعداء أقوياء على الأطراف جميعها (إلّا الشمال)، من البقاء والتوسع إلى أن أصبحت إمبراطورية قوية. تجدد العقد الاجتماعي في ظل حكم بطرس الأكبر (حكم بين عامي ١٦٨٢ و١٧٢٥)، الذي أجبر النبلاء جميعاً على خدمة الدولة، سواء في الجيش أم في الجهاز البيروقراطي، لكنْ تُـخُـلِّـيَ عنه نتيجة "ثورة مالكي الأرض" في عام ١٧٦٢، لمّا ألغى بطرس الثالث التزامات مالكي الأرض الأرستقراطيين بخدمة الدولة. بحلول عام ١٨٦٠، كانت طبقة النبلاء قد أصبحت طبقة طفيلية، إذ تخدم أقلية من مالكي الأقنان في الجيش أو في الجهاز البيروقراطي. وهكذا، استعاد إلغاء القنانة شيئاً من العدالة الاجتماعية، لكن تصويب المظالم الاجتماعية لا يحدث من تلقاء نفسه؛ إذ تَطلَّبَ وضعاً ثورياً لإلزام الحكام بتمرير الإصلاحات اللازمة على الرغم من مقاومة النبلاء.

كانت الأسباب الجذرية للهشاشة الاجتماعية– السياسية، كالمعتاد، البؤس الشعبي والإفراط في إنتاج النخب.[١] في نهاية أزمة القرن السابع عشر في روسيا، لمّا ترسخ حكم سلالة رومانوف في عام ١٦١٣، كان عدد سكان البلاد أقل من خمسة ملايين، لكنْ بحلول عام ١٨٦٠، كان عدد سكان روسيا في مقاطعاتها الأوروبية الخمسين فقط قد ارتفع إلى أكثر من ستين مليوناً. مع أن روسيا توسعت برياً في الوقت نفسه، فإن مثل هذا النمو السكاني الهائل تجاوز مساحات الأراضي الزراعية المتوافرة للفلاحين، وهذا ما أدى إلى تقلص حصة الفرد من استهلاك الغذاء، وكانَ علامة واضحة على البؤس الشعبي انخفاض متوسط طول الفلاحين المجندين أربعة سنتيمترات في القرن الثامن عشر.

كما ارتفعت أعداد النخب في المرحلة التي سبقت عام ١٨٦٠، بسرعة أكبر من سرعة ارتفاع عدد الفلاحين، ونتيجة لذلك، ارتفعت نسبة النبلاء إلى السكان في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. في الوقت نفسه، ارتفعت مستويات استهلاك النخب، ومع ازدياد أعداد النخب وشهيتها، كانت

١- أختصر هنا وصفاً أكثر تفصيلاً في الفصل التاسع من *Secular Cycles*.

في حاجة إلى الحصول على المزيد من الموارد من الطبقة المنتجة، ولأنّ نحو نصف الفلاحين في روسيا كانوا من الأقنان (وكان البقيّة و"فلاحي دولة" أحراراً)، دأب النبلاء على التضييق على الأقنان الذين يمتلكونهم. غالبية مضخات الثروة التي ناقشناها حتى الآن كان يُشغِّلها توازن متغير في القوة الاقتصادية بين العمال وأرباب العمل. في الاقتصاد القائم على القنانة، كان أمام النخب خيار استعمال القوة العارية لضخ الثروة من الفلاحين.

قُوبلَ ازديادُ مطالبِ الأقنانِ في النصف الأول من القرن التاسع عشر بزيادة مقاومة الفلاحين، وكان سبب الغالبية العظمى من أعمال الشغب الريفية الشروط الجديدة المفروضة على الفلاحين، مثل زيادة أجور الأرض أو أعمال السخرة، وسلب الأرض، والعقوبات القاسية. ارتفع عدد الاحتجاجات الفلاحية من عشرة إلى عشرين سنوياً في مطلع القرن التاسع عشر إلى مئة واثنين وستين في عام ١٨٤٨ (إذ كانت تنطلق بعد وصول أخبار الثورات الأوروبية). بلغت المقاومة الفلاحية أوجها في عام ١٨٥٨ (٤٢٣ اضطراباً).

مثلت الضغوط المتزايدة من أعمال شغب الفلاحين وعمليات التحريض عاملاً مهماً في قرار الإسكندر الثاني (الذي حكم بين عامي ١٨٥٥ و١٨٨١) تحريرَ الأقنان. ذكر 'القسم الثالث في الشرطة السياسية التابعة لجلالته' في عام ١٨٥٧ أن الفلاحين كانوا في "حالة هياج" نتيجة ظهور شائعات بقرب تحريرهم، وأن من المرجح حدوث اضطرابات هائلة، وهذا تحديداً ما حدث في العام التالي.

أقنعت صدمة الهزيمة المذلة في حرب القرم، التي نزعت الشرعية عن النظام القيصري، مضافاً إليها الخوف من أن انفجار المقاومة الفلاحية يمكن أن يتحول إلى تكرار لتمرد بوغاشيف (Pugachev's Rebellion)[١]، الطبقةَ الحاكمةَ الروسيةَ

١- كانت ثورة بوغاتشيف (١٧٧٣-١٧٧٥) انتفاضة للفلاحين والقوزاق قادها يميليان بوغاتشيف، الذي ادَّعى أنه القيصر بطرس الثالث (الذي كان في الواقع قد اغتيل في انقلاب داخلي في القصر). كان هدف بوغاتشيف الرئيس إلغاء القنانة.

بضرورة تحرير الأقنان. بعد قراءة كتاب توكفيل عن الثورة الفرنسية، علَّق شقيق الإمبراطور، الدوق الأعظم كونستانتين: "إذا لم نقم بثورة سلمية وكاملة بأيدينا نحن، فإنها ستحدث، دون شك، دوننا وضدنا". وفي خطابه في نبلاء موسكو، عبَّر الإسكندر الثاني نفسه عن المشاعر نفسها، قائلاً: "نعيش في عصر ستحدث فيه عاجلاً أم آجلاً. أعتقد أنكم توافقوني الرأي: سيكون من الأفضل الشروع في إلغاء القنانة من الأعلى، بدلاً من الانتظار حتى تلغي نفسها من الأسفل".[1]

لم تُفضِ إصلاحات ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته إلى تحرير الأقنان فحسب، بل إنها غيرت المجتمع الروسي بطريقة غير مسبوقة حقاً.[2] لكنْ لم ترحِّب بذلك مجموعات المصالح كلها في روسيا، إذ إنّ إصلاح التحرير الصادر عام ١٨٦١، خاصّةً، لم يعجب الفلاحين ولا مالكي الأقنان النبلاء. لأنّ معظم الأقنان المحررين لم يحصلوا على ما يكفي من الأرض لإطعام أسرهم، وتعيَّن عليهم دفع ضرائب خلاص مرتفعة جداً لمالكيهم السابقين، وكانت طبقة النبلاء الخاسر الأكبر، بالنظر إلى أنها فقدت قواها العاملة بالسخرة. في أعقاب تحرير الأقنان، أُجبرت أغلبية النخب على تحمُّل تدنّي مكانتها الاجتماعية، وخلقت هذه العملية أعداداً كبيرة جداً من النخب المضادة، التي غذَّت نمو العناصر الراديكالية، مثل الفوضويين والثوريين الاجتماعيين، وعمَّت موجة من الأعمال الإرهابية أنحاء روسيا كافّة في ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته، ودفع الإسكندر الثاني، الذي بات يُعرف بالإسكندر المحرِّر، الثمن الأعلى لسياسته في التحرير، إذ اغتيل في عام ١٨٨١ على يد راديكاليي إرادة الشعب (Narodnaya Volya)، الذين كانوا يأملون إحداث ثورة شعبية ضد النظام القيصري.

1- Turchin and Nefedov, *Secular Cycles*, chapter 9.

٢- هذه بعض أهم الإصلاحات: تخفيف الرقابة على الصحافة، والإصلاح القضائي، والتحديث العسكري، والحكم الذاتي المحلي، وإصلاح التعليم، وإصلاح الكنيسة الأرثوذكسية، والتحديث الاقتصادي.

لكن على الرغم من أنّ الإصلاحات استغرقت عقدين من الزمن، لكنها نجحت في النهاية في تقليص التوترات الاجتماعية التي أحدثت أزمة منتصف القرن التاسع عشر في الإمبراطورية الروسية. تفادت الطبقة الحاكمة الروسية بنجاح حدوث ثورة. في مرحلة ما بعد الإصلاحات، فتراجعت الاضطرابات الفلاحية، وفي حين تصاعدت الاضطرابات نحو نهاية القرن، فإن هذه كانت ترتبط عادة بصعود إمبراطور جديد، وهذا ما كان يرفع آمال الفلاحين بحدوث إصلاحات جديدة تتعلّق بالأرض. (فقد استمرت مشكلة عدم كفاية الأرض الممنوحة لكل فلاح)، وعلى نحو مماثل، فإن موجة الرعب تراجعت بحلول عام ١٨٩٠، ولأن عقوبة الإعدام في روسيا القيصرية كانت تقتصر على الجرائم السياسية الأكثر خطورة، مثل الإرهاب، فإنّ عدد الإعدامات كل سنة يوفر مؤشراً مفيداً على النشاط الثوري،[١] ويرسم التوزع الزمني للإعدامات بوضوح أوج عدم الاستقرار في مرحلة ما بعد الإصلاحات: صفر في خمسينيات القرن التاسع عشر، سبعة عشر في ستينياته، اثنان وعشرون في السبعينيات، ثلاثون في الثمانينيات، صفر مرة أخرى في تسعينيات القرن التاسع عشر.[٢]

ما الذي يمكن أن نتعلمه من قصص النجاح هذه؟

على الرغم من الاختلافات الواضحة بين بريطانيا وروسيا – فإحداهما إمبراطورية ليبرالية، والأخرى إمبراطورية أوتوقراطية – فإنهما كانتا تتشاطران أيضاً أوجه شبه معينة، يمكن أن تساعد في تفسير كيفية تمكنهما من تجاوز أزمات منتصف القرن التاسع عشر دون حدوث ثورات كبرى، على عكس القوى العظمى (وتلك غير العظمى) الأخرى المعاصرة. مما لا شك فيه أن امتلاك إمبراطورية متنامية كانت مزيّة مهمة، لأن كل دولة كان بوسعها تصدير الفائض من سكانها ومن نخبها إلى الأراضي التي ضمَّتها حديثاً إلى إمبراطوريتها. إضافة

١ - بدقة أكبر، هو مؤشر على الجهود التي تبذلها السلطات في قمع التطرف.

2- Turchin and Nefedov, *Secular Cycles*, chapter 9.

إلى ذلك، فإن بناء إمبراطورية كبيرة وقابلة للاستمرار ليس أمراً بسيطاً، فالنجاح في مثل هذا العمل يدل على درجة معينة من كفاءة الطبقة الحاكمة، وعلى الأقل درجة من التعاون الموسَّع داخل المجتمع. يمكن توجيه هذه الكفاءة، وقد وُجِّهت، إلى عملية إصلاح الإمبراطورية لمواجهة التحديات الجديدة، وفي الوقت نفسه، فإنّ كلتا الإمبراطوريتين كانت ببساطة محظوظةً بامتلاكها قادةً كانوا مُستعدّين للتضحية بالمزيات الأنانية قصيرة المدى من أجل الخير الجماعي على المدى الطويل. أخيراً، فإنّ كلتا الدولتين واجهت منافسة خارجية قوية، مِن كُلٍّ منهما إلى الأُخرى، ومن قوى عظمى أخرى، ولا شيءَ يُركِّز العقل الجماعي للطبقة الحاكمة أكثر من تهديد وجودي مزدوج – من الداخل، من السكان المحكومين، ومن الخارج من الخصوم الجيوسياسيين.[1]

قصص نجاح على المدى الطويل

تُنبئنا قاعدة بيانات الأزمات بأنه ما من مجتمع تمكَّن في الماضي من الاستمرار مُدّة طويلة قبل أن يواجه أزمة، لذلك من المشروع التساؤل عن المدة التي دامها الأثر الباعث على الاستقرار للإصلاحات التي نفّذتها كلٌّ من روسيا وبريطانيا.

في روسيا، استمر الهدوء نحوَ جيلٍ فحسب، من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٠٥، وكانت المشكلة الرئيسة هي التي ذكرتُها قبل قليل، أي أنّ تحرير الأقنان جعلَ الوضع الاقتصادي للنبلاء غير قابل للاستمرار. من جهة، كان هذا عادلاً، لكنْ من جهة أخرى، كانت له تداعيات غير مقصودة.

لم يتمكّنْ معظم النبلاء مالكي الأرض، ولا سيما أولئك الذين تخصصوا في إنتاج الحبوب للسوق بعمالة السخرة،[2] من التكيّف مع الظروف الجديدة،

١- في معظم الحالات، بالتأكيد، لا تصمد الطبقات الحاكمة أمام التحدي، ولذلك السبب ينتهي الأمر بمعظم حالات 'قاعدة بيانات الأزمة' بحدوث ثورة أو حرب أهلية دموية.

٢- بمعنى أنه كان يُطلب من الفلاحين العمل لمصلحة أسيادهم عدداً محدداً من أيام الأسبوع دون تعويض.

وأخفقوا. الأراضي التي كان يملكها الأرستقراطيون المدمَّرون اشتراها فلاحون أغنى، وتجار، وأفراد من الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، وكان المجال الوحيد الذي يمكن للنبلاء المُفقَرين أن يُعوّضوا به عن عائدات الأرض التي خسرُوها هو خدمة الحكومة. وفّرَ التعليم شهادات أعطت مزيّة في التنافس للحصول على عمل، ومن ثم فإن الشباب الأرستقراطي دخل المعاهد والجامعات بأعداد كبيرة. بين عامي ١٨٦٠ و١٨٨٠، ارتفع عدد طلاب الجامعات أكثر من ثلاثة أضعاف (من ٤,١٠٠ إلى ١٤,٠٠٠)، واستمر في الارتفاع على مدى العقدين التاليين.[1]

كان نحو نصف الطلاب من أبناء النبلاء والمسؤولين الحكوميين، وكان معظمهم فقراء جداً، وأدى مزيج من الفقر المُدقع والتعرُّض لأيديولوجيات اجتماعية جديدة من أوروبا الغربية، مثل الماركسية، إلى دفع الطلاب نحو الراديكالية، وشهدت هذه المرحلة تشكُّل طبقة اجتماعية جديدة هي الإنتلجنسيا، التي نمت بالتزامن مع توسُّع التعليم. شكّلَ الإفراط في إنتاج النخب العملية الأكثر أهمية التي أدت إلى تشكيل الإنتلجنسيا، التي كان لنصف أعضائها جذورٌ في عِزَب النُّبلاء.

لم تكن الدولة قادرةً على توفير وظائف لخريجي المعاهد والجامعات جميعاً، لأن حجم البيروقراطية الحكومية ارتفع بمعدل ٨ بالمئة فقط في هذه المرحلة (في حين أن عدد الخريجين تضاعفَ أربعَ مرات). في مواجهة آفاق التوظيف السيئة، وجد كثير من الطلاب مسارات بديلة، مثل النشاط الثوري، وهو خيار جذّاب، إذ كان ٦١ بالمئة من ثوريّي ستينيات القرن التاسع عشر، "العدميين،" طلاباً أو خريجين جُدداً، ونسبة أكبر (٧٠ بالمئة) من أبناء النبلاء أو المسؤولين.[2]

أخفقت الموجة الأولى من الخميرة الثورية في ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته في الإطاحة بالنظام القيصري، إذ تمكَّنَ قمعُ التنظيمات الراديكالية في

1- Turchin and Nefedov, *Secular Cycles*, chapter 9.

2- Turchin and Nefedov, *Secular Cycles*, chapter 9.

أثناء حكم الإسكندر الثالث، الذي خلفَ والدَهُ على العرش بعد اغتياله، من تحقيق الاستقرار، لكنّ العملية التي كانت تُولِّد طامحين محبطين من أفراد النخبة استمرّت دون هوادة؛ وفي أثناء حكم القيصر التالي، نيكولاس الثاني، دفعت روسيا إلى الثورة في الفترة ١٩٠٥-١٩٠٧، وكان السبب المباشر، كما من قبل، الهزائم العسكرية التي تعرّضت لها روسيا، هذه المرة في الحرب الروسية– اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥). كان لا يزال هناك كثير من القدرة على الصمود في الإمبراطورية؛ وفي حين أنّ الثورة كانت دموية، فإنها لم تنجح في الإطاحة بالطبقة الروسية الحاكمة. تطلَّب الأمر الصدمة الإضافية المتمثلة في الحرب العالمية الأولى لإحداث الثورة الروسية عام ١٩١٧ وإنهاء حكم سلالة رومانوف.

تلخيصاً لما سبق، فإنّ الإصلاحات العظمى في ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته كانت قصة نجاح حقيقية، إذ إنها سوَّت الوضع الثوري الذي تطور في الخمسينيات دون إراقة دماء تُذكَر. بالمقارنة، إذا كان قد أُعدِمَ في أثناء حكم الإسكندر الثالث (الذي سُمِّيَ صانعَ السلام، وسمّاهُ الثوريّون خانقَ الحرية)، ثلاثون شخصاً فحسب (ولم يكن هناك أي إعدام في تسعينيات القرن التاسع عشر)، فإن قمع ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ تطلَّب ثلاثة آلاف. تمكنت سلالة رومانوف من "تسطيح الانحناء"، وإعطاء روسيا نصف قرن إضافيّاً لتحديث نفسها، لكنْ على المدى الطويل، فإنّ السلالة انهارت تحت الضربات المشتركة للإفراط في إنتاج النخب والضغوط الجيوسياسيّة.

كانَ أداءُ الإمبراطورية البريطانية أفضل؛ إذ أزال النصر على روسيا في حرب القرم آخر تهديد لوضعها قُوَّةً عالمية مهيمنة لا مُنافسَ لها، وكانت الحقبة الفيكتورية (١٨٣٧-١٩٠١) مرحلة اتسمت بالتميُّز الثقافيوالتكنولوجي والعلمي، لكنَّ العصور التكاملية هذه تنتهي كلّها، فمع أنّ الإمبراطورية البريطانية انتصرت في الحرب العالمية الأولى، فإنها بدأت تراجعها البطيء في مرحلة ما بعد الحرب (مع أن هذا التفكك التدريجي تجنَّب حدوث عدم استقرار سياسي كبير وعنف داخلي في المركز). خسرت بريطانيا السباق الاقتصادي أمام

الولايات المتحدة وألمانيا، وكانت هناك ثورة ناجحة في إيرلندا أدَّت إلى تأسيس الدولة الإيرلندية الحرّة في عام ١٩٢١. تسارعت عملية التردِّي الإمبريالي بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أصبحت الهند، "درّة التاج الإمبراطوري،" مستقلةً عام ١٩٤٧. اليوم، لا يمكن تصوُّر أن تصبح اسكتلندا دولة منفصلة في العقود القادمة. الإمبراطوريات جميعها تموت في النهاية، والإمبراطورية البريطانية لم تكن استثناءً، لكن هذه الملاحظة لا تُقلِّل في أي حال الإنجازات التي حقّقتها النخبُ البريطانية في الحقبة الميثاقية.

ما سرُّ ضعف الديمقراطيات أمام النخب البلوتوقراطية؟

يمثل تحليل قصص النجاح (بريطانيا الميثاقية، وروسيا الإصلاحية، والحقبة التقدمية في الولايات المتحدة، وحالات أخرى[1]) مصدراً للتفاؤل والتشاؤم على حدٍّ سواء، فمن منظور تفاؤليّ، من الممكن إغلاق مضخة الثروة وإعادة التوازن إلى الأنظمة الاجتماعية دون اللجوء إلى ثورة أو حرب كارثية. قد يكون الموت هو "محقق المساواة الأكبر،" كما يجادل شيديل (Scheidel)، لكنه ليس الوحيد، فالخوف – أو إذا شئنا التعبير عن ذلك على نحو أكثر إنصافاً، التبصُّر الذكيّ – يمكن أن ينجح أيضاً، وقد نجح في قصص النجاح.

لكنْ من منظور أكثر تشاؤمية، فإنّ قصص النجاح نادرة نسبياً في السجلات التاريخية، لكنْ من منظور أكثر تفاؤلاً، بات لدينا الآن فهم أفضل للأسباب العميقة التي تُخرج الأنظمة الاجتماعية عن توازنها، وبات من الممكن التنبؤ (ولو على نحو غير مثاليّ) بالنتائج المحتملة لمختلف التدخلات الرامية إلى إعادتها إلى التوازن. ومرة أخرى، على الجانب المتشائم، فإن تنفيذ الإصلاحات اللازمة ليس سهلاً، لأنه يتعين على المصلحين دائماً التغلب على مقاومة مجموعات المصالح التي ستخسر بسببها.

1- Daniel Hoyer et al., “Flattening the Curve: Learning the lessons of world history to mitigate societal crises.”

وأخيراً ليس هناك حل دائم، إذ إنّ نظاماً اجتماعياً متوازناً ومضخة ثروة مغلقة يشكلان توازناً غير مستقر يتطلب جهداً مستمراً للمحافظة عليه – كما في حالة ركوب الدراجة. ومَرَدُّ عدم الاستقرار هذا أحد المبادئ الأكثر جوهرية في علم الاجتماع، وهو "القانون الحديدي للأوليغاركية،"[١] الذي ينص على أنه حين تحصل مجموعة مصالح على قدر كبير من السلطة، فإنها تبدأ حتماً باستعمال هذه السلطة بطريقة تحقق مصالحها الذاتية. إننا نرى عمل هذا المبدأ العام في المجتمعات ما قبل الحديثة وفي المجتمعات المعاصرة على حد سواء. كانت الإمبراطورية الروسية في بدايتها، على سبيل المثال، دولة خدمات تُقدَّم فيها الخدمة إلى الجميع : إلى الفلاحين، والنبلاء، والحاكم. (وبطرس الأول مثال جيّد على القيصر الخدمي، لكنه ليس الوحيد.)، لكنّ طبقة النبلاء كانت تتمتع بقوة أكبر من قوة اللاعبين الآخرين؛ وفي النهاية قوّضوا الاتفاق الثلاثي بتحرير أنفسهم من الخدمة، ثم شغَّلوا مضخة الثروة – لأنَّ الأمر بأيديهم – فقمعوا الفلاحين، وأصبحوا طبقة طفيلية. ونرى العملية نفسها، مرة بعد مرة، في الدول التاريخية كافة؛ ولهذا السبب يتكرّرُ حدوثُ موجات عدم الاستقرار.

يا للأسف! إنّ الديمقراطيات الحديثة ليست منيعة على القانون الحديدي للأوليغاركية، فالولايات المتحدة أغلقت بنجاح مضخة الثروة في الحقبة التقدمية/ الصفقة الجديدة، لكنها سمحت من ثم لنخب المصالح بإعادة تشغيلها في سبعينيات القرن العشرين، وسارت المملكة المتحدة على مسار مُشابه، وإنْ كانت قد تخلّفت عن الولايات المتحدة ببضع سنوات. في ذلك البلد، بدأ انحدار الأجر النسبي بعد عام ١٩٧٥،[٢] وهناك الآن علامات كثيرة على أنّ عدداً من الديمقراطيات الغربيّة تخطو بسرعة على المنحدر نفسه.

---

١ - انظر الفصل الثامن في *Ultrasociety*.

٢ - انظر الشكل ٢ في Oscar Ortmans et al., "Modeling Social Pressures Toward Political Instability in the United Kingdom after 1960: A Demographic Structural Analysis," *Cliodynamics*: *The Journal of Quantitative History and Cultural Evolution* 8, no. 2 (2017), https://doi.org/10.21237/c7clio8237313.

تتمثل إحدى العلامات الواضحة في أنه بعد فترة طويلة من تراجُع الدخل والصحة في معظم القرن العشرين، فإن انعدام المساواة الاقتصادية بدأ بالتنامي مرة أخرى داخل الديمقراطيات الغربية، (وكذلك في جزء كبير من بقية أنحاء العالم).[1] كما تعاني أوروبا الغربية من مشكلة حادة متزايدة في الإفراط في إنتاج الشباب الذين يحملون درجات جامعية متقدمة.[2] علامة مقلقة أخرى تمثلت في انتشار أصولية السوق النيوكلاسيكية، المدفوعة بمطبوعات دولية نافذة، مثل مجلة **ذا إيكونوميست** (*Economist*)، وبمنظمات تهيمن عليها الولايات المتحدة، مثل صندوق النقد الدولي.[3]

ثمّةَ تطوُّرٌ أكثر إثارة للقلق يتمثل في تحوُّل الديمقراطيات الغربية من "أنظمة أحزاب قائمة على الطبقات" إلى "أنظمة أحزاب متعددة النخب". في مكان سابق من هذا الكتاب (الفصل الثامن)، ناقشنا هذا التحوّل في الولايات المتحدة، حيث أصبح الحزب الديمقراطي، الذي كان حزب الطبقة العاملة في أثناء 'الصفقة الجديدة'، بحلول عام ٢٠٠٠ حزب الـ ١٠ بالمئة من حملة الشهادات. يخدم الحزب المنافس، الحزب الجمهوري، مجموعة الـ ١ بالمئة الأكثر ثراءً، ويترك الـ ٩٠ بالمئة الآخرين لمصيرهم. إيموري غيثين (Amory Gethin)، وكلارا مارتينيز-توليدانو (Clara Martínez-Toledano)، وتوماس بيكيتي (Thomas Piketty)، درسوا مئات الانتخابات، ووجدوا أنّ الأحزاب السياسية في الديمقراطيات الغربية

١- يرجى ملاحظة أني هنا غير مهتم بعدم المساواة على الصعيد العالمي، الذي يُعدُّ العامل المهم فيه الانخفاض المقارَن بين البلدان، بل بعدم المساواة داخل البلد نفسه. هذا أحد المؤشرات المهمة على عمل مضخة الثروة (أو عدم عملها، في حالة تراجع عدم المساواة).

2- Christina Boll et al., "Overeducation—New Evidence for 25 European Countries," HWWI Research Paper No. 173, Hamburg Institute of International Economics, Hamburg, Germany, 2016, https://www.econstor.eu/bitstream/10419/130613/1/857142143.pdf.

3- Sarah Babb and Alexander Kentikelenis, "People have long predicted the collapse of the Washington Consensus. It keeps reappearing under new guises," *Washington Post*, April 16, 2021, https://www.washingtonpost.com/politics/2021/04/16/people-have-longpredicted-collapse-washington-consensus-it-keeps-reappearing-under-new-guises/.

الأخرى تخدم على نحو متزايد الأثرياء والفئات الأكثر تعلُّماً.[1] حين تتخلّى الأحزاب السياسية عن الطبقات العاملة، فإنّ هذا يرقى إلى تحوُّل رئيس في كيفية توزيع السلطة الاجتماعية داخل المجتمع. في المحصلة،إنّ توازن القوى هذا هو الذي يُحدّد ما إذا كان يُسمَح للنخب الأنانية بتشغيل مضخة الثروة.

الأمر الذي لا يحظى بتقدير كبير هو أنه على الرغم من أن المؤسسات الديمقراطية هي الطريقة الأفضل (أو الأقل سوءاً) لحكم المجتمعات، فإنّ الديمقراطيات عرضة على نحو خاص للتقويض على يد النخب الغنية. قد تكون الأيديولوجيا الشكل الأنعم والألطف للسلطة، لكنها الشكل الرئيس في المجتمعات الديمقراطية. يمكن لطبقة الأثرياء أن تستعمل ثراءها لشراء وسائل الإعلام، ولتمويل المؤسسات البحثية، ولمنحِ أولئكَ المُؤثّرين الاجتماعيّين الذين يُروِّجُونَ لرسائلها مكافآتٍ سخيّة. بعبارة أخرى، فإنهم يمتلكون قوّةً هائلة يمارسونها في تحويل الناخبين إلى الآراء التي تُعزِّزُ مصالحهم. أشكال أخرى أكثر فظاظة، مثل تغيير اتجاه الانتخابات، ودفع السياسيين إلى مناصرة قضايا معينة، طرائق فعّالة أيضاً في ترويج الأجندات السياسية للأثرياء. أخيراً، كما في الحرب، فإنّ المال يُعدُّ الوقود الأكثر أهمية في تشغيل المنظمات، فالحماسة الصارخة لا تكفي لبذل جهد مستدام طويل الأمد، على الرغم من أنّ المالَ إضافةً إلى الحماسة أفضلُ من المال فحسب. يستطيع الأثرياء تحمُّل تكاليف (حرفياً) تخطيط خططهم وتنفيذها، على المدى البعيد.

يبدو كل هذا متشائماً جداً، وتوفِّر الولايات المتحدة للأوروبيين حكاية تحذيرية، بالنظر إلى أنّ كل هذه العمليات التي تدفع التحوُّل من الديمقراطية إلى البلوتوقراطية تسير هنا على نحو حثيث منذ عقود، لكنْ لا يزالُ هناك ما يُبرِّرُ

1- Amory Gethin, Clara Martínez-Toledano, and Thomas Piketty, "How politics became a contest dominated by two kinds of elite," *The Guardian*, August 5, 2021, https://www.theguardian.com/commentisfree/2021/aug/05/around-the-world-thedisadvantaged-have-been-left-behind-by-politicians-of-all-hues.

التفاؤل، فعلى الرغم من وجود أوجه شبه ثقافية قوية، وعلى الرغم من الانتماء إلى التنظيم العابر للأمم نفسه، فإنّ الاتحاد الأوروبي يُظهرُ درجةً متميزة من التنوع في المسارات التي يتبعها كلٌّ من بلدانه. لِنُجْرِ مسحاً سريعاً لتوضيح هذه النقطة، ولنركز على إحصائية واحدة محددة في قاعدة بيانات عدم المساواة العالمية، وهي الحصة من الدخل التي تذهب لمصلحة أغنى ١ بالمئة.[1]

ألمانيا، الاقتصاد الأكبر في الاتحاد الأوروبي، هي نقطة البداية المنطقية. على مدى عقود عدّة، منذ عام ١٩٤٥، كانت الحصة من الدخل التي تذهب إلى أغنى ١ بالمئة من سكانها تُراوِحُ حول الـ ١٠ بالمئة. كانت ٩.٥ بالمئة حتى عام ٢٠٠٣، لكنها ارتفعت بسُرعة إلى أكثر من ١٣ بالمئة، وظلت عند ذلك المستوى. حدث هذا التحوُّل لاحقاً، ولم يكن بالتطرف الذي شهدته الولايات المتحدة. في أميركا، كانت حصة الـ ١ بالمئة نحو ١٠ بالمئة في السبعينيات (كما في ألمانيا)، لكنْ بعد عام ١٩٨٠ ارتفعت بسرعة، وهي فوق ١٩ بالمئة منذ عقد من الزمن، لكنْ لنتذكر أنّ لأميركا وضعاً شاذّاً بين الديمقراطيات الغربية – ليس من حيث درجة انعدام المساواة الاقتصادية فحسب، بل من حيث إحصاءات الرفاه المزرية أيضاً (على الرغم من أنّ العاملين مترابطون بوضوح). أمام ألمانيا مسافة طويلة تقطعها لتلحق بأميركا، لكنّها على المنحدر الزلق نفسه.

تُوفّر لنا فرنسا نظيراً على الجهة المقابلة لألمانيا، فالحصة من الدخل التي تذهب إلى أغنى ١ بالمئة في فرنسا وصلت إلى حدّها الأدنى في ثمانينيات القرن العشرين (نحو ٨ بالمئة)، ثم ارتفعت إلى أكثر من ١١ بالمئة في مطلع الألفية الراهنة، لكنها تراجعت على نحو لافت، وهي الآن أقل من ١٠ بالمئة.[2] ألمانيا وفرنسا هما اللاعبان الأكثر أهمية في الاتحاد الأوروبي، لكنَّ مسارَهما في انعدام المساواة مختلفٌ تماماً. من الواضح أنَّ كُلًّا مِنْ نُـخَـبِهما يتبعُ مساراً مختلفاً.

1- "World Inequality Database," World Inequality Database, accessed August 10, 2022, https://wid.world/.

٢- في الوقت نفسه، فإن أصحاب الدخل في النصف الأدنى زادوا حصتهم (قليلاً)، ولذلك يبدو أن هذا ضغط حقيقي للدخل، وإن لم يكن كبيراً.

ماذا عن الدنمارك والنمسا، البلدين الذين استعملتُهما مثالَينِ على الدول ذوات الحوكمة الجيّدة؟ يبدو أنّ النمسا تقوم بعمل جيّد، وتمكّنت من المحافظة على مستويات انعدام المساواة فيها على نحو مُتوازٍ، فحصة الـ ١ بالمئة من الدخل كانت نحو ١١ بالمئة في ثمانينيات القرن العشرين، وارتفعت على نحو طفيف إلى نحو ١٢ بالمئة في مطلع الألفية، لكنها انخفضت مرّةً أخرى لتصلَ الآن إلى ١٠ بالمئة، كما هي في فرنسا. في الدنمارك، كان المسار مختلفاً. كما رأينا في الفصل السادس، فإنّ الدنمارك كانت أول البلدان النوردية التي تُنفّذُ اتفاقاً ثلاثياً. حقّقَ هذا الاتفاق درجةً لافتة من تقليص الدخل، ففي عام ١٩٨٠ انخفضت حصة الـ ١ بالمئة إلى ما دون ٧ بالمئة، لكنّ ثمانينيات القرن شهدتْ انعكاساً لهذا الاتجاه، وبدأت حظوظ الـ ١ بالمئة بالتحسُّن. تبلغُ حصّتُهم اليوم أقلّ بقليل من ١٣ بالمئة؛ ومن ثَمَّ فهي في فئة ألمانيا نفسِها.

لا تكمن الخلاصة الأكثر أهمية التي نستخلصها من هذا المسح في النقاط المحدِّدة للمسارات التي اتبعتها البلدان المختلفة، بل في حقيقة التباين نفسه. ما أهمية ذلك؟ من وجهة نظر العالِم، فإن وجود تباين كبير أمر محوري في تطوير فهم أفضل للأسباب الدافعة إلى الديناميكيات، إذ إن كل بلدٍ تقريباً في قاعدة بيانات انعدام المساواة العالمي اتبع مساره الفريد، وثمة نظريات كثيرة اقترحها علماء الاقتصاد والاجتماع لتفسير سبب ارتفاع معدلات انعدام المساواة أحياناً وانخفاضها أحياناً أخرى، فكلما كان التباين كبيراً كانت البيانات مفيدة في اختبار هذه النظريات ومقارنة بعضها ببعض. إضافة إلى ذلك، من الواضح أننا دخلنا مرحلة مضطربة على نحو خاص من تاريخ العالم. في السنوات القادمة، سيتعرض صمود البلدان لاختبارات حادة بسبب التغير المناخي، والأوبئة، والكساد الاقتصادي، والصراعات بين الدول، والتدفقات الكبيرة للهجرة. هل ستكون تلك البلدان التي لم تسمح لمستويات انعدام المساواة فيها بالارتفاع أكثر صموداً في مواجهة تلك الصدمات؟ علينا أن نعرف.

الفكرة الأخيرة التي أريد أن أختم بها هذا الكتاب هي أن البشرية قطعت شوطاً طويلاً منذ ظهر النوع البشري قبل نحو مئتي ألف عام، في حين شهدت عشرة الآلاف سنة الأخيرة تطوراً سريعاً. صعدت نخب استبدادية قمعت الناس العاديين على نحو متكرر، ثم أُسقطت على نحو مُتكرِّر أيضاً، ونحن الآن مرة أخرى في المرحلة التفكُّكية من هذه الدورة، لكنْ في حين أننا نعيش عصر خلافنا الخاص بنا، فجدير بالتذكر أن البشرية تعلَّمت من كوارثها السابقة. لقد أمدَّنا النشوء والتطور الثقافي التراكمي بتقانات مهمة، بما في ذلك التكنولوجيا الاجتماعية – المؤسسات – التي تُمكِّن مجتمعاتنا من توفير جودة حياة مرتفعة، وذات قاعدة واسعة. نعم، لا تتحقق هذه القدرة على نحو كامل في كثير من الأحيان، إذ ثمة تباين كبير بين الدول المختلفة في توفير الرفاه لمواطنيها، لكنْ على المدى الأبعد، فإن مثل هذا التفاوت ضروري لاستمرار النشوء والتطور الثقافي. إذا لم تجرِّب المجتمعات، في محاولاتها وضع ترتيبات اجتماعية أفضل، فإنّ التطوُّر يتوقف. الأمر الأكثر أهمية أنه حين تسحق الطبقات الحاكمة الأنانية مجتمعاتها، فمن المفيد أن يكون هناك بدائل – قصص نجاح، ويعتمد الأمر علينا، "الـ ٩٩ بالمئة،" للمطالبة بأنْ يتصرَّفَ حُكامُّنا بطرائق تحقق مصالحنا المشتركة. إنّ المجتمعات البشرية المعقدة تحتاج إلى النخب – الحكام، الإداريين، وقادة الفكر – كي تعمل جيّداً. إننا لا نريد التخلص منهم؛ لكن المطلوب تقييدهم لجعلهم يعملون لمصلحة الجميع.

ملحق

الفصل آ ١

علم تاريخ جديد

اجتماع لجمعية بابِج (*Babbage*)،[١]

رسمت قطعةُ الطبشور بيد فينياس مُنحنىً رياضيّاً على اللوح. "تلك هي الأرقام المأخوذة من العقود القليلة الماضية. لقد أدخلتُها المُحرِّكاتِ وطابقتُها مع معادلة، وهذا هو التوقع... العبودية تتلاشى. ستشهد الخمسون سنة القادمة نهاية هذه الظاهرة المحزنة كلها. ألستُ مُحِقّاً، أخ إيلي؟".

تململ إيلي، وهزَّ كتفيه. "هل نعرف كل ذلك؟ ما مدى ثقتنا ببياناتنا؟ قد تكون معادلاتنا خطأً على نحوٍ صارخ".

ضربت عصا جديدايا كروفورد الأرض كمطرقة قاضٍ. "نعرف ما يكفي كي نقتنع بأن عدم قيامنا بشيء هو أسوأ أنواع الجبن، فكل سنة تستمر فيها العبودية تعني اقترابنا سنة أخرى من الكارثة...".

نهض جديدايا على قدميه، ومشى متثاقلاً إلى اللوح، حيث شطب منحنى النمو المرسوم على شكل حرف S فوق منحنى تراجع العبودية. "لا نستطيع انتظار زوال العبودية...".

قال إيلي لإسحاق بهدوء: "إذا انسحب الجنوب، فإن الشمال سيُقاتل.... ليس من أجل إلغاء العبودية، بل للمحافظة على الاتحاد. لا يمكن أن ينتج شيء جيد من ذلك".

ضحك ميتشوم، وقال: "يقاتل؟ إذا انسحب الجنوب من الاتحاد الفيدرالي، فلن يجرؤ الشمال على فعل شيء؛ فأرستقراطيو الجنوب مدربون على القتال منذ

---

١ - هذا الجزء نسخة معدَّلة ومعادٌ ترتيبها قليلاً من مقطع في كتاب مايكل فلِن، في **بلد العميان**.

الولادة. كيف يمكن لأمة من أصحاب المحلات التجارية والميكانيكيين أن يواجهوهم؟"

"كيف؟" سأل إسحاق، وبشيء من الحيرة وعدم الجدّية في صوته. نهض، ومشى إلى اللوح. أخذ قطعة الطبشور بيده، وكتب مجموعة من المعادلات على اللوح، وتنحّى جانباً.

أمعنَ ديفيز في المعادلات، وشعر ببرود في قلبه.[1]

١ - معدّل من كتاب مايكل فلِن، **في بلد العميان.**

الكليولوجيا (*Cliology*)،[1] والتاريخ النفسي،[2] والكليوديناميكا

كان تشارلز بابِج (Charles Babbage) عالم رياضيات ومهندساً إنكليزياً اخترع المحرك التحليلي، وهي آلة قادرة على إجراء الحسابات العامة. نشر أول وصف للمحرك التحليلي في عام ١٨٣٧. وعلى مدى العقود التالية، وحتى وفاته في عام ١٨٧١، حاول بابِج بناء نسخة عملية من الآلة مرات عدّة، لكنه أخفق في كل مرة بسبب نقص الأموال والصراعات بين العاملين معه. اليوم ثمة اتفاق عام على أن تصميم بابِج كان سليماً، وأنه كان يمكن بناؤه بتكنولوجيا التصنيع المتوافرة في زمنه.

فرضيّة رواية الخيال العلمي التي كتبها مايكل فلِن (Michael Flynn)، في **بلد العميان** (*In the Country of the Blind*)، هي أن المحرك التحليلي كانت قد بنته مجموعة من العلماء والمهندسين الأميركيين في مرحلة ما قبل الحرب، يقودهم جدايديا كروفورد، أحد الشخصيات في القصة القصيرة في مطلع هذا الفصل، ولأسباب غير واضحة تماماً في الرواية، فإنّ هؤلاء الباحثين يقررون الاحتفاظ بعملهم سراً. (حسناً، لو لم يفعلوا لأفْسَدَ ذلكَعناصرَ التشويق كلّها في الحبكة، ولَمَا كانت هناك رواية تُكتب.).

قبل سنتين من وصف بابِج مُحَرِّكَهُ التحليلي، نشر الرياضي والإحصائي البلجيكي أدولف كويتيليه (Adolphe Quetelet)، كتاباً بعنوان **أطروحة عن الإنسان وتطوُّر ملكاته** (*A Treatise on Man and the Development of His Faculties*)، أو **مقالات في الفيزياء الاجتماعية** (*Essays on Social Physics*)، يصف فيها مقاربة

١- الكليولوجيا هي دراسة التاريخ باستعمال الرياضيات،وتسعى إلى التنبؤ بالأحداث الاجتماعية البشرية على نحو عام. (م)

٢- ظهر مصطلح التاريخ النفسي في أميركا في خمسينيات القرن العشرين؛ ويستعملُ منهجه علم النفس بوصفه إطاراً عاماً لتفسير الأحداث التاريخية. (م)

لفهم المجتمعات البشرية باستعمال القوانين الإحصائية، وبإلهام من أفكار كويتليه والفيلسوف الفرنسي أوغوست كونت (Auguste Comte)، (أبي علم الاجتماع الحديث)، يُشكّل كروفورد وزملاؤه جمعية بابِج، التي تهدف إلى تطوير علم للتاريخ البشري، يُسمُّونه كليولوجي (من كليو، اسم ملهمة التاريخ في الأسطورة اليونانية)،ويكتبون نماذج رياضية للعمليات الاجتماعية باستخدام معادلات تفاضلية. يمكن حلُّ بعض النماذج الأبسط بالورقة والقلم، لكنّ الأنظمة الأكثر تعقيداً للمعادلات ينبغي إدخالُها المُحرِّكَ التحليلي. كما يستثمرُ الكليولوجيون كثيراً من الجهد في جمع البيانات التي تُغذّى بها أجهزة الكمبيوتر الميكانيكية التي يستعملونها، وتسمح هذه البيانات لهم بترسيخ معادلاتهم الرياضية في الواقع.

ومع تقدم عملهم، تكتسب جمعية بابِج القدرة على التنبؤ بالمسار المستقبلي للمجتمع الأميركي، ولو على نحو غير مثالي، كما رأينا في القصة القصيرة. يستطيعون أن يروا بعض الأشياء، مثل انتصار الشمال في النهاية، إذا حدثت الحرب الأهلية، بدرجة كبيرة من اليقين، لكنَّ تفاصيلَ الحرب الأهلية نفسها كانت مُفاجأةً مرعبة لهم، فكما تقول إحدى الشخصيات لاحقاً في الرواية. "الحرب الأهلية... ما زلنا لا نعرف لماذا حدث ذلك. أُغفِلَ شيءٌ ما في المعادلات". لكنَّ بعض القدرة على التنبُّؤ أفضل من عدم وجود أيِّ قدرة، وكما يقول المثل، "الأعور بين العميان ملك".

علمت بكتاب مايكل فلين لمّا كنتُ قد حققت تقدماً لا بأس به في مسعاي للتوصل إلى تاريخ تحليلي يمكن التنبؤ به. لفتَ نظري إلى الكليولوجيا أحدُ قراء كتابي **الديناميكيات التاريخية: لماذا تصعد الدول وتسقط؟** (*Historical Dynamics: Why States Rise and Fall*)، الذي نُشِرَ عام ٢٠٠٣، وقد اقترحتُ فيه هذا العلمَ الجديد. كان لرواية فلن سلف أكثر شهرة بكثير يتمثل في رواية إسحاق عظيموف **فاونديشن** (*Foundation*)، التي قرأتها قبل سنوات كثيرة، لمّا كنتُ في العشرين من عمري. وجدتُ الرواية مذهلةً، لكنّها لم تُوحِ لي بأنْ أصبح

مؤرخاً نفسياً (إذ إن التاريخ النفسي هو الاسم الذي يطلقه عظيموف على علم التاريخ الذي يقترحه). حينذاك، كنت في طور أن أصبح عالمَ أحياءٍ رياضيّاً، إذ إني أحب العمل في الخارج، وأحب الحيوانات، ولذلك جمعت شغفي بالطبيعة وبـ "الرياضيات العملية" (أي استخدام الرياضيات، ليس من أجل الرياضيات، بل بوصفها مجموعة أدوات لفهم العالم) لأصبح عالمَ بيئةٍ سكانيّاً.[1] لكنْ بعد عشرين عاماً، لمّا أصبحتُ في الأربعين من عمري، قرّرتُ أن أتحول من علم البيئة إلى الكليوديناميكا، وعلى الرغم من أنّ كتاب عظيموف **فاونديشن** ظلّ مُلهِماً، لكنه لم يلعب دوراً في تقريري هذا التحوُّل.

ثمة اختلافات كثيرة بين علم التاريخ الخياليّ الذي يقدمه عظيموف وبين واقع الكليوديناميكا، كما نمارسها الآن. كتب عظيموف رواية **فاونديشين** في أربعينيات القرن العشرين – قبل اكتشاف ما نسميه الآن الفوضى الرياضية بوقت طويل. في كتاب عظيموف، يطور هاري سيلدون ومؤرخون نفسيون طرائق رياضية لوضع تنبؤات دقيقة جداً لأحداث ستقع بعد عقود، أو حتى قرون، وبفضل الاكتشافات التي ظهرت في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، عَرَفْنا أنّ هذا مستحيل.

في نسخة عظيموف، يعالج التاريخ النفسي، ليس الأفراد، بل مجموعات كبيرة جداً منهم، وهو ما ينبغي فعله، وهو يتبنّى مقاربة "ثيرموديناميكية"[2] لا تجري فيها أيّ محاولة لتتبُّع المسارات الخطأ للجزئيات المنفردة (الكائنات البشرية)؛ وبدلاً من ذلك، فإنّ الهدف يتمثل في نمذجة متوسطات مليارات الجزئيات، وفي كثير من الأشكال، فإنّ هذا شبيه بأفكار ليو تولستوي (كما سنرى

---

١ - يمكن للمهتمين بالتفاصيل مراجعة كتابي
Quantitative Analysis of Movement and *Complex Population Dynamics.*

٢ - الثيرموديناميكا فرع من العلوم الفيزيائية يعالج العلاقات بين الحرارة والأشكال الأخرى للطاقة (مثل الطاقة الميكانيكية، أو الكهربائية، أو الميكانيكية)، ومن ثم العلاقات بين أشكال الطاقة المختلفة. (م)

لاحقاً في هذا الفصل)، وكما يجري حقاً في الكليوديناميكا، التي تتعامل أيضاً مع مجموعات كبيرة من الأفراد.[1]

ما لم يكن عظيموف يعرفه هو أنه حتى لو استطعت تجاهل أشياء مثل الإرادة الحرة الفردية، فإنك على الرغم من ذلك ستواجه قيوداً صارمة في القدرة على التنبؤ. حين تتفاعل مكونات نظام معقد على نحو غير خيطيّ، فإن الديناميكيات الناجمة عن ذلك تصبح فعلياً غير قابلة للتنبؤ، حتى لو كانت قدرية كُلّيّاً، ولهذا السبب، في المناسبة، لا يمكن التنبؤ بالطقس قبل أكثر من بضعة أيام. وفيما يتعلّق بالأنظمة المعقدة مثل المجتمعات البشرية، فإنّ هذا الإمكان ي يصبح يقيناً فعلياً؛ فهو معقد وغير خيطيّ بما يكفي، ولذلك، فإنه بطبيعته يتصرّف على نحوٍ فوضويّ وغير قابل للتنبُّؤ.

"إن السمة المميزة للفوضى الرياضية هي الاعتماد الحسّاس على الظروف الأولية".[2] في سيناريو مناخي، فإنّ هذا يعني أن فراشة تُقرِّرُ أن ترفرف بجناحيها (أو لا تفعل ذلك) يمكن في المحصلة أن تُسبِّبَ حَرْفَ إعصارٍ عن مساره المتوقع، مع حدوث آثار كبيرة في الطقس المحلي.

لكنّ المفارقة هي أن هذا القيد على إمكانِ التنبُّؤ هو نفسه مصدر تفاؤل، فهو يعني أن الأفراد البشر ليسوا عديمي القدرة كما تخيَّلَهم عظيموف، إذ يمكن لُممارسةِ الفردِ إرادتَهُ الحُرّةَ أن تُحدِثَ تداعيات كبيرة على المستوى الكلي، تماماً كما يمكن لرفرفة جناحي فراشة أن تؤثر في مسار إعصار، لكنْ ينبغي تعديل هذا التفاؤل بجرعة كبيرة من الواقعية، فعلى الرغم من أنّ كلاً منا يؤثر في مسار التاريخ البشري، لكنَّ لمعظمنا تأثيراً ضئيلاً جداً؛ وإنَّ أيّ آثار كبيرة هي ربما نتيجة سلسلة غير متوقعة من الأحداث، وكي يُحْدَثَ أثرٌ كبير، ينبغي أن يكون الفرد في المكان الصحيح في الوقت الصحيح، ومن الصعب جداً، وربما من

---

١ - أناقش تأثير ليو تولستوي في الكليوديناميكا في كتابي **الحرب والسلام والحرب.**

2- James Gleick, *Chaos*: *Making a New Science* (New York: Viking Press, 1987).

المستحيل، التنبُّؤ بمثل تلك "النقاط المحورية". طريقةٌ أكثر واقعيّةً لتحقيق نتائج إيجابية تتمثّلُ في التعاون مع البشر الآخرين.

باختصار، إن الخروج بتنبؤات دقيقة حول الأحداث في المجتمعات البشرية قبل عقود أو قرون من حدوثها في المستقبل محضُ خيالٍ علميّ. ويبدو أنّ عظيموف نفسه أصبح يشعر بعدم ارتياح نحوَ التجلّيات الميكانيكية للتاريخ المستقبلي طبقاً لخطة سيلدون، التي صوّرها كتابه الأول. حلَّ المشكلة في الكتاب الثاني في السلسلة، **الأساس والإمبراطورية** (*Foundation and Empire*)، بإضافة البغل – وهو مُتحوِّر يمتلك قُوىً عقلية مخيفة يحرف قطار التاريخ الفعلي عن المسار الذي تنبّأ به سيلدون.

في الواقع، إننا جميعاً "بغال". فبممارسة عدد كبير من الخيارات طوال حياتنا، فإننا نرسل قطار التاريخ المستقبلي في اتجاهات لا يمكن التنبؤ بها.

إنّ استحالة التنبُّؤات الدقيقة على المدى البعيد لا تعني أنّ ديناميكيات مجتمعاتنا هي ببساطة "حدث لعين بعد آخر".[1] إذ تجتمع القوى المنهجية والأفعال الكثيرة للأفراد لإنتاج الحصيلة الفعلية، وبوسعك أن ترى ذلك على نحو حيّ إذا شغّلت نموذجاً في نظام فوضويّ على جهاز الكمبيوتر. على سبيل المثال، لعبت مرة بأحد النماذج الفوضوية الأولى، التي اقترحها إدوارد لورنز (Edward Lorenz)، لكنْ إضافةً إلى حلّ المعادلات رقمياً، أضفتُ على نحو دوريّ بعض الاضطرابات العشوائية، وهكذا كان المسار دائماً محاطاً بهذه القوى العشوائية، لكنْ لمّا خطّطتُ له في فضاء المرحلة، تتبَّع الشكلَ الشهيرَ لجاذب لورنز (Lorenz attractor)، الذي يبدو مثل فراشة. بعبارات بسيطة، إذا كانت أمامك قمة قادمة، فإنَّ الأفعال الفردية يمكن أن تؤجلها، أو تُسرِّعها، أو تجعل القمّة أعلى قليلاً، أو أقل ارتفاعاً بقليل، لكنْ ستكونُ هناك قمّة بطريقة أو بأُخرى.

---

١ - أطلق أرنولد توينبي هذا الرد على انتقادات زملائه: "التاريخ ليس مجرد شيء لعين بعد شيء لعين آخر".

قضيّةٌ أُخرى مثيرة للاهتمام في إصرار عظيموف على أنَّ أي معرفة للتنبؤات التاريخية النفسية يجب أن تظل خفية على الناس – وإلّا، حين يعلم الناس ما هو مخبأ لهم، فإن ذلك سيؤثر في أفعالهم، وسيؤدي إلى إخفاق التنبؤ، وثمّة عددٌ من الأخطاء في هذه الفكرة، أحدُها، على سبيل المثال، أنّ معظم الناس لا يكترثون لما يتنبأ به عالم أحمق. مثال على ذلك، هذا ما كتبته في مدوّنتي في ٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢، بالإشارة إلى التنبُّؤ الذي أطلقته عام ٢٠١٠:

أشعر بأنه من الآمن تماماً أن أتنبأ بأنه سيحدث تأوُّجٌ للعنف السياسي في عام ٢٠٢٠ (زائد/ ناقص بضع سنوات). إذا لم يتحقّق هذا التنبُّؤ، فسيكون ذلك نتيجة خطأ النظرية، أو نتيجة وقوع حدث كبير جداً غير متوقع يؤثر في النظام الاجتماعي، أو شيء غير متوقع على الإطلاق ("المجاهيل غير المعروفة،" في استعارة للتوصيف الذكيّ لدونالد رامسفيلد)، لكنني واثقٌ تماماً بأنّ ذلك لن يحدث لأن صُنّاع السياسات الأميركيين سيأخذون فجأةً علماً بما كتبه أستاذ متواضع، ويتخذون أفعالاً لتجنُّب هذه الحصيلة غير المرغوب فيها.

وإذا فعلوا فسأكون سعيداً جداً. يعطى التنبؤ عادة قيمة أكبر مما ينبغي. ما يجب أن نسعى من أجله، في علومنا الاجتماعية، هو القدرة على إحداث حصائل مرجوّة وتجنُّب الحصائل غير المرغوب فيها، إذْ ما فائدة التنبؤ بالمستقبل، إذا كان قاتماً جداً، وإذا كنا لا نستطيع تغييره؟ سنكون مثل الشخص المحكوم عليه بالشنق قبل طلوع الشمس؛ فهذه معرفة مثالية بالمستقبل، وقدرة معدومة على فعل أيّ شيء حيالها.[1]

وبالتأكيد، فإنّ هذا التنبُّؤ بشأن التنبؤ، أو "الميتاتنبؤ،" أثبت صحته. لم يهتم أحدٌ بتَنبُّئي عام ٢٠١٠ إلى أنْ حدثَ حقاً في عام ٢٠٢٠، لكنْ دعونا نَعُدْ إلى في **بلد العميان.**

1- Peter Turchin, "Psychohistory and Cliodynamics," *Cliodynamica* (blog), September 3, 2012, https://peterturchin.com/cliodynamica/psychohistory-and-cliodynamics/.

لأنّ فلن كتب كتابه بعد كتاب عظيموف بوقت طويل، فإنّ نقاش فلن لإمكان وجود تاريخ تحليلي قابل للتنبؤ استفاد من الفهم الجديد للأنظمة الديناميكية الناجمة عن "ثورة الفوضى" في سبعينيات القرن العشرين.[1] كما تأثرت أفكاره بثورة الحاسب الشخصي، الذي وضع كميات هائلة من القدرة الحسابية في أيدي باحثين أفراد. (ليس من المفاجئ أن هاتين الثورتين مترابطتان على نحو وثيق، كما كان التقدم الذي تحقق في علوم الحاسب الذي دفع التقدم في فهم الأنظمة الديناميكية غير الخيطية.)، ونتيجة لذلك، فإنّ نقاشات الشخصيات في كتابه للكليولوجيا تبدو أقل غرابة من تفسير التاريخ النفسي الذي يقدمه هاري سيلدون (Hari Seldon). قد لا ترغب في قراءة الكتاب نفسه – كان أول كتاب يكتبه فلن، وفيه كثير من العيوب التي يتّسم بها العمل الأول عادةً، لكني أنصح بقراءة مقالة مايكل فلن "مقدمة إلى الكليولوجيا" (An Introduction to Cliology)، التي نُشِرَتْ أصلاً في مجلة **أنالوغ** (*Analog*)، وأضيفَتْ مُلاحَظَةً ختاميّةً إلى الطبعة الثانية للكتاب، وفيها يناقش فلن المجالات الدراسية السابقة للكليولوجيا (والكليوديناميكا)، وقد قام حقاً ببعض الأبحاث التجريبية الأصيلة على الأنماط المتكررة في التاريخ، ولأنه ليس عالماً بحثياً، فإنّ نتائجه لن تكون قابلة للنشر في دورية أكاديمية؛ ونتيجةً لذلك، فإنها لم تُفْضِ إلى شيء، لكنَّ حججه في الرد على مُنتقِدِي فكرة التاريخ بوصفه علماً تستحقُّ القراءة.

في التحذير الأخير، فإن الدليل لا يزال في مرحلة البرعمة الأولى، وكما رأينا في بداية هذا الفصل، فإن إسحاق، الكليولوجي من الولايات الشمالية، يكتب مجموعة من المعادلات على السبورة تقنع ديفيس، الجنوبي، بأنه ليس أمام الجنوب فرصة للانتصار في الحرب الأهلية، إذا حدثت. الحرب هي أكثر المشاريع البشرية تطلُّباً، وقد تكون أكثر العمليات التي لا يمكن التنبؤ بها في التاريخ البشري، فما مدى قابلية القدرة على التنبؤ بنتائجها للتصديق؟

1- James Gleick, *Chaos*: *Making a New Science*.

رياضيات الحرب

لا يخبرنا فلن بماهية المعادلات التي يكتبها إسحاق على السبورة، لكن لدي فكرة جيدة حول كيفية بناء نموذج للحرب الأهلية الأميركية – كنت سأستخدم معادلات أوسيبوف– لانشستر (Osipov-Lanchester)، نقطةَ بداية. اكتشفَ هذا النموذجَ الرياضي على نحو مستقل كلٌّ من الضابط العسكريّ الروسيّ ميخائيل أوسيبوف في عام ١٩١٥ والمهندس الإنكليزي فريدريك لانشستر في عام ١٩١٦، والنموذج بسيط تماماً، ولا سيما من منظورنا بعد قرن من الزمن، لكنه يوفر على الأقل فكرة واحدة معمقة. (وهذا ما تنجح فيه النماذج الرياضية.).

ستكونُ المتغيراتُ الرئيسةُ، التي يتتبعها النموذج، حَجْمَي الجيشَين اللذين يقاتل كلٌّ منهما الآخر، وحالما تبدأ المعركة، يبدأ عدد الجنود في كل جيش بالانخفاض، لأن القتال يُسقط ضحايا، ومُعدّل القتلى الذي يصيب العدو يتناسب مع عدد الجنود. لرؤية هذا، تخيَّل سيناريو بسيط يطلق فيه كل جندي النار على العدو. لا تصيب كل رصاصةٍ تُطلَقُ هدفاً، لكنْ كلما ارتفع عدد الرصاصات التي تطلقها على القوة المعادية ارتفعَ عددُ القتلى الذين تُسبِّبُ موتَهم. وجودة الأسلحة عامل مهم، بالتأكيد، لأنّ الجنود المسلحين ببنادق آليّة يمكن أن يطلقوا عدداً أكبر بكثير من الرصاصات على العدو من الجنود المسلحين ببنادق تُلقَّـمُ يدوياً، لكنْ في الحرب الأهلية، كانت التكنولوجيا العسكرية هي نفسها على الجانبين، ولذلك سأبقي النموذج بسيطاً، وأتجاهل هذا التعقيد المحتمل. ("ينبغي للنموذج أن يكون بسيطاً قدر الإمكان"). في الوقت نفسه، فإن مهارة الجندي مهمة، لأنّ الجنود الأفضل تدريباً يصيبون الأهداف بمعدلات أكبر، وهنا يتمتع الجنوب بمزيّة.

على الرغم من أنّ معادلات أوسيبوف– لانشستر تشكل نقطة بداية جيدة، فإني في حاجة إلى إضافة بضعة عوامل أخرى إلى النموذج، لأننا في حاجة إلى فهم

الحرب كاملةً، المكونة من معارك عدّة، وليس معركة واحدة فحسب. بين المعارك، يصارع كل جيش لتعويض الضحايا؛ وهكذا، فإن الحجم الراهن يعكس التوازن بين القوى بطرح عدد الجنود وجمعها، ومن ثم، سأضيف معدل تجنيد النموذج. في بداية الحرب الأهلية، لم يكن الجيش الكونفدرالي موجوداً، في حين أن الجيش الاتحادي كان موجوداً تقريباً (ويتكون أساساً من سلاح الفرسان الأميركي الذي يطارد الأميركيين الأصليين في الغرب)، وهكذا فإنّ معدل التجنيد سيكون ذا أهمية طاغية في تحديد أيّ الجيشين يمكن أن يعوِّض الخسائر بسبب مقتل الجنود، أو جرحهم، أو أسرهم في المعارك، أو موتهم بسبب الأمراض، أو الانشقاق. لا أريد أن أنسى العاملين الأخيرين، وهما أكثر أهمية من عدد الضحايا الذي يوقعه العدو، وهنا يتمتع الشمال بالمزيّة، بالنظر إلى أن عددَ سكانه عشيّةَ الحرب الأهلية كان نحو ٢٢ مليوناً، في حين أنّ عدد سكان الجنوب كان تسعة ملايين فقط (منهم ثلاثة ملايين ونصف مليون عبد).

الجيوش في حاجة إلى البنادق والمدافع، ومحرّكات الموت هذه في حاجة إلى الذخيرة. كان الشمال، بصناعاته المتطورة، يتمتع بمزيّة كبيرة جداً في إنتاج الأسلحة والذخائر واستبدالها – مقابل كل بندقية تُصنَع في الجنوب، كانت المصانع الشمالية تنتج اثنتين وثلاثين.[1] كما أن الجنود في حاجة إلى الطعام واللباس والنقل إلى ميدان المعركة، وسأضيف مكوِّناً لوجستياً مفصلاً لنموذجي. كما أنّ الجنوب يحصل على معظم أسلحته من الخارج، ولا سيما من بريطانيا، لكنْ لا بد لهذه الأسلحة أن تمرّ خلال حصار يفرضه الشمال، وهذا العامل مهم جداً إلى درجة أني سأرغب في بناء "نموذج فرعي" ديناميكي أيضاً يستند إلى معادلات أوسيبوف– لانشستر، يضع مخترقي الحصار الجنوبيين مقابل الأسطول الشمالي.

أخيراً، هناك قضية المعنويات. كما رأينا منذ قليل، فإن جزءاً كبيراً مما حدث في التاريخ يمكن أن يُعبَّر عنه بالأرقام بسهولة – عدد الجنود الذين يتكون منهم

1- William C. Davis, *A Concise History of the Civil War* (Fort Washington, PA: Eastern National, 2007), http://npshistory.com/publications/civil_war_series/1/sec1.htm.

كل جيش، معدَّل التجنيد، معدل إنتاج الأسلحة، وما إلى ذلك، لكن هناك أيضاً متغيرات "ناعمة،" أو حتى "رخوة،" يصعب إعطاؤها قيماً رقمية، لكنّ الصعب لا يعني المستحيل، وسأعود إلى هذه النقطة في مكان لاحق من هذا الفصل. يكفي الآن الإقرار بأن الجنوب كان يتفوّقُ على الشمال بمزيّة كبيرة في هذه النقطة بالتحديد، ففي حين أن الجنوبيين كانوا يدافعون عن أرضهم، ومنازلهم، وأسلوب حياتهم، فإن المجندين الشماليين كانوا يقاتلون للمحافظة على الاتحاد، وهو مَثَلٌ أكثرُ تجريداً. إضافةً إلى ذلك، فإنّ الولايات المتحدة كانت بلداً عنصرياً بعمق، ولم تكن محنةُ العبيد دافعاً رئيساً لدى معظم الشماليين، إلّا أقلية صغيرة من دعاة إلغاء العبودية.

وهذه هي الخطوط العريضة الرئيسة للنموذج الذي سأبنيه. طبقاً لخلفيتك، قد تعتقد أن النموذج معقد تعقيداً يدعو إلى اليأس، **(**ومعظم الفيزيائيين سيقولون ذلك**)**، أو مبسَّط أكثر مما ينبغي، **(**ومعظم المؤرخين سيكونون في هذا المعسكر**)**. كلا الطرفين المبالغين مُخطئ. ليست هناك قاعدة واحدة تحدد مدى التعقيد **(**أو البساطة**)** التي ينبغي أن يكون عليها النموذج، إذ يعتمد تعقيد النموذج على مدى تعقيد الديناميكيات المُنمذَجة، ومقدار البيانات التي في حوزتنا ونوعها، ومدى دقة ما نريد أن نعرفه، أو ما نستطيع أن نعرفه – تذكروا النقاش حول القيود المفروضة على القدرة على التنبؤ. على مدى حياتي البحثية، بنيتُ عدداً كبيراً من النماذج من هذا النوع، وأبدأ دائماً من أبسط تصميم ممكن، ومن ثم أضيف "أشياء" إليه. الأمر أشبه بطبخ الحساء. تجعل المياه تغلي أولاً، ومن ثم تضيف اللحم، والخضراوات، والبهارات، إلخ. وتستمرُّ في عملية الطبخ إلى أن يصبح طعم الحساء لذيذاً، ثم تنتهي. أنت في حاجة فقط إلى الكمية الصحيحة والتنوُّع الصحيح للمكونات والبهارات اللازمة لتحصل على أفضل حساء، لا أكثر من ذلك. وينطبق الأمر نفسه على أفضل نموذج، فما يحدث في كثير من الأحيان هو أنك حالما تجعل النموذج على المستوى الصحيح من التعقيد، فإن إضافة الأشياء إليه لا تساعد؛ بل في الواقع، تجعل النموذج أسوأ. والنماذج

المصممة بأبسط شكل ممكن، لكن ليس أبسط من ذلك، يمكن أن تكون جيدة جداً. مثال على ذلك، قبل بضع سنوات، صمّمتُ وزملائي نموذجاً لتشكيل الدولة في العالم القديم في أثناء حقب قديمة وقروسطية (ثلاثة آلاف عام بين ١٥٠٠ ق. م و١٥٠٠ ميلادي). مع بساطته النسبية، فإنه قام بعمل متميز في التنبؤ بمكان تشكُّل "الدول الكليّة" وزمانه (الدول الكبرى والإمبراطوريات) وكيفية توسُّعها. (انظر إلى الخرائط في المقالة).[1]

فيما يخصُّ نموذجَ الحرب الأهلية الأميركية، يمكنني أن أتّبع طريقاً مختصراً بتجنب معظم الخطوات الوسيطة والذهاب مباشرة إلى الجواب. تساعدني في ذلك الفكرة العميقة المستمدة من نموذج أوسيبوف– لانشستر. لنتذكّر أنّ الشمال يتفوّقُ بمزيّة كبيرة على الجنوب من حيث عدد القوات، ولكي نكون دقيقين، فإنّ عدد قواته يبلغ أربعة أضعاف (اثنان وعشرون مليون شماليّ مقابل خمسة ملايين ونصف مليون جنوبيّ أبيض). قد يعتقد المرء أن مَنْحَ الجنوبيين مزيّةً مضاعفة بسبب مهارتهم، ومزيّة أخرى مشابهة بفضل معنوياتهم ودوافعهم الأعلى، سيكون كافياً للتطابق مع التفوق العددي للشمال. الحصول على أسلحة مشكلة لدى الجنوب، لكن كان في استطاعتهم الاعتماد على الواردات من الخارج (وهذا ما فعلوه). وهكذا، فإن الجنوب يتمتع بفرصة متساوية للانتصار في الحرب، صحيح؟

خطأ. على الرغم من المزيّة العددية للشمال، التي تبلغ أربعة أضعاف، فإنها تُتَرجَم فعلياً إلى مزيّة حربية تساوي أربعةً مُربَّعة، أي ستة عشر، وتُعرف هذه النتيجة الرياضية بقانون لانشستر المربع. يبدو هذا مخالفاً للحدس، لكنْ حالما تُستَمَدّ النتيجة الرياضية من معادلات أوسيبوف– لانشستر، يصبح من السهولة بمكان شرح ذلك بالكلمات. (وفعلتُ ذلك في الفصل الثامن من كتابي **المجتمع الفائق** (*Ultrasociety*)، الذي نُشِرَ عام ٢٠١٦.[2]

1- Peter Turchin et al., "War, space, and the evolution of Old World complex societies," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 110, no. 41 (2013): 16384–89, https://doi.org/10.1073/pnas.1308825110.

٢- انظر *Ultrasociety*.

في الواقع، إنّ مَنْحَ الجنوبيين مزيّةً مضاعفة أربع مرات بسبب مهارتهم ومعنوياتهم، قد يكون سخياً أكثر مما ينبغي. لكنّ التغلُّبَ على المزيّة الكبرى ستّ عشرة مرة التي يتمتع بها الشمال بفضل قانون التربيع يائسٌ جوهرياً أيضاً. حالما رأى ديفز المعادلات – هذا إذا كان إسحاق قد كتب نموذج أوسيبوف–لانشستر على السبورة، كما استنتجت – لا عجبَ أنه شعر باليأس.

في الحياة الواقعية، سارت الحرب الأهلية الأميركية كما كان نموذج أوسيبوف–لانشستر سيتنبأ. انتصر الجيش الكونفدرالي في غالبية المعارك بفضل القدرات الجنوبية الكبرى في الرماية والفروسية، وبفضل وجود ضبّاط وجنرالات أفضل تدريباً أيضاً، لكنّ الشمال حشد ٢,١ مليون جندي مقابل ٨٨٠ ألف جنوبي، وتعيَّن على الجيش الاتحادي خسارة عدد كبير من الضحايا؛ فقد خسر ٣٦٠,٠٠٠ جندي مقابل ٢٦٠,٠٠٠ للكونفدراليين، لكنْ بعد أربع سنوات من الصراع الدموي الـمُرّ، سحق الشمال الجنوب، وانتصر في الحرب.[١]

١ - انظر "American Civil War," GWonline, accessed August 10, 2022, https://gwonline.unc.edu/node/11653; and Guy Gugliotta, "New Estimate Raises Civil War Death Toll," *New York Times*, April 2, 2012, https://www.nytimes.com/2012/04/03/science/civil-war-toll-up-by-20-percent-in-newestimate.html.

حساب المعنويات

وعدتُ بالعودة إلى كيفية إدخال عامل المعنويات في معادلاتنا. دعونا نتحدث عن هذه المهمة الصعبة، لكنْ غير المستحيلة في أيّ حال.

كان الروائيُّ الروسي العظيم ليو تولستوي، من بين الناس كلهم، هو الذي أجرى واحدة من أولى محاولات التعبير عن المعنويات بالأرقام. قلة من الناس تعرف أنّ عمل تولستوي الأكبر، رواية **الحرب والسلام**، التي بدأ بكتابتها عام ١٩٦٣، في ذروة الحرب الأهلية الأميركية تماماً، احتوت ملحقاً ثانياً يناقش فيه علم التاريخ. أناقش أفكار تولستوي بدرجة أكبر من التفصيل في الفصل العاشر من كتابي **الحرب والسلام والحرب** (*War and Peace and War*) - ويمكنكم أن تخمنوا ما ألهمني بهذا العنوان – ولذلك دعونا نلامس هنا أفكاره بشأن التعبير عن المعنويات بتعابير رياضية. في مقطع يتناول حرب العصابات في روسيا ضد قوات نابليون، كتب:

في الشؤون العسكرية، تكون قوة جيش من الجيوش نتيجة حجمه وبعض العوامل المجهولة. ...

ويتمثل العامل المجهول في روح الجيش، أي استعداده الأكبر أو الأقل للقتال ومواجهة الخطر الذي يشعر به الرجالُ الذين يتكون منهم الجيش جميعاً، وعلى نحو مستقلّ، فيما إذا كانوا يقاتلون تحت قيادة عبقري، في تشكيل مُكوَّن من صفّين أو ثلاثة، بالهراوات أو بالبنادق التي تُطلقُ ثلاثين طلقةً في الدقيقة. الرجال الذين يرغبون في القتال سيضعون أنفسهم دائماً في الظروف التي تعطيهم مزيّات أكبر في القتال.

وروح الجيش هو العامل الذي إذا ضُرب بحجمه يعطي القوة الناتجة. يُعدُّ تعريف أهمية هذا العامل المجهول – روح الجيش – والتعبير عنها، مُشكلةً للعلم.

تكون المشكلة قابلة للحل إذا توقفنا عن استبدال العامل المجهول س اعتباطياً بالظروف التي تتجلى فيها تلك القوة – مثل أوامر الجنرال، والمعدات المستعملة، وما إلى ذلك – إذ نخطئ بالنظر إلى هذه العوامل على أنها الأهمية الحقيقية للعامل، وإذا اعترفنا بهذه الكمية المجهولة بمجملها على أنها الرغبة الأكبر أو الأقل في القتال وفي مواجهة الخطر. حينها فقط، بالتعبير عن الحقائق التاريخية المعروفة بمعادلات، ومقارنة الأهمية النسبية لهذا العامل، نستطيعُ أن نأمل تعريفَ المجهول.

عشرة رجال، أو كتائب، أو فِرَق، تقاتل خمسة عشر رجلاً، أو كتيبة، أو فرقة تهزم – أي تقتل أو تأسر – الآخرين جميعاً، في حين يخسر هم أنفسهم أربعةً. إذاً هناك خسارة أربعة من جهة، ومن الجهة الأخرى خسارة خمسة عشر، ومن ثم فإن الأربعة يساوون الخمسة عشر، ولذلك أربعة 4x = 15y. ومن ثم y/x = 4/15. هذه المعادلة لا تعطينا قيمة العامل المجهول، بل تعطينا النسبة بين مجهولين، وبإدخال الوحدات التاريخية المختارة (معارك، حملات، مراحل الحرب) في مثل هذه المعادلات، يمكن الحصول على سلسلة من الأرقام ينبغي أن توجد فيها قوانين معينة يمكن اكتشافها.

في الواقع، لم تكن حسابات تولستوي صحيحة. (كان عبقرياً في كتابة الكتب العظيمة، وليس في الحساب.)، لكنّ الفكرة الجوهرية في تقدير العامل x بتحليل عدد كبير من المعارك صحيحة تماماً. بعد ذلك بوقت طويل، استعمل هذه المقاربةَ المؤرخُ العسكري الأميركي تريفر ن. دوبوي (Trevor N. Dupuy)، ففي كتابه الذي نُشِرَ عام ١٩٨٧، **فهم الحرب: التاريخ ونظرية القتال** (*Understanding War*: *History and Theory of Combat*)، ساوى دوبوي القدرة القتالية لجيش بناتج ثلاث كميات: قوة القوة (عدد الجنود معدَّلاً حسب جودة عتادهم وكميته)، والمعدلات التشغيلية والبيئية (الأرض، والطقس، والموقف – دفاعي مقابل هجومي)، وفعالية القتال. العنصر الأخير هو العامل x عند تولستوي.

ثم حلَّل دوبوي حروباً عدّة تمكّنَ من الحصول على بياناتها المتعلقة بعدد كبير من المعارك. على سبيل المثال، إنّ تحليله لـ ٨١ اشتباكاً بين القوات الألمانية والبريطانية أو الأميركية في عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤ أظهر أنّ كفاءة قتال الألمان كانت أكبر بـ ١,٤٥ مرة من كفاءة البريطانيين، وهذا يعني أنه لو أراد البريطانيون أن تكون لهم فرصة متساوية في الانتصار في معركة ضد الألمان، لكانَ عليهم أن يُدخلوا ٤٥ بالمئة إضافية من القوات (أو تسليحهم على نحو أكبر وبالنسبة نفسها). كان أداء الأميركيين أفضل من أداء البريطانيين، لكن ليس بكثير. كان يتعين أن يكون عدد قواتهم أكبر بمقدار الثلث من عدد القوات الألمانية لكي يتمتعوا بفرصة مساوية للانتصار.[١]

يتبين أننا نستطيع إحراز تقدم كبير في تحديد القيمة الكمية للروح القتالية. حديثاً، يستكشف زملائي في مجال النشوء والتطور الثقافي سيكولوجيا الاستعداد للتضحية المفرطة، باستعمال مفاهيم مثل "اللاعبين الذين يكرسون أنفسهم،" و"القيم المقدسة،" و"صَهر الهوية".[٢]

1- *War and Peace and War*, chapter 10.

٢- انظر Hammad Sheikh, Ángel Gómez, and Scott Atran, "Empirical Evidence for the Devoted Actor Model," *Current Anthropology* 57, no. S13 (2016), https://doi.org/10.1086/686221; Nafees Hamid et al., "Neuroimaging 'will to fight' for sacred values: an empirical case study with supporters of an Al Qaeda associate," *Royal Society Open Science* 6, no. 6 (2019), https://doi.org/10.1098/rsos.181585; and Elaine Reese and Harvey Whitehouse, "The Development of Identity Fusion," *Perspectives on Psychological Science* 16, no. 6 (2021): 1398–1411, https://doi.org/10.1177/1745691620968761.

التاريخ بوصفه علماً

اختفى أوسيبوف بعد ثورة أكتوبر. ربما أصبح هو نفسه ضحية للحرب الأهلية الروسية، ومن ثم أصبح لانشستر أبا المنهج الجديد: **(أبحاث العمليات)**، في حين استمرّ الفلاسفة وعامّةُ الناس في الاعتقاد بأنّ التاريخ لا يمكن أن يصبح علماً، كان ضبّاطُ الجيش والباحثون يُرَيِّضُيونَ **(**mathematizing**)** ويُحلِّلُونَ بهُدوء ذلك الجزءَ من التاريخ، وهو الجزء الأصعب على النمذجة والتنبؤ – وهو الحرب. الرهانات – ملايين القتلى والبقاء الوطني – أعلى من أن تُترَك للهواة. لقد تطورت أبحاث العمليات بوصفها مجالاً بحثياً حيوياً له دوريّاتُهُ الأكاديمية ومِنَحُهُ البحثيةُ التي تُقدّمُها وزاراتُ الدفاع ومناصبُ تعليمية في الكليات العسكرية والجامعاتُ العامة. في عام ٢٠١١، تعرَّفتُ هذا المجتمعَ البحثي لمّا دُعيتُ لأقدم خطاباً رئيساً عن الكليوديناميكا في مؤتمر سنوي نظَّمَته وحدة الأبحاث التاريخية في مختبر العلوم والتكنولوجيا الدفاعية في المملكة المتحدة قُربَ بورتسموث. تَركَّز الاجتماع حول كيفية الاستفادة من التاريخ في الدفاع. كمثال على ذلك، كان المتحدث من بعدي العميد أندرو شارب، الذي تحدّث عن الطبيعة، والشخصية، والإيقاعات في التاريخ. تأخذ المؤسسات الدفاعية في كثير من البلدان احتمال أن يكون التاريخ علماً على محمل الجدّ كثيراً.

لنبتعد قليلاً عن التاريخ العسكري، وننظر في أنّ لفكرة وجود علم عامّ للتاريخ جذوراً تاريخيّة عميقة جداً. كتب أرسطو أطروحات حول العلوم الطبيعية والاجتماعية على حد سواء، وطوّر ابن خلدون، المؤرخ العربيّ القروسطيّ العظيم، نظريةً مهمة تشرح صعود الدول وسقوطها، وسبقَ أنْ ذكرتُ كويتيليه، وتولستوي. صدر كتاب نيكولاس راشيفسكي **(**Nicolas Rashevsky**) النظر إلى التاريخ من خلال الرياضيات (***Looking at History Through Mathematics***)**،

في عام ١٩٦٨. لكنْ لا أفكار كويتيليه فيما يتعلّقُ بالفيزياء الاجتماعية، ولا التاريخ الرياضي لراشيفسكي، تمكّنا من تأسيس منهج علميّ جديد. العلم مشروع جماعيّ، ومن ثم فهو في حاجة إلى أكثر من فرد ذكيّ واحد. كي ينطلق مجال علمي جديد، ينبغي أن يكون هناك مجتمع من الباحثين الذين يستفيدُ بعضُهم من أفكار بعض ؛ ومن المهمّ أيضاً أن ينتقدَ بعضُهم مفاهيمَ بعضهم الآخر ونتائجَه. وكما قال القدماء، فإن الحقيقة تولد في النقاش، ولا يمكن أن تجري نقاشاً جيداً مع نفسك، أو حتى مع مجموعة سرية صغيرة تتطور بسهولة إلى "غرفة صدى". وهذا أحد الأسباب التي تجعل من كليولوجيا مايكل فلِن مَحْضَ عملٍ خياليّ. في عالمنا، تمكّنت الكليوديناميكا من تحقيق مكانة ما نحو عام ٢٠٠٠، أمّا السؤالُ المتعلق بلماذا فهو مهمّ، ليس للمؤرخين المستقبليّين للكليوديناميكا فحسب، بل أيضاً لأنّ له تأثيراً في أحد الاعتراضات الرئيسة على إمكانِ أن يكونَ التاريخُ علماً.

إن نظرية الرجل العظيم هي النظرية "الأكثر معاداة للكليوديناميكا" على حد علمي. وعلى حد تعبير الفيلسوف الأسكتلندي توماس كارلايل، الذي يُعزى إليه الفضل في الخروج بهذه النظرية:

> التاريخ العالمي، تاريخُ ما حققه الإنسان في هذا العالم، هو في جوهره تاريخ الرجال العظام الذين عملوا هنا. كانوا قادة رجالاً. هؤلاء الرجال العظام؛ كانوا واضعي النماذج والأنماط. بمعنى أوسع كانوا خالقي ما سعت الكتلة العامة من البشر لفعله أو لتحقيقه. إنّ الأشياء كلها التي نراها مُنجزَةً في العالم ما هي إلّا النتيجة المادية الخارجية، التحقيق العملي والتجسيد للأفكار التي أرسلها الرجال العظام إلى العالم. من المنصف القول إن روح تاريخ العالم بأسره تتمثل في تاريخ هؤلاء.[1]

1- Thomas Carlyle, *On Heroes, Hero-Worship, and the Heroic in History* (London: James Fraser, 1841). Read for free here: https://www.gutenberg.org/files/1091/1091-h/1091- h.htm.

في حين أن التاريخ النفسي التخيّلي والكليولوجيا، وكذلك الكليوديناميكا الحقيقية، تهتم على نحو رئيس بالجماعات البشرية الكبيرة وبالقوى الاجتماعية غير الشخصية، فإنّ نظرية الرجل العظيم ترفض هذا التركيز بوصفه خطأً. ليست المجتمعات هي ما يصنع الرجال العظام، بل إن الرجال العظام هم الذين يعيدون صنع المجتمعات، كما جادل عالم النفس وليام جيمس لاحقاً.[1] مع أن هذه النظرية التي تعود إلى القرن التاسع عشر قد فقدت مصداقيتها الآن، لكنَّ آثارها لا تزال ماثلة في الفهم الشعبي للكيفية التي تدفعُ بها العقولُ العظيمة العلمَ إلى الأمام، وتكمن تداعيات هذه الفكرة خلف أحد الاعتراضات التي وضعها فيلسوف العلم الشهير كارل بوبر (Karl Popper)، لقيام علم للتاريخ؛ أي أنه من المستحيل منطقياً معرفة المسار المستقبلي للتاريخ حين يعتمد ذلك المسار جزئياً على نمو المعرفة العلمية (وهذا ما لا تُمكِنُ معرفتُهُ مُقدَّماً).[2]

لكنْ هل مستقبلُ نُموِّ المعرفة العلمية أمرٌ لا تمكن معرفته – أو إنه مَحْضُ مجهول، بالنظر إلى افتقارنا الحالي إلى فهم كيفية تراكم المعرفة؟ في اعتقادي، إنّ البديل الثاني يبدو أكثر إقناعاً، وسأشرح لماذا أعتقد ذلك. من اللافت حقاً أن كثيراً من الاكتشافات العلمية تحققت بالتزامن على أيدي أكثر من عالم واحد، وهذا ليس نمطاً يمكن أن نتوقعه لو كان العلم حقاً مدفوعاً بعباقرة كبار نادرين. (لماذا يحقق مثل أولئك العباقرة الاكتشاف نفسه في عام واحد، وعلى نحو منفصل؟)

لقد تحدثنا عن فوسيبوف ولانشستر اللذَين اكتشفا المعادلات التي سُمِّيتْ باسميهما بفارق عام بين الاثنين. وثمة أمثلة كثيرة على ذلك: الاختراع المستقل لحساب التفاضل والتكامل لنيوتين وليبنيز؛ والصياغة المستقلة لنظرية النشوء من خلال الاختيار الطبيعي لداروين ووالاس؛ واكتشاف نموذج الدورات

1- William James, "Great Men, Great Thoughts, and the Environment," *Atlantic Monthly*, October, 1880, https://www.theatlantic.com/magazine/archive/1880/10/great-men-greatthoughts-and-the-environment/632282/.

٢- انظر Karl R. Popper, *The Poverty of Historicism* (London: Routledge, 1957).

الديناميكية لألفريد لوتكا (Alfred Lotka) وفيتو فولتيرا (Vito Volterra)؛ وغيرهم كثير. قد يكون المثال الأكثر كشفاً لهذه الظاهرة هو ذاك المتعلق باكتشاف علم الوراثة. كما نعرف جميعاً، اكتشف الجينات الكاهن البوهيمي جورج ماندل، لكنَّ اكتشافه كان مبكراً أكثر مما ينبغي – إذ إنّ المجتمع العلمي لم يكن مستعداً له، ومقالته حول المُورِّثات في بازلاء الحدائق، التي نُشِرَت عام ١٨٦٦، نُسِيَتْ تماماً. هذا عبقريٌّ كبير أخفق في إعادة صنع العلم، لكنْ لمّا كان الزمن مناسباً، في عام ١٩٠٠، اكتُشِفَتْ مبادئُ الوراثة على نحوٍ منفصل على أيدي هوغو دي فريس (Hugo de Vries)، وكارل كورينز (Carl Correns)، وإيريك فون تشيرماك (Erich von Tschermak)، والسبب الوحيد لإطلاقنا اسم "المندلي" على علم الوراثة، وليس "دي فريسي" هو أنّ كورينز، لمّا أدرك أنه قد يُعزى الفضل إلى منافسه على هذا الاكتشاف، أكّدَ أنَّ ماندل كان قد سبقَهم جميعاً إلى ذلك.[1]

كرّرَ تجربةَ ماندل، ولو بنهاية أسعد بكثير، أحدُ الأعضاء الرئيسين في الوسط الكليوديناميكي، وهو زميلي العزيز جاك غولدستون (Jack Goldstone)، الذي كتبتُ معه عدداً من الأوراق البحثية. بدأ غولدستون مسيرته العلمية على أمل أن يصبح فيزيائياً، ولمّا كان طالباً في المرحلة الجامعية الأولى في كالتيك (Caltech)، تلقّى تأسيساً قوياً في الرياضيات، لكنه أصبح بعد ذلك مهتماً بفهم الأنظمة الاجتماعية – تاريخها وديناميكياتها، ولمّا أصبح طالباً في الدراسات العليا في قسم علم الاجتماع في جامعة هارفارد توصّلَ إلى "النظرية البنيوية–الديمغرافية" للثورات (التي توفر أسساً للمنهج الكليوديناميكي لفهم سبب تعرُّض المجتمعات لأزمات متكررة).

وفي وقت مبكر من وجوده طالباً في الدراسات العليا، أصبح غولدستون مهتماً بشرح الثورات. في ذلك الوقت، كانَ الرأيُ السائدُ هو أنَّ الثوراتِ

1- Conway Zirkle, "The role of Liberty Hyde Bailey and Hugo de Vries in the rediscovery of Mendelism," *Journal of the History of Biology* 1, no. 2 (1968): 205–18, https://www.jstor.org/stable/4330495.

تقاطُعٌ للصراعات بين النخب، والانتفاضات الشعبية، وإخفاق الدولة الذي يُسبِّبُهُ حُكّامٌ حمقى، أو حروب مكلفة خصوصاً، أو صعود نزعات قوية تتعارض مع النهج السائد، وتتبنّى أيديولوجيات راديكالية. ولأنّ خلفيّته كانت في العلوم الطبيعية، فقد وجد غولدستون تلك الدفوعاتِ إلى وجود حالات خاصّة غيرَ مُرضِيَة، ولحسن حظه تعرَّفَ مجالَ علمِ السكان، (فقد جرى التعاقد معه مُساعِدَ تدريسٍ مُقرَّرٍ حولَ هذا الموضوع، وهي الطريقة التي يتمكن فيها طلاب الدراسات العليا من إقامة أوَدِهم). بدأ بدراسة ما كان معروفاً حول ديناميكيات السكان في حقبة الحداثة الأولى، ويكتب حديثاً عن تذكُّرِه تلكَ الأيام الأولى في ورقة نشرها بعنوان "النظرية البنيوية الديمغرافية": بعد خمسة وعشرين عاماً، نُشِرَتْ في دورية الكليوديناميكا، ويروي ما حدث بعد ذلك:

جمعت البيانات، فنشأ لدي نمط واضح. قبل كلِّ ثورةٍ أو تمرُّدٍ رئيسٍ بينَ عامَي ١٥٠٠ و١٩٠٠، وجدتُ أنّ عددَ السكان قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً في نصف القرن السابق، وكان هذا صحيحاً فيما يخص البلدان الأوروبية التي كانت جزءاً من "الأزمة العامّة للقرن السابع عشر" (البرتغال، وإسبانيا، وإنكلترة، وإيطاليا، وفرنسا)، والإمبراطورية العثمانية في أثناء تمردات جيلالي، والصين قبل انهيار سلالة مينغ، كما كان ذلك صحيحاً في حال الثورات الأطلسيّة في أواخر القرن الثامن عشر (أميركا، وفرنسا، وهولندا)، والثورات الأوروبية في القرن التاسع عشر (في عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨)، والإمبراطورية العثمانية في ثلاثينات القرن التاسع عشر وأربعينياته، وقبل تمرد تايبينغ في الصين. والأكثر أهمية، في المراحل التي كانت فيها الثورات والتمردات الرئيسة غائبة في أوروبا، والإمبراطورية العثمانية والصين، أي بين عامَي ١٤٥٠ و١٥٥٠ تقريباً، ومن عام ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠، كان النمو السكاني صفراً تقريباً. في المرحلة الفاصلة السابقة كان سببُ ذلك هو التعافي البطيء من الطاعون الأسود، وكان السبب في المرحلة الثانية هو الاتجاه العالمي العكسي وركود النموّ

السكاني بسبب الطقس السيّئ جداً وموجة ثانية من الأمراض الكبيرة، بما في ذلك الطاعون، والتيفوئيد، والأمراض التنفُّسية.[1]

مع أننا اليوم، بعد أربعين عاماً، نعرف أكثر بكثير عن الأسباب الديموغرافية والبنيوية للثورات والتمردات والحروب الأهلية، فإن هذه الفكرة المعمقة الأولية تبقى صالحة، لكنَّ ما تلا ذلك لم يكن حكاية انتصار العلم (ليس مُدّة طويلة على أيّ حال)، بل ملحمة من المصاعب والمثابرة.

رفضتْ لجنةُ الدراسات العليا مُقترحَ جاك المفصل الأول لمشروعه البحثي في العلاقة بين النمو السكاني والثورات رفضاً قاطعاً، ثم أعاد غولدستون تشكيل اللجنة الفاحصة لأطروحته، وأعاد تركيز مقترحه على الحرب الأهلية الإنكليزية والقرن السابع عشر فحسب. بعد سنتين، دافع عن أطروحته بنجاح، لكنَّهُ لمّا قدّمها إلى دوريّة أكاديمية، رُفضت فوراً. أمضى سنتين في المراجعة والمحاججة لنشرها في شكل مقالة، وكان نشر مقالات إضافية صراعاً مراً. بعد عقد من الزمن، وضع غولدستون كتاباً أوصل أخيراً رؤيته، التي كانت قد تشكلت أولاً في كلية الدراسات العليا. بيَّن في الكتاب أن النظرية البنيوية–الديموغرافية تحدد بدقة توقيت الثورة الإنكليزية، والثورة الفرنسية، وحركة الإصلاح الإنكليزية في أثناء الحقبة الميثاقية، وثورات عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، والانتقال من سلالة مينغ إلى سلالة تشينغ، وتمرد تايبينغ، وأزمة الإمبراطورية العثمانية. رفضتْ مطبعةُ جامعة كيمبردج هذا الكتابَ بسُرعة. ثابر غولدستون، وفي النهاية قُبل كتابه للنشر في مطبعة جامعة كاليفورنيا، وبعد إخفاقات وانقلابات إضافية، نُشر كتاب الثورة والتمرُّد في **مطلع العالم الحديث** (*Early Modern World*)، في عام ١٩٩١، وباتَ الآن عملاً كلاسيكياً في مجال الكليوديناميكا، لكنَّ الكتابَ تُجُوهِلَ تماماً مُدّةَ عقدٍ بعد نشره،، ولم تكترث مطبعة جامعة كاليفورنيا لنشره بغلاف ورقي.[2]

1- Jack A. Goldstone, "Demographic Structural Theory: 25 Years On," *Cliodynamics*: *The Journal of Quantitative History and Cultural Evolution* 8, no. 2 (2017), https://doi.org/10.21237/c7clio8237450.

2- Goldstone, "Demographic Structural Theory: 25 Years On."

كحال غولدستون، بدأت أنا أيضاً مسيرتي العلمية عالمَ طبيعة، لكنّ انتقالي إلى العلوم الاجتماعية حدث بعد ذلك، في عام ١٩٩٧، بعد أن حصلتُ على وظيفة أكاديمية دائمة في جامعة كوناتيكيت. في البداية توقّعتُ أنّ أبحاثي في التاريخ ستلقى التجاهل، أو في أحسن الأحوال، ستتعرّض لنقد حادّ، وقد حدث بعضُ ذلك بالتأكيد، لكنْ فُوجئت بأن عِلم الكليوديناميكا الجديد، الذي أطلقته عام ٢٠٠٣، بدأ يكسب شعبيّة. حدث شيء عام ٢٠٠٠ جعلَ الكليوديناميكا ضروريةً، لا مُمكنة فحسب. ما الذي حدث؟ بكلمة واحدة: البيانات. وهذا ما سنتحدّث عنه لاحقاً.

الفصل آ ٢

ماكروسكوب تاريخي

علماء الاجتماع الأجانب السنتوريون (*Centaurian*)

قبل ألف سنة أرضية، اخترع علماء الفيزياء على الكوكب الرابع الذي يدور حول ألفا سنتوري أداة رائعة هي الماكروسكوب، وباستعمال هذا الجهاز تمكّنوا من التحديق خلال السنوات الضوئية التي تفصل كوكبهم عن أقرب كوكب مسكون في جوارهم في المجرّة، وهو كوكب الأرض، ومراقبة صعود الإمبراطوريات التي بناها سكان الأرض وسقوطها. أحدث اختراع الماكروسكوب مجالاً علمياً جديداً في ألفا سنتوري هو علم اجتماع الأجانب.

قبل مئة وسبعين عاماً، كانَ ووقل Woql-X!jt-URS3DF طالب دراسات عليا في قسم علم اجتماع الغرباء في الجامعة السنتورية، ونشر أطروحة درست النزعات الاجتماعية والسياسية داخل دولة تشكلت حديثاً، سماها سكان الأرض الولايات المتحدة الأميركية، وباستعمال البيانات التي جمعها ووقل بوساطة الماكروسكوب، بنى نموذجاً رياضياً لمجتمع ما قبل الحرب (مع أن مصطلح ما قبل الحرب لم يكن المؤرخون قد استعملوه بعد، بالنظر إلى أن الحرب الأهلية الأميركية لم تكن قد حدثت بعد، وكانت ستحدث بعد عشر سنوات).

تتبَّعتْ إحدى المعادلات التأسيسية في النموذج نُموَّ السكان الأميركيين وتحرُّكاتهم. في القرن الثامن عشر، كان لدى الأميركيين أُسَر أكبر بكثير من أُسَر الأوروبيين، لأنّ كلَّ مزارع كان يمتلك مساحة كبيرة من الأرض تُمكِّنه من إعالة عدد كبير من الأطفال. كان الأميركيون يأكلون جيّداً، ويزدادون طولاً، إذ أصبحوا أطول شعب على الأرض حينذاك، لكنَّ الأُسَرَ الكبيرة تُرجمت إلى نمو

سكاني سريع. بحلول عام ١٨٥٠، لمّا قدّم ووقل أطروحته[1] إلى لجنة الدراسات العليا، كانت الولايات الشرقية قد أصبحت مكتظة بالسكان، وكانت الغابات قد قُطعت واستبدلت بحقول زراعية، حتى في الأراضي التي تحتوي تربة سيئة لا توفر غلالاً كبيرة، ووجدت شريحة كبيرة من الشباب البالغين أنها لم تعد تستطيع كسب رزقها على الأرض، ولذلك انتقلت إلى مناطق أخرى.

ذهب بعضهم غرباً، حيث تتوافر مساحات كبيرة من الأرض في حاجة إلى من يزرعها، وذهب آخرون إلى المدن. حينذاك، كانت أميركا قد بدأت بالتصنيع، وكان هناك وظائف جديدة تُتاحُ طوالَ الوقت. أشار نموذج ووقل إلى أن القوتين التوءمين المتمثلتين في التصنيع واستعمار الغرب يمكنهما أن تستوعبا العدد المتزايد من العمال، ومن ثم المحافظة على المجتمع الأميركي في حالة توازن نسبي، لكنَّ عاملاً آخر كان ينبغي إضافته إلى المعادلة. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان الارتفاع المفرط في عدد السكان في أوروبا قد أصبح أسوأ بكثير مما هو في أميركا، واختار كثير من الأوروبيين "الفائضين" الهجرة عبر الأطلسي، وانتهى الأمر بهم في المدن نفسها التي كانت تستوعب الفائض السكاني من الأميركيين الريفيين. الهجرة إلى أميركا، التي كانت ضئيلة قبل عام ١٨٣٠، أصبحت تيّاراً هادراً في أربعينيات القرن التاسع عشر، مدفوعةً بكوارث مثل مجاعة البطاطا في إيرلندا وموجة الثورات في عامي ١٨٤٨ و١٨٤٩. تنافس المهاجرون مع المواطنين في عدد محدود من الوظائف، ونتيجة لذلك، تجاوزَ المعروض من العمالة الطلب بكثير، مع أن الطلب كان يرتفع بسبب التصنيع. كما يحدث في علم الاقتصاد، حين يتجاوز العرض من سلعة ما الطلبَ عليها، فإنَّ سعرها ينخفض، وفي هذه الحالة، كانت "السلع" هي العمل، ومع انخفاض كلفة العمل، أصاب أجور العمال الركود، ثم انخفضت، وانعكس التراجع في الرفاه العام في على انخفاض العمر المتوقع حين الولادة وقِصَر القامة، حتّى لدى

١- السنتوريون لا جنس لهم، بالمعنى الذي نعرفه. بدلاً من ذلك، يمر كل فرد منهم بمراحل حياتية يمكن أن يشار إليها تقريبيّاً بأنها ذكورة أو أنوثة.

الأميركيين الذين وُلدوا في أميركا، وفي المقابل، فإنّ البؤس العام تُرجم إلى ارتفاع معدلات عدم الاستقرار الاجتماعي والصراع. وبالمراقبة من ألفا سنتوري، رأى ووقل انفجاراً في أعمال الشغب الحضرية، وكذلك حالات تمرُّد ريفية في أميركا.

ركّزت المعادلة الأساسية الثانية في نموذج ووقل على ديناميكيات النخبة، في حين أخذ المدخلات من الجزء الديموغرافي. زادت عملية التصنيع من إنتاجية العمال، ونجم عنها نمو مستدام لحصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، لكنَّ ظروف فائض العمالة ضغطت على أجور العمال، ومع ركود أجور العمال، وتراجعها، باتت ثمار النمو الاقتصادي تذهب إلى جهات أخرى. لم تعد تلك الثمار إلى الدولة، التي كانت محدودة جداً في القرن التاسع عشر، حيث تأخذ ٢ بالمئة فقط من الناتج المحلي الإجمالي. بدلاً من ذلك، ذهبت المكاسبُ الاقتصادية إلى النخب – (الشريحة الاقتصادية منها خاصة). جُمعت ثروات كبيرة وخُسِرت، لكن النزعة تمثّلت في نمو سريع للثروات الكبرى. لم يقتصر الأمر على أن الأغنياء أصبحوا أكثر غنىً – بل إنّ عدد الأثرياء ارتفع بسرعة. بات بوسع كثير من العمال المهرة أن يؤسسوا محلاتهم الخاصة، ويدخلوا لعبةَ جني المال. أخفق معظمهم، لكنَّ بعض رُوّاد الأعمال الجدد هؤلاء، الذين كسبوا من الأجور المنخفضة، صعدوا بأنفسهم إلى الشرائح العليا، وانضموا إلى صفوف أصحاب الملايين. أشارت معادلات ووقل إلى أنّ هذه النزعة المتمثلة في ازدياد الأعداد والثروات في أوساط النخب يمكن أن تستمرَّ وتُظهرَ نمواً سريعاً ما دامتْ مضخّةُ الثروة، الناجمة عن الإفراط في فائض العمل (والافتقار إلى أي مؤسسات تحمي العمال) مُستمرّةً في العمل.

في الوقت الذي بدأ فيه ووقل بجمع البيانات وبناء نموذج لأميركا ما قبل الحرب، كان علماء اجتماع أجانب آخرون، يستعملون الماكروسكوب، قد جمعوا كميات كبيرة من البيانات حول مئة مجتمع أرضي تمر في حالة أزمة، ومن ثم تخرج منها. كانت أبحاث أخرى قد حددت مبادئ عدّة عامة تفسر سبب حدوث هذه الانهيارات الاجتماعية الدورية: البؤس الشعبي، والإفراط في إنتاج النخب،

وضعف الدولة، والبيئة الجيوسياسية. قرّر ووقل ألّا يُضَمِّنَ العمليتين الأخيرتين في نموذجه. كانت الولايات المتحدة أقوى كيان سياسي في أميركا الشمالية، ولم تكن كندا، والمكسيك، ومختلف القبائل الأميركية الأصلية صنواً لها. في الواقع، توسّعت الولايات المتحدة على حساب المكسيك والأميركيين الأصليين، وكان دور الدولة محدوداً جداً بحيث إنها لم تكن لاعباً أيضاً. أغفل النموذج العاملين الأولين: البؤس الشعبي والإفراط في إنتاج النخب؛ وكان كلاهما يتطوّر في اتجاهات مرعبة. ولمّا قدّم ووقل أطروحته، شملت تنبؤاً، فطبقاً لنموذج ووقل، كان البؤس الشعبي المتزايد والإفراط في إنتاج النخب سيُحدِثان تردّياً في الصمود الاجتماعي في أميركا ما قبل الحرب إلى درجة كبيرة بحيث إنَّ من شِبهِ المُؤكَّد أنْ يَحدُثَ انهيارٌ كبير بحلول عام ١٨٧٠ تقريباً، كما أشار ووقل أيضاً إلى أنّ هذا التنبؤ يتّسم بدرجة كبيرة من عدم اليقين، وهكذا، يمكن للانهيار المتوقع أن يحدث بعد عقد من عام ١٨٧٠، واستناداً إلى الإحصاءات المجموعة من مئة حالة دَرَسَها علماءُ اجتماع غرباء آخرون دراسةً كاملة، كان هناك فرصة ١٠-١٥ بالمئة لإمكان تجنُّب حدوث اندلاع كبير للعنف، مثل ثورة أو حرب أهلية، شريطة أن تتحد النخب الحاكمة، وتتبنّى مجموعة من الإجراءات السياساتية التي من شأنها أن تعكس القوى التي كانت تدفع بأميركا في حقبة ما قبل الحرب إلى حافة الهاوية. الأكثر أهمية هو أنّ عليها أن توقف مضخة الثروة. لكنَّ ووقل لم يرَ أيَّ علامات في عام ١٨٥٠ على أنّ النخب كانت تعي المشكلة أصلاً، أو أنها ستكون مستعدة لمعالجتها إذا أصبحت تعيها. (في المحصلة، إنّ المحافظة على انخفاض الأجور كان مربحاً جداً لها.). أخيراً، لم يكن بوسع نموذج ووقل أن يخرج بأي تنبؤات حول هوية الأفراد المسؤولين عن الانهيار المرجح، بالنظر إلى أنه كان يتتبع قوى اجتماعية، وليس أفراداً.

كما نرى، على عكس الكليولوجيين الخياليين، فإنّ علماء اجتماع الأجانب السنتوريين لم يتنبّؤوا بالحرب الأهلية الأميركية. ما حدث هو أن الحرب الأهلية اندلعت حتى قبل الموعد الذي تنبأ به نموذج ووقل. بعد وقت قصير من دفاع

ووقل عن أطروحته، تكشفت الأمور في أميركا بإيقاع متسارع. ارتفعت حوادث العنف الجماعي إلى مستويات كبيرة في النصف الثاني من العقد التالي، وبالنظر إلى الاندلاعات الكبرى فقط (تلك التي نجم عنها عشرة قتلى أو أكثر)، رأى ووقل أنه بين عامي ١٨٥٥ و١٨٥٩، كان هناك ثلاثة حوادث شغب لجماعة 'لا أعرف شيئاً' (Know-Nothing)، (التي ضربت بولتيمور، وواشنطن، ودي. سي، ونيو أورلينز)، وحرب عصابات شملت مدينة نيويورك كلها (عُرفت أيضاً بأعمال شغب الأرانب الميتة)؛ وأعمال شغب في أثناء الانتخابات (الاثنين الدامي في لويفيل، كنتاكي)؛ وتأوَّجت بحرب المورمون (مذبحة مروج الجبل). وشملت الأحداث التي سبقت الحرب الأهلية صراعاً إجرامياً قاتلاً بين القوات المؤيدة للعبودية والمعارضة لها في كانساس (كانساس النازفة) وغارة جون براون على مستودعات الأسلحة في هاربرز فيري، فرجينيا. وتبع ذلك فوراً الانتخاب الذي طُعِن بنتائجه عام ١٨٦٠؛ وقصف حصن سومتر في تشارلستون، ساوث كارولاينا؛ وحمام دم الحرب الأهلية الذي دام سنوات.

أصبح ووقل الآن باحثاً أول ورئيس قسم علم اجتماع الأجانب في الجامعة السنتورية.[١] وهو لا يقوم بالبحث بنفسه، بل يشرف على طلاب دراسات عليا يقومون بذلك. أحد هؤلاء الطلاب هو زِقل -Ziql-M&rw-ALF6GR، الذي كان يدرس الولايات المتحدة المعاصرة. وعلى خطى أستاذه، استعمل زِقل الماكروسكوب لجمع قدر كبير من البيانات حول ديناميكيات رفاه السكان والإفراط في إنتاج النخب بين عامي ١٩٧٠ و٢٠١٠، وكان النموذج الذي بناه زِقل في عام ٢٠١٠ شبيهاً من حيث الروح بنموذج ووقل لمرحلة ما قبل الحرب، لكنه أخذ في الحسبان التغيرات الدراماتيكية التي مرّ بها المجتمع الأميركي بين عامي ١٨٥٠ و٢٠١٠. على وجه الخصوص، أضاف زِقل معادلة أخرى إلى النموذج تأخذ في الحسبان الدور الأكثر أهمية بكثير الذي بدأت الدولة الأميركية بلَعِبه بعد الحرب العالمية الثانية، لكنَّ التنبؤ المأخوذ من نموذج زِقل ٢٠١٠ كان

١- يعيش السنتوريون نحو ٢٥٠-٣٠٠ سنة أرضية.

شبيهاً بتنبؤ نموذج ووقل لعام ١٨٥٠: كانت الولايات المتحدة متجهة نحو اندلاع خَطِر للعنف السياسي سيصل إلى أوجه في مطلع عشرينيات القرن الحادي والعشرين، ولم يكن هناك شيء أراد زِقل فعله أكثر من تنبيه سكان الأرض للكارثة المحدقة بهم، لكنَّ الماكروسكوب أداة أحادية الاتجاه، ومن ثم كان بوسع زِقل أن يراقبَ بشيء من انعدام الحيلة، وهو يرى تحقُّق المسار الذي تنبّأ به نموذجه.

كيف نبني ماكروسكوباً خاصاً بنا؟

يا للأسف! إن الماكروسكوب الذي أصفه في هذه القصة مَحْضُ خيالٍ علميّ. في الحياة الواقعية، لا يستطيع فيزيائيون بناء أداة تسمح لنا بالنظر خلفاً خلال ضباب الزمن.

إذاً، ما الذي نستطيع فعله؟ لا أستطيع أن أؤكد بما يكفي مدى حاجتنا إلى البيانات. نعم، تشكل النماذج الرياضية جزءاً جوهرياً من الكليوديناميكا. ومن المؤكد أن نموذجاً مجرداً فحسب يمكن أن يوفر لنا تبصرات قوية وغير متوقعة – كما رأينا في حالة قانون لانشستر المربع (الفصل آ١) لكنَّ النماذج تعمل على أفضل نحو حين تُغذّى بالبيانات.

وللحصول على البيانات، فإننا في حاجة إلى المؤرخين، وليس إلى الفيزيائيين. يا للأسف! إنّ كثيراً من المؤرخين يتبنّون نظرة قاتمة إلى الكليوديناميكا، خشية أن يكون هدفها أن تحلّ محلهم. ويغذّي هذه المخاوف كثير من الصحفيين الذين يكتبون حول موضوع الكليوديناميكا دون أن يفهموا ماهيتها. لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة من هذا. إنّ الكليوديناميكا تحتاج إلى التاريخ، ولا تستطيع أن توجد دون مؤرخين يفعلون أفضل ما يستطيعون فعله، وهو توسيع مخازن معرفتنا عن مجتمعات الماضي وتعميقها.

لقد بنى المؤرخون، وعلماء الآثار، وباحثون آخرون متخصصون في الماضي، على نحو جماعيّ خزّاناً هائلاً للمعرفة، وهذه المعلومات في حاجة إلى الترجمة إلى شكل قابل للتحليل بأدوات الكليوديناميكا، وهذا أمر ليس من السهل فعله. ثمة كثير من الفجوات – وثمة مساحات هائلة من المجالات التاريخية المظلمة كثيراً أو كُلّيّاً في نظرنا، ويصعب الحصول على تقديرات كمية، وحين نحصل عليها، فإنها تأتي مع قدر كبير من عدم اليقين. يختلف المؤرخون أنفسهم في كثير من

الأحيان، وفي أحيان أُخرى ا يختلفون في قضايا جوهرية، لكننا نستطيع التغلُّب على هذه الصعوبات.

يمكنني قول هذا بثقة لأنه قد بُنِيَ "ماكروسكوب تاريخيّ" ناجح في الواقع، وهو يُدعى سيشات: بنك بيانات تاريخ العالم.[1] صحيحٌ أنه غير مثالي، وينبغي القيام بالمزيد من العمل لتحسينه أكثر، لكنَّ هذا المشروع أثبت حقاً أنّ الحصول على البيانات التاريخية ممكن. إضافةً إلى ذلك، فإنّ سيشات ليس المشروع الوحيد الذي يحوِّل معرفة المؤرخين إلى بيانات.

سأستعمل سيشات لتوضيح كيف يمكننا أن نجمع البيانات التاريخية، لأنه أكثر المشاريع تعقيداً وتقدماً (في رأيي المتواضع)، ولأنه المشروع الذي أعرفه معرفة وثيقة، لكنْ في مكان لاحق من هذا الفصل، سأتحدّث عن مشاريع مماثلة أخرى، وإذا مضينا إلى مرحلة أبعد في المستقبل، أستطيع القول إن التبرعم المفاجئ لمُقارباتِ التاريخ القائمةِ على البيانات يُفسِّرُ السببَ الذي جعل الكليوديناميكا مطلوبةً بعد عام ٢٠٠٠، لا ممكنة فحسب.

1- "Seshat: Global History Databank," http://seshatdatabank.info/, accessed August 10, 2022.

الوكلاء

كيف ننشئ قواعد بيانات تاريخية؟ في إعادة صياغة لما قاله توماس أديسون، فإننا في حاجة إلى الإلهام وإلى (كثير من "الجهد والعرق").[1] لنتحدّث عن الإلهام أولاً.

فيما يتعلّقُ بمجتمعات الماضي، على عكس المجتمعات الحديثة، لا نمتلك قدراً وافراً من البيانات سنويّاً مستقاة من الهيئات الحكومية ومؤسسات استطلاع الرأي الخاصة. كلما عدنا إلى الوراء أكثر في الزمن تراجع مقدار البيانات المنهجية التي تقيس الكميات التي نحتاج إليها لتغذية نماذجنا، وحين نمتلك مثل تلك الموارد، مثل كتاب يوم القيامة (Domesday Book)،[2] أو المدونين الصينيين المحليين،[3] فإننا نعصرها بحرص لنحصل على أي معلومات يمكن أن توفرها، لكنْ حين لا تكون مثل تلك الذخائر متوافرة (وهي الحال المعتادة)، فعلينا أن نعتمد على مؤشرات غير مباشرة، أو "وكيلة".

إنّ استعمال الأدوات الوكيلة أكثر شيوعاً في علوم تاريخية مثل علم المناخ القديم. يستعمل علماء المناخ القديم جملة من الأدوات الوكيلة لإعادة بناء ديناميكيات المناخ على الأرض قبل آلاف السنين وملايينها: النّوى الجليدية، النوى الرسوبية، حلقات الأشجار، وتعداد غبار الطلع، ولأنّ هذه جميعاً مؤشرات غير مباشرة على الأحوال المناخية السائدة في مراحل تاريخية وحقب جيولوجية مختلفة، ينبغي إيلاءُ تحديدِ مختلف أشكال التحامُلات التي تؤثر في القياسات وإزالتها رعايةً كبيرةً، ولهذا السبب، فإنّ مقاربةً قائمة على وكلاء عدّة هي الفُضْلَى، بالنظر إلى أنها

---

١ - المقولة في الأصل: "١ بالمئة إلهام، و٩٩ بالمئة عرق".

٢ - انظر أيضاً "Domesday Book," Wikimedia Foundation, last modified September 25, 2022, 17:34, https://en.wikipedia.org/wiki/Domesday_Book.

3- Haihui Zhang, "What Are Chinese Local Gazetteers?" University of Pittsburgh, last updated April 28, 2021, https://pitt.libguides.com/chinese_local_gazetteers.

تسمح لنا برؤية مدى توافق وكلاء مختلفين (أو عدم توافقهم) بعضهم مع بعض، والتوصُّل إلى حكم مستنير حول كيفية جمعها في أفضل طريقة ممكنة.

إنّ استعمالَ الوكلاء أكثر شيوعاً في دراسة التاريخ البشريّ، لأنّ هناك أشياءَ أكثر بكثير نريد أن نعرفها في المجتمعات القديمة، لا أنْ نعرفَ فقط درجات الحرارة أو مُعدّلات هطول الأمطار في وقت ما من الماضي. على سبيل المثال، إنّ أحد أكثر الأشياء الجوهريّة التي ينبغي أن نعرفها حولَ أيّ مجتمع هو حجم ذلك المجتمع، وهو متغيّرٌ رئيسٌ في النماذج الكليوديناميكية للصمود الاجتماعي أو الانهيار. ما عدد الأشخاص الذين عاشوا في الإمبراطورية الرومانية؟ وكيف تَغيَّر أولئك السكان من جيل إلى جيل؟ يترك كل شخص علامات تستمر بعد موته، فالناس يأكلون – ويتغوّطون، ويعيشون عادةً في منازل أو في أنواع أخرى من المساكن. يرتدون الثياب والأحذية، ويعملون في حراثة الأرض أو في صناعة الأواني والجواهر. يترك كل نشاط مختلف علامات يمكن أن تُوفِّرَ وكيلاً محتملاً لقياس التغيُّرات السكانية.

وهكذا، فإنّ مجموعة سكانية متنامية في منطقة معينة تتطلب قدراً أكبر من الطعام، وهذا ما يُحتِّمُ قَطْعَ الأشجار لتوفير مساحات أوسع من الأرض للزراعة، ومع قطع أشجار الغابات، فإنَّ تركيبة غبار الطلع الذي تحمله الرياح إلى البحيرات، حيث تستقرُّ حبيبات الطلع في القعر، تتغيّر من تركيب تطغى عليه الأنواع الشجرية إلى تركيب تطغى عليه أنواع المحاصيل، والأعشاب، وبدراسة نوى مأخوذة من قعر البحيرات، يستطيع العلماء المختصون بغبار الطلع إعادة بناء التاريخ البيئي للمنطقة والاستدلال على الزمن الذي ظهرت فيه المجموعات السكانية الإقليمية، أو زمن تراجعها وتلاشيها.

طريقةٌ أُخرى لقياس ارتفاع عدد السكان وانخفاضه، تتمثّلُ في دراسة المباني التي بُنيت حديثاً، سواء تلك التي ينجم عنها نموّ في أحجام القرى، أم لتأسيس قرى جديدة. بجمع جذوع الأشجار التي حُفِظت (حتى بعد انهيار الهيكليات الأصلية)، يستطيع المختصون بحلقات أغصان الأشجار أن يحددوا

السنة التي قُطعت فيها الأشجار التي أُخذت منها هذه الجذوع بالتحديد. وبجمع مئات من مثل هذه التواريخ أو حتى الآلاف، نستطيع تحديد متى حدثت فورات في نشاط البناء، وهذا ما يُؤشِّر على ارتفاع عدد السكان الذين أصبحوا في حاجة إلى منازل إضافية.

ينتج الناس كثيراً من النفايات، وهذا صحيح اليوم، وكان صحيحاً في الماضي، مع أنّ طبيعة النفايات قد تغيرت. يُعدُّ المعدل الذي تتراكم فيه النفايات – حسناً، ربما يجب علي استعمال التعبير الصحيح علمياً، وهو النفايات ذات المنشأ البشري! (*anthropogenic rubbish*)– مؤشّراً على عدد الأفراد الموجودين في مكان ما، وتُعدُّ أجزاء الأواني المُكسَّرة من أكثر المؤشرات فائدة في هذا، فهذه الكسرات أبدية – ويتطلب الأمر عملية غمر جيولوجي للتخلص منها، ويمكن التوصل إلى تاريخ صناعتها، وتتوّلد كسرات الأواني لأنّ الأواني تُستعمل دائماً في الطبخ وتخزين الأغذية، وعاجلاً أم آجلاً ستنكسر.

ويمكنني أن أُعدّد أمثلةً أخرى، لكنَّ الفكرة واضحة. لا تتوافر جميع الأدوات الوكيلة المتعلقة بالسكان في أي منطقة أو حقبة تاريخية معينة، لكننا نستطيعُ أن نُطوّر عدداً منها في كثير من الأحيان، ويمكن أن تعاني أي أداة وكيلة من مشكلة منهجية (انحياز)، لكنْ من الممكن إعادة بناء الديناميكيات السكانية بمقارنة مجموعة من مثل تلك المؤشرات ذوات الانحيازات المختلفة. ونتيجة لذلك، بات هناك الآن عمليات إعادة بناء لديناميكيات السكان الإقليمية والعالمية على حدٍّ سواء،[1] وهي ليست مثاليّة في أي حال، لكنها توفر لنا فعلياً قدراً كبيراً من التبصرات حول الكيفية التي تغيّرت بها المجموعات السكانية في الماضي. الأكثر أهمية هو أنّ ذلك مجالٌ مُكثّفٌ للأبحاث الراهنة، ومن ثم فإنّ هذه التقديرات تُعدَّلُ وتُحسَّنُ دائماً.

١- على سبيل المثال، Jed O. Kaplan et al., "Holocene carbon emissions as a result of anthropogenic land cover change," *The Holocene* 21, no. 5 (2010): 775–91, https://doi.org/10.1177/0959683610386983.

عظام التاريخ

يتمثل أحد المصادر الغنية بالوكلاء خاصّةً، وإنْ يكن وكيلاً رهيباً، في البقايا البشرية. تتمتع الهياكل العظمية البشرية بقدرة كبيرة على البقاء، وأولئك الذين شاهدوا المسلسل التلفزيوني **ذا سوبرانوز** (*The Sopranos*)، يمكن أن يتذكّروا المشهد الذي يُرسِلُ فيه رئيسُ عصابة السوبرانو اثنين من أعضاء العصابة للتخلص من بقايا عدد من الضحايا، الذين كانوا قد دُفنوا في مزرعة شمال ولاية نيويورك.[1] ينقّبون عن الهياكل العظمية، ويكسرون العظام بالمطارق، ثم يرمون القطع في البحيرة. التخلص من الجثث عملية صعبة، كما يعرف كثير من القتلة.

تظل الهياكل العظمية موجودة بسهولة على مدى مئات السنين، بل الآلاف (شريطة ألّا تُطمَر بتربة حمضية)، ويُشكّلُ كلُّ هيكل عظمي خزاناً من المعلومات. من المؤكد أنّ قُرائي يعرفون أننا نستطيع الآن استخلاصَ عمليّة ترتيب لـ (دي. إن. إيه) قديم وإجراءَها،، وهي تكنولوجيا أحدثت ثورة في دراسة ماضينا.[2] لقد أطيح بنظريات ودُفع بنظريات جديدة، بفضل التدفق المستمر لبيانات الـ (دي. إن. إيه)، ولا نزال في البداية، لكنَّ العظام توفر مفاتيح أخرى كثيرة بشأن الماضي.

يتمثل أحد أسهل القياسات التي نستطيع أن نأخذها في الطول الإجمالي للشخص الذي حالفَنا الحظُّ في العثور على عظامه. إذا كان الهيكل العظمي غير كامل، فلا حاجة إلى القلق، فبقياس طول أحد العظام الرئيسة (عظم الفخذ، على سبيل المثال) واستعمال جدول من المقابِلات، نستطيع أن نُقدِّر الطول الإجمالي

1- *The Sopranos*, season 5, episode 10, "Cold Cuts," created by David Chase, aired May 9, 2004, on HBO, https://www.hbo.com/the-sopranos/season-5/10-cold-cuts.

2- David Reich, Who We Are and How We Got Here: Ancient DNA and the New Science of the Human Past (New York: Pantheon Books, 2018).

بدقّة كبيرة. ويمثل طول البشر مؤشراً مهماً على الرفاه البيولوجي، فالأشخاص الذين يعيشون في ظل عوامل بيئية ضاغطة، مثل سوء التغذية، وارتفاع أعباء الأمراض أو الطفيليات، أو الظروف المعيشية السيّئة (الافتقار إلى الهواء الطلق وضوء الشمس)، يُعانون من قصر القامة. وبالتأكيد يتأثّرُ الطولُ بكثير من العوامل الأخرى – على نحو خاص، بطول والديك، لكنْ حين نحسب متوسط طول كل جيل عاش في منطقة معينة، نتمكن من تجاوز الاختلافات الفردية، ونحصل على وكيل دقيق على نحو كبير لرفاه السكان عامّةً. على سبيل المثال، إنّ اكتظاظ السكان والضغط على الموارد يقلصان، دون شك، متوسط الطول. في الفصل الأول، ذكرت أن أحد الأسباب التي تمكننا من معرفة أن العمال الأميركيين كانوا يعيشون في وضع بائس في القرن التاسع عشر هو أن متوسط طول الأميركيين المولودين في أميركا انخفض بمعدل خمسة سنتمترات، وهو معدل كبير. وقد حُصِلَ على هذه البيانات المتعلقة بالطول بقياس الناس الأحياء، لكنْ لا شيءَ يمنعنا من الحصول على البيانات نفسها من الأموات. ثمة ملايين الهياكل العظمية في المتاحف الأوروبية وحدها، تشمل آلافَ السنوات من التاريخ الأوروبي، وقد وفّرت هذه الهياكل تبصُّرات مهمة حول تاريخ سُكّان أوروبا.[1]

لكنّنا لم نَفْرَغْ بعد، فباستعمال طرائق علم الأدلة الجنائية الحديث، درسَ علماء الآثار الكيفية التي عاش بها الناس في الماضي، بل درسُوا كيفية موتهم أيضاً، إذ إنّ الموت العنيف يترك في كثير من الأحيان علاماتٍ على الهياكل العظمية تحكي قصصاً، فرأسُ سهم حجري أو معدني يخترق إحدى فقرات الظهر يُعدُّ دليلاً واضحاً بالتأكيد، كما أن من السهل اكتشاف الجروح المميتة بالسيف أو الفأس، أمّا آثار الموت ضرباً بعصاً فيصعب تحديدها بالثقة نفسها، لأن العظام

1- Richard H. Steckel, "Heights and human welfare: Recent developments and new directions," *Explorations in Economic History* 46, no. 1 (2009): 1–23, https://doi.org/10.1016/j.eeh.2008.12.001.

يمكن أن تنكسر نتيجة سقطات أو حوادث أخرى، لكنّ التواترَ المرتفع على نحو غير اعتياديّ لكسور في الذراع اليُسرى يُعدُّ مُؤشّراً جيّداً على ارتكاب العنف بأدوات غير حادة. تخيل رد فعلك إذا كان أحدهم يعتزم ضربك بمضرب كرة القاعدة. على الأرجح سترفع ذراعيك إلى الأعلى محاولاً حمايةَ رأسك، وإذا كان مهاجمك يستعمل يده اليمنى، فستقع الضربة على ذراعك اليسرى.

بالتأكيد، لا تتركُ حالاتُ الموت العنيف كلها علاماتٍ يمكن اكتشافها على العظام، فسهم يخترق المعدة سببٌ مُؤكَّد ومؤلم للموت، وإذا أزيل السهم، فلا يبقى أيُّ أثر حالما تتحلل الأنسجة الرخوة. مرّة أُخرى، إنّ اهتمامنا ليس منصبّاً على ما حدث لشخص بعينه. كل موت مأساة، بالتأكيد،، لكنّ آلاف الوفيات تعطينا بيانات.[1] إذا كانت نسبة الهياكل العظمية في جيل واحد، التي تحمل أدلةً واضحة على موت عنيف هي ٣ بالمئة، وفي جيل آخر ٣٠ بالمئة، فإنَّ من الواضح أنّ مستويات العنف قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً.

كما يمكن للهياكل العظمية أن تنبئنا بالمكان الذي وُلِدَ فيه الناس، وبما إذا كانوا قد انتقلوا منه؛ وبنوع الطعام الذي كانوا يتناولونه؛ وبشيء عن الأمراض التي عانوا منها، وهذا مصدر واحد للوكلاء فقط، وإن كان مصدراً غنياً.

١ - المقبوس الفعلي، الذي يُعزى على نطاق واسع، لكنْ على نحو غير دقيق، إلى ستالين، هو "موت شخص واحد مأساة، أمّا موت مليون شخص فإحصائيّة".

ما الذي يمكن لسجلات الكنائس أن تُنبّئنا به بشأن الثورة الإنكليزيّة؟

الإلهام مهم إذاً للعثور على وكلاء أذكياء يسمحون لنا باكتشاف المتغيرات المختلفة التي نهتم بها بمرور الزمن، لكنّ ما تبقّى – ٩٩ بالمئة -يعتمد على الجهد والعرق. إننا لا نمتلك روبوتات قادرة على قراءة عائدات ضريبية مكتوبة بخط يد متعرج على رق متعفن باللاتينية القروسطية وفهمها، على الأقل ليس بعد. من ثم، ينبغي للمُؤرّخين المحترفين القيام بذلك العمل. غالبية غير المؤرخين لا يفهمون أهمية هذا العمل وقيمته الكبيرة جداً، وكذلك القدر الكبير من التدرُّب اللازم لإتقانه. هل تستطيع قراءة ما هو مكتوب على رُقم طيني بابلي؟ قلة قليلة من الناس تستطيع ذلك.

لكنْ ما قيمة كشف حقائق متعلقة بأشخاص ماتوا منذ زمن بعيد؟ ما أهمية ذلك لنا؟ على سبيل المثال، من يكترث إذا كانت سوزانا، ابنة ويليام دانكورن ومارثا زوجته، وُلدت في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٦، وعُمِّدت على نحو غير علنيّ في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٦؟[١] أو أنّ السيد جورج ناغز من بولنغتون، وعمره ٧٤ عاماً، دُفن في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٢٣؟ قد تكون وفاة السيد ناغز مأساةً أو لا تكون (فهو في المحصلة تُوفّي بعد عمر مديد بلغ ٧٤ عاماً)، لكنّ آلاف سجلات الدفن تُشكّل إحصائية، وهذه الإحصائية، حين تُجمع مع بيانات أخرى، وتُوضع في إطار المعادلات الكليوديناميكية، فإنها يمكن أن تنبئنا بأشياء كثيرة عمّا يحدث في المجتمع الذي نريد أن نفهمه، بما في ذلك ما إذا كان يقترب من أزمة.

تشكّل سجلات الكنائس بياناتٍ خاماً لتكنيك ديموغرافي هدفه إعادة بناء العائلة، طوره عالما السكان لويس هنري ومايكل فلوري في خمسينيات القرن

١- هذا سجل حقيقي من سجل التعميد في كنيسة القديس ستيفن في نوريدج، إنكلترة. انظر "Parish register," Wikimedia Foundation, last modified December 31, 2021, 07:25, https://en.wikipedia.org/wiki/Parish_register.

العشرين. قبل أن تصبح أجهزة الحاسوب منتشرة في كل مكان، كان يتعيّن على الباحثين أن يفعلوا كلَّ شيء بأيديهم. أولاً، زاروا الكنائس، وكتبوا على البطاقات الأحداث المسجلة في سجلاتها (تعميد، زواج، دفن)، وكانت الخطوة التالية بعد عودتهم إلى جامعاتهم، تخزين البطاقات بطرائق مختلفة مرّاتٍ عدّة، مُتّبعين بروتوكولاً محدداً. مكّنهم هذا الإجراء من ربط الأحداث التي تنتمي إلى العائلة نفسها، ثم تلخيصها على بطاقة العائلة. على سبيل المثال، تخبرنا إحدى البطاقات بأنّ مارثا وُلدت عام ١٧٩٦. بطاقة أخرى تخبرنا بأنّها كانت متزوجة في عام ١٨٢٨، وسِجِلّ الدفن يخبرنا بأنها تُوفّيت في عام ١٨٦٠. كان لديها أربعة أطفال، نتتبع مسار حياتهم بالطريقة نفسها، وحين نضيف المزيد والمزيد من الأفراد إلى قاعدة بياناتنا، نحصل على فكرة أفضل بكثير عن الكيفية التي نما فيها السكان عامّةً، "أو تراجعوا".

ثمّة صعوبات عملية كثيرة تعترض تنفيذ هذه المقاربة، فسجلات الكنائس تعرضت للضرر (أكلتها الفئران)، أو ضاعت (لّما أُحرقت الكنائس على سبيل المثال)، أو أخطأ الموظفون في كتابة الأسماء أو في تسجيل الأحداث، كما أنَّ سجلات العائلات غير مكتملة غالباً لأنّ الأشخاص كانوا ينتقلون من المجتمع الكنسي وإليه. تتمثل إحدى طرائق التعامل مع هذا الأمر بالقيام بالمزيد من العمل. كلما أضفت المزيد من التجمعات الكنسية إلى قاعدة البيانات تضاءلت الفجوات في البيانات. بالتأكيد، إذا انتقلت أسرة إلى بلد آخر، فإنها ستغيب عن نظرك. في الأحوال كلها، ليس هناك قاعدة بيانات مثالية، ولا سيما إذا كانت كبيرة. هناك دائماً فجوات وأخطاء في البيانات، لكنّ ذلك لا ينفي قيمة البيانات؛ بل يعني أننا في حاجة إلى أن نهتم بتلك المشكلات في أثناء مرحلة التحليل.

بهذه الطريقة تسمح سجلات الكنائس لعلماء السكان بدراسة تاريخ سكان بلد من البلدان قبل التعدادات العامة للسكان. على سبيل المثال، في بريطانيا العظمى، أُجريَ أوّلُ تعداد عامّ للسكان في تاريخ مبكر جداً مقارنةً بالأمم الأخرى، وهو عام ١٨٠١، لذلك فإنّ لدينا فهماً تفصيليّاً لتاريخ السكان في

المملكة المتحدة على مدى القرنين الماضيين، لكنّ سجلات الكنائس استُحدثت في إنكلترة عام ١٥٣٨. بدأت مجموعة كامبريدج لتاريخ السكان والبنية الاجتماعية بالعمل عليها في أواخر ستينيات القرن العشرين. في عام ١٩٨١، نشر عضوان في المجموعة، إي. آ. ريغلي (E. A. Wrigley) و ر. س. شوفيلد (R. S. Schofield)، **التاريخ السكاني لإنكلترة، ١٥٤١-١٨٧١: إعادة تركيب** (*The Population History of England*, 1541–1871: *A Reconstruction*)، وهذا ما وسَّعَ معرفتَنا بالديناميكيات الديموغرافية في إنكلترة (وويلز) مُدّةَ ثلاثة قرون قبل أن يُجرى أول تعداد عام للسكان، وفي الوقت الذي كان فيه علماءُ السكان في كيمبريدج يكملون تحليلهم لاتجاهات السكان في مطلع العصر الحديث في إنكلترة، كان جاك غولدستون، كما علمنا في الفصل السابق، قد وصل إلى أول عقبة في مسعاه لتطوير النظرية البنيوية الديموغرافية للثورات وحالات التمرد. بعد الاجتماع الكارثي للجنة التي ناقشت مقترحه لأطروحة الدكتوراه، التي رفض فيها الأساتذة مقترحه الأوليّ الطموح، انسحب غولدستون إلى قسمه ليلعق جراحه، ويُقرّر ما سيفعله بعد ذلك.

بفضل عمل مجموعة كيمبريدج، شعر غولدستون بأنه كان على أرض صلبة مع توافر البيانات حول الديناميكيات السكانية – الدافع الرئيس في النظرية التي اقترحها – على الأقل فيما يخصُّ حالةً من الحالات التي اعتزم دراستها، وهي الثورة الإنكليزية في عام ١٦٤٠. على نحو خاص، أكّدت البياناتُ الديموغرافية عالية الجودة التي جمعتها مجموعة كيمبريدج أن عدد سكان إنكلترة ارتفع بسرعة قبل عام ١٦٤٠، وانخفض بعدها، كما كان هناك بيانات صلبة تتعلق بالأجور، والمرونة الحركية للنخبة، والشؤون المالية الملكية، وكانت الاتجاهات جميعها في هذه البيانات منسجمةً مع نظرية غولدستون. قلّص غولدستون مقترحه لأطروحة الدكتوراه ليُركّز على إنكلترة في مطلع العصر الحديث، وقبلت اللجنةُ هذا المقترحَ الأقل طموحاً. كان توافرُ قدر كبير من البيانات عالية الجودة حول إنكلترة في مطلع العصر الحديث هو الذي صنع الفرق.

ثورة الحاسب الشخصي

حدث آخر يبدو غير ذي صلة. في عام ١٩٨١، كان دخول الحاسب الشخصي الذي صنعته شركة آي. بي. إم ميدانَ العمل، وقد أصبح أول حاسب ينتشر فعلياً على مستوى واسع. لنتذكر أن البيانات التي استعملها غولدستون في أطروحته لدرجة الدكتوراه كانت نتيجة بحث استهلك قدراً يصعب تصديقه من العمل. تدريجياً، أحدثت القوة الكبيرة والطاقة التخزينية للحواسب ثورة في علوم البيانات، وأدخلتنا عصرَ البيانات الكُبرى. تأخّر المُؤرّخون في الاستفادة من هذه الوليمة، لكنهم أصبحوا تدريجياً مشاركين متحمسين فيها. لقد بات التاريخ الرقمي الآن منهجاً راسخاً، وله دوريات أكاديمية متخصصة وأقسام خاصة في عدد من الجامعات.

سيشات

على عكس غولدستون، قررتُ أن أصبح كليوديناميكياً بعد أن كانت لي مسيرة مهنية ناجحة في العمل بيولوجياً نظرياً. كنت قد حصلت على وظيفة دائمة في جامعة جيدة، ومن ثم كان بوسعي أن أغيّر مجال عملي الأكاديمي. في مجال عملي السابق، وهو ديناميكيات السكان، كنت قد واجهت مقاومة للنماذج الرياضية من البيولوجيين التجريبيين، مع تأكيدِهم دراسةَ العضوياتِ في الميدان، لكنَّني وزُملائي الآخرين العاملين في مجال علم البيئة الرياضي تعلّمنا كيف نقنع التجريبيين بقيمة النماذج. كان بوسعنا الإشارة إلى نجاح نماذج بيئية سكانية معينة مثل معادلات لوتكا– فولتيرا (Lotka-Volterra equations) لدورات المفترسين– الفرائس. قبل الاكتشافِ المُستقلّ لهذا النموذجِ، الذي تَوصَّلَ إليه (حقَّقَهُ) ألفريد لوتكا في عام ١٩٢٥ وفيتو فولتيرا في عام ١٩٢٦ (كانت إحدى هاتين الحالتين اختراقاً علمياً فورياً)، شعرَ علماءُ البيئة بالحيرة حيال الأسباب التي تجعلُ مجموعات حيوانات كثيرة – على سبيل المثال، القوارض النرويجية – تمرُّ بدورات متكررة من الازدهار والانهيار. افترضوا أن ذلك يعود ربما إلى التقلبات المناخية، لكنّ سجلات الطقس لم تدعم هذه الفكرة. كان اكتشاف أنّ التفاعل بين المفترسين والفرائس يمكن أن يُولِّد دوراتٍ "داخلياً،" دون أن تكونَ مدفوعةً بعوامل خارجية، مفاجأةً كبيرة. كما ذكرتُ من قبل فيما يتعلق بقانون تربيع لانشستر، فإنّ إحدى قيم الرياضيات هي أنها يمكن أن تمنحنا تبصُّرات منطقية صرفة حيال مشكلة أو أحجية نحاول حلَّها. تُشكّلُ المعادلات الرياضية، والنماذج الحاسوبية حديثاً، مساعداً رائعاً للعقل.

لمّا بدأتُ دراسة العمليات الديناميكية في التاريخ البشري، توقّعتُ تماماً أن يشكل غزو "خارجي" لمجال عمل المؤرخين مقاومةً كبيرة جداً. بدلاً من شن هجوم رأسي مباشر، باستعمال استعارة عسكرية، قررتُ أن أُناوِرَ على الأجنحة. في حين أنّ الغالبية الساحقة من المؤرخين كانوا يعارضون بقوة المقاربات

الرياضية للتاريخ، فإنَّ خبراء في عدد من المناهج الدراسية القريبة الصلة، التي يمكن أن تُسمّى علوماً اجتماعيّةً تاريخيةً، كانوا أكثر قبولاً بمثل هذه الأفكار. بحلول عام ٢٠٠٠، شعر كثير من علماء الاجتماع المهتمين بفهم التاريخ بالغضب في ظل القيود التي فرضها على أبحاثهم "التحوُّلُ الثقافي" الذي أنكر قيمة المقاربات الكمية، أو حتى الحاجة إليها، وهذه التقلبات في المزاج الجمعي نمطية في العلوم الاجتماعية. كان التحول الثقافي ردَّ فعلِ الأجيالِ الشابّةِ من الباحثين ضدّ المقاربات الكمية التي كانت رائجة في سبعينيات القرن العشرين، مثل الكليوماتريكا (التاريخ الاقتصادي الكمي) وعلم الآثار الإجرائي (الذي دعا أنصاره إلى التطبيق الصارم للمنهج العلمي). انتصر المنتقدون حينئذ، وأسّسوا التقليد الجديد، لكنِ الآنَ جاءَ دورُهم ليتعرّضوا للانتقاد على أيدي الأجيال التالية، وهكذا وقعت بذرة الكليوديناميكا على تربة مُهيَّأة.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً للعثور على حلفاء في علم الاجتماع التاريخي (بمن فيهم جاك غولدستون)، وفي التاريخ البيئي والاقتصادي، وفي الأنثروبولوجيا النشوئية. لم نكن نتفق بالضرورة على ماهية القوة الدافعة الرئيسة التي تفسر الأنماط التجريبية المختلفة التي رأيناها، لكنّنا اتفقنا على أنّ النظريات ينبغي تعزيزها بالنماذج، وأنّ التنبؤات النظرية ينبغي اختبارها بالبيانات.

عند تلك النقطة، نحو عام ٢٠١٠، كان هناك بحر من المعلومات نسبح فيه، بالنظر إلى استعمال المؤرخين وعلماء الآثار لأجهزة الحاسوب على نطاق واسع، وظهور العلوم الإنسانية الرقمية. في الواقع أحرجَنا الغنى، ولم يسحقنا الفقر. كان بناء النظريات العظمى أسهل بكثير أيّامَ كارل ماركس، لمّا كانت البيانات المتاحة حول المجتمعات التاريخية ضئيلة (وضَمِن التركيز الكامل على أوروبا أن تُستمَدّ البيانات من مجتمعات متشابهة)، لكنَّ بناءَ نظريات أفضل كان قد أصبح ممكناً بفضل وفرة البيانات الجديدة.

لكنْ كيف يمكن الحصول على تلك المعرفة كلها؟ كان بعض تلك المعرفة قد حُوِّل إلى بيانات – ورُتِّبت الأرقام في صفوف وأعمدة في جداول، وبات يمكن

تحميلها وإدخالها عمليّةَ التحليل، لكنْ حتى مثل تلك المعلومات الرقمية لم تكن خالية من المشكلات، لأنها كانت تفتقر في كثير من الأحيان إلى ما يسميه علماء البيانات الميتاديتا، أو بيانات عن البيانات، تفسّر ما تعنيه الأرقام. على سبيل المثال، إنّ الأعمدة في الجدول يمكن أن يكون فيها معلومات لا توصل إلى شيء مثل "Var23"، "Var24"، إلخ، بالإشارة إلى أرقام المتغيرات ٢٣، و٢٤، وهلم جرّاً، لكنْ ما الذي كان يمثله "Var23".

أُتْمِتَ جزءٌ صغيرٌ فحسب من المعرفة، وكان معظمها منتشراً في الكتب ومقالات الدوريات الأكاديمية، أو في "الأدب الرمادي"، الذي يصعب الوصول إليه، مثل تقارير المواقع الأثرية، وبعضها كان يسكن رُؤوسَ أفرادٍ من الباحثين. كان من الرائع لو وُجد برنامج عنكبوتي (spiderbot) يزحف في أدمغة الخبراء، ويجمع منها المعلومات التي نحتاج إليها، لكنّ ذلكَ خيالٌ علميّ أيضاً، ولذلك تعيَّن علينا أن نفعل ما أردنا فعله بالطريقة الصعبة.

يُسمّى الماكروسكوب التاريخيُّ الحقيقيّ سيشات: قاعدةَ البيانات التاريخية العالمية. أُطلِقَ مشروع سيشات عام ٢٠١١، لمّا التقيتُ عالم الأنثروبولوجيا هارفي وايتهاوس (Harvey Whitehouse)، في اجتماع. لمّا طرحتُ على هارفي فكرة إنشاء قاعدة بيانات تاريخية، أدركَ من فوره إمكاناتِها العظيمةَ الكامنة، واتّفقنا على إضافتها مُكوِّناً لمقترح كان يكتبه للحصول على منحة. لحسن الحظ، حصلنا على تمويل للمقترح، وبدأنا بتعيين معاونين بحثيين، وخبراء، وحاصلين على درجات دكتوراه. توسّع المشروع بإضافة علماء أنثروبولوجيا، ومؤرخين، وعلماء آثار، وعلماء بيانات لمساعدتنا في النواحي التقنية لبناء قواعد البيانات.

في البداية، لُخِّصَتْ فكرتُنا بأنْ يَجْمَعَ خبراء – مُؤرِّخون أكاديميون، وعلماء آثار، وباحثون آخرون في الماضي بياناتِ سيشات جميعَها، لكنْ سُرعانَ ما اكتشفنا أن هذه المقاربة تعتريها عيوب جديّة، حتى فيما يتصل بالمؤرخين الذين كانوا متحمسين جداً لمشروع سيشات. على سبيل المثال، يُمثِّل الطلبُ إلى الخبراء أن يملؤوا مئات الصناديق سُوءَ استعمال مُرعباً لخبراتهم. وبشأن كثير من المتغيرات،

حالما تضع برنامجَ ترميزٍ فعّالاً، يُمكنُ أن يُدخِلَ المساعدون البحثيون المُدرَّبون جيّداً الذين يعملون على نصوص معيارية ٨٠-٩٠ بالمئة من البيانات بدقّة. ومن ثم، أدركنا أنّ وقتَ الخبراء وجهدَهم موردان ذوا قيمة عالية، وينبغي استعمالهما على نحوٍ إستراتيجيّ، وفي المجالات التي ثمة حاجة أكبر إليهما – مثل حلّ قضايا الترميز الصعبة والعثور على المعلومات التي يصعب إيجادها. إضافة إلى ذلك، فإنّ الخبيرَ وحده يمكنه أن يحكم على ما إذا كان مجال البرنامج لا يحتوي معلومات عن متغير محدد – أي أنّ ثمّة فجوةً حقيقية في المعرفة.

ومن ثم، فإنّ المساعدين البحثيين هم غالباً من يُدخِلُ البيانات في سيشات. في بداية المشروع، جرّبنا أنواعاً مختلفة من المساعدين البحثيين، واكتشفنا أنّ استخدام عمالة الطلاب في المرحلة الجامعية الأولى لم تكن مُقارَبةً قابلةً للحياة. لم يكن منطقياً استثمار بضعة شهور في تدريب المساعدين البحثيين، وتحديد دقتهم وكفاءتهم، لنخسرهم لاحقاً نهائياً، ونتيجةً لذلك، حوّلنا مواردنا إلى الاستعانة بمساعدين بحثيين على المدى الطويل يعملون على المشروع على الأقل مُدّةَ عامين، وسنوات عدّة عادةً. مُساعِدُونا البحثيُّون جميعاً حاصلون على درجات جامعية أولى أو ما يعادلها؛ وكثيرٌ منهم حاصلٌ على درجات ماجستير، وبعضهم يحمل درجات دكتوراه.

يتمثل العنصر الحيوي الثالث في عملية جمع بياناتنا في أنّ مَنْ يتولّى الإشرافَ الوثيق على المساعدين البحثيّين هم علماءُ الاجتماع الذين يحملون درجات الدكتوراه، ويشملون: الباحثين لمرحلة ما بعد الدكتوراه، والمحرّرين الإقليميين (ولكلٍّ منهم خبرة بجزء مُعيَّن من العالم)، ومُنسِّقي مُتغيّرات (الذين يُركّزُ كلٌّ منهم على مجموعة مُعيَّنة من مُتغيّرات سيشات)، ومديري سيشات (وهم حالياً ثلاثة مؤرخين، وعالم أنثروبولوجيا، وعالم آثار، وعالم تعقيد). ويتمثّلُ دورُهم في تدريب المساعدين البحثيين، والتحقُّق من قراراتهم بشأن الترميز، وضمان التطبيق المتّسق لبرامج الترميز. ما كان يمكننا توليد هذا الكم الكبير من البيانات التاريخية عالية الجودة، كما فعلنا، دونَ عمل المساعدين البحثيين الجادّ جداً والسخاء المفرط للخبراء المتعاونين معنا، الذين يبذلون وقتهم ومعرفتهم لمساعدة مشروعنا.

اكتشفنا أن أفضل بياناتنا جُمعت لمّا كانت المجموعات الثلاث (المساعدون البحثيون، والباحثون الخبراء، وعلماء الاجتماع) تعملُ معاً. حين نبدأ بترميز "كيان سياسي" لسيشات (مجتمع مستقل سياسياً محصور بتاريخ بداية وتاريخ نهاية)، نحصل على مساعدة خبيرة في اقتراح مجموعة من النصوص المعيارية وأجوبة عن أسئلة عامة. على سبيل المثال، ما الأزمنة التي يجب أن نستعملها تارِيخَيْ بدايةٍ ونهايةٍ لهذا الكيان السياسي؟ ثم يُعطى المساعدون البحثيّون تعليماتٍ لترميز أكبر قدر ممكن من البيانات من مصادر معيارية، باستخدام مقاربة "القطوف الدانية". بعبارة أخرى، إذا لم يكتشفوا جواباً بسرعة، فإنهم يتوقفون عن البحث في السؤال، ويضيفونه إلى قائمة القضايا التي ينبغي تسويتها لاحقاً بمساعدة الخبراء. حالما تنتهي هذه المرحلة، نعود إلى الخبراء بقائمة من الأسئلة المتعلقة بفجوات في البيانات وقرارات الترميز الصعبة، كما نقيم في كثير من الأحيان ورشات عمل تجمع أفراد مشروع سيشات مع خبراء يركزون إمّا على مناطق من العالم (على سبيل المثال مصر، جنوب شرق آسيا)، وإمّا متغيرات محددة (مثل الطقوس والدين، والإنتاجية الزراعية).

باختصار، إنَّ توسيع قاعدة بيانات سيشات، ولا سيما العثور على بيانات لمتغيرات صعبة الترميز، هو نتيجة تعاون بين الخبراء والعاملين في سيشات. تجمع هذه العملية المعرفة المتخصصة للخبراء في مجتمعات تاريخية معينة مع خبرتنا في ترجمة المعرفة التاريخية إلى بيانات.

كما ذكرنا أعلاه، فإن وضع برنامج ترميز فعّال يُعدُّ سمة رئيسة لإنجاح مشروع سيشات، فإذا كانت تعريفات المتغيرات غامضة أكثر مما ينبغي، أو مجردة أكثر مما ينبغي، أو تتطلب تفسيراً أكثر مما ينبغي، فإنها تصبح صعبةَ الترميز، وترتفع فرص ظهور اختلافات بين المرمّزين. على سبيل المثال، حين نجمع البيانات في سيشات، نتجنّب إدخال البيانات عنوةً حول مجتمع في الماضي في سلّم عشوائي (مثل "معدل التعقيد الاجتماعي لهذا المجتمع على سلّم من صفر إلى عشرة"). قبل جمع البيانات، نعقد ورشة عمل تضم عادةً خبراء يطورون فهماً لكيفية ترميز ناحية مُعيّنة نهدف إلى معرفتها في سيشات. ونهدفُ عامّةً إلى استخدام متغيّر كميّ (مثل تقدير عدد سكان الكيان

السياسي الذي يُرمَّز)، أو تفصيل متغيرات معقدة إلى عدد من المتغيرات البسيطة التي يمكن ترميزها بطريقة ثنائية (مثل غائب/حاضر)، ثم يختبرُ برنامجَ الترميز الأوليّ المساعدون البحثيون في سيشات، الذين يطبقونه على مجموعة من الحالات الاختبارية، ويعملون بالتشاور مع الخبراء، ثم يُهذَّبُ برنامجُ الترميز، استناداً إلى مقترحات من الخبراء والمساعدين البحثيين، ويُطبَّقُ على العيّنة برمتها. نكتشف في بعض الأحيان أنّ علينا تعديل برنامج الترميز بعد أن نكون قد رمّزنا عدداً كبيراً من الكيانات السياسية باستعمال البرنامج القديم، وينجم عن الانتقال إلى تعريف أفضل درجة معينة من عدم الكفاءة، بالنظر إلى أنه يتعين على المساعدين البحثيين العودة إلى الكيانات السياسية المرمَّزة وإعادة ترميزها باستخدام البرنامج الجديد، وتستغرق هذه العملية وقتاً، تظل الرموز القديمة أحياناً في قاعدة البيانات إلى أن تُواجَه في النهاية، وتُصحَّح.

قبل استعمال سيشات في التحليلات الإحصائية، نتحقّقُ منهجياً من جودة البيانات، ويختبرُ كُلَّ نقطة بيانات مساعدٌ بحثيّ مختلف عن المساعد الذي أدخلها.

سيشات كيان "حيّ" هائل ومعقد، يتطوّر باستمرار. في مشروع كبير ومتعدد الأوجه مثل سيشات، وبقاعدة بيانات بهذا الحجم الكبير، من المحتم وجود بعض القيود العملية على الحصول على قيم دقيقة أو تمثيلية أو رموز لمتغيرات محددة، لأنَّ جزءاً صغيراً من المعلومات، على سبيل المثال، نُشر في مصدر غير معروف، أو أن ثمة معلومات جديدة لم نطلع عليها بعد تغيُّر القيمة المرمَّزة. لا ننتظر حتى تنتهي عملية "تنظيف" العملية، لأنها ببساطة لا تنتهي، ومن ثم، فإنّ مقاربتنا تتمثل في معالجة المشكلات المتبقية حين نكتشفها، وبهذه الطريقة نجعل قاعدة البيانات أفضل، في حين أننا نفهم أنه سيكون هناك دائماً بعض الأخطاء في البيانات، كما أنّ مقترحات الباحثين الآخرين وانتقاداتهم مفيدة جداً في هذا الصدد، فجميعنا يستفيد من الكشف عن هذه القضايا – تُساعدُ الطبيعةُ المنهجية لسيشات في تركيز هذه النقاشات وتحديد المجالات الخلافية، وحالات عدم اليقين، وفجوات المعرفة. إضافةً إلى ذلك، حين تصبح المعرفة التاريخية والأثرية متوافرة، نهدف إلى تضمينها في سيشات.

قاعدة بيانات الأزمات

حتى عام ٢٠٢٠، كان الاتجاه الرئيس لجمع بياناتنا وتحليلنا الإحصائيّ للبيانات المجموعة يتمثّل في الإجابة عن سؤال كبير محدد. في بداية عصر الهولوسين، قبل نحو عشرة آلاف عام، كان البشر جميعاً يعيشون في مجتمعات صغيرة نسبياً تتكوّن من مئات الأشخاص أو بضعة آلاف، تسودها المساواة النسبيّة، أما اليوم، فيعيش الناس جميعاً (إلّا عدداً قليلاً من مجموعات السكان الأصليّين في الأمازون وفي أماكن بعيدة) في مجتمعات كبيرة، يتجاوز عدد سكان اثنين منها، الصين والهند، المليار نسمة. لقد طغى على العالم الآن شكل جديد من التنظيم السياسي، الدولة، التي نشأت في منتصف عصر الهولوسين، وأصبحت الشكل السائد في أنحاء العالم كافة، وأصبحت التكنولوجيا معقدة ومتقدمة جداً، والاقتصادات منتجة جداً، وهذا ما يُحسِّن جودةَ حياةِ كثيرٍ من الناس. على الجانب المظلم، فإنّ زيادة الرفاه لم تكن متساوية، والمجتمعات المعقدة، سواء في الماضي أم في الحاضر، تتسم بدرجة عالية من عدم المساواة، والسؤال الكبير الذي أردنا أن نحصل على إجابة عنه هو: كيف ولماذا حدث هذا "التحوُّل الهولوسيني الكبير؟". مع أنني لا أستطيع الادعاء أننا أجبنا عن هذا السؤال على نحوٍ يُرضي الجميع، فإننا بالتأكيد حقّقنا كثيراً من التقدُّم. كثير من النظريات التي يقترحها علماء الاجتماع الحديثون، والفلاسفة العظام في الماضي أيضاً، رفضتها البيانات التي جمعناها في سيشات. ومع تقلُّص مجال النظريات المدعومة بالأدلة، فإننا نكتسب درجة أفضل على نحو متزايد من فهم القوى الدافعة التي غيرت مجتمعاتنا إلى ما هي عليه اليوم.[١] ومع قرب انتهاء عملية جمع البيانات اللازمة

١- إذا كنت مهتماً بمعرفة جوابي عن هذا السؤال الكبير، فاقرأ كتابي الشعبي *Ultrasociety*: *How 10,000 Years of War Made Humans the Greatest Cooperators on Earth* (2016)، وكتابي الأكثر تقنية، *The Great Holocene Transformation*، الذي سيُنشَر في عام ٢٠٢٣.

للإجابة عن هذا السؤال الكبير المحدد، انتقلنا تدريجياً إلى سؤال كبير جديد: لماذا تُواجِهُ المجتمعاتُ المُعقَّدةُ المُشكلاتِ دوريّاً؟ ما العوامل التي تُفسِّرُ الموجاتِ المتكررة من عدم الاستقرار الداخلي، وانهيار الدولة، والحرب الأهلية الشاملة؟ ويُصاغ هذا السؤال عادةً على الشكل الآتي: لماذا تنهار المجتمعاتُ المُعقّدة؟ في العقد الماضي، ظهرَ مجالٌ علميٌّ جديد أُعطِيَ الاسم الملائم، 'علم الانهيار' (collapsology)،[1] للإجابة عن هذا السؤال. في الحقيقة، لم يعجبني هذا الاتجاه الجديد. ما "الانهيار" على أيّ حال؟ كما أناقش في الفصل الثاني، الذي ينقل ما يشاهده الماكروسكوب الذي صممناه في الماضي، فإن الانهيار التام ما هو إلّا أحد النتائج المحتملة حين تواجه المجتمعاتُ المشكلات. في بعض الأحيان تُدمِّر الحروبُ الأهلية، والمذابحُ، وانهيارُ البنى التحتية، مصحوبةً بالأوبئة، نسيجَ المجتمعات، وهذا ما ينجم عنه تراجعٌ كبيرٌ جداً في عدد السكان، وتبسيط مؤسسات الحكم، والفقدان الجزئي للمعرفة، لكنّ بعض مجتمعات الماضي خرجت من أزماتها بطريقة غير دموية نسبياً، وذلك ببناء المجموعة الصحيحة من المؤسسات التي عالجت القوى البنيوية العميقة التي تدفعها إلى حافة الهاوية. ومعظم مخارج الأزمات تقع بين هذين الطرفين النقيضين، فلماذا التركيز على الانهيار فحسب؟ ألسنا مُهتمّينَ بمعرفة الكيفية التي تتمكن المجتمعات بها من تجنُّبه بحيث نستطيع تعلُّم الدروس المناسبة لنا اليوم؟

ولهذا قررنا أن نسمي هذا الفرع من سيشات قاعدة بيانات الأزمات. لقد حددنا نحو ثلاثمئة حالة من الأزمات، تمتد من العصر الحجري الحديث، حتى الوقت الحاضر، وتقع في القارّات الرئيسة كلّها في العالم، وهدفنا اختبار النظريات المتعلقة بسبب دخول المجتمعات في أزمات، لكنَّ ما لا يقل أهمية هو أننا نهدف إلى فهم السبب الذي يجعل بعض المخارج من الأزمات مرعبة حقاً، في حين أنّ

1- Guy D. Middleton, "The show must go on: Collapse, resilience, and transformation in 21st-century archaeology," *Reviews in Anthropology* 46, no. 2–3 (2017): 78–105, https://doi.org/10.1080/00938157.2017.1343025.

مخارجَ أخرى تكون حميدةً نسبياً. ما الذي أخطأ فيه القادة والناس في المجموعة الأولى من الحالات؟ وما الذي أصابوا فيه في المجموعة الثانية؟

يتبع جمع البيانات لقاعدة بيانات الأزمات المقاربة التي صممناها وطورناها لسيشات "الكلاسيكية"، وهذه عمليةٌ طويلة ومجهدة، ولم نَفْرَغْ منها بعد. في الوقت الراهن، لدينا بيانات جيّدة حول نحو مئة من حالات الأزمات، أو ثلث ما ستحتويه قاعدة البيانات في النهاية، وهذا يكفينا لتَعرُّفِ الأنماطِ الرئيسة. "دروس التاريخ" هذه هي موضوع الفصل الثاني.

الفصل آ ٣

مقاربة الديناميكية البنيوية

الانتقائية وسرير بروكرَستِس

يتمثل الهدف الرئيس للأمثلة التاريخية، التي استعملتها بغزارة في هذا الكتاب، في توضيح كيفية عمل الأجزاء المختلفة للنظرية الكليوديناميكية للانهيار والتجدد الاجتماعي، والمقاربة هنا مختلفة جداً عن تلك المستعملة في كتب كتبها مؤرخون مختصون والكتب التي كتبها ما يمكن أن أسميهم مُنظِّرين هواة.

السرديات التي كتبها مؤرخون غاصوا عميقاً في مرحلة ومنطقة هم أفضل من يعرفونها، مفيدةٌ دائماً، لكنْ ما من باحث واحد، مهما بلغ ذكاؤه، يستطيع أن يُلمَّ بأكثر من عدد محدود من دراسات الحالات التاريخية، ونتيجة لذلك، نستطيع أن نكسب من سرد مؤرخ فهماً عميقاً للكيفية التي انزلق فيها مجتمع مُعيّن إلى أزمة، ومن ثم خرج منها، لكننا لا نستطيع أن نفصل الظروف الخاصة المتعلقة بهنا والآن عن المبادئ العامة التي تنطبق على هناك وعندئذ، ونحن في حاجة إلى أن نفهم المبادئ العامة إذا أردنا تطبيقَ دروس التاريخ لمساعدة مجتمعنا في تجاوز أزمة بأفضل طريقة ممكنة. في المحصلة، إنَّ كلَّ مجتمع فريد لن ينجح، ونقول ذلك وفقَ ما تعلّمناهُ ميكانيكياً بدراسة الأزمة القروسطية المتأخرة في فرنسا، أو تمرد تايبينغ في الصين، أو حتى الحرب الأهلية الأميركية، أو الأزمة الحالية في الولايات المتحدة الأميركية، أو المآزق التي تواجهها فرنسا وألمانيا. لكي نتعلم من التاريخ، علينا أن نفصل الحالات والسمات المحددة عن المبادئ العامة، كما علينا أن نحصل على فهم عام للكيفية التي تتفاعل فيها سمات خاصة لمجتمع من المجتمعات مع الآليات العامة للأزمة والتجدد. مثال على التبادل بين العام والخاص: تعلّمنا في الفصل

الثاني أنّ لدرجة عدد الزوجات في أوساط النخب أثراً قويّاً في مُعدّل تطوُّر الإفراط في إنتاج النخب، ولذلك ينبغي لنظريتنا العامة أن تكون قادرةً على تحديد سمات خاصة للمجتمعات تُشكِّلُ دورات الانهيار والتجدد.

وفي حين أنّ السرديات التاريخية يمكن أن توفر معلومات عميقة (حتى لو لم تساعدنا في مشكلة فصل العام عن الخاص)، فإنّ عملَ المنظرين الهواة لا فائدةَ منه. هؤلاء الكتاب ليسوا مؤرخين عادةً، ومعرفتهم التاريخية في كثير من الأحيان ضئيلة، والجهل يُحرّر، لكنه ليس كافياً. يستعمل المنظرون الهواة "تقنيات" لبناء سردياتهم العظمى، وتتمثل التقنية الأولى في الانتقائية، اختيار الأمثلة التاريخية التي تتّفق مع نظرياتهم المُدلّلة، وتتمثّل التقنية الثانية في سرير بروكرَستِس، الذي يمكّنهم من إجبار أمثلة تاريخية مختلفة على التوافق مع دورات ثابتة تفترضها نظرياتهم بوساطة توسيع هذه هنا، وتقليص تلك هناك. يعاني ٩٩ بالمئة من "التاريخ الدائري" واحدة من هاتين المشكلتين، أو من كلتيهما معاً. من المؤسف أني أنزع إلى تجنب كلمة 'دورة' في مقالاتي المهنية لأنّ لها كثيراً من التداعيات السلبية. (وبدلاً من ذلك أتحدّث عن "النَّوَسان ا"، و"ديناميكيات الازدهار والانحدار"، إلخ).

الكليوديناميكا مختلفة، فهي تجمع الكم الهائل من المعرفة التي جمعها مؤرخون محترفون، ثم تستعمله بطريقة علمية موضوعية. نريد أن نعرف ماهية الأنماط العامة ومدى الاختلافات المحيطة بها التي تُظهرها مجتمعات مختلفة وحقب تاريخية مختلفة، وينبغي ترجمة الأفكار النظرية إلى نماذج ديناميكية صريحة بحيث يمكن أن نتحقق من (أيّ الافتراضات يؤدي إلى أيٍّ من التنبؤات)، وتُختَبر هذه التنبؤات بالبيانات، وهذا جهد كبير، ولا يمكن لفرد واحد أن يكون قادراً على فعل كل شيء. إنه يتطلب مجالاً علمياً كاملاً، وتقسيم العمل، والتجريب والخطأ باستمرار، والاختلاف والنقاش البنَّاء. إننا لا نزال في بدايات علم التاريخ الجديد هذا، الذي يتطلب قدراً كبيراً من العمل، لكنَّ التبصُّرات التي حصلنا عليها أصلاً من الكليوديناميكا، ومع أنّ هذا المجال لا يزال في شبابه،

تُظهر أن المحاولة ليست يائسة. علينا أن نستمر في العمل لأنّ الرهانات مرتفعة جداً، فالانهيار الاجتماعي والحرب الداخلية يقتلان الناس، ويدمران الاقتصادات، ويلغيان الإنجازات البشرية. علينا أن نطور فهماً واضحاً لأسباب حدوثها بحيث نستطيع تجنب الدورة اللانهائية من الموجات المتكررة لعدم الاستقرار والعنف.

الديناميكياتُ الاجتماعيّةُ بوصفها مُحصّلة

حين يرغب علماء الكليوديناميكيا في فهم لماذا وكيف تصل مجتمعاتنا إلى أزمة، وكيف نستطيع الخروج من الأزمة بأقل قدر من إراقة الدماء، يبنون نماذجَ رياضيّة. تتبع هذه النماذج العمليات الداخلية للأنظمة الاجتماعية بجمع عدد كبير من الأفراد، وكلٌّ منهم فريد، وله إرادة حرة. كثير من المؤرخين التقليديين والأشخاص العاديين يجدون هذه المقاربةَ خطأً أو حتى مقززة، لأنها تبدو كأنها تنزع الإنسانية عن البشر الحقيقيين. مع ذلك، إذا أردنا أن نفهم الديناميكيات الاجتماعية والتنبؤ بأثر الحلول الممكنة، فعلينا أن نفعل ذلك. لماذا؟ لأنه ينجح.

يتعيّنُ على علماء السكان الذين يعملون لمصلحة هيئات مثل إدارة الضمان الاجتماعي وضع تنبُّؤات حول المبالغ المالية التي ستحتاج إليها الإدارة كلَّ سنة، وفي خمس سنوات، ولوقت أطول في المستقبل أيضاً. إنهم يستعملون نماذجَ تُصنِّف الناس بحسب أعمارهم وضرائب الضمان الاجتماعي التي دفعوها أصلاً. كلُّ شخص فريد، لكنَّ النماذج الديموغرافية دقيقة دقّة لافتة في التنبؤ بما سيحدث لمجموع السكان من المتقاعدين في المستقبل. حين تشتري سيارة، فإن قسط التأمين يُحسَب على أساس خصائصك العامة. إذا كنت ذكراً في العشرين من عمرك، فتوقَّع أن يُفرَض عليك مُعدّل تأمين أعلى. قد يكون هذا غير منصف، لأنك قد تكون سائقاً حذراً على نحو خاص، لكنْ إذا أردت أن تقود سيارة، فعليك أن تدفع. وإذا فُرضت بحقك مخالفة زيادة سرعة، فسيرتفع قسط التأمين. كلُّ حادث مروريّ فريد، لكنّ خبراء التأمين يتمتعون بقدرة كبيرة على معرفة كيفية تحقيق التوازن بين المخاطر بحيث لا تتعرّض شركات التأمين التي يعملون فيها للإفلاس.

يستعمل علماء الكليوديناميكا مقاربةً مماثلة. نعلم أن الأشخاص في مجموعة مُعيّنة (رجال لا يحملون شهادات جامعية، وتقع دخولهم في العشرية الخامسة من

توزيع الأجور) ليسوا متماثلين، لكنَّ نموذجاً يستعمل هذا الافتراض ينجح، تماماً كما تنجح النماذج الديموغرافية والتأمينية.

في الوقت نفسه، لا أريد أن أقصر الأفكار والتبصرات التي أناقشها في هذا الكتاب على تتبُّع قوى اجتماعية غير شخصية فحسب، فالفعل الاجتماعي كله نتيجة لجمع أفعال الأفراد معاً، والقوى غير الشخصية تصوغ حياةَ الأفراد ومواقفهم، ونريد أن نفهم المجتمعات والبشر. ماذا نفعل إذاً؟

تمثّلت المقاربةُ التي اخترتها لهذا الكتاب في تحويل تركيز السرد بين وجهة النظر الفردية وما يحدث على المستوى المجتمعي الكلي، ولهذا فإنّ الفصول الثالث والرابع والخامس تبدأ بقصص قصيرة تتبع فرداً معيناً في شريحة أو طبقة اجتماعية، يعالجها الفصل، وكل فرد خياليّ تماماً، لكنه يستند إلى تجربتي مدّةَ أكثر من أربعة عقود في دراسة المجتمع الأميركي من الداخل (أعتذر إلى قرائي غير الأميركيين، لكنْ يجب أن أكتب عمّا أعرفه معرفةً جيدة). وفي الوقت نفسه، لم أنشأ في هذه البلاد، بالنظر إلى أني هاجرت إلى أميركا لمّا كنتُ في العشرين من عمري، لكنني أجادل في أنّ هذه مزيّة – تماماً كما يتمتع مختص بعلم اجتماع الأجانب يراقب الأرض من (ألفا سنتوري) بمزيّة تحليلية لا يتمتّعُ بها البشرُ الذين يعيشون عصر خلاف، ويتشوش حكمهم بسبب العواطف المنحازة. وأنت، أيها القارئ، ستكون الحكمَ النهائي على (ما إذا كنتُ قد نجحتُ في هذا).

البنية والديناميكيات

إنَّ المجتمعات البشرية من منظور علم التعقيد، أنظمة ديناميكية معقدة، وقد طوَّر العلماء الذين يدرسون مثل هذه الأنظمة مجموعة من الأدوات النظرية التي تسمح لهم بفهم كيفية عمل هذه المجتمعات وتطوّرها، ويوفر هذا الفهم أساساً للتنبُّؤ بشأن المسارات المستقبلية المحتملة، والأكثر أهمية من ذلك، التنبؤ بالاستجابات المحتملة للأنظمة حيال مختلف التدخلات.

وقد أثبت علم التعقيد نجاحه، ونعرف هذا من نجاحاته في فهم الأنظمة البيولوجية (مثل الأنظمة البيئية) والأنظمة الفيزيائية (المناخ العالمي، على سبيل المثال). لم تحرز دراسة الأنظمة الاجتماعية التقدُّمَ نفسَه الذي أحرزته دراسةُ الأنظمة الطبيعية، لكننا نحقق تقدماً كبيراً هنا أيضاً. في هذا الكتاب، أستعمل الأدوات النظرية التي وضعها علماء التعقيد. كيف يعمل ذلك من الناحية العملية؟

السؤال الأول الذي ينبغي لنا أن نطرحه حول أيّ نظام، هو: ما بنيته – تكوينه الداخلي؟ ليست المجتمعات حاوياتِ غازٍ مثاليّ يُحبُّه علماءُ الفيزياء الإحصائيون، فعلى عكس الجزئيات، كلُّ كائن بشري فريد. إضافة إلى ذلك، ينتمي الناسُ جميعاً إلى أنواع مختلفة من المجموعات، ويمكن لتلك أن تنتمي إلى مجموعات أخرى أكبر. يمكننا التفكير في مجتمع ما بوصفه مجموعةً تتكوّن من مجموعات تتكوّن بدورها من مجموعات، فالأفراد الذين ينتمون إلى المجموعة نفسها يمكن أن يتشاطروا مصالح جماعية تجعلُ هذه المجموعة من الأفراد مجموعةَ مصالح، وتتمثل إحدى مجموعات المصالح التي يُركّز عليها هذا الكتاب في النخب الحاكمة، أو "الطبقة الحاكمة". وهؤلاء أفراد يركزون معظم قوتهم الاجتماعية داخل دولة في أيديهم. إنهم الأشخاص الذين يتخذون القرارات على مستوى المجتمع كله في مسائل مثل الحرب والسلام، والسياسات الاجتماعية والاقتصادية، والضرائب وإعادة توزيع الموارد، والتشريع وفرض القانون.

تتفاوت مجموعات المصالح بقدرتها على تحقيق مصالحها الجماعية، ويعود هذا جزئياً إلى مدى السلطة التي يفرضها على نحوٍ منفصل كُلُّ فرد ينتمي إلى هذه المجموعة. على سبيل المثال، فيما يتعلّقُ بالنخب الاقتصادية، نريد أن نعرف ثروةَ شخص (بالنظر إلى أن الثروةَ نوعٌ من السلطة)، وفيما يتعلّق بالنخب العسكرية، مثل طبقة النبلاء القروسطيين، نريد أن نعرف مدى تسليح هؤلاء المحاربين، والدروع التي يمتلكونها، والتدريب الذي تلقَّوه، وحجم الحاشيات التي تحيط بهم، لكنَّ السلطةَ الفردية هي البداية فحسب، إذ إن قوة مجموعة مصالح تعتمد على نحو حاسم على تماسُكها الاجتماعي وتنظيمها السياسي، فإذا عمل أفراد مجموعة كلٌّ لمصلحته الشخصية، أو إذا تصارعَ بعضُهم ضدَّ بعض، فمهما كانت قوة الأفراد، فإنّ القوة الجماعية ستكونُ صفراً. على نحو مماثل، إنَّ العمل الجماعي الفعّال كله يتطلب تنظيماً جيداً، ومن ثم فإن جيشاً منضبطاً وذا هيكلية جيدة سيهزم دائماً محاربين أقوياء بوصفهم أفراداً من الرعاع غير المُنظَّمين، وعلى نحو مماثل، بفضل تنظيمها أصلاً تراتُبيّةً تجاريّةً، فإنّ المديرين يتفوّقون بمزيّة بنيوية على العاملين، ما لم يُنظِّم العمالُ أنفسَهم في نقابة، وإن لم يكن التنظيم كلَّ شيء، فهو أحدُ أهم الأشياء التي تريد أن تعرفها لقياس قوة إحدى مجموعات المصالح.

يُشكّل فهمُ كيفية بنية المجتمع – ماهية مجموعات المصالح المختلفة ومدى القوة النسبية التي يتمتعون بها – الخطوةَ الأولى في هذا النوع من التحليل. يتعلّق السؤالُ الثاني بالديناميكيات. كيف يؤثر تفاعل مجموعات مصالح متنافسة أو متعاونة في التغيير على مستوى النظام بمرور الوقت؟ كيف تتطور مصالح المجموعات وقدراتها النسبية؟ وهنا يكون التاريخ مهماً، فمن أجل الإجابة عن أسئلة مثل "هل هذا المجتمع على حافة الانهيار؟" علينا أن نفهم كيف وصل إلى المرحلة الراهنة من الهشاشة (أو العكس، الاستقرار والصمود). ما النزعات المؤثرة في مصالح المجموعات المختلفة ومستويات قوتها؟ وهل من المحتمل أن تتعرّض لعكس النزعة أو الاستمرار في التطوُّر في الاتجاه نفسِه؟

هذه المقاربة الديناميكية– البنيوية معياريةٌ تماماً في علم التعقيد والأنظمة، وهي جزء مهم من أدوات عدّة للكليوديناميكا، لأنّها تاريخيةٌ صراحةً – وهنا أهمية الجزء المتعلق بالديناميكيات، كما أنها تسمح لنا بتحقيق فهم أفضل لكيفية تجمُّع الأفعال الفردية ووصولها إلى المستوى المجتمعي، لأن الفعل الفردي تُعدِّلُه مجموعات المصالح التي ينتمي إليها الفرد.

دعونا نتحدث الآن عمّا أعنيه بـ "المصلحة". المقاربة التي أتبّعها ماديّةٌ جداً، فهي تفترض أن البشر يريدون تحسين رفاهيتهم. ببساطة، كل شخص (تقريباً) يفضل أن يمتلك المزيد من المال، ومن ثم، يُفضِّلُ العمالُ أجوراً أعلى، في حين أن أرباب العمل يفضلون دفع أجور أدنى، وهذه بداية جيدة، لكننا نحن البشر مخلوقات معقدة، وثمة كثير من التنوع والاختلاف فيما بيننا من حيث قيمنا وتفضيلاتنا، فبعض الناس يُسبغُ قيمةً أعلى على وقت الفراغ، وبعضهم الآخر على المال. بعضهم مدفوع بهواجس مادية صرفة، وبعضهم الآخر يعطي قيماً غيرَ ملموسة مثل الإنصاف والتعاون وزناً أكبر، كما يمكن للناس أن يعملوا أيضاً ضد مصالحهم المادية لأنهم يسيئون فهمها، أو يُضلِّلُهم آخرون مستغلون. إنّ سؤال الناس عن مصالحهم، في استطلاعات الرأي السوسيولوجية، لا ينجحُ دائماً، لأن المجيبين يكذبون في كثير من الأحيان بشأن دوافعهم (حتى بشأن أنفسهم أحياناً). إن عقل الآخر أحجية مُلفّعة بالظُّلمة (على الأقل إلى أن نتعلم قراءة العقول).

لحسن الحظ، إن كثيراً من هذه المشكلات تختفي حين يكون كل ما نحن في حاجة إلى معرفته هو مجموعات المصالح. من المرجح أن تتكون المجموعات الكبيرة بما يكفي من مزيج من الأنماط المختلفة، مع وجود عناصر غيرية وعناصر غير اجتماعية يُلغي بعضُها بعضاً، كما قد يستعمل بعض المجموعات، ولا سيما المنظمة منها، قنوات اتصال داخلية للاتفاق على أهداف مشتركة، ونتيجة لذلك، تتلاقى المجموعات في كثير من الأحيان على قاسم مشترك لهذه المصالح المادية المشتركة.

لكنَّ المصالح المادية لا تقتصر على الرفاه الاقتصادي فحسب، فرجال الأعمال الشماليون في مرحلة ما قبل الحرب، على سبيل المثال، رأوا ثرواتهم تزداد، لكنهم كانوا يفتقرون إلى السلطة التي تمكِّنهم من التأثير في السياسة الوطنية بالاتجاهات التي كانوا يفضلونها (على سبيل المثال، فيما يتعلق بالرسوم الجمركية والتحسينات الداخلية)، ومن ثم فإن مجموعات المصالح قد تشمل أبعاداً اقتصادية وسياسية، وعسكرية أيضاً (الاهتمام بالأمن أو الهيمنة) وأيديولوجية (المحافظة على الشرعية والمكانة). إضافةً إلى ذلك، فإن إحدى المجموعات قد تركز على مصلحتها الضيقة، أو قد تتبنى موقفاً أكثر مناصرةً للمجتمع، مُتّخذةً منظوراً أبعد. على سبيل المثال، يمكن لمنظمات أرباب العمل أن تقاوم مطالب النقابات بأجور أعلى حتى الموت، أو توافق على التسوية، بالنظر إلى فهمها أنَّ دَفْعَ أجور أعلى يرفع من قدرة عمالها الشرائية، وهذا دافع مهم للنمو الاقتصادي، الذي يعود في المحصلة بالفائدة على المجتمع كله. هذه الأزمة بين المصلحة الأنانية قصيرة المدى والمصلحة الواسعة بعيدة المدى حادّةٌ على الطبقات الحاكمة خاصّة، التي قد تُعاقَب أنانيتها حين تنهار كياناتها السياسية.

ويمثل الدافع المتعلق بالهواجس الداعمة للمجتمع أحدَ الأسباب الممكنة لعدم قيام إحدى المجموعات بالدفع من أجل مصالحها الضيّقة، ويتمثل سببٌ آخر لعدم قيام مجموعات بالعمل طبقاً لمصلحتها في أنها تُصرَف عن ذلك بسبب البروباغاندا الفعّالة. مثال على هذا، نُوقشَ كثيراً، وإنْ كان لا يزال إشكالياً، يمكن أن نجده في كتاب **ما مشكلة كنساس؟ كيف كسب المحافظون قلبَ أميركا؟** (*What's the Matter with Kansas*?: *How Conservatives Won the Heart of America*)، الذي يشرح فيه توماس فرانك (Thomas Frank) السبب الكامن وراء تصويت العمال الأميركيين ضد مصالحهم الاقتصادية.

وهذا يأخذني إلى القضية الأخيرة التي علينا تسويتها، وهي الكذب. موقفي العام هنا أنّهُ ما دمنا نفتقد إلى تكنولوجيا لقراءة العقول، فإن الدوافع "الحقيقية" للناس غير معروفة. مرة أخرى، إنّ عقلَ الآخر أحجيةٌ مُلفَّعةٌ بالظلام. لحسن

الحظ، إنّ "عقل الجماعة"، وهي عملية اتخاذ القرار جماعياً، يمكن معرفته، وهذا ما يهمنا فعلياً، فعقول المجموعات تتكوّن نتيجة النقاشات الجماعية والتوصُّل إلى إجماع يمكن الإصغاء إليه (على عكس العقل غير المقروء)، ويتركُ الوصولُ إلى برنامج عمل مشترك في كثير من الأحيان آثاراً مادية، مثل محضر اجتماع ووثائق برامجية. من المُؤكَّد أنّ بعضَ المجموعات سريٌّ جداً بشأن عملياته الداخلية في اتخاذ القرارات، وهنا يصبح دور المُبلغين مثل جوليان أسانج (Julian Assange)، وإدوارد سنودن (Edward Snowden)، جوهرياً للباحث في علم اجتماع السلطة.

حين نفتقر إلى مثل هذه المعلومات الداخلية، فإننا نعود إلى استخلاص أجندة مجموعة ما من تبعات أفعالها، لكنْ براغماتياً، من الجيد أن تكون البداية بافتراض أن مجموعة من المجموعات ستسعى لتحقيق المصالح المادية لأفرادها، وأولئك الذين يدَّعون غير ذلك – أن المجموعة تعمل لمصلحة المجتمع، ولمصلحة مجتمع أكبر، أو للبشرية بأسرها – ينبغي لهم أن يمضوا إلى أبعد من ذلك لإثبات أنها لا تُلقِّمنا وجبةً كبيرة من الهراء. وعلى نحو مماثل، حين تعمل مجموعة ما ضدَّ مصالحها لأنَّ أفرادها مضلَّلين بسبب البروباغاندا – مرة أخرى، نحن في حاجة إلى الأدلة الداعمة لهذا الادعاء. قد يبدو هذا الموقف لقرّائي كلبياً (cynical)، لكنني أعتقد أنه ينجح بوصفه أجندةً بحثية. لا أدّعي أنّ الناس يعملون دائماً لمصلحتهم. (كتبتُ كتاباً كاملاً حول هذا، *Ultrasociety*.)، لكنْ عند دراسة مجموعات المصالح (وليس الأفراد)، ولا سيما النخب، فتلك هي مُقاربتي التي أتبنّاها في هذا الكتاب.

فهرس

الصفحة

تمهيد ٧

الجزء الأول

كليوديناميكا السلطة ١٣

الفصل الأول: النخب، الإفراط في إنتاج النخب، والطريق إلى الأزمة ١٥

الفصل الثاني: لنأخذ خطوة إلى الوراء: دروس التاريخ ٤٥

الجزء الثاني

القوى الدافعة إلى عدم الاستقرار ٧٥

الفصل الثالث: الفلاحون يثورون ٧٧

الفصل الرابع: القوات الثورية ١٠٩

الفصل الخامس: الطبقة الحاكمة..... ١٣٧

الفصل السادس: ما الذي يجعل أميركا بلوتوقراطية؟ ١٦٩

الجزء الثالث

الأزمة وتداعياتها ١٩٣

الفصل السابع: انهيار الدولة ١٩٥

الفصل الثامن: تواريخ المستقبل القريب ٢٢٧

الفصل التاسع: مضخة الثروة ومستقبل الديمقراطية..... ٢٦٣

ملحق ٢٨٥

الفصل آ١: علم تاريخ جديد ٢٨٧

الفصل آ٢: ماكروسكوب تاريخي ٣١١

الفصل آ٣: مقاربة الديناميكية البنيوية ٣٣٩

الفهرس ٣٤٩

بيتر تيرشن

- بيتر تيرشن عالم روسي- أميركي، قائد مشروع "التعقيد والانهيار الاجتماعيين في مركز علم التعقيد في فيينا، وأستاذ متقاعد شرف في علم الأحياء النشوئي في جامعة كونيتيكت، وزميل أبحاث مشارك في كلية الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد.
- أحد مؤسسي منهج "الكليوديناميكا" (cliodynamics)، المنهج متعدد الاختصاصات الذي يدمج التطور الثقافي، والتاريخ الاقتصادي، وعلم الاجتماع العام، والنمذجة الرياضية للعمليات التاريخية على مدى مدة طويلة من الزمن، وبناء قواعد البيانات التاريخية وتحليلها.
- مُؤسّس الدورية الأكاديمية **كليوديناميكا: دورية التاريخ الكمي والتطور الثقافي** ورئيس تحريرها (*Cliodynamics: The Journal of Quantitative and History Cultural Evolution*).
- مدير معهد التطور النشوئي في فلوريدا.
- نشر أكثر من ٢٠٠ بحث علمي (أكثر من عشرة منها في مجلّتَي *Nature* و*Science*، وأكثر من ثمانية كتب، منها:
- **عصور الخلاف: دراسة بنيوية ديموغرافية للتاريخ الأميركي.** بيريستا، ٢٠١٦.
- (مع سيرغي نفيدوف) **دورات مئوية.** مطبعة جامعة برينستون، ٢٠٠٩.
- **الحرب والسلام والحرب: صعود الإمبراطوريات وسقوطها.** بنغوين/راندوم هاوس، ٢٠٠٦.
- **الديناميكيات التاريخية: لماذا تصعد الدول وتسقط؟** مطبعة جامعة برينستون، ٢٠٠٣.

نايف الياسين

نايف الياسين مترجم وأستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق. حاصل على شهادتَي الماجستير والدكتوراه في الأدب الإنكليزي من جامعة إيست آنغليا البريطانية. شغل منصب عميد المعهد العالي للغات، وقبله رئيس قسم تعليم اللغة الإنكليزية في المعهد نفسه. يشغل الآن منصب المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب.

ترجم عدداً من الكتب، منها:

- **السرب البشري.** تأليف مارك موفيت. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٢٤
- **قدوم الإقطاع الجديد.** تأليف جويل كوتكين. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣.
- **المخطط الوراثي.** تأليف روبرت بلومين. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٢٢.
- **محتوى الشكل.** تأليف هايدن وايت. المنامة: هيئة البحرين للثقافة والآثار، ٢٠١٧.
- **أين ذهب كل المثقَّفين؟** تأليف فرانك فوريدي. الرياض: العبيكان، ٢٠١٠.
- **متعة المتخيَّل: مقابلات مع كتّاب عالميين.** دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٩.

٢٠٢٤م

منذ أكثر من ربع قرن من الزمن، يدمج بيتر تيرشن، أحد أهم علماء الاجتماع في عصرنا، في دراسة التاريخ مناهج ورؤى من مجالات أخرى. وكتابه هذا تتويج لعمله الذي يهدف إلى فهم العوامل التي تسبب تماسك المجتمعات، وما الذي يسبب انهيارها، ومدى انطباق ذلك على الاضطرابات التي تشهدها الآن الولايات المتحدة الأميركية.

يجادل تيرشن أن دروس تاريخ العالم واضحة؛ فعندما يميل التوازن بين النخب الحاكمة والأغلبية على نحو مفرط لصالح النخب، يصبح عدم الاستقرار أمراً لا مفر منه. فمع تصاعد تفاوت الدخول، وتدفق الرخاء تدفقاً غير متناسب إلى أيدي النخب، يعاني عامة الناس، وتصبح الجهود التي تبذلها مختلف شرائح المجتمع للانضمام إلى النخبة محمومة أكثر من أي وقت مضى. ولمَّا كان عدد المواقع المتاحة في صفوف النخبة يبقى ثابتاً نسبياً، فإنّ الإفراط في إنتاج النخب يؤدي حتماً إلى شعور الطامحين للانضمام إلى صفوف النخبة بالإحباط. ولذلك يلجأ هؤلاء إلى تسخير الاستياء الشعبي لمساعدتهم في الانقلاب على النظام القائم. تُظهر نماذج تيرشن أنه عندما تصل المجتمعات إلى هذه الحالة، تصبح حبيسة دوامة يصعب الخروج منها.

www.syrbook.gov.sy
syrbook.dg@gmail.com
هاتف: 3329815 - 3329816

ISBN 978-9933-0-1724-8

46500 ليرة سورية أو مايعادلها

مطابع الهيئة العامةالسورية للكتاب

2024